مذكراتي ومختاراتي

محسن بن علوي السقاف

السيرة الذاتية

جمعها ابنه

علي بن محسن السقاف

قبة سيّدنا
سلطان الملأ
العيدروس

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكراتي ومختاراتي

مُذكرات ومُختارات

السيد محسن بن علوي السقاف

جمع ابنه

الدكتور علي بن محسن السقاف

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كتبت هـٰذه السيرة بنفسي ، وأعانني علىٰ تسجيلها ابني الدكتور علي محسن وفقه الله وأعانه . . وأنا أستهدف بها أمرين :

الأول : أن يتعرف قارؤوها علىٰ صراع أحد أبناء حضرموت ومكافحته مع الحياة من أجل لقمة العيش .

الثاني : أن يستفيد القارىء مما صادفته من تجارب وخبرات ؛ لتكون له عوناً في مشوار حياته .

محسن بن علوي السقاف

تَعرِيف

كان وجودي في (١٣) رجب من سنة (١٣٤٠هـ) وقد سماني باسمي الحبيب مصطفى المحضار أثناء زيارته الأولىٰ لجدي عبد الله بن حسين ، وذلك تبركاً باسم جدي العظيم المحسن بن علوي ، وكنا نتبرك بتسمية الحبيب مصطفى المحضار ؛ لأنه رجل ولاية وصلاح ، وقد وافقت أبنائي علىٰ طلبهم تسجيل ما زلت أتذكره من ذكرياتي ؛ رغبة مني في أن أقدم لهم مثلاً يحتذون به في صراعهم مع الحياة في طلب لقمة العيش ؛ حتىٰ لا يصيبهم اليأس والوهن عند أول عقبة تعترض طريقهم ، وأحب أن أقول عن نفسي ما قاله عن نفسه جدي العظيم محسن بن علوي :

أنا محسن اسماً ولست بمحسن   عملاً لكثرة زلتي وعثاري
لٰكن لي ظناً جميلاً بخالقي   في ستر زلاتي وجبر عواري

وأعتقد أن ما صادفته في حياتي من حفظ وتوفيق وتيسير . . هو ثمرة محافظتي علىٰ مبادئي التي لا أحيد عنها ، وهي : الاستقامة ، وبر الوالدين ، والصدق في القول والعمل ، وحب الخير ، والتطوع بعمله للغير ، ثم نفع الناس حسب ما تيسر وعدم التأخر عن خدمة الآخرين عند طلبها ، وهٰذه هي المبادىء التي أتمنىٰ أن يلتزم بها أبنائي وأحفادي طيلة حياتهم .

مُحسِن عَلَوي السَّقَّاف
جدة / صفر (١٤٢٥هـ)

المقدّمة

الوالد محسن علوي السقاف في شبابه

لقد كنت أتمنىٰ منذ فترة طويلة أن أتمكن من كتابة مذكرات سيدي الوالد محسن ؛ حتىٰ لا يضيع علىٰ جيلنا كنز ثمين من التجارب المهمة والخبرات المفيدة ، وقصص الصراع مع الحياة ، والنجاح والفشل ، والجوع والشبع ، والخوف والأمن ، والمسرات والمنغصات ، مما سيكون في غاية الفائدة لمن يقرؤها . . ومرت سنوات عديدة دون أن تواتيني الفرصة لأقوم بهٰذا العمل الهام ، والذي بدأت فيه في شهر صفر من عام (١٤٢٤هـ) بعد أن شاخ سيدي الوالد ، وبدأ ينسى التفاصيل ، ويسهو عن التواريخ . إلا أنني حرصت ـ على الأقل ـ علىٰ تسجيل ما تبقىٰ في ذاكرته من هٰذه الأحداث والقصص

والحكايات. . لقد تميز سيدي الوالد بذكاء حاد ، وحافظة قوية ، ودعابة محببة ، ونكت مؤدّبة ، وسرعة بديهة ، وكان شاعراً وأديباً ورجلاً حكيماً .

وكان لا يبخل علىٰ أحد برأيه ومشورته ، فيعطي الرأي السديد لطالبه ، ويوجه بالتوجيه الصحيح لسائله ، وكان كريماً في عطائه ، شهماً في طبيعته ، أميناً في معاملته ، نزيهاً في عمله ، لا يتأخر أبداً عن خدمة ، ولا يتراجع عن مساعدة ـ لمن عرف ولمن لم يعرف ـ علىٰ حساب راحته ووقته وبيته ، وإن كلفه شخص بمهمة. . بادر بإنجازها ومتابعتها ، وحرص علىٰ تنفيذ كافة تفاصيلها ، وتابعها متابعة متواصلة حتىٰ ينجزها ، وقد لا يهتم هٰذا الشخص بقضيته اهتمام والدي بها ، وكنت أرافقه في بعض الأحيان لبعض هٰذه الأعمال التي يوكل بإنجازها دون مقابل في أغلب الأحيان ، فينتابني التبرم والملل ، خصوصاً إذا اقترب وقت الغداء ، بينما يستمر الوالد في متابعته للعمل دون كلل أو ملل ، ودون أن يهتم بمرور الوقت وحلول موعد الغداء .

وإذا أساء إليه أحد. . نسي الإساءة وغفرها ، ولم يحاول أبداً الانتقام لإساءة الآخرين ولا لأذيتهم ، وكان محباً لإخوته وأقربائه ، حريصاً علىٰ أمور حياتهم ومعاشهم ، ولم يبق في اعتقادي أحد من أقربائه ومعارفه إلا وقد شمله السيد الوالد برعايته واهتمامه ، سواء كان ذلك في عمله أو إقامته أو معاشه وكان لا يتأخر عن تقديم العون والمساعدة لأي شخص استعان به ، عرفه أو لم يعرفه ، أحبه أو لم يحبه ، فيقدم له ما يستطيع تقديمه من جاهه وجهده وماله. . وقد سعىٰ سيدي الوالد السعي الحثيث ، وعمل العمل الدؤوب ؛ حتىٰ تحصل لأخيه الدكتور عبد الرحمٰن على الجنسية السعودية ، وبذل من وقته وجهده وأعصابه في ذلك الشيء الكثير ، دون أن يشعر أخوه بذلك ، بل كان أخوه يستبطىء هٰذا الأمر ، ويكرر على والدي رغبته في ترك الجنسية والعودة لليمن إذا لم تنته معاملة الجنسية بسرعة ، كما سعىٰ سيدي الوالد في الحصول على الفيزا والإقامة لكثير من أقاربه ومعارفه وأصدقائه ولكثير ممن لا يمتون له بصلة ، وما زال حتىٰ بعد أن ضعف وشاخ يواصل المساعدة في هٰذه الأمور

ويعطيها الكثير من وقته وتفكيره ، ويصرف من ماله الكثير علىٰ قرابته بالسعودية وحضرموت ، ويجري لهم الرواتب الشهرية والمخصصات السنوية ، ونبراسه في حياته بيت من أبيات الشعر للجد عبد الرحمـٰن بن عبيد الله علقه علىٰ جدار مكتبه وأخذ يردده دائماً لأولاده ؛ ونصه :

مـا شئتَـه مـن ربـك افعـل مثلـه   لعبـاده فكمـا تَـديـن تُـدان

وكان والدي باراً بوالديه ، لا يرد لهما طلباً ، ولا يتأخر لهما عن رغبة ، وقد خدم والده طيلة حياته ، وكان بجانبه عندما مرض مرض الموت ، فعالجه بالمستشفى الوطني بجدة ، ولما لم يستفد من هـٰذا العلاج . . نقله إلىٰ مصر ، وما زال بجانبه بالمستشفىٰ حتىٰ لقنه الشهادتين ومات بين يديه ، وهو راض عنه ، وكان ينوي أن ينقل والده ليدفن بحضرموت ، لولا أن والده يرحمه الله أشار عليه بدفنه حيث يموت ، واستمر باراً بوالدته خديجة خدوماً لها ، عطوفاً عليها حتىٰ توفيت في جدة وهي راضية عنه تمام الرضا ، فدفنها بمكة إلىٰ جوار السيدة خديجة الكبرىٰ ، وكان سيدي الوالد شديد الاهتمام بتنشئة أولاده وتعليمهم ، فأنفق عليهم من ماله وفكره الكثير ، حتىٰ نالوا الشهادات العالية ، وتبوؤوا المناصب الممتازة ، فزوجهم علىٰ نفقته ، وأسكنهم في بيته دون أن يطلب منهم جزاء ولا شكوراً ، ثم بنىٰ لهم بيوتهم ، وما زال يمدهم بمشورته ومعاونته في جميع شؤونهم الكبيرة منها والصغيرة . . وأذكر أنه لما توفي الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري جعل سيدي الوالد وصياً علىٰ ماله وأهله ، فأعطىٰ والدي هـٰذا الأمر جلَّ اهتمامه ، وقام بحصر التركة وحل ما ظهر معها من مشاكل ، ثم تولىٰ توزيعها بين زوجته وإخوانه ، واختار أرضاً بتريم وأشرف علىٰ تصميم وتنفيذ الدكاكين التي أوصىٰ بها السيد محمد الشاطري وقفاً علىٰ طلبة العلم ، وقد زار الوالد موقع البناء عدة مرات ، وأشرف علىٰ كافة تفاصيله .

وكان سيدي الوالد شهماً في معاملته ، وفياً لأصدقائه ومعارفه ، وأذكر أنه لما غادر صديقه القديم السيد علي بن سميط حضرموت هارباً من الحزب الشيوعي . . استقبله والدي في بيته ، وأنزله ضيفاً بدارنا ، مع صعوبة ذلك ،

ومكث معنا أشهراً طويلة ، حتىٰ تمكن سيدي الوالد من ترتيب أموره وتأسيس عمله وإحضار أهله ، حتى اطمأن على استقراره مع أهله بجدة ، ولما أراد السيد علي بن سميط في الفترة الأخيرة أن يبني له داراً بجدة . . استعان بالوالد الذي شاخ وانحرفت صحته ، فلم يتأخر سيدي الوالد عن مساعدته ، وخاطب المقاول وشدد عليه حتىٰ قبل بتقسيط التكاليف علىٰ فترة طويلة ، ثم راجع سيدي الوالد الخرائط الهندسية للمشروع ، وزار موقع البناء عدة مرات .

وقد خدم والدي جميع أصدقائه القدامىٰ ، وكان في خدمته لهم مخلصاً أميناً ومشفقاً رحيماً ، وكان دائم السؤال عن أخبارهم وأحوالهم .

وكان شديد المحبة والتقدير للسيد عبد القادر بن محمد السقاف (أبو علوي) ، وللعم علي بن عبد الله السقاف ، وللحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف ؛ حيث تربطه بهم جميعاً منذ الصغر وشائج المحبة والقربىٰ ، وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأنني لم أسمع في حياتي بشخص أفاد الناس وخدمهم كسيدي الوالد ، ولم يكن يطلب بعمله وخدمته إلا وجه ربه ورضاه ، وكان سيدي الوالد أديباً موهوباً ، وشاعراً مرموقاً ، وقد حباه الله بذكاء مفرط ، وفهم ناصع ، وحافظة قوية ، وكان يمكن أن تؤهله هـٰذه الصفات لصفوف العلماء الكبار الذين ولدوا بحضرموت ؛ من أمثال العلامة الجد ابن عبيد الله ، والعلامة علوي بن طاهر الحداد ، والعلامة أبي بكر بن شهاب ، لولا أن سيدي الوالد نشأ وترعرع في حضرموت في غياب والده العالم والفقيه الجد علوي بن عبد الله ، الذي كان مهاجراً بإندونيسيا .

ولما قرأت ترجمة الجد علوي لوالدي في كتابه « التلخيص الشافي » . . لمست بين ثنايا السطور ما يوحي بندم الجد علوي على ابتعاده عن حضرموت في الفترة التي كان فيها أولاده يحتاجون فيها لعلمه ورعايته ، غير أن الجد علوي كان مضطراً للتغرب والهجرة لإعالة أهله وصلة رحمه . ثم لما قضى غرضه من الهجرة عاد وأقام بحضرموت .

وقد تفرغ والدي في السنوات الأخيرة لأعمال البر والخير ، فتولىٰ عمارة

وتجديد مسجد عيديد بتريم ، كما شارك في الكثير من المشاريع الخيرية الأخرىٰ ، وأنشأ علىٰ نفقته الخاصة مستوصف عيديد الخيري بتريم ، وجهَّزه بالأجهزة الحديثة ، وتولى الإنفاق والإشراف عليه ، وأوقف عليه من ماله ما يضمن له الاستمرار في تقديم خدماته بإذن الله ، ولم يفرح الوالد بشيء قدر فرحه بهٰذا المستوصف ، والذي استمر يتابع أعماله ويحل مشاكله بشكل شبه يومي ، سواء بالهاتف أو الفاكس أو بالزيارات القصيرة المتكررة لتريم ، والتي كان يحرص على القيام بها بين الوقت والآخر للإشراف على المستوصف ومتابعة أموره ، كما بدأ الإعداد مؤخراً لإنشاء المستشفى الخيري بتريم .

وكان يأتي معه في كل زياراته لحضرموت بالمبالغ المالية الكبيرة ، التي يحرص علىٰ توزيعها مباشرة علىٰ جميع من يقصده من الفقراء والمحتاجين ، خصوصاً في أوقات الأعياد ورمضان ، رغم ما يسببه له ذلك من المشقة والتعب ، كما أنه لا يبخل بماله علىٰ من يقصد مكتبه بجدة من الفقراء وذوي الحاجات ، فيساعدهم بما يستطيع .

وقد كلف أحدُ الأثرياء الحضارم سيدي الوالدَ بالإشراف علىٰ حفر بئر ارتوازي بقرية نائية بحضرموت ، لا يصلها الماء العذب ، فقام الوالد بهٰذا العمل علىٰ أحسن ما يكون ، وذهب بنفسه إلىٰ هٰذه القرية النائية رغم ضعفه وشيخوخته ، ورغم وعورة الطريق ، ورتب جميع الأمور ، ثم استحصل للمشروع علىٰ مضخة مياه بسعر التكلفة رغم ثراء موكله ، وأرسلها إلىٰ حضرموت ، وواصل متابعة المشروع حتىٰ تم إنجازه علىٰ أكمل وجه .

ولم تحوِ هٰذه المذكرات إلا القليل مما استطعت تسجيله من الأحداث والمواقف التي مرت بسيدي الوالد خلال تاريخه الحافل الطويل ؛ إذ لا تكفي الأسفار العديدة لتسجيل قصص وفائه وأخبار شهامته وإنجازاته وكرمه ووفائه وإخلاصه وتفانيه في كل ما يوكل له من أعمال ، وما يكلف به من مهمات ، فما ورد في هٰذه المذكرات ما هو إلا قطرة من بحر .

وسيدي الوالد بسيط في حياته وتعامله ، لا يحب التكلف ولا الإسراف

والتبذل ، ولا يحب المال أو يطلبه إلا ليعينه على البر والخير ، ولا يحب في ملبسه ومسكنه إلا البسيط المريح ، وهو منظم في جميع أموره ، فيضبط أوراقه ومستنداته ويرتبها ويصنفها ؛ حتىٰ يستطيع أن يجدها بسهولة متىٰ أراد ، وإذا صاغ عقداً أو وثيقة . . لم يترك فيها أي ثغرة للخلاف مهما طال الزمن أو قصر .

ويبدأ سيدي الوالد يومه بعد صلاة الفجر بتلاوة القرآن الكريم ، ويتناول أثناء قراءته القرآن الحبة السوداء مع العسل المذاب ، ويدعو أثناء شربه العسل بهذا الدعاء : (اللهم هـٰذا كتابك ، وهـٰذا عسلك ، وضعت فيهما الشفاء . . فاشفني) ، وبعد الانتهاء من ذلك يبدأ بقراءة أوراد الصباح ، ثم يؤدي بعض التمارين الرياضية البسيطة ، ويقوم بعد ذلك بتحضير فطوره بنفسه ، والمكون من بيضة نصف مسلوقة مع قليل من الخبز ، وقهوة كوبتشينو جاهزة التحضير ، ويحرص أثناء فطوره علىٰ سماع الأخبار من لندن وأقوال الصحف .

وإذا انتهىٰ من فطوره . . قام بالقراءة أو بأداء بعض الأعمال الكتابية أو المكالمات الهاتفية ، ثم يدخل الحمام ويغتسل ، وبعد ذلك يركع الضحىٰ ثم يلبس ثيابه ويذهب لمكتبه ، وكان لا يغير هـٰذا الروتين حتىٰ في السفر ، إلا أنه قد يمتنع عن الذهاب للمكتب في السنوات الأخيرة إذا لم تساعده صحته علىٰ ذلك .

ويستحث سيدي الوالد أولاده على الصدقة وبر الأرحام ، ويردد عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصدقة مثراة في الأموال ، منسأة في الآجال » .

وحتىٰ تعم الفائدة من هـٰذه المذكرات . . فقد أضفت لها بعض المختارات المفيدة مما كان سيدي الوالد يسجله من الفوائد أثناء قراءته للقرآن الكريم وكتب التفسير والحديث ، ومن كتب الأدب وأخبار السلف ، ومما يسمعه من الفوائد ومجامع الكلم ، وأرجو أن يكون في عملي هـٰذا النفع والفائدة .

هذا ؛ وبعد الانتهاء من هذه المقدمة أهدى الشاعر المشهور ، حسن عبد الله باحارثة الأبيات التالية للوالد ، والتي وجدت أنها تلخص ما ذكرته في مقدمتي بطريقة مختصرة ورائعة :

الحمد لك والشكر يا معبود يا رب البريهْ
ٱغفر لنا وٱلطف بنا وٱسقنا شربهْ هنيهْ
كرر صلاتي عالنبي ليلي وصبحي والعشيهْ
أهدي لمحسن علوي السقاف شكري والتحيهْ
أبو علي لي يسقي ٱضيوفه عسل صافي بغيَّهْ
من الرجال الأوفياء أهل الصفوف الأوّليّهْ
من فاعلين الخير ليهم عندهم طيبه ونيَّهْ
لَعْمال بالنيّات يا سقاف والنيَّه مطيَّهْ
تشهد لكم سيئون والغناء وٱصحاب العنيّهْ
بعض المشاريع ٱنتهت وبعضها مستقبليهْ
ومعك عيالك أربعه أصحاب لوجوه الرضيهْ
ونخص علي محسن وله في الطب شهره عالميهْ
دكتور متميز ويتمتع بشعبيه قويهْ
بداية الموضوع ذي وعاد للقصه بقيهْ
والسيرة الذاتيه إللّي باتكون المرجعيهْ

عَلِيّ مُحْسِن عَلَوِيّ السَّقَّاف
جدة ربيع الأول (١٤٢٧هـ)

التعريف بنفسي وعائلتي

مع والدي بجدة عام ١٩٦٨

كان مولدي بمدينة سيؤن من حضرموت في (١٣) رجب من سنة (١٣٤٠هـ) وقد سماني باسمي الحبيب مصطفى المحضار ؛ إذ صادف مولدي زيارته الأولىٰ لجدي عبد الله بن حسين بن محسن السقاف بسيؤن ، وذلك تيمناً باسم جدي العظيم : محسن بن علوي ، ونحن نتبرك بتسمية الحبيب مصطفى المحضار ؛ لأنه معروف بالولاية والصلاح .

ووالدي يرحمه الله من رجال العلم والدين والقضاء ، وقد أجمع أهل عصره علىٰ أنه الثاني في الفقه بعد مفتي حضرموت العلامة ابن عبيد الله .

واعتنى الجد عبد الله بتدريس والدي وتهذيبه ، وكلف الشيخ العلامة الفقيه عمر عبيد حسان بتدريسه الفقه ، فقرأ عليه في « مختصر بافضل » و« العدة » و« المنهاج » وعلم الفرائض .

كما درس والدي علىٰ يد العلامة الشيخ محمد بن محمد باكثير الفقه والنحو والمنطق والبيان ، وكان يقضي أغلب وقته في القراءة والتحصيل مع والده ، حتىٰ في المجالس العائلية الخاصة ، فقرأ علىٰ والده كثيراً من كتب الفقه والسيرة والحديث وكتب التصوف وتراجم السلف ، وكُتُبَ الإمام الحداد كلها ، وكان يكتب لوالده بخط يده ما لا يوجد عندهم من الكتب ، ثم يقرؤه عليه ، ولم يفارق والدي والدَه طيلة حياته ، ثم لما رأىٰ صعوبة عيش والده رغب في مساعدته ، وطلب من والده الإذن بالسفر ، فلم يأذن له ؛ لاعتماده عليه ، وقال له : لو باتحصل ملايين ما تفيدك ، وأما بعد موتي فحبلك علىٰ غاربك .

ولما رأى الجد عبد الله بن حسين ما عليه والدي من الحرص على العلم والاهتمام بالتحصيل . . قرر تفريغه للعلم ، فجلس في حلقة الدرس بمسجد طه ، ولم يبلغ بعد الثمانية عشر سنة من العمر ، ولما وصل الخامسة والعشرين . . أصبح معدوداً من رجال القضاء الأربعة بسيؤن ، وكان الوالد ابن عبيد الله يحب والدي ويسميه بالولد الفقيه .

واستمر نشاط والدي المتواصل في التدريس بحلقات مسجد طه وبمدرسة النهضة العلمية بسيؤن حتىٰ غادر البلاد بعد وفاة والده بسنتين ، وذلك في سنة (١٣٥١هـ) قاصداً الحرمين لأداء فريضة الحج وزيارة المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، ومنها سافر إلىٰ إندونيسيا حيث استقر بمدينة الصولو وعمل وتزوج بها ، وكانت جاوة مزدهرة في تلك الفترة برجالات العلم والفضل والصلاح ، فزاول والدي فيها بعض أسباب التجارة لكسب العيش وصون النفس عن الحاجة للناس ، كما استمر مشاركاً في مجالس العلم وحلقات الذكر ، واستفاد منه الناس في تلك البلاد .

أما قصة مولد والدي فهي كالتالي : فقد تزوج الجد عبد الله بن حسين السقاف بابنة السيد حسين بن عمر السقاف ، إلا أنه بلغ الخمس وعشرين سنة ولم ينجب منها ، فتزوج سراً أم والدي الحبابة نور بنت الشيخ الفاضل طه بن عبد الله باحميد ، فحملت منه بوالدي ، وكانت ولادته يوم الجمعة (٢٢) جماد الآخر من عام (١٣١٥هـ) الموافق (١٩) نوفمبر (١٨٩٧م) .

وكبر والدي ونشأ في بيت أخواله آل باحميد ، ولم يكن أحد يعرف والده حتىٰ صار يلعب مع أقرانه بالشارع ، ثم توفيت والدته وسنه اثنا عشر سنة ، فانتقل من بيت جده الشيخ طه باحميد إلىٰ بيت والده القريب من مسجد طه .

وتزوج الجد عبد الله بعد وفاة أم والدي من الشريفة عائشة بنت السيد محمد بن طه السقاف ، وهي من مواليد جاوة ، وقد أحضرها والدها معه إلىٰ حضرموت ، وزوجها الجد عبد الله ، فأنجبت له أربع بنات هن العمات : رقوان وعلوية وخديجة وفاطمة التي توفيت مبكراً وخلفت لأخواتها ابنتها هودانة ، ثم توفيت الشريفة عائشة فتزوج الجد عبد الله شقيقتها الخالة فطوم ، وهي أيضاً شقيقة والدتي خديجة ، وقد أنجبت الخالة فطوم لجدي عبد الله الأعمام : علي وأحمد وحسين وبنتان ؛ هن العمات : شيخة ونور .

وزار الجد عبد الله بن حسين إندونيسيا عام (١٣١٦هـ) وقضىٰ بها حوالي السنتين ، وتزوج بإشارة والده المقيم بجاوة ، وحملت زوجته بالعم محمد بن عبد الله بن حسين ، والذي يلي والدي في العمر ، وكانت ولادته في سنة (١٣١٨هـ) ببلد قرنتالو بإندونيسيا .

ولما بلغ العم محمد بن عبد الله بن حسين من العمر إحدىٰ عشر سنة . . خرج إلىٰ حضرموت ليتربىٰ علىٰ والده ، فرباه وعلمه ، ثم زوجه بحضرموت ، ولما أولد استأذن والده في العودة إلىٰ إندونيسيا لرؤية والدته ، فعاد إلىٰ جاوة واستقر مع عائلته بالصولو ، وأنجب أربع أبناء ولم يعد لحضرموت إلا للزيارة في عام (١٣٥٦هـ) ، وقد توفي بجاوة .

ولما فكر والدي أن يخطب لي ابنة الوالد ابن عبيد الله بعد عودتي معه من إندونيسيا في عام (١٣٥٧هـ) اعترض بعض أقاربنا علىٰ ذلك ، ومنهم الخال عبد الرحمـٰن بن محمد بن طه ، والذي كان الوالد يحترم رأيه وينفذ مشورته ويقول عنه : (ما بدىٰ شاورنا عبد الرحمـٰن في أمر إلا ووجدنا أن رأيه هو الصحيح) ، إلا أن العم محمداً أصر علىٰ مصاهرة ابن عبيد الله ، وأقنع والدي بذلك ، فخُطبت لي السيدة طلحة بنت الوالد عبد الرحمـٰن بن عبيد الله لتكون شريكة عمري وأم أولادي .

منزل الجد علوي بسيؤن المسمىٰ روضة وقد هدم مؤخراً

أما إخوة والدي الآخرين.. فهم : **العم علي بن عبد الله** ، الذي يحبه والدي كثيراً ويقدره ويحترمه ، ويعتبره صديقه ومستشاره رغم فارق السن بينهما .

وقد عشت مع العم علي في حضرموت ثم في جدة عيشة الأخ مع أخيه ، فلا نفترق إلا في السفر أو المرض .

وقد ولد العم علي بن عبد الله بسيؤن عام (١٣٣٦هـ) وأدرك من حياة والده نحواً من ثلاثة عشر سنة ، ويقول عنه والدي : إنه أشبه إخوته بسيدي الوالد في عقله وحلمه واحتماله وعطفه ، يستعين الناس به في قضاء حوائجهم المتعلقة بالمحاكم الشرعية ، فيقضيها لهم بكل سهولة ويسر ، وكان مخلصاً

متفانياً في عمله ، وقد بنىٰ من خالص ماله مسجداً بسيؤن بقرب داره تقام فيه الجماعات وصلاة التراويح في رمضان ، ورتب فيه درساً أسبوعياً ، وقد انتقل العم علي بعد ذلك مع عائلته إلى السعودية واستقر بها ، واستمر يكرم المسافرين والضيوف ويعين المحتاجين ويحضر الجلسات العلمية ويشارك فيها ولا يتخلف عن جلسة الجمعة التي أسسها الوالد بدار آل ابن طه بجدة ، ويتولىٰ فيها التقرير مع الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري ومن يحضر من علماء حضرموت ، واستمر علىٰ هـٰذه الحال حتىٰ وفاته ، وقد توفي بجدة ودفن بمكة .

أما العم أحمد بن عبد الله السقاف فقد ولد وعاش بحضرموت ، ثم سافر إلىٰ جاوة في أوّل عام (١٣٥٦هـ) ، وكنت رافقته في هـٰذه الرحلة التي قمت بها وسنّي لم يتجاوز سبعة عشر سنة ، وهو يكبرني بسنة واحدة ، وكان معنا أيضاً في هـٰذه الرحلة الخال عبد الرحمـٰن بن محمد بن طه السقاف ، والعم محمد بن عبد الله السقاف ، وقد فصلت هـٰذه الرحلة في مكان آخر من هـٰذه المذكرات .

وقد عدت مع والدي إلىٰ حضرموت في آخر عام (١٣٥٧هـ) بعد أن مكثت بجاوة حوالي التسعة أشهر ، أما العم أحمد فلزم جاوة ولم يغادرها حتىٰ توفي بها ، ولم يخرج إلىٰ حضرموت إلا للزيارة في عام (١٣٨١هـ) ، وذلك بعد أدائه فريضة الحج وزيارة المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم .

أما أصغر أعمامي سناً فهو العم حسين ، وقد قضىٰ أغلب حياته موظفاً بالرياض ، ثم انتقل في أواخر حياته إلىٰ جدة ، وتوفي بها ودفن بمكة .

وأمي هي السيدة خديجة بنت محمد بن طه بن محسن بن علوي ، وهي امرأةٌ ذكية ومحبة للخير ، كثيرةُ الصدقة على الأقارب والأرحام ، وقد أنجبت لوالدي بعدي خمسة من الأبناء هم الإخوان : محمد وأحمد وعبد الرحمـٰن وطه وسقاف ، وبنتاً واحدة تزوجها السيد سالم بن محمد بن طه السقاف ، وقد انتقلت والدتي في آخر حياتها إلىٰ جدة ، فتمتعنا كثيراً بوجودها معنا ،

وكانت تشجعنا على التجمع والفسح والرحلات ، وعاشت سنتين مع أخي سقاف بالقاهرة حيث يدرس ، كما قضت مع أخي طه بالحديدة وتعز أشهراً ، ثم عادت إلىٰ جدة واستقرت بها حتىٰ وفاتها ، ودفنت بمكة ، وكانت تسكن أثناء إقامتها في جدة بمنزل أخي عبد الرحمـٰن .

الأخ محمد بن علوي السقاف

وقد تميز أخي محمد الذي يليني في السن بأمانته وأخلاقه ، وكان من طلبة العلم ، ولما تولىٰ والدي القضاء بسيؤن . . اعتمد علىٰ أخي محمد ككاتبه وسكرتيره الخاص ، فأدىٰ محمد هـٰذه المهمة علىٰ أحسن ما يكون .

ومن الطرائف : أنه لما كان والدي مقيماً بجاوة تولىٰ أخي محمد مسؤولية الإشراف علىٰ مصاريف البيت ، وكان مرتباً وشديداً ويكره التبذير ، ولا يحب الإسراف ، ويقنن التموين ؛ ليكفي الشهر ، وكان تنتابه في بعض الأحيان حالات من الصرع يفقد فيها وعيه مؤقتاً ، فكانت الوالدة تقوم خلال ذلك بأخذ مفتاح المخزن من جيبه وتصرف ما يكفيها من القهوة والسكر وغيرها ، وقد تم علاج الأخ محمد بأسمرة فيما بعد أثناء إقامتي بها ، ولم تتكرر عليه هـٰذه الحالة بعد ذلك .

وقد عمل أخي محمد لفترة طويلة بشركة الكهرباء بسيؤن ، ثم انتقل بعمله إلىٰ عدن ، ولما تغيرت الأحوال السياسية بعدن وحضرموت . . انتقل مع عائلته إلى السعودية ، وعاش بجدة حتىٰ توفي بها ودفن بمكة .

أولاد الجد علوي من اليمين إلى اليسار حسب السن

أحمد ، ثم عبد الرحمـٰن ، ثم طه ، ثم سقاف

أما أخي أحمد فقد عاش ملازماً لوالدي بسيؤن ، ثم بعد وفاة الوالد وتغير الأحوال السياسية بحضرموت انتقل مع عائلته بجدة ، وما زال يعمل ويقيم بها .

أما إخوتي الآخرين من والدتي خديجة . . فهم الإخوان عبد الرحمـٰن وطه وسقاف ، وقد أكملوا دراستهم الجامعية .

واستقر أخي عبد الرحمـٰن بعد تخرجه من كلية الطب بجدة .

وعاش طه بالحديدة يعمل لفترة طويلة ، ثم انتقل مع عائلته إلىٰ جدة ، وما زال بها .

واستقر أخي الدكتور سقاف بأبو ظبي وتحصل علىٰ جنسيتها ، وقد ابتنىٰ إخوتي لأنفسهم بالسنوات الأخيرة بيوتاً حديثة بسيؤن ، وتعلقوا بزيارة حضرموت بين فترة وأخرىٰ .

كما تزوج والدي بجاوة وأنجب ولدين هما الأخوان : عبد الله وحسين ، وقد أرسلهما الوالد إلىٰ حضرموت لتعلم العربية وأخذ شيء من العلوم الشرعية ، فقضيا بحضرموت عدة سنوات ، ثم عادا إلىٰ جاوة .

حسين بن علوي السقاف

ومن طرائف إخوتي في طفولتهم : أنهم قاموا في إحدى المرات بالاستحمام في بير مزرعة الوالد بعبد الملك ، رغم منع الوالد لهم من ذلك خوفاً عليهم من الغرق .

وبعد أن استمتع أخي عبد الله بالسباحة والقفز في البير . . ذهب يشتكي إخوته لوالدي ، وعاد إليهم وهو يمسك بيد الوالد الذي أخذ يزمجر ويتهدد ويتوعد ، فلما وصلا عبد الملك . . قابلهم الفلاح وقال للوالد : إن الذي يمسك بيدك هو أول من قفز منهم للبير ، فرفع والدي عصاه ليضرب عبد الله . . إلا أنه أطلق ساقيه للريح وفر هارباً .

وكان أخي عبد الله يرافق والدي لصلاة التراويح بمسجد القرن ، ويقوم بالإقامة والزمزمة ، وأخذ الوالد يمتدحه أمامنا ليلومنا علىٰ عدم مجاراته ، إلا أن والدي عاد مرة من المسجد وهو يضحك ، فلما سألناه عن الخبر . أجابنا بأن عبد الله قد أحدث اليوم حدثاً ضيَّع كل حسناته ، ولما استوضحنا الوالد الأمر . قال بأن عبد الله بعد أن أنهى الزمزمة وارتص المصلون في الصف للصلاة وهو بينهم . ضرط ضرطة مدوية سمعها كل المصلين ، ثم ترك الصف مباشرة وهرب من المسجد ، فعرفه الناس .

وقد قاسيت مع إخوتي ووالدتي بحضرموت من الفقر وشظف العيش ، وكان أغلب أكلنا التمر وما يسد الرمق من الذرة ، وأحياناً البر .

وقد انتقل أخي عبد الله من جاوة إلىٰ جدة وعاش معي لفترة ، ثم أحضر

عائلته واستقر بجدة إلىٰ أن توفي بها ، أما أخي حسين فقد عاش ولا زال يعيش بالصولو بإندونيسيا .

وقد خدمت والدتي والدتها الجدة شفاء خدمة مخلصة ، وتولت تمريضها والعناية بها في آخر عمرها ، عندما أقعدت والدتها الشيخوخة والمرض .

وجدتي لأمي امرأة ذكية نابهة ، ولها شخصية قوية مسيطرة ، وإذا وصل أحد إخوانها من جاوة . . أحصت كل هداياه ، وقامت هي بتوزيعها دون أن يجرؤ أحد منهم على اعتراضها فيما تفعل ، ولما عاد أخوها الثري شيخ بن أحمد السقاف من جاوة استعرضت الجدة شفاء هداياه كلها ، ووجدت بينها مجموعة من المسوح ، فأخذتها ، فقال لها السيد شيخ : أما المسوح فلا ؛ لأنها تخص أمير المؤمنين ـ ويقصد صديقه الوالد العلامة ابن عبيد الله ـ وكانت بينهما علاقة قوية ، وصداقة متينة ، كما فصلت ذلك في مكان آخر من هـٰذا الكتاب .

الخال عبد الرحمـٰن بن محمد بن طه السقاف

الخال طه بن محمد بن طه السقاف

وأكبر إخوة والدتي الخال عبد الرحمـٰن ، وهو رجل هادىء ووقور ، وطالب من طلبة العلم ، وكان والدي يحترمه ويستشيره في أموره ويقول ـ كما ذكرت سابقاً ـ : (لم نستشر عبد الرحمـٰن في أمر إلا وجدنا أن رأيه هو الصواب) .

ومن حكمة الخال عبد الرحمـٰن : أنه أقنع أصهاره آل بانقيل وهو متزوج إحدىٰ بناتهم ببيع قصر بنقالة الضخم علىٰ آل الكاف ـ رغم معارضة الكثيرين منهم لهـٰذا القرار ـ بمبلغ خمسة عشر ألف ريال فرانصة ، وهو نفس مبلغ شرائه من السيد عبد القادر بن عبد الرحمـٰن السقاف صاحب سنغافورة ، واشترىٰ لهم بثمنه بيوتاً بسنغافورة ضمنت لهم دخلاً ثابتاً بعد وفاة عميد أسرتهم ، كما بنىٰ لهم بيوتاً صغيرة بسيؤن ، ولو بقوا في قصر بنقالة بعد وفاة عميدهم . . لانقطعت مواردهم ، وخرب القصر ، ولم يكن بمقدورهم إصلاحه .

أما الخال طه . . فهو رجل طيب القلب ، كريم ولطيف ، وقد عاش أغلب حياته بجاوة ، ثم عاد إلىٰ حضرموت لفترة قصيرة تزوج أثناءها من فاطمة بنت الوالد عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وعاش معها قليلاً بسيؤن ، وأنجب منها بنتاً ثم عاد إلىٰ جاوة .

ومن الطرائف : أن مرضت أمه الجدة شفاء أثناء وجوده بحضرموت ، وأدنفت ، فكان كلما غابت عن وعيها . . أمسك برأسها ووضعها علىٰ حجره لتموت فيه ، ولـٰكنها لا تلبث أن تتعافىٰ وتقوم ، وقد تكرر ذلك عدة مرات .

وفي أحد المرات طالت غيبوبتها ، وجلس حولها الخال طه وأخواته والعم علي بن عبد الله ، فاقترحوا أخذ مرّيتها الذهب وبيعها والتصدق بقيمتها حتىٰ يعافيها الله ، ففعلوا ، إلا أن الجدة قامت بعد ذلك وافتقدت المرّية ، فأخبروها بأن طه هو الذي أخذها وباعها ، فأخرجت ساعته من يده ولم تعطها له حتىٰ عادت لها المرّية .

وكانت الجدة شفاء امرأة جزلة قوية الشخصية ، ومن قصصها : أنه لما

سافر زوجها الجد محمد بن طه إلىٰ جاوة . . ترك لها عشرة ريالات فرانصة لتستعين بها في غيابه ، إلا أن الجدة شفاء لم تحتج إلىٰ هـٰذه الريالات ، واستثمرت ما عندها من مال مع المزارعين ، وكسبت من الاستثمار الزراعي أموالاً وحبوباً ، كما كانت تعتذر عن حضور دعوات الغداء الفاخرة في بيت إخوانها الأغنياء شيخ وعبد الله أبناء السيد أحمد بانقيل ، وتطلب منهم إرسال غدائها لبيتها فيكفي ما يرسلونه من طعام لأولادها وبناتها وكل أفراد بيتها ، فلا تتكلف لهم طعاماً .

وعاد زوجها الجد محمد بن طه من جاوة بعد مدة إلىٰ حضرموت دون أن يكسب من رحلته شيئاً ، ولم تتوفر معه حتىٰ أجرة الجمّال ، فلاحظت الجدة حيرته وارتباكه لما حط رحاله ، وعرفت بذكائها سبب ذلك ، فذهبت من فورها وأحضرت له العشر ريالات التي أعطاها قبل سفره وقالت له : خذ هـٰذه فهي كما هي لم أحتج لشيء منها ، فانشرح خاطر الجد محمد بن طه ، ونقد الجمّال أجرته ، واستعان بالباقي علىٰ تصريف الأمور .

أما أشقَّاء الجدة شفاء ؛ فمنهم : **الخال شيخ بن أحمد بانقيل** ، وهو صاحب وجاهة وثراء ، وكان صديقاً للوالد ابن عبيد الله ـ كما فصلت ذلك في مكان آخر من هـٰذه المذكرات ـ وكان يسمي الوالد ابن عبيد الله بأمير المؤمنين ، ولما اختلفا . . أصبح الوالد ابن عبيد الله يسمي الخال شيخ بـ : شيخ الفتة ، حتىٰ إن الجدة كانت تعيّره وتقول له : شفت أمير المؤمنين حقك ، صار يفت لك ويسميك شيخ الفتة .

أما بقية إخوان والدتي . . فهم :

الخال أحمد ، الذي عاش فقيراً في حضرموت .

والخال محسن ، وكان شحيحاً ، ولما سافر جاوة جمع ما معه من ماعون وكتبه في ورقة وسلمه أمانة لوالدته ، ولـٰكنه بعد أن وصل إلىٰ جاوة لم يطمئن علىٰ ماعونه عند والدته ، رغم أنه لا يساوي شيئاً ، فكتب إلى العم محمد مساوي ـ وكان في بداية حياته التجارية ـ وطلب منه أن يستلم من والدته

الماعون ويحصيه ويرسل له كشفاً بالمحتويات ، وبالفعل ذهب واستلم الماعون من الجدة شفاء ، وأرسل كشف المحتويات للخال محسن بجاوة ، فوصل بعد أشهر خطاب من الخال محسن يخبره فيها بأن الكشف لم يشتمل علىٰ بخاري أبو غطاء نيكل قديم ، وعليه أن يراجع والدته لاستلامه ، فذهب العم محمد مساوي إلى الجدة وعرض عليها خطاب الخال محسن ، فبحثت عن البخاري حتىٰ وجدته فسلمته له ، وقد أقام الخال محسن بسنغافورة ، وكان يستقبل الضيوف في بيته ، ثم يحاسبهم علىٰ نفقة الإقامة ، وهٰذا هو المصدر الوحيد لرزقه ، ولما توجهت إلىٰ جاوة في أول رحلة لي خارج حضرموت برفقة الخال عبد الرحمٰن بن محمد بن طه والعم أحمد بن عبد الله السقاف . . توقفت بنا المركب في سنغافورة ، فنزلنا بها لدى الخال محسن الذي استضافنا دون مقابل ، وكان يعاتبني والعم أحمد علىٰ كثرة استعمال الماء في الحمام واستخدام الدرنش الذي تولعت والعم أحمد باستخدامه ؛ لأنه أعجوبة لم نر مثلها في حضرموت ، ثم انتقل الخال محسن بعد ذلك إلىٰ جاوة واستقر بها ، وعاش إلىٰ أن توفي فيها .

أما الخال سقاف . . فقد عاش بحضرموت لفترة طويلة ، ثم هاجر إلىٰ مكة وأقام بالرباط ، وتوفي ودفن بمكة .

وكانت الوالدة يرحمها الله حريصة علىٰ زيارة أخيها سقاف في الرباط كلما جاءت إلى السعودية ، وقد ذهبتُ معها والوالد في إحدى المرات لزيارة الخال سقاف بالرباط ، ولما وصلنا . . أرسلنا من يأتينا بالخال سقاف من غرفته بالسطوح ؛ حيث لا يتأتىٰ دخول النساء للرباط ، فنزل إلينا الخال سقاف بهيئة ضعيفة وثياب مهلهلة ، ولما رأى الوالدة . . لم يزد أن قال لها : خديجة ! ! أيش جابش إلىٰ هنا ؟ ! وكثر الله خير علوي يومه نفّقش .

وبلغ من حب الوالدة لإخوانها وأهلها أنه جاء لزيارة الوالد علوي بجدة السيد سقاف باحليقة ، ولم يكن بالبيت أحد من الرجال ، فقرع الباب وانصرف ، غير أن الوالدة عندما عرفت أن اسم الطارق سقاف . . لحقته وهي

تصيح : (سقاف سقاف) ، وهي تحسب أنه أخوها سقاف ، حتىٰ عرفت أنه ليس أخاها ، وكان الخال سقاف يقول شعراً ركيكاً ، ويعتبر نفسه من كبار الشعراء ، ويمدح المعلم محمد بن لادن في كل حج بقصيدة يلقيها في صوان المعلم بمنىٰ ، ثم يأتي بعد ذلك إلىٰ جدة لاستلام جائزته من المعلم ، وهـٰذا أكبر ما يقوم به من نشاط ، وكانت للخال سقاف شلة من الأصدقاء ومحترفي الشعر بحضرموت ؛ منهم : الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وعمر باكثير ، ومحمد بن حسن العدني إلا أنهم كانوا يتخذون من الخال سقاف وسيلة للتسلية والضحك ، ولما مات أمير الشعراء أحمد شوقي قامت هـٰذه الشلة بتنصيب الخال سقاف أميراً للشعراء خلفاً لشوقي ، وأقاموا له احتفالاً هزلياً في السطح المقابل لمنزل الخال عبد الرحمـٰن ، فهيؤوا للخال سقاف طراحة أحاطوها بالمخدات ، أجلسوه عليها ، ووضعوا علىٰ رقبته سبحة كبيرة ، وعلىٰ رأسه عقالاً ، فجلس الخال سقاف بينهم وكأنما هو العروس في حفل زفافها ، ثم تباروا في إلقاء القصائد لهـٰذه المناسبة ، فقال أولهم :

حملت مصر راية الشعر في الشر ... ق فجاءت من بعدها الأحقاف
إنْ مضىٰ أحمد إلىٰ رحمة الله ... فقد حل عرشه سقاف

ثم قام الأخ حسن بن عبيد الله وقال :

لي فيك أجر مجاهد ... إن كنت يا سقاف كافر

وقد أعجب الوالد ابن عبيد الله بهـٰذا البيت وضحك منه كثيراً ، إلا أن الخال عبد الرحمـٰن المعروف بجديته ووقاره شاهد من بيته المجاور أخاه سقاف في هـٰذا الحفل الهزلي ، فاستدعاه في اليوم الثاني وعاتبه على استرساله في هـٰذا الأمر المشين .

وعاش إخوة الجدة شفاء الأغنياء في قصورهم بسيؤن ، فسكن أخوها السيد شيخ بن أحمد قصر بيزين ، وسكن أخوها عبد الله بن أحمد قصر بنقاله ، وأتذكر ذهابي مع والدتي وإخوتي في ركب الجدة شفاء ؛ للإقامة بأحد

هٰذه القصور في مناسبات الزواج حيث يدعون كل أقاربهم للإقامة معهم كل أيام الزواج التي تمتد لعدة أيام ، ويخصصون جناحاً بالقصر لكل عائلة من أقاربهم ، ويطبخ الطعام الفاخر بمطبخ القصر ، ويوزع على الأجنحة ثلاث مرات في اليوم ، وفي مساء كل ليلة من هٰذه الليالي تقام الاحتفالات البهيجة ، ويصدح المنشدون من عائلة آل باصالح المشهورة بالنشيد ، ويرقص الرجال رقصة الزفين ، ويحضر الحفل كل أهل سيؤن ، حيث تعتبر سيؤن وكأنها عائلة واحدة ، وأتذكر حضور أولاد الحامدي الأغنياء الذين يأتون يتبخترون بصوارينهم الطويلة ، وفي يدهم ريالات الفرانصة ، فيزفنون وهم شاهرين الريالات ، ثم يلقون بها لأهل النشيد .

وهكذا كانت حياتنا بسيطة ، تتراوح أيامها بين الفقر والستر ، ونعيشها رغم ذلك متمتعين بها ، ولا نتمنىٰ أكثر مما معنا ، ولا أحسن مما لدينا .

* * *

مرحلة الطفولة وحكاياتها

المهندس الياباني هرياما وبجواره الشاعر الشعبي عمر كرامة مع أول مضخة ماء تصل سيؤن عام (١٣٤٨هـ) وإلىٰ أقصى اليمين العم هود وابنه أحمد ، وخلفهم الأطفال وأنا معهم .

كانت دراستي في مرحلة الطفولة المبكرة بمدرسة النهضة العلمية بسيؤن ، ومن زملائي في هـٰذه المرحلة العم أحمد بن عبد الله السقاف ، والسيد حسن بن سقاف ، وهو قوي البنية وضخم الجثة ، ويأكل من أقراص الذرة أربعة أو خمسة ، ولا يكفيه ذلك ، فيغافل جدته ويخطف من أرغفتها قرصين أو ثلاثة ، يشكها حول خاصرته ليأكلها في المدرسة .

وكنا مع بقية الزملاء نشكل فتوة ساحة طه ، ويتزعمنا حسن بن سقاف ،

وتحصل بيننا وبين أطفال الساحات الأخرىٰ مثل ساحة الحِب علي منافسات ومصارعات ، إلا أن زعيمنا القوي حسن بن سقاف يتغلب على المنافسين ، فنخرج دائماً منتصرين .

وفي الصباح نذهب للمدرسة ، وبعد أن نعود منها قرب الظهر نتجمع ونخرج إلىٰ ساقية البلاد لنملأ جيوبنا من الحجار الصغيرة ، ثم نتوجه ومعنا المشاعيب لصيد الطيور بمخترف القرن ، ونسير بين الآبار والأشجار والعلوب ، ونصطاد الطيور ، ثم نذهب بما صدناه من الطيور لبيت الجد عبد الله بالقرن ، فنشوي الطيور ونأكلها ، ثم نسبح ببركة البيت ، ونعود في نهاية النهار إلىٰ منازلنا .

وفي مرة من المرات دخلنا نتمشىٰ في بير آل كريسان قادريّة ، فشاهدنا الفلاح وكان شرساً غليظاً ، فصاح بنا صيحة منكرة ، وتبعنا ونحن هاربين ، وكان معنا الأخ أحمد محمد مساوي ، وكان صغيراً ضعيف الجري ، فجرىٰ خلفنا الفلاح وهو يصيح والشريم [1] في يده ومساوي في مؤخرتنا ، ولما يأس الفلاح من الإمساك بنا . . رمىٰ خلفنا بالشريم ، فطار وانغرز بمؤخرة رأس أحمد مساوي ، فاندفعت منه الدماء بغزارة ، فخاف الفلاح وهرب ، ورجعنا لنسعف زميلنا المصاب ، فوجدنا الدماء تندفع من جرحه بغزارة وهو يصيح ، وكان المنظر مخيفاً ومرعباً ، وظننا أنه سيموت ، فنزعنا الشريم من مؤخرة رأسه فاندفع الدم بغزارة أكثر ، فجمعنا ما وجدناه بالشارع من أوراق وخرق وبقايا لنوقف الدم ، وأخذنا نضغط على الجرح ونمسحه بما جمعناه من الأوراق والخرق ، ثم نغسله بماء الساقية القذر ، حتىٰ توقف الدم فقمنا وأوصلنا مساوي لبيته وهربنا ، وفي المساء عدنا نتحسس منه ؛ خوفاً من أن يكون قد أصابه مكروه ، فوجدنا والدته تعاتبه لمرافقتنا ، فعرفنا أنه لا زال حياً ، ثم استعاد مساوي عافيته في الأيام التالية ، وامتنع عن مرافقتنا بعد هٰذه الحادثة .

---

(١) الشَّرِيم : المنجل .

ومن الألعاب المحببة التي يمارسها الأطفال في الساحات في تلك الفترة : صراع الديكة ، ومن الأشياء الطريفة أنه كان لصديق طفولتي العم علي بن عبد الله ديك أزرق قوي ، تغلب علىٰ كل ديكة ساحة طه ، ثم ظهر له ديك منافس لآل بوبكر بن طه ، عاركه وتغلب عليه ، وفقد ديك العم علي كرامته وهيبته ، فاشتكى العم علي مما حدث ، فقررت والعم أحمد العمل على استعادة الهيبة والكرامة لديك العم علي ، فانفردنا بالديك المنافس وقبضت عليه مع العم أحمد وأدخلناه بيت العم علي ، فأطلق العم عليه ديكه ونحن نمسك بخصمه فانتصر عليه ، ثم أطلقنا سراحه فجرىٰ نحو الباب ، وجرىٰ خلفه ديك العم علي ، وحسمت المعركة لصالح ديك العم علي .

كما كنت أقوم مع العم أحمد بن عبد الله بمساعدة العم علي بن عبد الله في هوايته لتربية الحمام ، وعلىٰ بيع الحمام الزائد عن حاجته ، وقد رغب رفيقنا محيي الدين الحداد الذي ورث ثروة أبيه واستأثر بها لنفسه ، رغب في تربية الحمام في بيته ، إلا أن أمه لم تأذن له ، ولم يستطع مخالفتها ، فتوقف عن الشراء ، فأقنعته مع العم أحمد علىٰ شراء الحمام من العم علي علىٰ أن نقوم بتربيته له ببيت الجد عبد الله بالقرن ، فوافقنا علىٰ هـٰذا الرأي واشترى الحمام ، ونقلناه له إلى القرن ، ولـٰكن حمام محيي الدين لم يلبث أن طار وعاد لبيت العم علي بالبلاد ، فاشترىٰ محيي الدين دفعة أخرىٰ من الحمام ، ولـٰكنها طارت مرة أخرىٰ من القرن إلى البلاد ، وتكرر ذلك حتىٰ أيس محيي الدين من تربية الحمام .

وكان محيي الدين الحداد يحترم العم علي ولا يرفض له طلباً ، فاستغل السيد محمد بن إبراهيم ـ وكان ظريفاً فقيراً ـ ذلك واحتال حيلة تمكنه من التمتع بالطعام الجيد ، فذهب إلىٰ محيي الدين وادعىٰ بأن العم علياً يريد منه عزومة بالقرن ، فوافق محيي الدين من فوره على العزومة وبدأ في الإعداد لها ، ثم ذهب ابن إبراهيم للعم علي وأخبره بأنه معزوم بالقرن عند محيي الدين، وتكررت ولائم محيي الدين التي يستفيد منها ابن إبراهيم حتى انكشف الأمر .

وكان العم علي في صغره قوياً ومرهوباً ، ويحدث بينه عراك أحياناً مع محسن الكثيري ، ومع قوة الكثيري وجلده إلا أنه لا يقدر على العم علي ، فيذهب والده بعد ذلك إلى الجد عبد الله بن حسين ليشتكي ، فيرضيه الجد عبد الله بمد من البر أو الذرة أو قليل من الدراهم ، ثم يتكرر ذلك .

ومن أحداث طفولتي التي مازالت حية في ذاكرتي : رحلتي الأولىٰ إلىٰ شعب نبي الله هود ، فقد طلب والدي وهو مقيم بجاوة في تلك الفترة من خاله الشيخ محمد باحميد أن يرتب لي الزيارة مع من يثق به من الأقارب ، فاختار الخال محمد لمرافقتي العم أحمد بن علي ، وكانت أمه شقيقة أم والدي ، وهو رجل شديد ، وقد فرحت بهٰذه الزيارة ولم أعرف عن طبيعتها شيئاً ، فأركبوني يوم السفر علىٰ مؤخرة بعير ، وسرت مع الركب متوجهاً إلىٰ أولىٰ محطات السفر وهي تريم .

ومضت رحلة البعير من سيؤن إلىٰ تريم شاقة ومتعبة ، وكدت أن أسقط من ظهر البعير عدة مرات ؛ إذ إن هٰذه هي المرة الأولى التي أركب فيها البعير ، ولم أركب مركوباً قبله سوى الدابة والحمار ، ولم تصل السيارات بعد إلىٰ حضرموت .

وكان في ركبنا جماعة من آل حسان يشْبِهون العم أحمد بن علي في طباعه ، ولما وصل رَكْبُنَا تريم . . قصد الناس من يعرفونهم بتريم ، وقصد ركبنا دار الغريب ، وهو دار صدقة مخصص للغرباء ، فلم نكن نعرف أحداً ليستضيفنا مثل كثير من الزوار ، ولم يكن لنا من ملجأ إلا هٰذه الدار المهملة القديمة ولها فرش من الحصير المتهالك القذر .

ولما نزل ركبنا بهٰذه الدار الموحشة . . أضاؤوا سراجاً صغيراً ألقىٰ بعض الضوء في هٰذا البيت المظلم ، ثم استعد ركبنا لتناول العشاء ، وكنت في غاية الجوع والإجهاد والتعب ، فأحضروا وعاء كبيراً وأخرج كل واحد منهم من كيسه صرة بها الفتة المفحوسة ، وأخذ منها غرفة صغيرة وألقاها في الوعاء

العام ، وكانوا أثناء ذلك يتخاصمون ويتجادلون ، ويتهم بعضهم بعضاً بوضع غرفة أصغر مما هو مطلوب ، ثم خلطوا الفتة بالماء الحار ، فأصبحت جاهزة للأكل فأحاطوا بالصحفة والتهموا ما فيها في دقائق معدودة ، واستطعت أن أفوز معهم بلقيمات قليلة أسكت بها نصف جوعي ، ونمت ليلتي في دار الغريب وأنا أشكو من الجوع والبرد حتىٰ أصبح الصباح ، فصلينا الفجر جماعة ، ثم انطلقنا مثل انطلاقتنا الأولىٰ إلىٰ شعب نبي الله هود ، واستمرت معاناتي معهم طوال أيام الزيارة ، حتىٰ عدت سالماً إلىٰ سيؤن علىٰ مثل ما ذهبت به .

ومن الأشياء الغريبة التي حصلت في طفولتي وصول أول مضخة ماء إلىٰ سيؤن والتي استوردها في عام (١٣٤٨هـ) العم هود التويني الذي اشتهر ببعض الأفكار الطموحة الغريبة والسابقة لأوانها وهو من أثرياء ذلك الزمن .

وقد وصلت هٰذه المضخة الكبيرة بالسفن إلىٰ ميناء الشحر ، ثم نقلتها الجمال مجزأة إلىٰ سيؤن واستقدم العم هود معها مهندساً يابانياً يسمىٰ (هرياما) ليقوم بتركيبها ، ونزل هٰذا المهندس في أحد الملاحق الأرضية لقصر العم هود ، وشرع في تركيب المكينة ، ولما اكتمل تركيبها . . حصلت مشكلة ؛ إذ إن تركيب المكينة سيكون بمزرعة العم هود المسماة بالحمر ، لا في قصره ، كما أنه يتعذر حملها ونقلها إلى المزرعة بعد أن تم تجميعها ، فابتكر المهندس الياباني هرياما طريقة عجيبة لتحريك المضخة ، فقام بإضافة عجلة أمامية للمضخة ، فتحركت المكينة بالدفع الذاتي على الطريق ، ووجهها هرياما إلىٰ طريق المزرعة ، فتحركت حركة مستمرة وبطيئة متجهة إلىٰ هدفها ، وكان يوم نقل المكينة إلىٰ مزرعة العم هود يوماً مشهوداً بسيؤن ؛ فقد خرجت المكينة ومعها العم هود والمهندس هرياما وبعض الوجهاء ، وخلفها مجموعة من أطفال سيؤن ، وكنت يومها في الثامنة من عمري ، فمشيت مع من مشىٰ خلف أول آلة متحركة تتحرك بنفسها داخل سيؤن .

ومن الأشياء التي ما زلت أتذكرها من طفولتي ما حصل من تمرد من عبيد السلطان من فخذ آل إدريس ورئيسهم البطل جيد الله وأخوه عيسى ، فلما عسفوا بالناس . . غضب عليهم السلطان علي بن منصور غضباً شديداً ، وعاقبهم بالنفي خارج سيؤن ؛ لمعرفته بحبهم الشديد لها ، بل وهدم بيوتهم بسيؤن ؛ حتى لا يفكروا بالعودة إليها ، وتقع هـٰذه البيوت بالقرب من مدرسة النهضة الابتدائية ، التي كنت أدرس فيها ، وكان لآل إدريس كلب بلغ به الوفاء أنه بقي لفترة طويلة واقفاً على أنقاض بيوت أسياده لا يبارحها مطلقاً ، وكنا إذا خرجنا من مدرسة النهضة مع بقية الأطفال . . نتحرش بهذا الكلب الوفي إلا أنه لا يبارح مكانه مهما بالغنا في إزعاجه ، وبقي وفياً لأصحابه حتى مات فوق ركام بيوتهم ، ثم علم السلطان علي بن منصور بقدوم عيسى أخي جيد الله إلى مريمة القريبة من سيؤن ، ونزوله بأحد البيوت ، فأرسل السلطان علي أخاه السلطان جعفر مع أحد عبيده يترصده دون أن يعرف أحد بذلك ، ولما عرف السلطان جعفر بمكان إقامة عيسى . . كمن له في البيت المقابل ، وترصده حتى أبصره من خلال النافذة ، وكان السلطان جعفر مشهوراً بدقة الرماية ، كما أنه الوحيد الذي يمتلك بندقية ألمانية بمنظار مقرب ، فصوب بندقيته نحو عيسى وأرداه قتيلاً .

ثم ذهبت بعد هذه الحادثة مع والدي ونفر من أهلي لحضور زواج لدى آل حسني بمريمة ، وكان نزولنا بالدار التي قتل فيها عيسى ، فشاهدنا آثار الدماء في الغرفة التي قتل بها عيسى ، وأخذ الأطفال يشيرون إلى ذلك ويسترجعون الحادثة .

وبعد فترة طويلة تسلق جيد الله ونفر من جماعته الجبل القبلي المحيط بسيؤن بغرض الانتقام من السلطان ، ولم يلحظهم أو يحس بهم أحد من الناس ، وكنت مع جماعة من أصحابي نتسلى في ساقية البلاد ، ونحن نلبس فوق ثيابنا الأردية الطويلة البيضاء التي تسمى بحضرموت الطويلة ، وبينما نحن مستغرقين في الحديث . . إذ انطلقت البنادق من ناحية الجبل القبلي بطريقة

عشوائية ، وتساقط الرصاص من حولنا وفي كل مكان ، فانطلق جميع من في الساقية يجري نحو بيته ، وخلفه الطويلة طائرة كالشراع ، واستمر الوضع كذلك حتى تمكن السلطان من السيطرة عليهم .

* * *

الدراسة في حضرموت

أطلال بيت العلامة صالح بن علي الحامد بسيؤن وتبدو الغرفة التي كنا ندرس فيها

وكنت أدرس بعد صلاة الفجر بمسجد طه بحضرموت لدى العم حسن بن أحمد ، مع مجموعة من الزملاء ؛ منهم : العم علي بن عبد الله السقاف ، والسيد عقيل الحامد ، وحسن بن شيخان ، وطه بن بوبكر السقاف ، وآخرون ، فنبدأ درسنا بعد صلاة الفجر ، ونستمر فيه إلى الشروق ، فنركع ركعتي الشروق ، وننصرف إلىٰ بيوتنا ، ثم نعود في فجر اليوم التالي . . . وهٰكذا .

واستمرت دراستنا لفترة طويلة دون أن نتعلم من العم حسن شيئاً مفيداً ،

وكان اهتمام العم حسن منصباً على التكرار والحفظ ، دون الاهتمام بفهم ما نقرأ ، وكان بيته مجاوراً لمسجد طه ، ويحدث في بعض الأحيان أن يوقف الدرس ثم يتسلل إلىٰ بيته ويمكث فيه قليلاً ، ثم يعود ويمر في طريق عودته على الجابية فيغتسل فيها ، ويعود إلينا وهو مبلل بالماء ، ويأمر بمواصلة الدرس .

ولما دخل علينا رمضان اتفقنا علىٰ تناوب الولائم فيما بيننا ، ولـٰكن لما جاء دور الأخ طه بن بوبكر السقاف . . اختفىٰ عن الأنظار ، ولم نعثر له علىٰ أثر ، فتوجهنا إلىٰ منزله للاستفسار ، ولما وصلنا بيته . . نادينا عليه عدة مرات فلم يجبنا أحد ، وبعد قليل خرج طه متسللاً من بيته ، وانطلق هارباً لا يلوي علىٰ شيء ، فعرفنا على الفور بأنه يتهرب منا ، وأن وليمتنا عنده قد أصبحت في خبر كان ، وأنه بعد أن شبع من موائدنا لا ينوي أن يقدم لنا شيئاً ، فاغتظنا من تصرفه المشين ، وقررنا الانتقام لولائمنا ، فاقتحمنا بيته الذي لم يكن به أحد ـ بقيادة زعيم عصابتنا حسن السوم ـ فلم نجد بالبيت أي استعدادات لاستقبالنا ، ولا علامات لاستضافتنا ، فعدنا أدراجنا خائبين ، غير أننا شممنا في طريق خروجنا رائحة الكشري الزكية تفوح من نواحي المطبخ ، فاتجهنا إلى المطبخ ، فوجدنا بالتنار قدراً متوسط الحجم به الكشري المسكن باللخم ، والمعد لسحور العائلة بكاملها ، وكان ذلك قبل أذان الفجر بساعة أو ساعتين ، ولم ينتظر حسن السوم أي شيء بعدما رأى القدر والكشري ، فانتزع القدر من المطبخ ، وأخذ معه بعض الصحون ، وانطلق بنا خارج البيت ، وقادنا إلىٰ تكة منزوية عن الطريق بمنزل الحبيب محمد بن طه السقاف ، فجلسنا جميعاً حول القدر ، وأكلنا الكشري كله ، ثم احترنا في أمر القدر والصحون ، فتطوع حسن السوم كعادته لحل هـٰذا الإشكال ، ورمى القدر والصحون بمغمس المسجد (بركة الوضوء) وقال : غداً في الصباح سيسأل كرامة خادم المسجد عن أصحابها ويعيدها لهم .

وبعد هـٰذه الوجبة الشهية عدنا لنتسمع أخبار طه وعائلته بعد اختفاء سحور

العائلة ، ولما اقتربنا من دارهم . . سمعنا صخباً وأصواتاً عالية ؛ فقد اختفى السحور ولم يبق من الوقت متسع لتحضير شيء آخر ، والفجر علىٰ وشك الدخول ، وكان أهل الدار جميعهم يعاتبون طه ويعنفونه ، ثم طردوه من البيت ، فانصرفنا سعداء بما نال طه من عقاب .

ولما حضرنا في اليوم الثاني إلىٰ درس العم حسن . . وجدنا أن طه قد سبقنا وشكى الأمر إليه ، فغضب علينا العم حسن وأصدر أمره بألا يكلمنا أحد ، فجلسنا في الدرس لا يكلمنا أحد ، ولا يسمح لنا بالكلام ، ونسأل العم حسن فلا يجيبنا ، ونستفسر منه فلا يرد علينا ، وبعد أسبوع من بقائنا في درسه علىٰ هـٰذه الحال . . تركنا حلقة العم حسن ، وذهبنا نبحث عن عالم آخر يدرسنا ، فاتصلنا بالعم صالح بن علي الحامدي ، وكان عالماً وشاعراً وأديباً ، وله طريقة مميزة في التدريس ، فطلبنا منه أن يدرّسنا ، فوافق علىٰ طلبنا ، وكان العلماء في حضرموت يتولون مهمة التدريس دون مقابل ، وبدأ العم صالح في تدريسنا النحو في بيته ، وكنا نتحلق حوله وهو قاعد بجوار الخلفة (الشباك) بغرفته الكبيرة ، فتفتحت معه عقولنا للعلم والمعرفة ، واستفدنا منه فائدة عظيمة ، وتعلمت منه خلال فترة قصيرة كل ما عرفته في علم النحو ، وشكرنا الله علىٰ تركنا دروس العم حسن التي لم نستفد منها كثيراً .

وكان يحضر إلىٰ غرفة الدرس بعض من شباب آل حامدي الأشقياء ، ولم يكن غرضهم من الحضور سماع الدرس ، بل الجلوس في طرف الغرفة للكلام والتسلية وتقشير الحنظل (الفصفص) ، ويتقاطرون حتىٰ يجتمع منهم بالغرفة خمسة أو ستة ، ولم نكن نهتم بوجودهم ، إلا أنهم يتكلمون فيما بينهم أثناء الدرس ويشوشون علينا الاستماع ، وحدث أن طارت قشرة من قشور الحنظل من فم حسين حامد إلىٰ وجه عبد الله الحامدي ، فقام عبد الله ولطم حسين حامد علىٰ وجهه لطمة قوية فغضب حسين من هـٰذه اللطمة وزاد الطين بلة أن قام سالم بن محمد الحامدي باستثارته وتحريضه على الرد والانتقام ، وما هو إلا قليل حتىٰ نشبت بين الاثنين معركة كبيرة ، وتوقف الدرس ، فقام الأستاذ

صالح وطردهم من الغرفة ، ولكنهم استمروا يتعاركون أثناء نزولهم الدرج ، ولما وصلوا للشارع . . تواعدوا أن يتقابلوا في الغد عند مسجد العم هود التويني (الروضة) لاستكمال المعركة ، وبالفعل حدثت بينهم في اليوم الثاني معركة كبيرة ، واستعان حسين حامد بمحمد حبشي ، وكان شاباً قوياً ، فانهزم عبد الله وجماعته ، ولكنهم لم ينسوا هزيمتهم ، وبقوا علىٰ حقدهم وغيظهم ، وكان محمد حبشي يتفقد في بعض الأحيان مزرعة لأهله بشحوح خارج أسوار سيؤن ، ولم يكن حكم السلطان الكثيري في تلك الفترة يتجاوز أسوار سيؤن ولا يتدخل السلطان فيما يحدث من قضايا خارج السور ، ثم أخذ عبد الله الحامد بندقيته وكمن مع أخيه لمحمد حبشي خارج سور سيؤن ، ولما مر بهم محمد حبشي وهو في طريقه لشحوح . . أطلقوا عليه النار فأردوه قتيلاً ، وصارت قضية كبيرة تملص منها السلطان ؛ لكونها حدثت خارج سلطته ، كما هرب عبد الله وأخوه لخارج البلاد .

وبعد أن غادر عبد الله الحامدي حضرموت . . عمل بحاراً علىٰ أحد البواخر الإنجليزية ، كما سافر حسين حامد إلىٰ عدن لطلب الرزق ، وبعد مرور عدة سنوات علىٰ مقتل محمد حبشي رست الباخرة التي يعمل فيها عبد الله بميناء عدن ، فخرج عبد الله مع بقية البحارة يتجول في المدينة ، فالتقىٰ مصادفة بحسين حامد ، فأخذه بالأحضان ورحب به وسأله عن حاله وأخباره ، ولما عرف بصعوبة أحواله المالية . . عرض عليه أن يساعده ودعاه للعشاء بمطعم الميناء القريب من البواخر الراسية ، وكان عبد الله يخطط لقتل حسين حامد قبل إقلاع المركب بلحظات حتىٰ يتمكن من اللحاق بالمركب والهرب ، وتبع حسين حامد عبد الله إلى المطعم وتعشيا سوياً وقضيا وقتاً جميلاً استرجعا فيه ذكريات الماضي ، وكان عبد الله يترقب موعد إقلاع باخرته ، فلما أطلقت الباخرة صفارتها . . شهر عبد الله مسدسه وأفرغه في حسين حامد الذي سقط يتشحط في دمه ، بينما قفز عبد الله إلى البحر وسبح إلىٰ باخرته ، ولحق الناس حسين حامد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فأخبرهم بقاتله ، فأوقفت السلطات

إقلاع الباخرة وقبضت علىٰ عبد الله ، وحوكم وسجن وقضىٰ بقية عمره في سجون عدن .

وهكذا تسببت قشرة حنظل في حوادث مأساوية انتهت بإزهاق روحين وسجن الثالثة مدى الحياة .

مع بعض الأصدقاء في ساقية البلاد بسيؤن عام (١٣٥٦هـ)

واستمر حالنا في حضرموت خلال هٰذه الفترة علىٰ ما هو عليه ، فكنت أعيش ومجموعة من الشباب علىٰ رأسهم حسن السوم حياة ممتعة وكنا إذا هطل المطر رتبنا لفسحة لأطراف سيؤن ، وفي يوم من الأيام هطل مطر كثير وسالت الشحرة المشهورة المسماة باليي (شلال صغير ينحدر من الجبل) وهي شحرة كبيرة تتجمع تحتها بحيرة من الماء ، فعزمنا على الفسحة والاغتسال في هٰذه البحيرة رغم خطورة السباحة فيها ، وكنا نصطحب في فسحنا السيد محمد بن إبراهيم ليضحكنا ويسلينا ، وكان فقيراً ظريفاً فكنا نصطحبه مجاناً دون أن نكلفه

بشيء ، ولٰكن المشكلة في أخيه الصغير دحمة بن إبراهيم الذي تلزمه أمه بأخذه لأي فسحة أو عزومة يدعىٰ لها ، ولم نكن نستطيع تحمل دحمة ، فاتفقنا مع محمد بن إبراهيم علىٰ أن نمر بجوار البيت ، فإذا شاهدنا تسلل وصحبنا دون علم أخيه الصغير دحمة ، وكنا نطلع لفسحتنا بالجبل بكامل الاستعدادات من رز ولحم وقدور وصحون وحطب ، وكان علىٰ كل منا أن يحمل معه جزءاً من الحمولة ، وقد نجحت خطتنا وخرج معنا محمد بن إبراهيم وترك أخاه دحمة بالبيت ، ومشينا مسافة طويلة حتىٰ وصلنا لمنطقة الميافي ، والتي تصنع فيها النورة التي تستخدم في تبييض واجهات البيوت ، وكان العمال قد جهزوا الميافي للاشتعال ، ووضعوا فيها الأحجار وشجر الحلفا السريع الاشتعال ، فيتحلل الحجر بالنار ويتحول إلى النورة ، ولما وصلنا مع أصحابنا قريباً من الميافي . . إذا بنا نرىٰ غباراً يلحقنا ، ثم انشق الغبار عن دحمة بن إبراهيم الذي هربنا منه ، فبادر السيد حسن السوم وقال لنا : استمروا في سيركم وسأتولىٰ أمر دحمة ، وما إن وصل دحمة وهو يلهث حتى استلمه حسن السوم وأدخله الميفا وأشعل النار ، فجن جنون دحمة وكاد أن يختنق ، ثم نفذ من فتحة الميفا الصغيرة وانطلق عائداً إلىٰ أمه ، ولم نتصور أن يتصرف الأخ حسن السوم بهٰذا الشكل الجنوني ، وأقصىٰ ما تصورناه أن ينهر دحمة أو يضربه ، إلا أن دحمة عاد سالماً ولم يحدث له شيء ، وامتنع بعد ذلك عن مرافقتنا في أي فسحة يحضرها أخوه .

ثم جاء حسن السوم وكأنه لم يفعل شيئاً وواصل السير معنا باتجاه الجبل .

ولحسن السوم شخصية غريبة وتصرفات عجيبة ، وقد بنىٰ لنفسه بيتاً بالعصيدة ، وهي منطقة بالجبل القبلي لسيؤن بعيدة وخاوية ، وكنا في بعض الأحيان نعمل في بيته الفسح ، وكان هٰذا البيت قريباً من المظالع حيث تتجمع مياه الأمطار ، وجاءنا حسن السوم مرة وأخبرنا بأن الأمطار قد هطلت بناحيته وأن المظالع ممتلئة بالمياه ، رغم أننا لم نشعر بأي مطر في نواحينا ، فشجعنا كلامه هٰذا على القيام بفسحة ، فاشترينا جدياً ممتازاً وذهبنا إلىٰ داره ونحن في

منتهى الفرح والسرور ، ولما وصلنا وأردنا أن نطبخ الأكل . . لم نجد ببيته ماء ، فأخذنا إلى المظالع فلم نجد بها ماء مطر ، فمشينا معه لأعلى الجبل حتىٰ وجدنا مظلعة بها قليل من الماء وقد تحول لونه للحمرة ، فترددنا في استعماله ، غير أن الأخ حسن السوم أكَّد لنا أن هـٰذا الماء من مياه السيل الجديد ، وأنه بعد التصفية سيصبح ماء زلالاً ، فأخذنا من هـٰذا الماء حاجتنا وطبخنا منه أكلنا وصنعنا منه شاينا ، وبعد الغداء طلعنا الجبل لاستكشاف بقية المظالع التي امتلات بالسيل ، فاكتشفنا بالمظلعة التي تعلو المظلعة التي شربنا منها مظلعة تغذيها بالماء ، وقد طفت علىٰ سطحها ثياب المرضى الذين ماتوا بالسّل ، وفوقها تسبح فرشهم ومخداتهم ، وكان الناس يلقونها في الجبل بعد وفاتهم خشية العدوىٰ ، فعرفنا أننا أكلنا وشربنا من عصارة هـٰذه الملابس الملوثة بجراثيم السل .

وفي مرة من المرات أخبرنا الأخ حسن السوم بأن الطباخ المعروف كعويلة يطبخ طبخة (كوزي) ولم نسمع بهـٰذه الطبخة من قبل ، واشتقنا تذوقها ، فاشترينا جدياً مليحاً واتفقنا مع كعويلة أن يذبحه ويطبخ لنا به الكوزي ، علىٰ أن يكون اجتماعنا بدار الأخ حسن السوم ، وجلسنا نتحدث ونضحك في انتظار الكوزي ، ولـٰكن لما قدم لنا الكوزي لم نستطع أن نأكل من لحمه شيئاً ؛ إذ كان اللحم قاسياً جافاً وكأنه الجلد المطبوخ ، فطلبنا كعويلة لنعاتبه ونسأله ماذا حصل ، فقال لنا كعويلة : إن العم حسن أخذ جديكم وأعطاني شاة مسنة وضعيفة لأذبحها مكانه ، وقال : هـٰذا أحسن لهم ، وهـٰكذا كان .

وكنا نجتمع في عبيدان في منطقة بيت الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف الحالي ، قبل أن يبني الحبيب عبد القادر فيها بيته ، وهي منطقة معروفة من أيام الحِب سقاف بن محمد ، وقد بقي فيها للحِب سقاف مربعة صغيرة بشباكين ، كنا نجتمع فيها مع الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف والعم علي بن عبد الله السقاف وأبو علوي ، ونقيم بها الفسح والجلسات ، ونشعر ونحن فيها بالسرور والانشراح في هـٰذه المربعة التي يملؤها النور ، وكانت

أغلب فسحنا فيها عشاء ، وعلىٰ كل واحد منا أن يحضر عشاءه بنفسه ، وحضر معنا مرة الأخ حسن بن شيخان وأحضر عشاءه ، وكان من الكشري الوطني الذي يعمل من الذرة وأحياناً من البر ، ويوقد عليه حتىٰ يتفقش وتصير مثل الهريس .

* * *

رحلتي الأولىٰ لجاوة

صورتي في باكورة شبابي

ولما عزم الخال عبد الرحمـٰن بن محمد بن طه السقاف على السفر إلىٰ جاوة في سنة (١٣٥٧هـ) طلب منه الوالد أن يصطحبني معه لجاوة لأقيم مع والدي المهاجر لجاوة في تلك الفترة وعائلته ، وكانت هـٰذه أول رحلة لي خارج حضرموت ، وكنت في حوالي السابعة عشر من عمري ، فسافرت مع الخال عبد الرحمـٰن والعم محمد بن عبد الله بن حسين السقاف والعم أحمد بن عبد الله السقاف المقارب لي في السن ، وقد غاب العم أحمد بعد هـٰذه السفرة بجاوة ولم يعد لحضرموت إلا في زيارة قصيرة بعد أدائه الحج في عام (١٣٨١هـ) .

ومن رفاق هـٰذه الرحلة : السيد عمر السخلت ، والسيد أحمد بن طه ولد الخال طه بانقيل ، وكان الخال طه بانقيل قد جاء من جاوة إلىٰ حضرموت في إجازة قصيرة ، وتزوج وأنجب ابنه أحمد بن طه زميل رحلتنا هـٰذه ، ثم عاد إلىٰ جاوة

وغاب فيها، وتولت عائلة العم عبد الرحمـٰن بن شيخ السقاف تربية ولده أحمد.

وسافرنا على الجمال في الشتاء وفي جو شديد البرودة ، وتوجهنا أولاً إلىٰ تريم، ومنها ركبنا سيارة سارت بنا في طرق شديدة الوعورة حتىٰ وصلنا الشحر وهو الميناء الرئيسي لحضرموت في تلك الفترة ، الذي يستقبل المراكب الدولية.

ولما وصلنا الشحر. . نزلنا في ضيافة علي جواس ، وكان من وجهاء الشحر وتجارها الكبار ، وله بها دار فخمة وكبيرة ، وقد أحسن استقبالنا ورحب بنا .

بيت علي جواس بالشحر الذي نزلنا به في طريقنا لجاوة

وجلس علي جواس يتحدث مع الخال عبد الرحمـٰن الذي يحترمه لعقله ووقاره ، ولكون الخال عبد الرحمـٰن أيضاً من طلبة العلم ، كما كانت بينهما بعض المعاملات التجارية ، أما نحن الشباب. . فلم نكن نفكر إلا في تذوق السمك الذي سمعنا عنه في حضرموت ولم نذقه في حياتنا من قبل ، واستمر مضيفنا جواس يتحدث مع الخال عبد الرحمـٰن حتىٰ جاء الغداء ، فوضعوا أمامنا صحون الرز وعليها السمك المقدد ، فطارت عقولنا لرؤية السمك ، ولما دعينا إلى الطعام اندفعنا بجنون نحو السمك ، فقام علي جواس بجمع السمك من الصحون ، وصار يعطينا من السمك حسب حاجتنا ، فاغتظنا من تصرفه الذي قيد حريتنا في أكل السمك ، ولـٰكنا لم نكن نملك أن نفعل شيئاً مع مضيفنا ، خصوصاً وأننا ما زلنا من صغار السن .

ثم خرجنا العشية نتمشىٰ باتجاه البحر الذي لم نره في حياتنا من قبل ، ولما اقتربنا من الساحل . . شممنا رائحة السمك ، فانشغلنا بتتبع الرائحة عن رؤية البحر ، وقادتنا رائحة السمك إلىٰ حوش كبير يتصاعد منه الدخان ، وله باب مخلخل ، فوقفنا نتفرج على الحوش من فتحات الباب ، فإذا بنا نرىٰ أكداساً من السمك مفروشة علىٰ أرضية الحوش ، وشخصان يشعلان النار ، فإذا هدأت قربوا منها السمك لتلسعه النار ثم يلقوا بالسمك علىٰ أرض الحوش لتجففه حرارة الشمس ، وبينما كنا نتفرج من فتحات الباب علىٰ هٰذا المنظر العجيب . . إذ انفتح باب الحوش وخرج منه رجل ، فلما رآنا . . عرف من هيئتنا أننا من داخل حضرموت ، فسألنا هل تريدون سمكاً ؟ فأجبناه فوراً بالإيجاب ، ففتح لنا الباب وقال : ادخلوا وخذوا ما شئتم ، فدخلنا وأخذنا من السمك المجفف ما استطعنا حمله ، ثم ذهبنا بما معنا من السمك إلىٰ ساحل البحر وجلسنا صفّاً على الشاطىء ووضعنا السمك أمامنا وقعدنا نأكل منه ونتفرج على البحر حتى التهمنا كل ما جمعناه من السمك ، ولما اقترب المغرب . . عدنا إلى البيت فرحين بما حققناه ، وبعد أن صلينا المغرب والعشاء جمعاً وقصراً . . انطلقت بطوننا بإسهال فظيع لم نعرف مثله من قبل ، وكنا نتسابق على الحمام ، وبعضنا لم يعد يستطيع أن ينتظر دوره فيسكبها علىٰ نفسه ، وبقينا علىٰ هٰذه الحالة الصعبة طول الليل بسبب أكلة السمك .

ومكثنا في بيت علي جواس أياماً ننتظر قدوم الباخرة الهولندية القادمة من بتافيا أو جاكرتا كما تسمى الآن ، وكانت هٰذه البواخر ترسو في الشحر وليس المكلاَّ ؛ فقد كان الشحر هو الميناء الرئيسي لحضرموت ، إلا أن البواخر لا تستطيع الاقتراب من ساحل الشحر فترسو بعيداً عن الميناء ، وينتقل الركاب إلى السفن بالسنابيك .

ولما وصلت الباخرة الهولندية التي ننتظرها . . ركبنا إليها سنبوكاً أوصلنا إليها مع متاعنا ، ثم سارت بنا أياماً طويلة حتىٰ وصلنا بتافيا ، فوجدت في استقبالنا والدي مع مجموعة من آل بن سيدة وآل محضار ، وقد فرح الوالد بقدومنا فرحاً كبيراً ، ثم انتقلنا معه والمستقبلين إلىٰ منزل آل محضار ببتافيا ، فأكرموا ضيافتنا

وقدموا لنا عشاء فاخراً من الرز واللحم والأصناف الأخرىٰ، وجلس الوالد وأصحابه بعد العشاء يتسامرون ويضحكون ، ثم سافرنا مع الوالد صباح اليوم الثاني من بتافيا إلى الصولو بالقطار، وكنت في هـٰذه الأثناء في منتهى الدهشة والاستغراب مما أراه من المشاهدات الجديدة التي لم تخطر علىٰ بالي من قبل،

بيت الوالد علوي بالصولو

ووصلنا بعد ساعات إلى الصولو مقر إقامة الوالد وعمله ، وهي مدينة صغيرة وجميلة ، وللوالد فيها بيت مكون من صالة وطرقة علىٰ جوانبها ثلاث غرف ـ يسمونها مخازن ـ وحمام خارج البيت . فيما يشبه الحوش ، يستخدم للغسل وقضاء الحاجة ، أما المكان الموجود في مدخل البيت فيستخدم لاستقبال الضيوف ، وبه قاعدة خشبيّة مستطيلة لجلوس زوار الوالد .

وفي اليوم الثاني لوصولنا قدم لنا الغداء في بيت الوالد ، فإذا بنا بمائدة كبيرة عليها أصناف من اللحم المشوي والرز والساتية ، وظننت أن الوالد سيستقبل ضيوفاً ، ولـٰكني لما سألته . . نفىٰ ذلك وقال : هـٰذا أكلنا المعتاد لكل يوم ، وكان على السفرة من اللحم رأس كامل ، فقال الوالد : إننا نشتري رأس الغنم من كعويلة بخمس وسبعين سنتاً ، ثم يشتري كعويلة منا الجلد بخمسين سنتاً ، فهـٰذا اللحم كله قيمته خمسة وعشرون سنتاً .

وتشتهر الصولو بجودة لحوم أغنامها وتفنن أهلها في الطعام ، وهـٰكذا تمتعنا بهـٰذه الموائد اليومية التي لم نعرف مثلها من قبل ، بعد أن كنا نعاني

بحضرموت من الفاقة والحرمان ، ورغم هٰذا النعيم . . فإن كثيراً من الحضارم يحنون للعودة إلىٰ بلادهم حضرموت رغم ما بها من قسوة ومشاق ، فهٰذا والدي مثلاً ترك جاوة بكل ما فيها من نعيم وعاد ليستقر في حضرموت علىٰ حقارة معيشتها ، ولم يعد إلىٰ جاوة بعد ذلك .

وأدى التغير في طبيعة أكلي وأسلوب حياتي إلىٰ زيادة كبيرة في وزني ، أما العم أحمد رفيقي في السفر . . فبقي علىٰ ما هو عليه ، رغم أن شهيته منفتحة ، فظن الوالد أن في بطنه بعض الديدان ، فأخذه إلى الطبيب ، فكشف عليه الطبيب بعيادته وطلب منه عينة من البراز ، وحيث لم يكن لنا سابق معرفة بهٰذه الأمور . . فقد ذهبت للطبيب مع العم أحمد في اليوم الثاني بقدر مليء لآخره بما طلب ، فتعبقت العيادة بالروائح وانزعج المرضى المنتظرون بالعيادة ، وتضايق منا الطبيب وأمر التمورجي بإلقاء القدر بما فيه بالخارج ، وقد أعطى الطبيب للعم أحمد بعض الأدوية ، فتحسنت صحته وتزايد وزنه .

مكان معمل الوالد علوي للباتيك بالصولو

وكان للوالد معمل للباتيك على الشارع الرئيسي ، ويجتمع في معمله من العمال ما يزيد في بعض الأحيان على السبعين عاملاً ، وكان الوالد يتوجه إلىٰ معمله في الصباح الباكر ويقصد إلىٰ غرفته الخاصة بالمعمل فيتقاطر عليه العمال الجاويون فيوزع عليهم الشمع والقماش الخام ويسجل علىٰ كل واحد من

العمال ما أخذ ويكتب العامل ما تسلمه باسمه ، ثم يذهب كل عامل إلىٰ مكانه المخصص ويقوم العمال بوضع الشمع على القماش حسب التصميم المطلوب، ثم يوضع القماش في الألوان المذابة ، وعند إبعاد الشمع عن القماش تظهر الرسومات على القماش .

وكان والدي يعمل بطريقة ذكية ، فكانت له غرفة لابتكار الألوان يسميها غرفة الاختراعات ، وفيها بودرة الألوان المختلفة وميزان خاص ، فيأخذ الوالد كمية معينة من بودرة الألوان ثم يقوم بوزنها يسجله ، ثم يقوم بإضافة الماء للون ويجربه ، فإذا أعجبه اللون. . أمر العمال باستخدامه على القماش الخام ، ثم يترك القماش الملون ليجف تحت أشعة الشمس ، وفي اليوم الثاني يختبر الوالد جودة اللون ومنظره ، فإذا أعجبه. . اعتمده أو قام بتحضير لون آخر بعد أن يضبط موازين الأول .

وقد كلفني الوالد مع العم أحمد بمهمة تقطيع بالات القماش الخام ، فوضع لنا علامة على الجدار نقطع القماش بقدرها ، وهٰكذا نمضي يومنا بمعمل الوالد في تقطيع بالات القماش ، فإذا اقترب أذان الظهر. . عدنا مع الوالد إلى البيت للصلاة وتناول الغداء والقيلولة ، وفي العشية يستقبل الوالد بعض الزوار أو نذهب معه لحضور الجلسات العلمية أو للزيارة وأداء الواجبات .

ومكثت في جاوة مع والدي حوالي التسعة أشهر ، ثم قرر الوالد العودة إلىٰ حضرموت ، وكان الوالد متردداً في البت في أمري ، فهل يا ترىٰ يأخذني معه إلىٰ حضرموت ، أو يتركني في جاوة للعمل وطلب الرزق ، أو يرسلني للدراسة بمصر أو العراق ؟

فاستشار والدي الشاعر الكبير السيد أحمد بن عبد الله بن محسن السقاف ، فقال له ببساطة : إن أردته أن يكون مصريّاً فأرسله إلىٰ مصر ، وإن أردته عراقياً فأرسله إلى العراق ، وإن أردته مثلك. . فخذه معك إلىٰ حضرموت ، فقرر الوالد أن يأخذني معه إلىٰ حضرموت .

ولم يعجبني قرار العودة إلىٰ حضرموت ؛ فقد استمتعت بمعيشتي في

جاوة ، وأعجبت بما يقدم لنا فيها من أصناف الطعام الشهية مقارنة بحياة الفقر والجوع التي نعيشها في حضرموت .

ولما رأىٰ أحد أحفاد الجد حسين بن محسن بن علوي السقاف المولدين ما أنا عليه من الهم والغم بقرار العودة إلىٰ حضرموت. . حاول أن يحل المشكلة ببساطة الجاويين ، فقال لي : إذا قرب موعد السفر سآخذك معي إلىٰ سورابايا ، وسيبحث عنك والدك بالصولو ، ولن يجدك ، فيسافر إلىٰ حضرموت بمفرده ، وتتحقق أمنيتك في البقاء بجاوة .

وكان جد الوالد الحبيب حسين بن محسن بن علوي قد هاجر إلىٰ إندونيسيا مبكراً بعد وفاة والده ، واستقر بها ، ولم يعد بعد ذلك إلىٰ حضرموت وقد خلف ذرية كبيرة في بلد التيمور ، وهو من بلاد جاوة البعيدة ، ولما وصل والدي لجاوة في رحلته الأولىٰ. . سأل عن ذرية جده حسين فوجدهم يعيشون بالتيمور حياة الجاويين الأصليين ولا يعرفون شيئاً عن أهلهم وعن أصولهم الطيبة ، فتجشم الوالد مشقة السفر وذهب إليهم بالتيمور ، وبحث عنهم وما زال بهم حتىٰ أقنعهم بالانتقال إلى الصولو حيث يعيش أغلب أهلهم وقرابتهم حياة سلفهم العلويين بحضرموت .

وقد تزوج الوالد فيما بعد واحدة من حفيدات جده حسين ، وهي أم إخواني المولدين بجاوة عبد الله وحسين .

ومن الطرائف أنه زار بيت الوالد في أحد الأيام أحد أحفاد الجد حسين بن محسن بن علوي ، فدعاه الوالد للجلوس على الأريكة ، فرد بعربية مكسرة استنىٰ لما أفك (شفتّوا) فضحكت مع العم أحمد علىٰ كلمة (شفتّوا) فغضب علينا ونهرنا وقال : أنتم جهلة لا تعرفون من الجاوية كلمة واحدة ، فاعتذر له الوالد عن سوء تصرفنا حتىٰ أرضاه .

وبعد أن اتخذ الوالد قرار العودة. . عدت معه في أواخر سنة (١٣٥٧هـ) إلىٰ حضرموت ، وأذكر أننا مررنا بسنغافورة ، فصادف وجود العلامة السيد علوي بن طاهر الحدّاد بها ، فزاره والدي وأنا معه ، وطلب مني أن أقرأ الفاتحة عليه ،

ولما قرأتها بالقاف اليابسة كما يفعل الحضارم . . أوقفني وقال : شقّ القاف وبعد أن أجازني . . روىٰ له والدي قصّة الحبيب سقاف بن محمد جده الأعلىٰ حيث كان يصلي إماماً في مسجد طه ، وبلغه من يشكك بصحة الصلاة عند قراءة الفاتحة بالقاف اليابسة ، فتحمّل بذلك كثيراً . . ولـٰكنه سري عنه بعد ذلك عندما رأىٰ في منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه باليابسة . وقد فرح العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله بعودة الوالد لحضرموت كثيراً ؛ لأنه كان يحبه ويسميه بالولد الفقيه ، وبعد عودتي خطب لي والدي زوجتي وأم أولادي طلحة بنت العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، واستقر بي المقام في حضرموت بعد الزواج ، وتقوّت صلتي بالعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وأصبحت من خاصة خواصه .

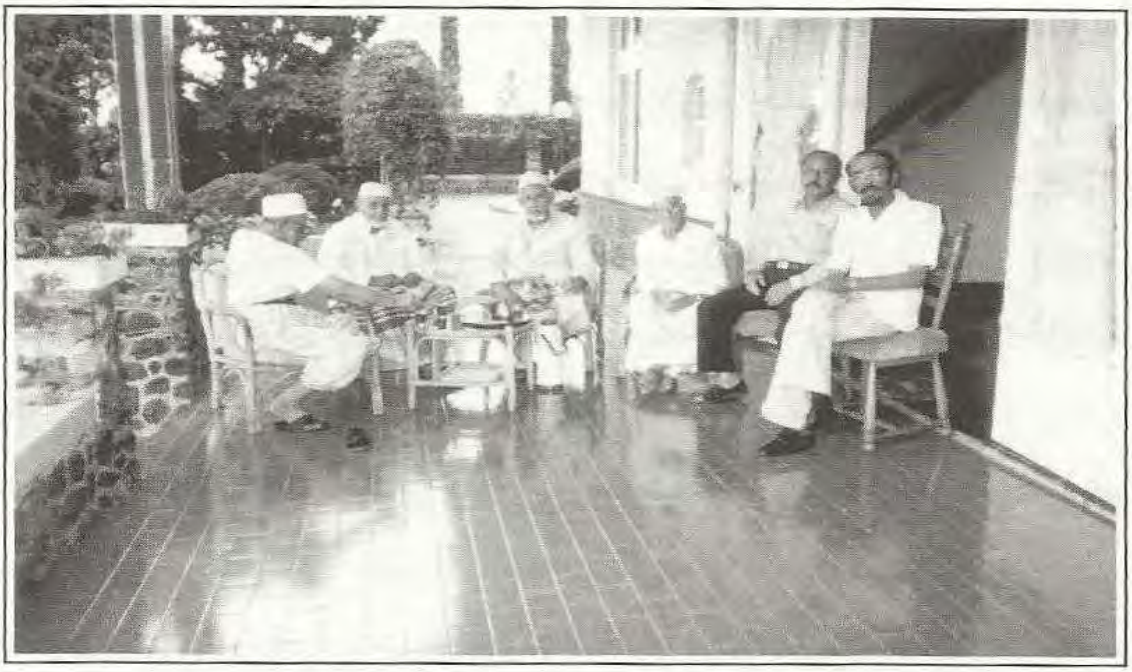

مع العم محمد بن علوي السقاف وأخي حسين في جبل تاومنجو بإندونيسيا عام ١٩٩٥

كما قمت في عام (١٩٩٥م) بزيارة لإندونيسيا حيث وجدت أن أغلب من عرفتهم في السابق قد انتقلوا إلىٰ رحمة الله ، ووجدت أخي حسين بن علوي كما تعرفت بالحبيب محمد بن علوي السقاف ، وهو من بقايا الرعيل الأول بإندونيسيا ، ويقيم بسورابايا ، وقد استمرت علاقتي به وتوليت الإشراف علىٰ بناء بيته بالمدينة المنورة ، وأخذ يتردد على المدينة المنورة مع عائلته ويجاور بها عدة أشهر في السنة .

❊ ❊ ❊

العناية الطبية بحضرموت في الثلاثينيات الميلادية

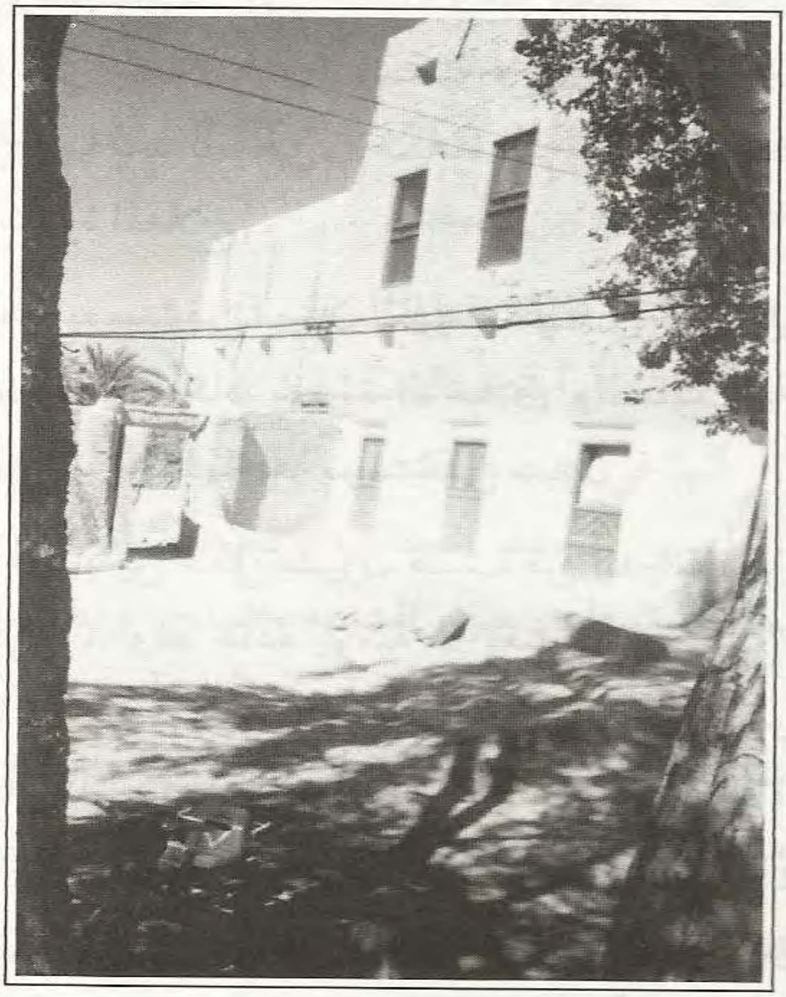

منزلي في سيؤن في بداية إنشائه

اعتمد الناس بحضرموت وإلىٰ فترة قريبة في أدويتهم وعلاجهم على الوصفات الشعبية والأدوية العشبية ، ولم تكن زيارة الأطباء معروفة إلا في الأمراض التي تفشل فيها طرق العلاج السابقة ، ووجد بسيؤن في تلك الفترة الطبيب الهندي رندي ، والذي أمضىٰ فيها فترة طويلة ، كما أنشأت عائلة الكاف مستشفىٰ بتريم ، وأحضروا له الطبيب الإيطالي مروشىٰ ، وعملت بشبام الطبيبة الألمانية هوك .

ولما مرضت بتريم بعد إسرافي في الطعام في القصة التي أوردت لها فصلاً سميته (قصة المرض) ، وملخصها : أنه بعد حضوري بتريم وليمة السيد جمل الليل بن عبد الرحمٰن الكاف علىٰ شرف السلطان علي عبد الكريم سلطان لحج . . حصلت ببطني آلام فظيعة ، ولم أجد بتريم أيّ طبيب يسعفني ، فاضطررت للعودة إلىٰ سيؤن رغم انقطاع الطريق بسبب السيل ، فأعطاني الطبيب رندي بسيؤن أدوية مسكنة ، ثم أخذ يعالجني فيما بعد بدواء الآميتين الذي تبين فيما بعد بأنه من الأسباب التي أدت إلىٰ تدهور حالتي ، مما اضطرني للسفر لأسمرة للعلاج .

وقبل رندي عمل بمستشفىٰ سيؤن الطبيب الهندي كفيل الدين ، ولم تكن له معرفة جيدة بالطب ، كما كان سيىء الأخلاق والسلوك ، وأفسد معه بعض الشباب الحضارمة الذين عملوا معه بمستشفىٰ سيؤن .

وقبل الطبيبين السابقين عمل بسيؤن طبيب من الديانة البوذية ، وكان شرس الأخلاق حاد الطباع ، وله عادة يومية لا يغيرها ؛ حيث يذهب بعد صلاة المغرب إلىٰ بيت السيد بوبكر بن شيخ الكاف ، حيث توضع له دلة مليئة بالقهوة الشريخ ، فيجلس صامتاً يرتشفها فنجاناً بعد فنجان ، دون أن يتكلم أو يكلمه أحد ، فإذا فرغت الدلة . . قام وذهب إلىٰ بيته ، وكان يكرر هٰذا الروتين في كل يوم ، وفي إحدى المرات أصيب أخي عبد الرحمٰن بسعال شديد لم تنفع معه أدويتنا الشعبية ، وخاف عليه الوالد أن يموت ، فاحتجنا إلى الطبيب ، فسار والدي بعد صلاة المغرب إلىٰ منزل العم بوبكر بن شيخ الكاف وهو في غاية القلق والخوف ؛ ليستعين بالعم بوبكر علىٰ إحضار الطبيب الذي لا يستجيب لأحد إلا بشق الأنفس ، فلما وصل والدي لبيت العم بوبكر وجد الطبيب البوذي في أحد أركان المجلس يرتشف قهوته في صمت تام ، فكلمه والدي بلهفة وقلق ، وشرح له حالة الأخ عبد الرحمٰن الحرجة ، ولٰكن الطبيب لم يستمع للوالد ولم يلتفت إليه ، واستمر يرتشف قهوته في هدوء وصمت ، وكأنّ أحداً لا يحدّثه ، فاستعان والدي بالعم بوبكر ليتوسط له عند

الطبيب ، فقال العم بوبكر لوالدي : انتظر حتىٰ يفرغ الطبيب من قهوته ، وسأطلب منه مرافقتك ، فجلس والدي ينتظر وهو علىٰ أحر من الجمر ، فالتفت إليه العم بوبكر وهو علىٰ هٰذه الحال وقال له : أنتم العلماء إذا طلب أحد منكم فتوىٰ أو مسألة تتأخرون وتتركونه يعاني ما تعانيه الآن ، وبعد أن فرغ الطبيب من قهوته طلب منه العم بوبكر الذهاب مع الوالد ، فذهب ، ولما وصل . . نظر إلى الأخ عبد الرحمـٰن من بعيد وكتب له دواء ، كما أنه عاتبنا وقال : أمن أجل هـٰذا الطفل تقلقون راحتي ، إلا أن أخي عبد الرحمـٰن استفاد بفضل الله من الدواء ، وشفي من السعال .

ومما يدل علىٰ شراسة هـٰذا الطبيب البوذي وسوء خلقه ما حدث للعم علي بن عبد الله الذي كان ماراً أمام المستشفىٰ ، فأبصر الطبيب خارجه ، فعاد إليه واشتكىٰ له من ألم في يده ، فقبض الطبيب البوذي بيد العم علي فوراً ونادىٰ علىٰ السيد طه بن محمد السقاف وكان يعمل ممرضاً بالمستشفىٰ ، وطلب منه أن يمزج شبطين من الشربة الملح ويحضرها فوراً ، ولما أحضرها . . أرغم العم علياً علىٰ شربها ، ثم قال له : الآن اذهب إلىٰ بيتك وأكمل ، أنت شفت طبيب سويت نفسك مريض ، فانصرف العم علي إلىٰ بيته وعانىٰ طول اليوم من الإسهال الحاد .

كما وجد بحضرموت في تلك الفترة عدد من الأطباء الشعبيين ومعمري الكسور المشهورين ، وقد مرضت في صغري أثناء غياب والدي بسعال شديد كان ينتابني في كل ليلة حالما أضع رأسي علىٰ مخدتي لأنام ، فيمنعني من النوم ، وفشلت كل الأدوية في شفائي ، فنصحنا العارفون بالذهاب إلى الغرفة حيث تقيم العبّادية ـ وهي امرأة اشتهرت بمهاراتها الطبية ـ فذهبت علىٰ دابة والدي إلى الغرفة مع خادم العائلة المشهور امبارك باجرذانة ، ولما وصلنا دار العبّادية بالغرفة وطرقنا الباب . . طلبت منا الانتظار ريثما تنزل ، ثم نزلت وتركتني أصعد السلم قبلها وهي خلفي تراقب أنفاسي حتىٰ وصلت إلى الغرفة ، فكشفت عن صدري وظهري ، وأشعلت النار على المكاوي وأخذت

خيطاً وأخذت تقيس بعض القياسات علىٰ صدري وظهري وتضع بعض العلامات ، ثم كوتني بالمكاوي في المواقع التي حددتها على الصدر والظهر ، وعدت إلىٰ سيؤن معافىً ، ونمت لأول مرة نوماً هادئاً مريحاً متواصلاً ، ولم يتكرر عليَّ السعال بعد هـٰذا العلاج .

ومن الذين استفادوا من هـٰذا العلاج علىٰ يد العبادية بالغرفة العم علي بن عبد الله ، وكذلك ابن عمتي الأخ محمد بن عبد القادر السّقاف ، والذي أكمل دراسته بمصر في الخمسينيات الميلادية ، وراجع أثناء إقامته بمصر الطبيب المصري المشهور علي المفتي ، ولما رأى الدكتور المفتي كيات العبادية علىٰ صدره وظهره . . سأله من كواك هـٰذه الكيات ؟ فأجابه : امرأة في حضرموت ، فقال له الدكتور علي المفتي : لقد أنقذت هـٰذه المرأة حياتك بهـٰذه الكيات .

إلا أن بعض كيات العبّادية علىٰ صدري كانت قريبة من منطقة القلب ، وكان أهل دوعن يضعون الكيات في هـٰذا المكان لعلاج المجانين ، فكنت إذا سبحت مع أصحابي الدوعنيين بأسمرة وشاهدوا الكيات في منطقة القلب . . ضحكوا وتصوروا بأنني مجنون سابق .

وتقوم العبادية أيضاً ببعض العمليات الجراحية ، ومن ذلك أنه لما تكرر على ابنتي مرض التهاب اللوزتين . . قامت العبادية باستئصال اللوزتين من حلقها باستخدام اثنين من الأقاليد (مفاتيح خشبية) فشفيت تماماً ولم يعاودها بعد هـٰذه العملية أي مرض بالحلق أو اللوزتين .

أما تعمير الكسور وجبرها . . فلأهل تاربة شهرة كبيرة في هـٰذا المجال ، ولما كانت ابنتي هـٰذه تلعب مع أعمامها وهم صغار بسطح دارنا بالبلاد . . تمسكت مع عمها طه بالخلفة (الشباك) ووقعت معه من الدور الثاني إلى الأرض ، ولـٰكنها لم تصب بسوء ، بينما كسرت يدي عمها طه ، فأخذناه إلىٰ تاربة وعمّرت يداه من الكسر وشفي .

كما سقط ابني علي من علىٰ شجرة بسيؤن وانكسرت يده اليسرىٰ ، فعمّرت

بسيؤن ولم يستفد شيئاً ، فأخذه عمه محمد إلىٰ تاربة وكنت وقتها مغترباً فعمرت يده مرة ثانية وجبر الكسر وشفي ، وذلك دليل علىٰ براعة مجبري الكسور بتاربة في هـٰذا المضمار .

* * *

مع الوالد عبد الرحمـٰن ابن عبيد الله

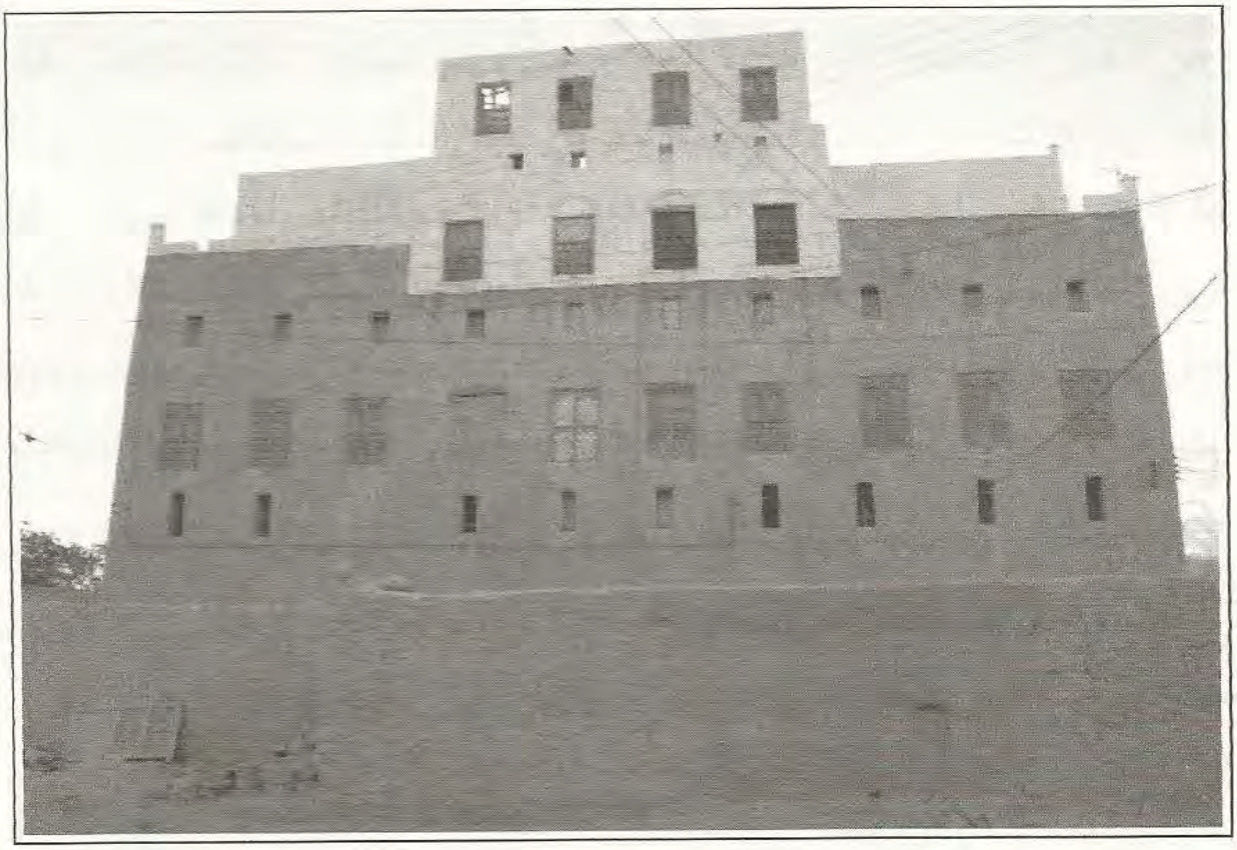

منزل الوالد بن عبيد الله في علم بدر بسيؤن

وفي الفترة التي عشت فيها ومجموعة من زملائي مع علامة حضرموت ومفتيها الوالد عبد الرحمـٰن بن عبيد الله السقاف تركزت حياتنا حول محوره ، فكان شيخنا وعلامتنا ووالدنا ورغم الفارق العظيم بيننا وبينه في العلم والشهرة وفي السن إلا أَنه عاملنا معاملة الإخوة والأصدقاء .

وللوالد ابن عبيد الله طباع متضادة فتكون فيه الشدة في بعض الأحيان ، ويكون ليناً في طبعه في أغلب الأحيان ، ويتبسط معنا في الأمور العادية ، وكنت مع الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف والعم علي بن عبد الله السقاف وآخرين من خاصة خواصه .

ونلازمه في أغلب الأوقات ، ونقرأ عليه في كل ليلة بين العصر والمغرب في كتب الأصول أحياناً ، وفي « سبل السلام » في أغلب الأحيان ، ويكون مجلسنا معه في الساقية شرق بيته ، فيجلس معنا على البطحاء ، ويتكىء علىٰ راديه ، كما يحضر معنا في بعض هـٰذه الجلسات العم عبد القادر الروش والعم محمد مساوي .

وقد استفدنا من الوالد ابن عبيد الله كثيراً ، إلا أننا أدركناه في شيخوخته بعد أن أفنىٰ عمره كله في القراءة والكتابة والتدريس والخطابة والإفتاء ، وخاض المعارك العديدة مع منافسيه ، ومر بكثير من المواقف العصيبة ، فأصبح في شيخوخته لا يحب التدريس كثيراً ، ولا يحب القراءة في مجالسه ، وعندما نأتي إليه يسألنا أولاً عن الأخبار ويقول : هاتوا أولاً الأخبار وخلوا القراءة فيما بعد ، فيسمع منا الأخبار ، ثم نأخذه بعد الأخبار إلى القراءة .

وفي إحدى المرات انتقل بمجلسه من الساقية المعتادة للجلوس إلى الشجرة المسماة (الحسارة) والواقعة شرق داره مباشرة ، فتحلقنا حوله تحت هـٰذه الشجرة وشرعنا في القراءة علىٰ عادتنا ، ثم توقف فجأة وقال : أنا أنوي دعوتكم لفسحة ووليمة ومعي شراكة في ظانة مع الفلاح عمر حيمد ، وقد ولدت هـٰذه الظانة كبشين واحد لي وواحد لعمر حيمد ، والمشكلة أني إذا أولمتكم بكبشي فسيكبر كبش عمر حيمد ويسمن ، وسأندم علىٰ كبشي الذي أكلتموه ، وكنا حريصين غاية الحرص على الاستمتاع بهـٰذه الفسحة ، فقال له السيد حسن بن شيخان وكان معنا : أنا معي الحل لهـٰذه المشكلة يا عم عبد الرحمـٰن ، فقال له الوالد ابن عبيد الله : وما هو الحل ؟ فقال السيد حسن : نثمن الكبشين بقيمة مشاعة بين الشريكين ، وتدفع أنت قيمة الكبش الذي ستولمنا به ، ويبقى الكبش الحي شراكة بينك وبين عمر حيمد ، فراقت الفكرة للعم عبد الرحمـٰن وأعجبته وقال لابن شيخان بلهجة التعجب والاندهاش الحضرمية (لبوك النار علىٰ هـٰذا الرأي ياثر (يبدوا أن) في رأس سعاده حكم) وذبح لنا الكبش وأولم لنا به في الدار الدويل الواقع شرق داره ،

وهو دار الجد محسن بن علوي ، ومع كونه من الديار القديمة جداً إلا أن به الكثير من الروحنة والنور ، وقد هدم في السنوات الأخيرة ، ولهـٰذا البيت تكة شرقية محاطة بسور اخترناها للعشاء والسمر .

وقد تمتعنا بالجلسة والطعام ، وحضر معنا الوليمة محمد حسان الذي يسميه العم عبد الرحمـٰن تندراً بمحمد الزمان ؛ لشدته وتعلقه بالدنيا ، وقد تولىٰ مهمة تقسيم اللحم فيما بيننا ، فكان كلما وضع يده علىٰ قطعة من قطع اللحم . . غيَّر رأيه واستبدل القطعة بأخرىٰ أصغر منها ، ثم كرر ذلك عدة مرات ونحن نصيح من الجوع ومن فحصه لقطع اللحم .

ومع أن العم عبد الرحمـٰن يتحمل مصاريف الفسح الكثيرة التي يرتبها لنا . . فإنه هو الذي يتولىٰ إثراء الجلسات بالحديث والإيناس والإضحاك ، وكان محباً للفسح ، وحريصاً علىٰ حضورها ، وكانت أيامنا تمضي معه في جلسات ممتعة ، وولائم دسمة ، وانبساط متواصل ، وسعادة دائمة .

وفي إحدى المرات استشرفنا لفسحة فذهبنا لمنزله قرب الظهر ، وأخبرناه بنيتنا الخروج في فسحة بمنطقة القرن الزراعية الجميلة ، فقال لنا العم عبد الرحمـٰن : يا حمير أفي مثل هـٰذا الوقت من النهار تريدونني أن أخرج معكم لفسحة وقد طبخ غدائي وأصبح جاهزاً للأكل ؛ إلا أننا لم نيأس من مشاركته ؛ لأنه لا تطيب لنا الفسح بدونه ، ونعرف حبه للتنزه والفسح ، فقلنا له : خلاص يا عم عبد الرحمـٰن ، سنذهب لوحدنا ـ وتظاهرنا بالخروج ـ ولـٰكنه نادانا قبل أن نصل السلم وقال : خلاص خلاص سآخذ غدائي معي وأذهب معكم ، وكنا حريصين علىٰ حضوره ؛ لأنه هو الذي يحرك المجالس وينعشها بحديثه وعلمه ، وذاكرته العجيبة التي تختزن ما لا يحصىٰ من الأحداث والعلوم والطرف والحكايات .

ولما حضرنا لمجلسه في إحدى المرات . . أخبرنا بأنه قد وصله مبلغ من المال ، وأنه ينوي صرف هـٰذا المبلغ في فسحة لم تحدث مثلها من قبل ، وقال سأختار لهـٰذه الفسحة مجموعة من الناس سأصنِّفهم بنفسي وأوزعهم

لمجموعات تتشابه في الأخلاق والطباع، وسأعطي لكل مجموعة مائة شلن لتشتري كل ما تحتاجه لعشائها . **وصنف المجموعة الأولىٰ** من العم عيدروس السوم، والعم محمد مساوي، والعم عبد القادر الروش، واثنين نسيت أسماءهم.

ووضع علىٰ رأس هـٰذه المجموعة الحدّاد السمار ، وأعطاهم مائة شلن لتغطية مصاريف العشاء كاملة .

وتكونت الفرقة الثانية من السيد أحمد بن عمر السقاف (الصنبل) ، و السيد عبد الرحمـٰن بن عمر (مقدح) ، والسيد علوي بن الشيخ (الموتر) ، ومعهم مجموعة من أشباههم .

وعين عليهم رئيساً .

وصنف الفرقة الثالثة من أشخاص ؛ فيهم آل حسان ، وعلىٰ رأسهم محمد الزمان .

وعين ابنه حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله رئيساً لهـٰذه الفرقة .

وتكونت الفرقة الخاصة به والتي اختارها بنفسه مني ، ومن الحبيب عبد القادر بن أحمد ، والعم علي بن عبد الله ، وآخر لا أذكر اسمه .

وعقدت هـٰذه الفسحة العجيبة بمنزل العم عبد الرحمـٰن بالقرن ، والذي يسميه بير السماء ، ولهـٰذا المنزل تكة واسعة ، وبجوارها جابية تقع علىٰ مرتفع من الأرض ، إضافة إلىٰ تكة أخرىٰ للبيت ، وانتشرت هـٰذه المجموعات في بير السماء ، واختارت كل فرقة مكاناً خاصاً بها ، ومعها جميع المستلزمات من قدور وصحون وكهربان ، فجلست فرقة الحدّاد السمار في التكة الكبيرة ، وجلست فرقة محمد الزمان ورئيسهم حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله قريباً منهم ، واختارت فرقة الصنبل والتي سماها العم عبد الرحمـٰن تندراً فرقة الملاييح مكانها قرب المقود (منحدر السناوة لنزح الماء من البير) بينما جلسنا مع العم عبد الرحمـٰن بجوار الجابية .

وأشعلت كل مجموعة نارها وكهربانها ، وحضّرت الصحون والقدور ،

وشرَعَت في عمل العشاء ، إلا فرقة السمار . . فلم تظهر لهم نار ؛ بسبب تأخر رئيسهم السمار الذي ذهب إلى السوق وطال غيابه فيه ، ثم وصلهم بعد مدة من الانتظار وقد صرر المشتريات في ردائه ، فصاحوا من الفرح وذهبوا إليه يزفوه وحملوه إلىٰ مكان جلوسهم ، وبدؤوا يفككون الصرر من ردائه ، فوجدوا بأحد الصرر التنباك ، فصاحوا عليه : (يا حمار تشتري التنباك بفلوسنا) فقال لهم : أنا شريك معكم في هٰذه الفلوس ، ومن يرد أن يدخن . . فالتنباك أمامه .

وتواصلت هٰذه الفسحة العجيبة الغريبة بعد ذلك ، وأضاءت الكهربانات المتعددة المكان ، واشتعلت نار الطبخ في خمس مواقع ، واجتمعت في هٰذه المواقع الخمسة مجموعات من الناس تغني وتضحك وتتسامر ، وفي أثناء ذلك . . دخل علينا الحبيب حسين بن محمد السقاف إمام مسجد طه ، وهو حسن النية سليم البال ، وقد سمع بفسحة ابن عبيد الله في القرن ، فوصل برغبته ، ولما أقبل علينا . . اتجه أولاً إلىٰ فرقة السمار ، فقام العم عيدروس السوم ومساوي يرحبون به ، ودفعوا به تجاه مجموعة آل حسان ، فقام آل حسان يرحبون به وأوصلوه إلىٰ فرقة الملاييح ، وقام الملاييح وأوصلوه للفرقة الأخرىٰ ـ وهو سليم البال حسن الظن ـ فكانوا يتدافعونه وهويقول لهم : (لا ، لا يا أولادي ، أنا كلكم بجبركم) ظناً منه بأنهم يتصارعون عليه ، فقمت وأحضرته إلىٰ مجلسنا مع العم عبد الرحمٰن ، وكانت فسحة من الفسح التاريخية الرائعة .

وكان الوالد ابن عبيد الله يعقد المقارنات أحياناً بين أعمامه جدنا حسين بن محسن وجديد بن محسن جد صديقنا سالم بن محسن بن جديد ، فيرفع جدنا في الصفات فنفخر به علىٰ أخينا سالم بن جديد ، ثم يخفضه ويرفع من قدر عمه جديد فيفتخر علينا سالم بن جديد ، ويأتي بالمعلومات الغزيرة ، والصفات العديدة ، وكأنما عاش في زمانهما .

وفي مرة من المرات أثار الوالد بن عبيد الله سجالاً شعرياً بين الشاعرين السيد الحداد السمار والعم محمد مساوي ، فأخذ كل منهم يهجو الآخر ،

والعم عبد الرحمـٰن يساعدهما علىٰ إحكام الأبيات ، ونحن نضحك من طرافة الأبيات فقال الحداد السمار من قصيدة طويلة يهجو فيها العم محمد مساوي :

أيـــــام فقـــره زرىٰ عـــزره   أشكـــال والـــوان اردانـــه
أبـــوه ملقـــىٰ نســـب وافـــى   ذلاً تـــرخـــص بحســـانـــه

فرد العم محمد مساوي على السيد الحداد بأبيات مطلعها :

وراكم يالحدد كلكم فيكم علامة   إذا الخشم وش عاد لي تحت الحزامه

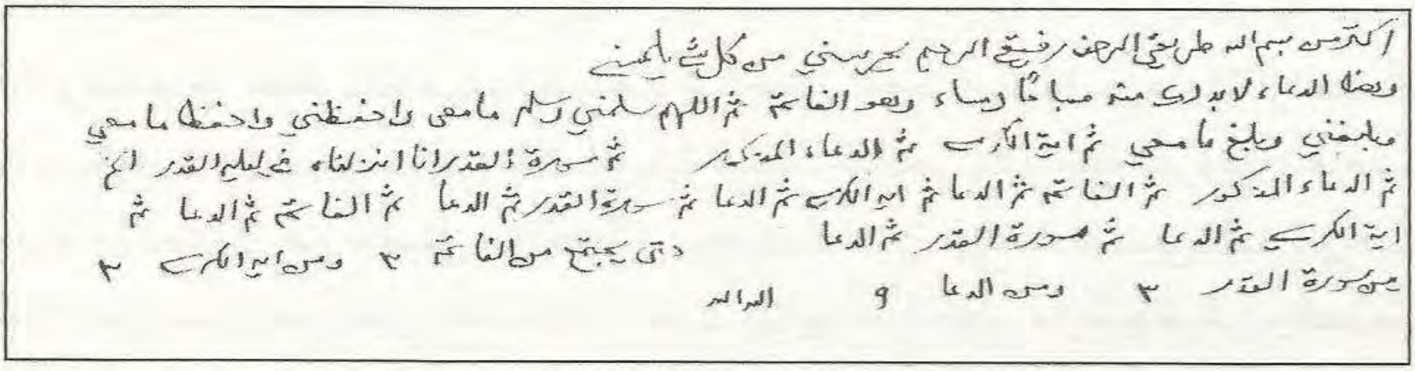
اكتب من بسم الله على بحق الرحمن رفيع الرحيم يحرسني من كل شيء يلمسني
وهذا الدعاء لا بد منه صباحاً ومساءً وبعد الفاتحة ثم اللهم سلمني وسلم ما معي واحفظني واحفظ ما معي
وبلغني وبلغ ما معي ثم آية الكرسي ثم الدعاء المذكور ثم سورة القدر إنا أنزلناه في ليلة القدر الخ
ثم الدعاء المذكور ثم الفاتحة ثم الدعاء ثم آية الكرسي ثم الدعاء ثم سورة القدر ثم الدعاء ثم الفاتحة ثم الدعاء ثم
آية الكرسي ثم الدعاء ثم سورة القدر ثم الدعاء   حتى يجتمع من الفاتحة ٣ ومن آية الكرسي ٣
ومن سورة القدر ٣ ومن الدعاء ٩   الوالد

نموذج لخط الوالد ابن عبيد الله

وأهدي للوالد ابن عبيد الله حصان ، فسماه عيلمان ، وأقام لأصحابه فسحة علىٰ نفقته بهـٰذه المناسبة ، اشترط عليهم فيها تخصيص جميع الكلام في هـٰذه الفسحة عن حصانه عيلمان .

وقام العم عبد الرحمـٰن بزيارة تريم ، وأنشأ قصيدة مؤثرة ليلقيها أمام الفقيه المقدم ، واختار العم عيدروس السقاف السوم لينشدها له ، وطلب مني ومن الحبيب عبد القادر بن أحمد والعم علي بن عبد الله مرافقته ، كما صحبنا في هـٰذه الزيارة ابنه محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، ولما حضرت السيارة . تأخر العم عيدروس السوم ، فانتظرناه حتىٰ طال علينا الانتظار ـ ولم يحضر ـ فأشار علينا العم عبد الرحمـٰن بالتحرك ، ولما وصلنا تريم ودخلنا لقبة الفقيه المقدم . افتقد العم عبد الرحمـٰن العم عيدروس السوم الذي يحب أن ينشد له قصيدته بصوته الحسن ، ولم يتوفر لنا منشد آخر ، غير أننا وجدنا بقبة

الفقيه العم سالم خرد ، فقلنا للعم عبد الرحمـٰن : هـٰذا هو المنشد الذي تتمناه ، فجاء العم سالم وسلم على العم عبد الرحمـٰن وجلس ، ولم يكن بينه وبين العم عبد الرحمـٰن سابق معرفة ، فأعطاه العم عبد الرحمـٰن قصيدته ، فأنشدها العم سالم خرد بصوت شجي وبطريقة مؤثرة ، فبكى العم عبد الرحمـٰن من التأثر وبكينا معه ، ثم دعا بعد ذلك بدعاء مؤثر ، وقال : خلاص ، آنس القلب ريح القبول ، ثم قال : (الصيد كل الصيد في جوف الفرا) ورتب فاتحة عامة ، ولم يزر في هـٰذه الزيارة غير الفقيه ، وغادرنا معه القبة واتجهنا إلىٰ منزل حداد الكاف بعيديد ، بعد أن أصر على استضافة العم عبد الرحمـٰن وصحبه .

وقد فرح حداد الكاف بالعم عبد الرحمـٰن فرحاً عظيماً ، وأعد لراحته كل ما يستطيع ، وكان الوقت في تلك الزيارة شتاء ، والجو يميل إلى البرودة ، فأعد لنا حداد ما نحتاجه من الفرش والبطاطين ، وقد أحضر الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن بطانيته من سيؤن من غير داع لذلك ؛ حيث إن بيوت الكاف مليئة بالفرش والبطاطين من كل الأنواع ، ونمنا ليلتنا في بيت حداد الكاف ، ونام الأخ محمد في بطانيته ، وفي الصباح اجتمعنا للفطور ، وقام الخدم بطي الفرش والبطاطين بما فيها بطانية الأخ محمد الخاصة ، واستحىٰ محمد أن يطلب بطانيته ، واشتكىٰ لنا وطلب منا أن نكلمهم فيها ، فلم نجبه لطلبه ، فاشتكىٰ محمد عند والده ، ولما حضر حداد لمجلس العم عبد الرحمـٰن . قال العم عبد الرحمـٰن : أيش تقولون في السليمود (بطانية) ، سليمود محمد ولاّ سليمود حداد ؟ فغمغمنا بالكلام ، وقلنا : اظاهر أنه سليمود حداد ، فعاتبنا العم عبد الرحمـٰن ورفع صوته علينا وشتمنا ، وضحك حداد وضحكنا من هـٰذا الموقف الطريف .

وفي اليوم الثاني قام العم عبد الرحمـٰن بزيارة الحبيب علوي بن شهاب ، ففرح به الحبيب علوي فرحاً عظيماً ، وكان معنا الأخ عبد القادر الروش ، وفي هـٰذه الزيارة تحدث العم عبد الرحمـٰن ، ثم تحدث الحبيب علوي ، وبعد ذلك قال الحبيب علوي للعم عبد الرحمـٰن : يا عبد الرحمـٰن شف الشيخ عبد الله بن سمير يقول إن أولاد السقاف هـٰؤلاء عبارة عن ختمة (مصحف) كل

واحد منهم عبارة عن جزء فيها ، فرد العم عبد الرحمٰن على الفور : هٰذا الكلام صحيح يا علوي ، ولٰكن نحن آل علوي بن سقاف من جزء (قل هو الله أحد) أما الروش هٰذا فمن جزء (تبت) فضحك العم علوي وأخذ يكرر : الروش (تبت) ثم يضحك ثانية ، ويقول العم عبد القادر الروش بأن هٰذه الطرفة قد قوّت علاقته بالعم علوي بن شهاب ، الذي كان يبادره كلما التقىٰ به فيما بعد الروش (تبّت) ويضحك .

وبعد ذلك قال العم علوي بن شهاب للعم عبد الرحمٰن : شفنا يا عبد الرحمٰن ، ما أروح عند أحد ولا أقبل عزومة لأحد ، ولٰكن معك سأذهب لكل عزومة ، وتتابعت دعوات الضيافة على العم عبد الرحمٰن أثناء هٰذه الزيارة ، فحضرنا عزومة عند الحبيب عبد الرحمٰن بن شهاب والد علوي بن شهاب ، الذي كان العم عبد الرحمٰن يسميه تندراً بٱسم آخر ؛ لتمييزه عن الحبيب علوي بن شهاب ؛ نظراً للتشابه في الأسماء ، وكان العم عبد الرحمٰن بن شهاب مشلولاً ويجلس في المجالس علىٰ كرسي مرتفع ، ولما وصلنا إلىٰ بيته . . رحب بنا وهو في مكانه ، ثم تسلم العم عبد الرحمٰن ـ علىٰ عادته ـ زمام المجلس واستفاض في الحديث كعادته ، وكان حديثه في العلم تارة ، وفي الأدب والتاريخ تارة أخرىٰ ، ثم أخذ يسرد النوادر المضحكة ، ثم بعد ذلك قال : يا علوي ـ متحدثاً إلى الحبيب علوي بن شهاب ـ إنه في مرة ضيق الله علىٰ أحدهم معيشته مع سعة في حبّ المرة ، فكان يدعو في آخر الليل : يا رب يا ضيّقهم كلهم ، يا وسّعهم كلهم ، فضحك الحبيب علوي بن شهاب وهو يردّد كلمة (مسكين . . مسكين) وضحك الحبيب عبد الرحمٰن بن شهاب حتىٰ سقط من كرسيه على الأرض .

وكانت هٰذه هي الزيارة الأخيرة للوالد ابن عبيد الله لتريم ، وكان حضور العم عبد الرحمٰن يشيع في المجالس البهجة والأنس ، حتىٰ إن الأستاذ صالح الحامد قال في رثاء العم عبد الرحمٰن :

تغذي المجالس بهجةً ومسرة   فكأن بهجتها عليك لزام

وفي زيارة سابقة لتريم نزل العم عبد الرحمـٰن ضيفاً على السيد عبد الرحمـٰن بن شيخ الكاف ، وتصادف أن جاء إلىٰ تريم وفد من دوعن برئاسة العم حامد البار ، وكان بين العم حامد وبين السيد عبد الرحمـٰن بن شيخ الكاف ترابط وأخوة في الله ومشاركة في العبادة ، وكانا يخرجان آخر الليل في كل ليلة لزيارة الفقية المقدم ، بمصاحبة وفد دوعن ، وفيهم مجموعة من الشباب ؛ منهم السيد عيدروس المحضار ـ الذي أصبح فيما بعد من أقرب أصدقائي بجدة ـ ولم تعجب الشباب الذين يحبون السمر والسهر والنوم هـٰذه الزيارة المتأخرة للفقيه ، وتعبوا منها ، ولـٰكنهم لم يجدوا طريقاً للتخلف عنها .

وقال الأخ عيدروس المحضار : ثم وصل العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله من سيؤن ، فاشتكينا له من هـٰذه الزيارة المتأخرة ، فوعدنا بأن يجعل لنا منها مخرجاً ، ولما انتظم المجلس بدار السيد عبد الرحمـٰن بن شيخ الكاف . . قال العم عبد الرحمـٰن : أنت يا حامد وأنت يا عبد الرحمـٰن سمعنا أنكم تخرجون في آخر الليل كل يوم لزيارة الفقيه المقدم ، والفقيه ميّت ما يرد من نفسه ، ولو كان في داره حي ما قدرتوا تزورونه كل ليلة آخر الليل ، فضحك من في المجلس ، وتوقفت زيارة آخر الليل .

ويتقزز العم عبد الرحمـٰن من مغسلي الأموات ، وفي أثناء زيارة له لتريم . . أولموا له وليمة فيها عصيد ، ففرح العم عبد الرحمـٰن بالعصيد التي يحبها ، ولما شمر عن ساعديه استعداداً لتناول العصيد . . جاءه جيلاني سري ليغسل يديه قبل الغداء ، وكان من مغسلي الموتىٰ ، وقال للعم عبد الرحمـٰن وهو يغسل يديه : ادع لي يا عم عبد الرحمـٰن ، شفنا أنا اللي عصدت ، فقال له العم عبد الرحمـٰن : أهلكك الله ، حرمتني من أكل العصيد ، ولم يستطع أن يلمس العصيد التي تمناها .

وفي عام (١٣٧١هـ) وصل إلىٰ سيؤن الحبيب مصطفى المحضار في طريقه لزيارة نبي الله هود ، وقد اجتمع الناس علىٰ محبة الحب مصطفىٰ واحترامه وتقديره ، وله عندهم مقام كبير ، فتابع الناس رحلته منذ غادر دوعن

إلىٰ سيؤن ، وأخذوا يذكرون في كل يوم المناطق التي وصل إليها ، وأصبحت رحلته وموعد وصوله حديث البلاد من أقصاها لأدناها .

ثم وصل الحب مصطفى المحضار مع مجموعة كبيرة من مرافقيه إلىٰ سيؤن ، واستقبل في سيؤن استقبالاً عظيماً ، ونزل في ضيافة العم عبد الرحمـٰن الذين أسكنه ومن معه في داره القبلي الذي سكن فيه فيما بعد ولده جديد وأخواته ، إلا أن الحبيب مصطفىٰ لم يكن يستخدم هـٰذا البيت إلا للمبيت فقط ، وربما لم يتناول طعاماً في بيت العم عبد الرحمـٰن إلا لمرة أو مرتين ؛ فقد كان مدعواً أغلب وقته لغداء أو لعشاء ، أو حتىٰ لفطور ، وكنت من الذين لم يتمكنوا من دعوته إلا للفطور ، فلم يرفض دعوتي .

وابتدع أبو علوي في العزومة التي أقامها للحب مصطفىٰ بدعة جديدة ؛ فقد أدخل الحب مصطفىٰ بعد الغداء ليرتب الفاتحة لنسائه ، ثم تبع الناس أبو علوي في بدعته هـٰذه ، حتىٰ إن أمي لم تفتها هـٰذه الفرصة ، وطلبت من الحبيب مصطفىٰ أن يدعو لأختي نور أثناء حملها بولدها طه ، وكان والدي في السفر .

ولما حضر الحب مصطفىٰ جلسة البردة العامة التي يعقدها العم عبد الرحمـٰن في داره صباح الجمعة . . قال له العم عبد الرحمـٰن ضاحكاً متفكّهاً : يا عم مصطفىٰ قالوا إنهم يدخلونك عند الحريم غير ما تقبصهن ، فضحك الحب مصطفىٰ وقال : لك وهقة يا عبد الرحمـٰن .

وبين الحب مصطفىٰ والعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله تجاذب روحي ومحبة كبيرة ، وقد تميز الاثنان باللطافة وخفة الروح رغم علمهما وهيبتهما . ولما كان العم عبد الرحمـٰن في إحدىٰ زياراته للحبيب مصطفى المحضار بدوعن . . إذ دخل عليهم بدوي خشن المظهر رث الملبس ، فقام له الحب مصطفىٰ هاشاً باشاً يستقبله وهو يقول : يا مرحباً بعمر يا حيا بعمر ، وكأنما هو عظيم من العظماء ، فاستغرب العم عبد الرحمـٰن من هـٰذا التصرف ، وسأل الحب مصطفىٰ عن هـٰذا البدوي الذي استحق كل هـٰذا التكريم ، فقال : هـٰذا زوج

الكريمة يا عبد الرحمـٰن ، ثم أسر في أذنه وقال كلاماً توضيحياً ، فقال له العم عبد الرحمـٰن : كل هـٰذه الدعوات والتوسلات من والدكم الحب أحمد المحضار وما جابت إلا هـٰذا الكرموع .

وكان الحبيب أحمد المحضار يكرر الدعاء والتوسل إلى الله بطلب أزواج للبنات ، ومن أشعاره اللطيفة :

يا رسول الله الدرك أنها ضاقت الصدور

والشرائف بناتكم ما لحقنا لهن صهور

يا كرامات حاصلة تذهب الهم والكدور

يـا منيـات عـاجلـة والتحمـال للقبـور

وسمعت أيضاً من الوالد ابن عبيد الله : أنه اجتمعت في بيت الحبيب أحمد المحضار عدد من الحبالىٰ رغم ضعف حاله ، فلما دخل عليه الحبيب حسين بن حامد المحضار وكان الحبيب أحمد يحبه ، فوجه له أبياتاً من الشعر قال فيها :

حسين ربك يسهل كل ما هو صعب

حسين معنا حبالىٰ ست في الدار تب

فرد عليه الحب حسين بن حامد على البديهة ـ وكان مجيداً لهـٰذا النوع من الشعر الحميني ـ :

عسى المهيمن يسهل أمرهن يستتب

ولا إلـى المقبـرة كـل بشغبـه يهـب

فصاحت الحريم عليه : فال الله ولا فالك .

ومما يدل علىٰ لطافة الحب مصطفىٰ : أنه جاءه أحد المغتربين وهو يسحب صارونه ، وقد لبس الكوفية مقلوفة ووضع في جيبه الأقلام المنوعة ، فلما سلم

على الحب مصطفىٰ . . سأله : ما اسمك ؟ قال له : فلان التوي ، فقال له الحب مصطفىٰ على الفور : زودتها شوي .

وفي مرة استدعى المقدم باعشن الحبايب والسادة العلويين ؛ ومنهم الحب مصطفىٰ وأبقاهم تعسفاً إلىٰ ما بعد وقت العشاء ، ولما عاد الحب مصطفىٰ إلىٰ بيته . . طلب العشاء ، فأخبره أهله بأنهم قد أكلوه ، فسألهم الحب مصطفىٰ : ولماذا أكلتوا عشاءنا ؟ فكان الجواب : قالوا لنا إنهم حبسوكم ، فقال الحب مصطفىٰ : ولما عرفتوا أنهم حبسونا انفتحت شهيتكم للأكل .

ولما توجه الحب مصطفىٰ لشعب نبي الله هود . . تبعه جمع كبير من سيؤن وتريم من العلماء ، ولم يبق أحد من الرجال والشباب والسادة إلا وتبعه في هٰذه الزيارة ، وقد أرسل السلطان القعيطي سيارة لوري للعم عبد الرحمٰن لتحمله وصحبه إلىٰ شعب هود ، وكنت ممن حضر هٰذه الزيارة العظيمة في معية العم عبد الرحمٰن ، وذهب معنا أيضاً علىٰ هٰذه السيارة العم علي بن عبد الله السقاف ، والعم عبد القادر الروش ، والحبيب عبد القادر بن أحمد ، والعم عيدروس السوم ، كما رافقنا السيد الحداد السمار وأولاد العم عبد الرحمٰن بن عبيد الله ، والشيخ صالح باصالح ليطبخ أكلنا ، وكان رجلاً ظريفاً ولطيفاً ، وجلس العم عبد الرحمٰن في مقدمة السيارة ، بينما جلس الباقون علىٰ سطح السيارة ، وكنا نتمازح ونضحك طول الطريق ، وقام صالح باصالح بتقليد المستشار الإنجليزي (بوستيد) وهو مستشار مهووس غريب التصرف ، وله تعلق بالزراعة والمزارعين ، فلم ينقطع عن زيارتهم ، وإذا حضر . . خَطَب في المزارعين بعربية مكسرة ، ثم يقول بين فقرات الخطاب لسكرتيره محضار الكاف : قم يا سيد محضار وترجم لهم كلامي ، فيقوم محضار ويترجم لغة المستشار العربية المكسرة بعربية فصيحة ، ويقلد صالح باصالح المستشار تقليداً متقناً وبطريقة مضحكة ، ثم يطلب من الحداد السمار علىٰ طريقة المستشار ترجمة كلامه ، فيقول : قم يا سيد مخقار وترجم لهم كلامي ، فيقوم السمار ويقلد محضار في حركاته وطريقة كلامه ، فنضحك

من هٰذا التمثيل طول الطريق ، بينما لا يستطيع الوالد ابن عبيد الله مشاركتنا الضحك والانبساط ؛ لأنه في مقدمة السيارة .

ولا زالت ذكرىٰ هٰذه الزيارة العظيمة الفخيمة لشعب هود عالقة بذهني إلى اليوم ، ولن أنسىٰ أبداً ذلك الموقف الذي حصل عندما فرغ الحب مصطفى المحضار من السلام علىٰ نبي الله هود ـ وقد قرب دخول صلاة المغرب ـ ثم أذن المؤذن للصلاة ونحن في التكة المرتفعة المجاورة للقبر والمشرفة على الوادي كله ، وتقدم الحب مصطفىٰ ليؤم الناس في الصلاة فقرأ القرآن بصوته الجهوري المميز ، فتخيلت وكأنما جبال الوادي كله تأوِّب معه ، وأحسست بنفسي أحلِّق في السماء مع قراءته الجميلة المؤثرة .

وقد تغسلنا في أثناء هٰذه الزيارة مع العم عبد الرحمٰن في نهر الشعب ، وسقانا جميعاً بيديه ، وكانت زيارة عظيمة جداً لم يحدث مثلها في السابق ولا في اللاحق ، وبشهادة كل من حضر هٰذه الزيارة من المعمرين .

ومن الأحداث التي حدثت في هٰذه الزيارة : ما انتاب قبائل المناهيل من غضب جراء إطلاق النار في منطقة الشعب التي تقع تحت سيطرتهم ؛ حيث لا تسمح قبائل المناهيل بإطلاق النار أثناء الزيارة ، ولما وصل العم بوبكر بن شيخ الكاف إلى الشعب في آخر أيام الزيارة ، ومعه المستشار ومجموعة من المرافقين وثلة من الجنود . . أخذوا في إطلاق الرصاص علىٰ طريقة القبائل الحضرمية في الأفراح والمناسبات ، فارتج الوادي كله من صوت الرصاص ، فغضب المناهيل من ذلك ، وتجمعت قبائلهم من كل مكان ، وسدّوا طرق الخروج ، ومنع زعيمهم علي بن حبريش خروج الزوار من الشعب ، وأمر كل زائر أن يبقىٰ في مكانه حتىٰ تعتذر الدولة للمناهيل ، ويعتذر الكاف والمستشار ، ووقع الناس في كرب عظيم ؛ فقد حوصروا بالشعب ولن يستطيعوا العودة إلىٰ بيوتهم وأهليهم ، خصوصاً مع إصرار المناهيل علىٰ طلبهم وفشل الوساطات التي سارت بينهم ، فتأزم الموقف واستمر متأزماً حتىٰ حصل الاعتذار المطلوب ، ورضي المناهيل .

وحضرنا مع الوالد ابن عبيد الله الزيارات المرتبة للخدور[1] ؛ كخدر آل علوي بن سقاف ، وخدر العم محمد بن هادي ، وغيرها من الخدور ، وتقام في كل خدر من هـٰذه الخدور جلسة يتحدث فيها العلماء ، وينشد المنشدون ، ولما كنا في خدر آل علوي بن سقاف . . جلس العم عبد الرحمـٰن في صدر المجلس يتحدث ، ثم طلب النشيد ، وسأل عن المنشد المشهور الشيخ عمر باصالح ، فلم يكن حاضراً فزعق شخص يسمىٰ عبد هود بالنشيد دون إذن أو طلب ، وكان صوته أجشّاً خشناً ، وتحمل العم عبد الرحمـٰن ذلك ، وفي أثناء نشيد عبد هود . . حضر الشيخ عمر باصالح وشاهده العم عبد الرحمـٰن ، وما أن انتهىٰ عبد هود من النشيد . . حتىٰ طلب العم عبد الرحمـٰن من الشيخ عمر باصالح النشيد ، فسأله الشيخ عمر : أيش انشد يا حب عبد الرحمـٰن ؟ فقال له العم عبد الرحمـٰن : أنشد نفس القصيدة التي أنشدها عبد هود ، فأنشدها الشيخ عمر باصالح مرة ثانية بصوت مؤثر وجميل .

وعاد الحب مصطفىٰ من الزيارة في موكب عظيم ، واستقبل في تريم استقبالاً حاشداً واستقبل في سيؤن بالشبواني والمرازح ، وخرج أهل سيؤن لاستقباله عن بكرة أبيهم ، ومشوا خلفه حيثما سار ، واعتبر قدومه عيداً من أعياد البلاد .

وعوداً لأخبار العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله الذي تميز بذكائه اللماح وخفة الدم وسرعة البديهة : وفي مرة جاءه وفد من تريم علىٰ رأسه السيد زين باعبود ، وهو رجل لطيف وصاحب نكتة ، فتكلم العم عبد الرحمـٰن ثم قال بعد ذلك موجهاً كلامه إلى السيد زين : أنا يا زين محسور على اسم لوط ما بدى حد تسمىٰ باسم لوط ، ولوط نبي من الأنبياء ، تبغانا أسميك لوط يا زين وأعطيك عشرة ريال ؟ فأجاب زين باعبود من فوره : قبول يا عم عبد الرحمـٰن ، ما أنا إلا نبي ، ولـٰكن قومي هـٰؤلاء سيصبحون قوم لوط ، ولن يوافقوا على الاسم الجديد .

وحضرت مع العم عبد الرحمـٰن عزومة خطرة ببيت آل بن قاضي في مناسبة

---

(١) الخدر : بيت صغير لإقامة الزوار .

في زواج الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وقد دعوا لهـٰذه العزومة صهرهم الحبيب محمد بن هادي السقاف وأولاده ، والعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله وأولاده ، وأنا بصفتي زوجاً لبنت الوالد ابن عبيد الله .

وجلس الحبيب محمد بن هادي والعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله في صدر المجلس ، واشتهر الحبيب محمد بن هادي بالهيبة والوقار ، مما جعل المجلس قبل الغداء وقوراً صامتاً محتشماً ، وهـٰذا مما لا يحتمله العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وبعد الغداء بقيت أتكلم خارج الغرفة مع الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن ، فافتقدني الحبيب محمد بن هادي وسأل عني وقال : فين محسن ؟ فأجاب العم عبد الرحمـٰن على الفور : إنه في الغرفة المجاورة يمزّ له بوري (يدخن) ، فاستفظع الحبيب محمد بن هادي هـٰذا الكلام وقال : (لا ، لا ، ما هو مزّاز ولا أبوه مزاز ولا حد من أهله يمز) وفي هـٰذه الأثناء دخلت إلىٰ مجلسهم ، فقال لي العم عبد الرحمـٰن ـ ولم أجلس بعد ـ : عمك محمد سأل عليك فقلنا له راح هناك يمز له بوري فقال : لا أبوك ولا حد من أهلك يمز ، والواقع أن أبوك صحيح ما هو مزاز ، ولـٰكن جدك عبد الله بن حسين مات وخلّف في تركته اثنا عشر غليوناً تقاسمها الورثة ، فضحك كل من في المجلس وتبسم الحبيب محمد بن هادي ، وحاول ألا يضحك ، ثم تولى ابن عبيد الله الجلسة علىٰ طريقته الخاصة ، ولما قام الحبيب مخمد بن هادي . . قال لنا العم عبد الرحمـٰن : شفتوا اننا ضحّكته .

وكان جدي عبد الله بن حسين بن محسن مصاباً بالرّبو المزمن وضيق التنفس ، ولم يكن من علاج لذلك المرض بحضرموت في ذلك الزمن إلا تدخين الجليجلة والتي تخفف شيئاً من عذاب ضيق التنفس .

وكان الوالد ابن عبيد الله يعقد مجلساً لقراءة البردة بمنزله صباح الجمعة ، ويتقاطر الناس لحضور هـٰذه البردة من كل مكان ، وأتذكر أنه في أحد المرات بهـٰذه البردة دخل العم عبد الرحمـٰن حال من الأحوال ، وقال : الآن سنتصور أن رسول الله أمامنا ـ وأشار إلىٰ مخدة ـ وقال : تصوروا أنه متكىء علىٰ هـٰذه

المخدة ، وقال : سأخاطبه الآن خطاب الحاضر ، وتوجه بكلام مؤثر طويل ناحية المخدة ، وأبكىٰ كلامُه جميعَ الحاضرين ، وذكر نفسه في معرض الكلام ، ثم ذكر أحوال الإسلام والمسلمين ، وكيف تخلفوا وبعدوا عن الدين ، ودعا للمسلمين بالهداية والصلاح .

وفي مرة جاء العم عبد الرحمـٰن السيد حداد الكاف والسيد الحداد السمار ، فقال لهما العم عبد الرحمـٰن : الآن عندنا مشكلة تشابه في الأسماء ، وإذا نادينا أحدكم . . قام الآخر ، فيلزم أن نغير أسماءكم بأُخرىٰ ، وعليكم الاختيار ، فواحد سنسميه حداد السمار وواحد حداد الحمار ، وعرف حداد الكاف بذكائه أن أحداً لن يجرؤ علىٰ تسميته بالحمار ، فقال على الفور : أنا حداد الحمار يا عم عبد الرحمـٰن ، أما السمار فقد لصق به اللقب طول حياته .

كما حدث تشابه أسماء بين عبد الرحمـٰن بن سالم بن جديد وعبد الرحمـٰن بن سالم الجفري ، وكان الاثنان يحضرون جلسات العم عبد الرحمـٰن في الساقية وإذا نادىٰ علىٰ أحدهم . . قام الاثنان ، فسمىٰ أحدهما عبد الرحمـٰن الغشيم ، والثاني عبد الرحمـٰن الحكيم .

وفي مرة من المرات حضر إلىٰ جلسة البردة ببيت العم عبد الرحمـٰن منصب الزبدة الشيخُ محمد ، وهو رجل خير وصلاح ، ولما انتهت البردة وخرج الناس . . بقي في مكانه ، وكان العم عبد الرحمـٰن يدخل بعد البردة مباشرة إلىٰ غرفته الخاصة ؛ ليتهيأ لصلاة الجمعة ، فاستغرب العم عبد الرحمـٰن بقاءه ، ولما خلا به . . قال منصب الزبدة : يا حبيب عبد الرحمـٰن ، شفنا بغيتك تدعي لي دعاء خاص بصلاح الحال وهداية الأهل والأولاد ، فقال له العم عبد الرحمـٰن : شفنا دعائي ما يقبل ، ولـٰكن إذا بغيتنا أهتف عليك (أدعو عليك بمصيبة) قم توضأ واركع ركعتين وباهتف عليك ، وحالاً ستصلك الهتفة ، فقام الشيخ محمد من فوره ولبس جبته وخرج مسرعاً قبل أن يصيبه مكروه .

وفي مرة من المرات طلب الوالد ابن عبيد الله أحد العمال لعمل طرأ في بيته ولكن لما وصل العامل في الصباح لم تعد له حاجة فاعتذر منه العم عبد الرحمـٰن

إلا أن العامل قال : لا يا عم عبد الرحمـٰن أنا أجيرك هـٰذا اليوم وأنت ملزم بأجري فقال له العم عبد الرحمـٰن : خلاص قم توضأ واذهب إلى هـٰذا المسجد اركع طول اليوم وسأعطيك أجرك في المساء إلا أن العامل لم يعجبه الركوع طوال اليوم فأخذ عدته وذهب .

ومن زوار العم عبد الرحمـٰن رجل من القبائل الساكنين بالغرفة ـ يسمىٰ (ريّس) ـ وكانت له طريقة عجيبة ومقنعة في الكلام ، تخلب لب سامعه وتوقعه في أحابيله ، وهو رجل فقير وضعيف الحال ، فيأتي للعم عبد الرحمـٰن فيعطف عليه ويساعده ، ولـٰكنه يوهم العم عبد الرحمـٰن في بعض الأحيان بأن لديه مزارع بمدينة الغرفة يريد بيعها بثمن بخس ، فيطمع العم عبد الرحمـٰن في شرائها ، ويأخذ ريس مقدم الثمن ، ثم يكتشف العم عبد الرحمـٰن بأنه خدع .

أمدو بن عبد الرحمن بن عبيد الله في غرفة جلوس الوالد ابن عبيد الله

ويبدو السهم الذي يستند إليه ريّس

وفىٰ مرة أخرىٰ باع ريس على العم عبد الرحمـٰن أرضاً قفراء لا قيمة لها ، واستغرب العم عبد الرحمـٰن من تسلط ريس عليه وقدرته علىٰ إقناعه والاستيلاء علىٰ ماله في كل مرة ، فكتب العم عبد الرحمـٰن تحذيراً لنفسه على السهم الذي يستند عليه ريس : (احذر من ريس) حتىٰ لا يستغفله ريس مرة أخرىٰ ، ولـٰكن ريس حضر كعادته وخدع العم عبد الرحمـٰن واستولىٰ منه علىٰ مال ، ولما سألناه : كيف خدعك رغم التحذير ؟ أجابنا بأن ريس جاء وعلىٰ

رأسه طربوش طويل واستند للسهم ، فحجب الطربوش التحذير فانخدعت .

وللوالد ابن عبيد الله جلسات خاصة مع السيد علي بن صالح الحامدي ، والسيد عبد الله بن سالم الحامدي ، ينطلقون فيها بالكلام دون تكلف ، إلا أن السيد بومحسن الحامدي زَوْجَ بنت السيد علي بن صالح يحتبي في المجلس ويستمع لأحاديثهم ، فأشار الوالد ابن عبيد الله على السيد علي أن يدبر أمره ، فأرسله الحبيب علي بن صالح في مهمة ، إلا أن السيد بو محسن أنجز المهمة بسرعة وعاد إلىٰ مجلسهم ، فعرفوا أن لا فائدة من إرساله في المهمات القريبة ، فأرسله الحبيب علي بن صالح الحامدي ليتفقد عماله بشحوح ، فذهب وغاب ولم يعد ، ولما ذهب الحبيب علي بعد ذلك ليتفقد العمل بشحوح . . وجد السيد بو محسن محتبياً وسط العمال وهو يتحدث فيهم والعمال لا يعملون ، وكلما همَّ أحدهم بالقيام ليكمل عمله . . طلب منه السيد بو محسن أن ينتظر ويسمع .

ولما جاء عيد الأضحىٰ . . نصح الوالد ابن عبيد الله العم علي بن صالح بأن ينحر هدياً ، وأخبره بفضيلة ذلك ، وأنها تأتي معه يوم القيامة ، ثم نصحه بإخراج أضحية أخرى عن زوجته ، فقال له العم علي : انت اظاهر تبغانا يا عبد الرحمٰن اصير راعي غنم يوم القيامة .

وقد أحب الوالد ابن عبيد الله السيد علي بن صالح الحامدي الذي عاش قبل انتقاله إلىٰ سيؤن بتاربة ، وعرف بالحشمة والكرم ، وفي منزله غرفة يسميها الطويلة ، خصصها لاستقبال الضيوف .

وفىٰ إحدى المرات جاء السيد علي بن صالح ضيوف من الناحية القبلية ، وطال مقامهم ، حتىٰ لم يعد السيد علي يكلف نفسه مشقة الجلوس معهم ، وكان السيد حسين العود الحامدي المشهور بشهيته الكبيرة للطعام يجالس الضيوف ويشاركهم طعامهم ، ولما بدأ هٰؤلاء الضيوف الثقلاء في الاستعداد للسفر . . نصحهم السيد حسين العود بعدم الحاجة للاستعجال ، وبرغبة صاحب المنزل في بقائهم ، ثم طلع السيد حسين العود إلى الحبيب علي وأخبره بأن الضيوف بدؤوا في شد الحمير استعداداً للسفر ، ومن الأليق أن تخرج لهم وتستمهلهم

للمجاملة ، فعمل الحبيب علي بالنصيحة ، وخرج إلى الضيوف ليجاملهم ، ولما سمعوا كلامه . . قالوا : ما دامكم لا ترغبون في رحيلنا . . فلا بأس بتمديد الإقامة ، وأنزلوا متاعهم وعادوا إلىٰ غرفة الضيافة ، فغضب الحبيب علي فيما بعد على السيد حسين العود ، وعاتبه علىٰ خدعته .

وجاء من دوعن إلىٰ سيؤن الحبيب حامد البار والعم حامد بن أبي بكر المحضار ، فنزل البار ضيفاً علىٰ آل حبشي ، ونزل العم حامد المحضار بضيافة العم عبد الرحمـٰن ، وحمل الحبيب حامد البار هدايا العسل والدخون ، بينما جاء العم حامد المحضار إلى العم عبد الرحمـٰن بثيابه ، فقال له العم عبد الرحمـٰن متندراً : يا حمار انت جيت حامل راديك ، وحامد البار جاء آل الحبشي بالعسل والدخون ، ثم قال :

رضينـــا قسمـــة الجبـــار فينـــا لنـــا حـــامـــد وللـــرجـــال حـــامـــد

وقد فرح الوالد ابن عبيد الله بقدوم العلامة السيد حامد المحضار ، واستأنس به ، وكانا يتحاوران ويتجادلان في الشعر والأدب ، وكان العم عبد الرحمـٰن يحاول إقناع العم حامد بأن شعره أفضل من شعر شوقي ، فيعترض العم حامد علىٰ ذلك ويلقي شعر شوقي ويفخمه ، ويقول للعم عبد الرحمـٰن : لا يمكن أن يصل شعرك لمثل هـٰذا المستوىٰ ، فيغضب العم عبد الرحمـٰن ويخرج عن طوره ويشتم العم حامد .

وقد اشتهر العم حامد بالإضافة إلىٰ علمه وشاعريته بقوته في الجدل ، فلا يستطيع أحد التغلب عليه ، وكان العم عبد الرحمـٰن يقول عنه بأن بإمكانه أن يقنعك بأن الحق باطل والباطل حق .

ثم قال العم عبد الرحمـٰن مرة للعم حامد : الآن اسمع يا حامد هـٰذه القصيدة الرائعة ، ثم أنشد قصيدة من درر شعره ، وكان العم عبد الرحمـٰن ينهي قصائده على الطريقة الحضرمية بالدعاء والتوسل ، ولما انتهىٰ من إلقاء قصيدته . . سأل العم حامد : ما رأيك في هـٰذه القصيدة الرائعة ؟ أليس هـٰذا الشعر أفضل من شعر شوقي ؟ فأجاب العم حامد : يا عم عبد الرحمـٰن ، هـٰذه فاتحة تنقصها فقط

(آمين) ، فثار العم عبد الرحمـٰن وغضب على العم حامد وشتمه .

ورغم هـٰذا النقاش والجدل بين الرجلين العظيمين والعالمين الجليلين . . فإن بينهما مودة قوية وصداقة وطيدة ، وبقي العم حامد المحضار طول حياته يتحدث عن الوالد ابن عبيد الله بالإطراء والتقدير والثناء ، ويعتبره مفخرة لحضرموت وللمسلمين .

وللعم عبد الرحمـٰن علاقة صداقة وطيدة بالسلطان عبد الله محسن الكثيري ، وهو رجل متواضع ولطيف ، سريع النكتة ، حاضر البديهة ، وله الكثير من النوادر والحكايات ، ولم يكن السلطان عبد الله مهتماً بالسلطنة والحكم ، فتخلىٰ عن مسؤولية الحكم بتريم لإخوته ، وصار يقضي أغلب وقته بسيؤن ، وكان من أصدقاء العم عبد الرحمـٰن .

والسلطان عبد الله ضخم الجثة حلو الكلام ، وإذا تكلم . . لم يشك سامعه في صحة كلامه حتىٰ لو كان كذباً صريحاً ، ويحبه العم عبد الرحمـٰن كثيراً ، وقد أثنىٰ عليه في كتابه « بضائع التابوت » ثناء عطراً ، وذكر تواضعه وخلقه وسعة صدره وخفة دمه ، وله مع العم عبد الرحمـٰن قصص كثيرة ، ونوادر عديدة ، ففي أحد المرات حكم الوالد ابن عبيد الله على السلطان عبد الله بإحضار جالون بنزين لسيارته ، فوافق السلطان عبد الله على الحكم ، وأرسل خادمه في اليوم الثاني بجالون من البنزين سلمه لمنزل العم عبد الرحمـٰن ، إلا أن السلطان عبد الله ملأ الجالون بالماء وأغلقه ، ثم سكب عليه قليلاً من البنزين للتمويه .

وبعد فتح الجالون . . اكتشفوا بأن ليس فيه إلا الماء ، فاغتاظ العم عبد الرحمـٰن من هـٰذا المقلب ، وبعد أيام جاء السلطان لزيارة العم عبد الرحمـٰن في يوم ملبد بالسحب ، ولما وصل السلطان . . هطلت الأمطار ، فقرع السلطان الباب ، فأمرهم العم عبد الرحمـٰن أن يخبروه بالدخول من الباب الشرقي ، فلما ذهب السلطان للباب الشرقي . . ادعوا بضياع المفتاح ، وحولوه على الباب البحري ، وهـٰكذا أخذ السلطان يتنقل بين البابين تحت المطر ، ولما ابتلت ثيابه واغتسل بالماء . . سمحوا له بالدخول ، بعد أن انتقم

العم عبد الرحمـٰن من مقلب الماء بالماء ، فصعد السلطان عبد الله وقد تبللت ثيابه بالماء ، إلا أنه لم يغضب ولم يتأثر ، وخلع ثيابه الخارجية المبللة وعلقها على الباب حتىٰ تجف ، وجلس مع العم عبد الرحمـٰن يتحدث ويضحك كعادته في كل زيارة .

ومن حضور مجالس العم عبد الرحمـٰن السيد عبد القادر بن شيخ الكاف ، ويعتبر أن الوالد ابن عبيد الله من شيوخه ، وكان غريب التصرف ، إلا أن الناس يتحملونه لثروته وجاهه ، ولما دخل مجلس العم عبد الرحمـٰن . . وجد عنده السلطان عبد الله ووجد العم عبد الرحمـٰن يركع سنة الضحىٰ ، فجلس السيد الكاف وبادر بسؤال السلطان عبد الله : كم زوجة معك يا سلطان عبد الله ؟ فتظاهر السلطان بعدهن بأصابعه ، وأخذ يقول : واحد ـ اثنين ـ ثلاثة ـ أربعة ـ خمس فقال الكاف : كيف هـٰذا ؟ الخامسة لا تجوز شرعاً ! ! قال له السلطان : الخامسة أخذت فيها فتوىٰ من حبيبي عبد الرحمـٰن ، فقال الكاف : أنا أيضاً أريد فتوىٰ بخامسة ، فضحك العم عبد الرحمـٰن في صلاته حتىٰ كاد أن يبطلها .

وحيث أن الشيء بالشيء يذكر . . فقد حدثني العم محمد مساوي بأن السيد عبد القادر بن شيخ الكاف تزوج خفية بسيؤن ، ولما زرته مع الأخ عيدروس السقاف السوم . . قال للأخ عيدروس : إن الناس يسألونني هل تزوجت بسيؤن وأنا لا أريد أن أفضح نفسي ، ولا أحب أن أكذب عليهم ، فكيف أتصرف ؟ فأشار عليه الأخ عيدروس بالإجابة علىٰ هـٰذا السؤال بكلمة (يمكن) ؛ لأنها تحتمل الإيجاب والنفي ، فأعجبت هـٰذه الإجابة السيد عبد القادر الكاف ، وأعطى الأخ عيدروس صارونين هدية منه ، وأخذ يردد طول اليوم (يمكن . . يمكن . . يمكن) .

ثم قال العم محمد مساوي : ثم ذهبت مرة لزيارة السيد أبو بكر بن شيخ الكاف برفقة الأخ عيدروس السوم ، فوجدنا بمجلسه السيد عبد القادر الكاف ـ وكان يجلس منعزلاً ـ فصافحنا الحضور حتى انتهينا إليه ، فسأل الأخ عيدروس لما صافحه هل فيك قوة يا عيدروس ؟ فأجابه الأخ عيدروس : (لا . . لا . .

أنا تعبان مكسر) ثم صافحته فسألني نفس السؤال ، فأحببت أن أسره فقلت له : (نعم أنا في منتهى القوة والنشاط) ولٰكنه ما إن سمع كلامي حتىٰ أمسك بيدي ونهض ، وكان قوياً شديداً ، وأخذ يقلبني وسط المجلس ولا أستطيع إيقافه ، حتىٰ قام الحاضرون وأنقذوني من بين يديه .

وعودة لأخبار السلطان عبد الله مع العم عبد الرحمٰن بن عبيد الله ؛ فقد زار السلطان الوالد ابن عبيد الله مع خاصته الذين يشبهونه في طباعه ، وهم عمر صوعه وعبيد بن سعيد وآخر نسيت اسمه ، فقال له الوالد ابن عبيد الله ـ بسمع من خاصته ـ : أيش بغيت يا سلطان عبد الله بهٰؤلاء الطراطير ؟ شفلك أصحاب يليقون بك ، فقال السلطان عبد الله : لا لا يا حب عبد الرحمٰن ، هاذولا ينفعوننا في شهادة الزور ، فثاروا على السلطان وشتموه .

وفي مرة جاء السلطان عبد الله لزيارة العم عبد الرحمٰن مع مرافقه عبيد بن سعيد ، فاشتكىٰ عبيد بن سعيد السلطان عبد الله للعم عبد الرحمٰن وقال : انظر يا حب عبد الرحمٰن إلىٰ هٰذا السلطان المهمل ؛ فقد ذهبت معه إلىٰ بيته هٰذا الصباح وفيه عمال يشتغلون بالأجرة ، فوجدناهم يضحكون ويلعبون ولا يعملون ، وبدل أن يغضب عليهم السلطان ويعاتبهم . . تراجع واستحىٰ أن يدخل عليهم ، وهم في هٰذا الوضع ، فقال العم عبد الرحمٰن للسلطان عبد الله علىٰ طريقة أهل حضرموت في الاستعجاب : لبوك النار علىٰ هٰذه الأخلاق ، هٰذه أخلاق لا تصلح إلا لي .

وذكر العم عبد الرحمٰن في مجلسه بأنه إذا جاءه كتاب . . أخفاه تحت المخدة ، ولا يقرأه إلا في اليوم الثاني ، وصادف أن وصل المِكِتبَ (بكسر الكاف والتاء وفتح الباء) بالرسائل إلى المسجد الجامع قبل صلاة الجمعة ، وفيها رسالة للعم عبد الرحمٰن ، وكانت رسائل حضرموت تصل المكلا بالمراكب في ذلك الوقت ، ثم يخرج بها المكتب من المكلا إلىٰ حضرموت ويسلمها لأصحابها بنفسه ، فلما دخل المكتب إلى المسجد ورأى السلطان عبد الله . . ابتدأ به وأعطاه الرسائل ليأخذ منها ما يخصه ، فشاهد السلطان

رسالة الوالد ابن عبيد الله ، فأخذها وكتب عليها : (وبعد استلامكم التحويل . . أفيدونا بالاستلام) وأعادها للمكتب ، وجلس يراقب العم عبد الرحمٰن الذي استلمها ثم فتحها على الفور ، فوجدها رسالة تعزية وليس بها شيء آخر ، برغم ما كتب على الظرف .

ولما حضر السلطان عبد الله مرة أخرىٰ إلى العم عبد الرحمٰن . . قال له : أنت يا حب عبد الرحمٰن تقول انك لا تفتح الرسائل إلا في اليوم الثاني ، ولٰكنك في الجمعة الماضية فتحت رسالتك على الفور ، فعرف الوالد ابن عبيد الله أنه قد وقع في مقلب من مقالب السلطان .

وفي مرة حضر السلطان عبد الله إلى العم عبد الرحمٰن مع ابنه بدر ، ولم يوجد أحد لعمل الشاي فتطوع بدر لعمل الشاي ، وسأل العم عبد الرحمٰن : هل تحب الشاي ثقيل ولاَّ خفيف ؟ فقال له العم عبد الرحمٰن : اعمله خفيف كما دين أبوك .

وللوالد ابن عبيد الله علاقة حميمة بالزعيم حسين بن حامد المحضار وزير الدولة القعيطية العظيم ، والذي لعب دوراً هاماً في تثبيت أساس هٰذه الدولة وتوسيع رقعتها حتىٰ شملت أغلب أجزاء حضرموت ، وبذل لتحقيق ذلك جهداً عظيماً ، وكابد مشاقاً جسيمةً حتىٰ تمكن أن يبرم العهود ويوثق المواثيق مع أغلب القبائل الحضرمية ، وقد اعتمد الإنجليز هٰذه العهود والمواثيق في تحديد الحدود بين الدولتين القعيطية والكثيرية ، فدخلت أغلب مناطق حضرموت لهٰذا السبب تحت حكم القعيطي ، وكان السلطان غالب القعيطي رجل علم وتقوىٰ وصلاح ، وكان يثق في السيد حسين بن حامد ويحبه ويعتمد عليه اعتماداً كاملاً في تصريف أمور الدولة وتدبير شؤونها ، فكان الحبيب حسين بن حامد سلطان المكلا غير المتوج ، وكانت كل أمور السلطنة القعيطية بين يديه .

ويقول العم حامد بن بوبكر المحضار : إن الحبيب أحمد المحضار جد الزعيم حسين بن حامد كان يحبه كثيراً ، وإنه طلب حضوره عند احتضاره ،

وأخذ بناصيته ووجهها يميناً ويساراً وهو يقول في كل ناحية يوجهه إليها : اللهم اجعله وجيهاً في الدنيا والآخرة .

وروىٰ لي العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله بأنه لما زار المكلا . . طلب منه السيد حسين بن حامد أن يزور معه الحبيب أحمد الهدار ، وهو من الأولياء وأصحاب الكرامات ، إلا أنه عرف بحدة المزاج ، ولا يحب الاجتماع بأحد ، فلما وصلنا إلىٰ دار الحبيب الهدار . . يقول العم عبد الرحمـٰن : بادر العم حسين بن حامد بالكلام وقال : يا حبيب أحمد ، شف بن عبيد الله مكتوب علىٰ جبهته شقي ، قال العم عبد الرحمـٰن : فعرفت قصد الحب حسين بإثارة الحبيب الهدار علي ، فأسرعت بالكلام قبل أن يتكلم الحبيب الهدار وقلت : يا حبيب أحمد هـٰذا العم حسين بن حامد كان جده الحب أحمد المحضار يحبه ويدعو له ويقول له : (إنك يا حسين باتكون في أول حياتك شيطان ، وفي وسطها برهان ، وآخرها سلطان) وهـٰذا صحيح ، ولـٰكن جده غلط في الترتيب ، فكان في أول حياته برهان ، وأوسطها سلطان ، وفي آخرها شيطان ، فضحك الحبيب أحمد الهدار وقال : ابن عبيد الله قرة عين الإسلام .

الحبيب حسين بن حامد المحضار

وفي إحدى المرات أمر الحبيب حسين بن حامد المحضار للوالد ابن عبيد الله بمبلغ من المال وحوله على الجمرك ، ولٰكن الجمرك مطل العم عبد الرحمـٰن ولم يدفع له شيئاً ، ولم ينفعه الحب حسين بشيء ، ولما جاء الحبيب حسين بن حامد لزيارة شبام . . اغتنم الوالد ابن عبيد الله هـٰذه الفرصة وذهب لمقابلته ومطالبته ، وأحضر رجلاً من آل خرد اشتهر بشراسته وجرأته وكلامه الذي لا يزيد عن الشتم والقذف ، وقال له : سآخذك معي إلىٰ شبام لتشتم الحبيب حسين بن حامد المحضار ؛ لأنه لم يدفع ما عليه لي ، وسأعطيك مقابل ذلك عشرة ريال ، فوافق خرد وذهب مع العم عبد الرحمـٰن إلىٰ شبام ، ولما وصلا ودخلا على الحبيب حسين بن حامد . . استقبل الحب حسين بن حامد العم عبد الرحمـٰن واحتفىٰ به ، فقال له العم عبد الرحمـٰن : يا عم حسين جبنا لك خرد ، وانطلق خرد على الفور يقول : يا حسين بن حامد . . انت ظلمت خلق الله ، وتحكم بالظلم ، وتستأثر إخوانك وأهلك بالخيرات ، والناس كلهم يشتمونك ، ولم يترك للحبيب حسين فرصة ليتكلم أو يرد ، فقال الحبيب حسين لابن عبيد الله : أبعِدْ هـٰذا أبعِدْهُ ، فقال له العم عبد الرحمـٰن : ليس قبل أن تدفع لي ما عليك ، فقال الحبيب حسين : (في وجهي) قال له العم عبد الرحمـٰن : هـٰذا لا يكفي لا بد من الدفع الآن ، كي نسكت خرد ، فدفع الحبيب حسين ما عليه ، فأخذ العم عبد الرحمـٰن بيد خرد وخرج به من مجلس الحب حسين ، ودفع له العشرة ريال التي وعده بها .

واشتهر العم عبد الرحمـٰن بكره الإنجليز وتأييد العثمانيين والعمل علىٰ ضم حضرموت لدولة الخلافة الإسلامية ، وله اتصالات مع قائد الجيوش العثمانية بلحج علي سعيد باشا ، الذي احتل لحج وبدأ في مهاجمة عدن لإجلاء الإنجليز عنها ، مما أرعب الحكومة البريطانية التي لم تستطع إخراجه من لحج رغم إمكانياتها الكبيرة ، فبقي فيها حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وانهزم الأتراك .

ومن الغريب : أن سعيد باشا بمن بقي معه من فلول القوات التركية ومن

تبعه من المجاهدين ، وبرغم ذخيرته المحدودة . قد اشتبك مع الإنجليز وجيش عدن ، وانتصر عليهم ، وبلغ من خوف الإنجليز وجيش عدن أنهم أطلقوا النيران علىٰ أمراء لحج الهاربين منها إلىٰ عدن ؛ ظناً منهم بأنهم من الأتراك ، وأردوا أحدهم قتيلاً .

وطلب سعيد باشا مساعدة الإمام يحيىٰ إمام اليمن لحرب أعداء الملة من الإنجليز ، إلا أن مساعدة الإمام يحيىٰ لم تزد عن بيت من الشعر أرسله لسعيد باشا بلحج قال فيه :

وإذا سخّـــر الإلـــه أنـــاســـاً لسعيـــد فـــإنهـــم سعـــداء

وقد أرسل سعيد باشا للعم عبد الرحمـٰن بوثيقة ، وطلب منه توقيع السلاطين والأعيان ورؤساء القبائل عليها ؛ للمطالبة بالانضمام إلى الدولة العثمانية ، فأنجز الوالد ابن عبيد الله المهمة الصعبة ، وأخذ تواقيع السلاطين والأعيان ورؤساء القبائل ، وأرسلها للقائد التركي بلحج .

وينقل البريد في تلك الفترة بواسطة أشخاص معروفين مقابل مبلغ معين من المال ، وصدف أن ألقىٰ أحد سلاطين المحميات القبض على المكتب الذاهب إلىٰ لحج ـ ومعه رسائل العم عبد الرحمـٰن ـ لسعيد باشا ، فأخذها السلطان وسلمها للإنجليز ، فانزعجوا من هـٰذه الرسائل أشد الانزعاج ، وأرسلوا إلى السلطنة القعيطية يطلبون الاستفسار والتحري عن هـٰذا الأمر ، فرد الحبيب حسين بن حامد الذي عرف بخطورة الأمر على الوالد ابن عبيد الله ، رد على استفسار الإنجليز بما يخرج العم عبد الرحمـٰن من هـٰذه المشكلة ، وقال لهم في رده بأن السيد عبد الرحمـٰن بن عبيد الله رجل لا قيمة له ، وأن أوامره لا تنفذ حتىٰ علىٰ زوجته ، وأن رسائله لسعيد باشا لا قيمة لها أبداً ، فطمأن الإنجليز بهـٰذا الرد ، ولم يتعرضوا للوالد ابن عبيد الله بأي أذىٰ .

ورغم هـٰذا التصرف السياسي للحبيب حسين بن حامد وهو من أعظم من أنجبتهم حضرموت من الساسة ، إلا أنه كان يخفي في نفسه ما يصرح به الوالد

ابن عبيد الله من كراهية الإنجليز وبغضهم ، إلا أن السياسة لا تمكنه من التصريح بما يضمره ، وقد ذكر الوالد ابن عبيد الله في كتابه « بضائع التابوت » بأن الحب حسين بن حامد كان يحذره في الظاهر من الاتصال بالأتراك ، إلا أنه كان يشجعه سراً على الاتصال بهم ، ويدفع له تكاليف البريد .

ويقول الوالد ابن عبيد الله بأن الحبيب حسين بن حامد قد افتعل الحرب الصورية المسماة حرب قسبل والتي انتهت بنهاية الحرب العالمية الثانية من أجل التخلص من مطالبة الإنجليز للقعيطي باشتراك قواته في محاربة الأتراك المسلمين بلحج .

وكان الحب حسين بن حامد يحب الوالد ابن عبيد الله كثيراً ويحترمه ويقدره ، رغم أنه يتسلّىٰ أحياناً باستفزازه وإحراجه مع الآخرين في معارك كلامية ، كما رأينا في قصته مع الحبيب أحمد الهدار بالمكلا .

وفي إحدى المرات أرسل الوالد ابن عبيد الله للحبيب حسين بن حامد برسالة يشتكي له فيها مما يحدث بينه وبين مناوئيه بسيؤن ، إلا أن الحبيب حسين بن حامد أرسل هـٰذه الرسالة فيما بعد إلىٰ مناوئي الوالد ابن عبيد الله بسيؤن ، مما زاد من الخلاف بين الفريقين ، ومما لا شك فيه : أن الحب حسين بن حامد بما تمليه عليه السياسة والدهاء يحب أن يضعف الدولة الكثيرية المنافسة للقعيطي ويشعل فيها الخلافات بأي طريقة يقدر عليها ، ولم يؤثر على استمرار العلاقة القوية والمحبة الشديدة بين الوالد ابن عبيد الله والحبيب حسين بن حامد المحضار .

وقد اشتهر الحب حسين بن حامد المحضار إضافة إلىٰ زعامته ودهائه وقوة شخصيته ، اشتهر بخفة روحه وشاعريته ، وله الكثير من النوادر اللطيفة والطرف المليحة مع الوالد ابن عبيد الله وغيره .

وقد قال العم عبد الرحمـٰن للحبيب حسين بن حامد في إحدى المرات : بأننا يا عم حسين كتبت قصيدة رثاء فيك ، ولـٰكنك إذا مت فلن تسمعها ، فما

رأيك لو أسمعتها لك الآن ، فوافق الحبيب حسين بن حامد علىٰ سماعها ، وأعجب بها ، وشكر العم عبد الرحمـٰن عليها .

وللعم عبد الرحمـٰن قصيدة أخرىٰ قالها في مدح الحبيب حسين بن حامد ، وقد أعجبني واحد من أبياتها فكتبته في لوحة ووضعته بمكتبي ، وجعلته ديدني في الحياة وفيه يقول :

ما شئتَه من ربك افعل مثله … لعباده فكما تدين تدان

ويقول للحبيب حسين بن حامد في نفس القصيدة :

ويشاع حبك للخلاف لأنه … لو زال لم يحتج لك السلطان

ولما زار الحب حسين بن حامد سيؤن بعد عقد اتفاقية الصلح بين الكثيري والقعيطي بعدن . . استقبلته البلاد استقبالاً عظيماً ، وقد قام بمن معه من الأعيان والوجهاء ورؤساء القبائل بزيارة الوالد ابن عبيد الله في بيته بعلم بدر ؛ تكريماً لمقامه وتعظيماً لشأنه .

واشتهر العم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله بالإضافة إلىٰ علمه وفقهه وخطابته : بشجاعته وهيبته وقوة شخصيته ، وقد مر بكثير من المواقف الصعبة التي تجلت فيها شجاعته الفائقة وثباته ورباطة جأشه .

ففي إحدىٰ زيارات الحبيب حسين بن حامد المحضار لشبام دخل عليه الوالد ابن عبيد الله مرحباً ، فوجد مجلسه غاصاً بالوجهاء والأعيان ورؤساء القبائل الحضرمية ، فاستقبله الحبيب حسين بن حامد بما تعوَّد أن يستقبله به من الاحترام والتبجيل ، وكان بين الحضور بن خالد ابن عمر بن عبدات حاكم الغرفة ، وهو من أبطال آل كثير وزعيم من زعمائهم ، وكانت بينه وبين العم عبد الرحمـٰن صداقة ومودة رغم ما يعتري هـٰذه العلاقة أحيانا من الشوائب ؛ من ذلك ما ذكره الوالد ابن عبيد الله في « بضائع التابوت » من أن ابن عبدات أرسل عبداً من عبيده ليستدعيه في الليل ، ثم يطلق عليه النار تقرباً من الحكومة الكثيرية ، إلا أن العبد لم يستطع التنفيذ ، واعتصم الوالد ابن عبيد الله بالأجل .

وجلس العم عبد الرحمٰن في صدر المجلس مع الحبيب حسين المحضار ، وأخذ بناصية الحديث وتحدث عن الصلح والإصلاح ، وقال : إن الإصلاح يحتاج إلىٰ رجال لهم ذمم لا يخفرونها ، وكلمة يوفون بها ، والآن ضعفت الذمم ، وهانت الكلم ، فاستفز هٰذا الكلام ابن عبدات وظنه موجهاً إليه وإلىٰ قبيلته ، فقال : يا حب عبد الرحمٰن ، لو احتجنا للذمم والوفاء با ناخذه من ضيقتك (مدخل بيتك) ، وأنت قد خالفت الحب علي حبشي ، واحنا الحب علي حبشي لو قال لنا ادخلوا النار باندخل ، فرد عليه الوالد ابن عبيد الله على الفور وقال له : أنت أولاً لا يحق لك أن تتكلم في مجالس الرجال ، وأنت رجل محشوم (وكان لابن عبدات ثأر لم يطلبه) والمحشوم لا يتكلم إلا في مجالس النساء ، أما بيتي وضيقتي فمليئة بالوفاء ، وأنت قد كفرت بقولك هٰذا الكلام ، وعليك أن تجدد إسلامك وتتشهد مرة ثانية ، وكان في المجلس فرقة من أبطال يافع تحيط بالحب حسين وتعرف أنّ ابن عبيد الله علاّمة حضرموت ومفتيها ، وما يقوله في أمور الشرع مقطوع في نظرهم بصحته ، فلما سمعوه يقول لابن عبدات جدد إسلامك وتشهد . . رددوا كلهم على ابن عبدات هٰذا الكلام ، وأخذوا يلحون عليه : (شهّد شهّد) حتىٰ قال بصوت خفيض : (أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمد رسول الله) وقال لنا العم عبد الرحمٰن : لقد أسفت عندما رأيته علىٰ هٰذه الحال رغم قوته وسلطته ، ولٰكن ابن عبدات لم يستطع أن يواجه الوالد ابن عبيد الله رغم كونه من أبطال حضرموت وصناديدها ، ورغم كونه الوحيد من زعماء حضرموت الذي دوخ الإنجليز ولم ينهزم منهم ، رغم إلقاء الطائرات الإنجليزية قنابلها على الغرفة لثلاثة أسابيع ، ورغم الجيش الجرار الذي حشدته بريطانيا من الهند لحربه ، ومع ذلك هزمهم ابن عبدات مرتين ، وهي الحرب التي وصفها الشاعر الشعبي بقوله :

خلوش يالغرفه كما برلين حتى انقرامص هو وشمبرلين

وكان ابن عبدات يتردد علىٰ مجالس الوالد ابن عبيد الله كغيره من رجال وأعيان حضرموت ، وقد أرضعت زوجة ابن عبدات السيد حسن بن

عبد الرحمـٰن بن عبيد الله أكبر أولاد العم عبد الرحمـٰن ، وحدث في مجلس العم عبد الرحمـٰن في أحد المرات أن طلب أحد الحاضرين ماء ، فذهب الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله لإحضاره ، ولـٰكنه لما عاد . . تعثر في مشيته وانسكب الماء على الأرض ، فعلق الوالد ابن عبيد الله علىٰ هـٰذه العثرة بطريقته التي يستثير بها الحاضرين وقال : هـٰذه العثرة من المخولة من الرضعة التي رضعها من آل ابن عبدات ، إلا أن ابن عبدات الذي كان حاضراً لم يرغب في مجاراة العم عبد الرحمـٰن في مشاكسته ، وكان سياسياً ، فأجاب بقوله : نعم أخواله خس القبائل ، ولا لهم ذمة ولا شرف ، ويقول العم عبد الرحمـٰن إني استحيت بعد ذلك من تعليقي ومن رده علي .

إلا أن شجاعة الوالد ابن عبيد الله لم تمنعه من أخذ الحيطة والحذر في المواطن التي يحس فيها بأن هـٰذا الطريق هو الطريق الأسلم ؛ فقد ذهب في مرة من المرات مع أصحابه إلى الناحية القبلية من حضرموت ، وهي الجهة التي تقع فيها القَطَن ودوعن وما إلىٰ ذلك من البلاد ، وذلك حتىٰ يستكمل أبحاثه عن قبائل ومدن حضرموت ، والتي ضمنها كتابه القيم « إدام القوت في معجم بلاد حضرموت » ، ويقول الوالد ابن عبيد الله : وعندما جن علينا الليل ونحن بتلك الجهة . . نزلنا في ضيافة أحد أعيان القبائل ، فرحب بنا وأهَّل ، ولما جلسنا معه للعشاء وعرف أننا من سيؤن . . سألنا : (هـٰذا ابن عبيد الله عندكم في سيؤن هل تعرفونه ؟ وكيف القبائل ساكتين عليه ؟ وأنا سبق ونصحت القبائل وقلت لهم :

لـوكـم قبـائـل قتلتـوا بـن عبيـد الله يسقيكم المر قلتوا حلو يا محلاه

يقول الوالد ابن عبيد الله : ولما كنا في هـٰذا المكان البعيد وفي بيت رجل جاهل لا نعرفه ومع ذلك يتهددني بالقتل ، وإن هويتي لا بد أن تنكشف . . قررنا مغادرة المكان ، فتركنا القبيلي يتركنا بعد العشاء ويدخل عند أهله لينام ، فغادرنا مكانه إلىٰ مكان آمن آخر .

وعوداً إلىٰ أخبارنا مع الوالد ابن عبيد الله الذي كان يسألنا أول ما نصله عن الأخبار وعما سمعناه من حوادث البلاد ، وكنا قد حضرنا في الليلة السابقة شبواني كبير أقيم بمناسبة زواج السيد مشهور الكاف علىٰ بنت العم بو بكر بن شيخ الكاف حيث أقيمت في هـٰذا الزواج احتفالات ضخمة بتريم ، كما أحضر آل كاف لشبواني سيؤن مشاهير الشعراء الشعبيين من المكلا والشحر وسيؤن ، والشبواني احتفالٌ تعمل فيه حلقة مستديرة يجتمع فيها الناس والشعراء والمنشدون ، وتدق الطبول ويدخل الشعراء إلى الحلقة ويرتجزون الأشعار ، ويبارزون بعضهم البعض بالأبيات الشعرية ، ثم ينشد المنشدون ما ارتجله الشعراء من أبيات ، ويمضي الليل في الشعر والطبل والنشيد ، وقد اشترك في هـٰذا الشبواني من شعراء سيؤن المشهورين عمر كرامة ومستور ، فدخل الحلقة عمر كرامة يتباهىٰ ويفخر وينذر ويحذر ، وكان عمر كرامة شاعراً موهوباً ، وكان قوي البنية طويل القامة ، وله مظهر زعماء القبائل القعيطية ، كما كان يعتم بالعمائم القعيطية ، ومعه لمشة لا يفارقها أبداً ، إلا أن مظهره لم يكن يتناسب مع حقيقة شخصيته الغريبة وفقره ، فلما سمع أبيات الشاعر عمر عيضة . . دخل عمر كرامة ليرد عليه قائلاً :

ما تعبر إلاّ على القرحا وفرق الضان   وعل المساكين والهرشان والسادة

فضحكنا من هـٰذا البيت .

ولما زرنا الوالد ابن عبيد الله في اليوم الثاني وذكرنا له أخبار الشبواني وروينا له بيت الشعر الذي ألقاه عمر كرامة بالشبواني . . ضحك العم عبد الرحمـٰن حتىٰ كاد أن يستلقي علىٰ ظهره من الضحك ، وقال : شفه خلاهم خس الناس بعد القرحا والضان والمساكين والهرشان ، واستلطف العم عبد الرحمـٰن هـٰذا البيت من الشعر وأخذ يردده علىٰ زوّاره .

ورغم المظهر الكبير لعمر كرامة إلا أنه رجل فقير ، ويساعده العم بو بكر الكاف بنصف ريال في كل يوم .

وفي إحدى المرات وصل عمر كرامة لمنزل العم بو بكر بن شيخ الكاف ليستلم نصف رياله فوجد العم بو بكر مجتمعاً بمشائخ القبائل من آل بابكر وآل بن كدة ، وكان بينهم خلاف على ملكية عدد من العلوب أدى إلى تقاتلهم ، فحاول العم بو بكر الإصلاح بينهم ، ولٰكن باءت محاولاته بالفشل ، وكلما أقنع أحد الفريقين بالصلح . . تغير رأي الثاني ، فيقنعه ، فيتغير رأي الأول ، ولم يتمكن العم بو بكر من تحقيق الصلح بين الفريقين المتخاصمين ، وفي هٰذه الأثناء دخل عمر كرامة بهيئته القعيطية ومظهره المهاب ، وسمع ما يدور في الجلسة من خلاف حول العلوب والدوم ، فصاح بأعلى صوته : اتركهم يا حب بو بكر ، والله العظيم لو حد منهم اعتدى على دوم الثاني . . فإن كل دومة ياخذها ستكون برأس من رؤوس قومه ، ولم يكن أحد من هٰؤلاء القبائل يعرف عمر كرامة ، فهابوه ، وخافوا من غضبه ، وتغيرت المواقف ، وقالوا جميعاً للعم بو بكر : إذا أنت ترى يا سيد بوبكر أن هٰذا الرأي في صالحنا . . فنحنا موافقين ، وانحلت بذلك المشكلة بين الفريقين .

وكان كثير من شباب تريم يجالسون عمر كرامة ويستمتعون بأحاديثه وشعره ، إلا أنه يكثر من اللعن والشتم ، ولما علم السيد محمد بن حسين الكاف بأن أولاده يجالسون عمر كرامة . . خاف عليهم ، وكان خلوقاً وحريصاً على تربية أولاده وأخلاقهم ، فاستدعى عمر كرامة لينصحه بالإقلاع عن اللعن والشتم ، ولما أخذ ينصحه . . قال له عمر كرامة : من هو هٰذا ولد الملعونة الذي حدثك عني بهٰذا الحديث ؟ فعرف السيد محمد بن حسين أن لا فائدة من النصيحة .

وقد حظي الوالد ابن عبيد الله في طفولته بعناية والده الخاصة ، فكان يشرف على تدريسه وتهذيبه ، ويختار له المدرسين الذين يطمئن لعلمهم ، كما ينتقي له الأصحاب الذين يلعب معهم ؛ حتى لا يؤثر الاختلاط على أخلاقه . وكان يمضي أغلب وقته مع والده في القراءة والدرس ، وتستمر القراءة ، حتى

إذا دخل الحبيب عبيد الله لأهله فتأخذ زوجته الكتاب وتستمر القراءة ، وقد ذكر الوالد ابن عبيد الله ذلك في كتبه .

وقد روىٰ لنا الوالد ابن عبيد الله بعض القصص الطريفة التي حدثت له في طفولته ؛ من ذلك : أنه اشتكىٰ لوالده من كثرة القراءة ، وبرر كلامه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتخول أصحابه خشية الملل ، فرد عليه والده الحبيب عبيد الله بن محسن بأن سيدنا نوح دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فرد الوالد ابن عبيد الله علىٰ والده : ولـٰكن كيف كانت النتيجة ؟! لم يزدهم دعاؤه إلا فراراً!! ولما أخبر الحبيب عبيد الله شيخه الحبيب عيدروس بن عمر بما قاله ابنه عبد الرحمـٰن . . رد عليه الحبيب عيدروس - وكان قليل الكلام - بقوله : (فجر ليل بدت تباشيره) .

وعاد الوالد ابن عبيد الله مرة من زيارة له للمنطقة القبلية ومعه من كبار السن الشيخ محمد الدثني ، والشيخ عمر شيبان ، ولما قدم جهة البيت ورأىٰ والده من البعد . . قال لمن معه : يا الله ازملوا

جينا وجبنا بالهدية شيوخ ... واحد يكحكح من القحبة وواحد يدوخ

وذكر لي الوالد ابن عبيد الله : أن والده الحبيب عبيد الله بن محسن يعتقد في ولاية الحبيب الصفوة سليم البال علوي بن علي بن أحمد الحبشي الملقب صاحب الروشن ساكن السحيل بسيؤن ، ويروي الناس عن الحبيب علوي صاحب الروشن : أنه تزوج بشبام ، وسار بعد انتهاء الدهينة بسيؤن الطويلة ماشياً علىٰ قديمه إلىٰ شبام ، وهي مسافة بعيدة ، وكان أثناء مشيه يرتجز قائلاً :

قال بداع القوافي ... خلت بارق في جهام
الحراوه في الطويله ... والدخيله في شبام

ولما وصل شبام ذات البيوت العالية . . وجد البيت مقفلاً ، ولم يشأ أن يوقظ أهل الدار وهم غارقين في النوم ، فتذكر أنه رأىٰ جذع نخل ملقىٰ قرب سيؤن فعاد أدراجه وحمل الجذع علىٰ كتفه إلىٰ شبام ، ثم تسلق عليه ودخل علىٰ زوجته وقضىٰ منها حاجته ثم عاد ماشياً إلىٰ سيؤن ومعه الجذع ، وعرج

في طريقه علىٰ مسجد الغرفة في منتصف الطريق حيث اغتسل بجابية المسجد ، ولما وصل قرب سيؤن . . وضع الجذع حيث أخذه ، واتجه لبيته ، غير أنه اكتشف أنه نسي مفاتيحه في المسجد حيث اغتسل ، فعاد إلى الغرفة واستعاد المفاتيح ، وأكمل ليلته مع زوجته بسيؤن .

قال الوالد ابن عبيد الله : وكان والدي يحرص علىٰ زيارته ويصطحبني معه ، وأنا ما زلت طفلاً ، ولما وصلنا مرة إلىٰ بيته . . طلع والدي وبقيت مشغولاً عند الباب ببغل صغير تمنيته لنفسي ، ثم طلعت وأسررت في أذن والدي برغبتي في شراء هـٰذا البغل الصغير ، فقال الحبيب علوي لوالدي : ماذا يقول عبد الرحمـٰن ؟ فرد الحبيب عبيد الله بأنه يريد أن يشتري عفوه ، فقال الحبيب علوي : شف عبد الرحمـٰن خله يسوّي لي بغاه ، شفه في رقبتي .

وقد اشتهر الحبيب علوي الروشن بولعه الشديد بالزفين (الرقص الرجالي) وإذا دخل المدارة لا يتوقف عن الزفين ولا يترك فرصة للآخرين ، وحصلت بسيؤن جلسة سماع وزفين لم يخبر بها ، إلا أنه سمع صوت المراويس من بيته البعيد بالسحيل ، فتتبعها حتىٰ وصل لمكانها ، فدق عليهم الباب ، لـٰكنهم لما عرفوه . . لم يفتحوا له الباب ، واستمر سمرهم وزفينهم بالريم (السطح) ، وبقي الحبيب علوي في التكة خارج البيت يزفن مع نفسه علىٰ أصوات المراويس بالريم حتى انتهى السمر فعاد إلىٰ بيته .

وختاماً لهـٰذا الفصل . . فقد يقول قائل بأنني قد تحدثت كثيراً عن أخبار الوالد ابن عبيد الله الخاصة وأغفلت الحديث عن ما هو أعظم شأناً وأكثر أهمية ، وهو الحديث عن علمه الغزير وسعة اطلاعه وتضلعه في الفقه على الخصوص ، وإلمامه بشتى العلوم أدباً وشعراً وحديثاً وخطابةً ، وتفوّقه في التحدث في المجالس ، وتفرده بهـٰذه الموهبة على الجميع .

وعذري في ذلك : أن عِلم الوالد ابن عبيد الله ونبوغه لا يخفىٰ علىٰ أحد ، ويعرفه الداني والقاصي ، وتشهد بذلك كتبه ومؤلفاته ، ولقد سُئِل أبو الطيب

المتنبي عن عدم مدحه للإمام علي بن أبي طالب ؟ فقال :

وتركت مدحي للوصيّ تعمداً ... إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بنفسه ... وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولتصوري أن أحداً غيري لن يعرف عن خصوصيات الوالد ابن عبيد الله ما عرفته ، ولم يشهد معه ما شهدته ؛ بحكم ٱلتصاقي به وقرابتي منه ؛ فقد أسهبت في تفصيل ذكرياتي عنه رغم أنني نسيت الكثير منها بسبب تقدمي في السن ؛ لأن ما أوردته يعطي صورة واضحة عن شخصية هٰذا الرجل العظيم ، وأسلوب حياته وطريقة تعامله مع الناس .

* * *

علاقة ابن عبيد الله بمعاصريه

صورة للوالد ابن عبيد الله وإلىٰ يساره الحب مصطفى المحضار
ثم الحبيب حسين بن محمد السقاف أمام مسجد طه

لم تكن بين الوالد ابن عبيد الله وكثير من معاصريه علاقات حميمة ولا صداقات وطيدة ، ويعود السبب في ذلك لصراحته المفرطة وعدم ميله إلى المجاملة والمداهنة ، وعدم سكوته علىٰ ما يراه مخالفاً للشرع أو مخالفاً لنظرته الصائبة للأمور ، فكان يسارع بالتصريح برأيه دون اهتمام بمعارضيه ، سواء كانوا من السلاطين أو كبار السادة أو زعماء القبائل ، مما أكسبه عداوة الكثير من معاصريه .

وقد اختلف مع السلاطين لهٰذا السبب ، ورغم أن السلطان علي بن منصور كان من تلاميذ الوالد ابن عبيد الله السابقين ، وكان مواظباً علىٰ حضور دروسه العلمية . . إلا أن صراحة الوالد ابن عبيد الله وجرأته وتدخل الوشاة والحساد والمغرضين بينهما . . أساء إلى العلاقة بين الاثنين ، حتىٰ وصل الأمر في أواخر عهد السلطان علي بن منصور أن فرض عليه السلطان ما يشبه الإقامة الجبرية في بيته .

ومما أغضب السلطان ما حدث في قضية صالح فارس وإخوته ؛ فقد توفي والد صالح فارس وخلف أملاكاً بجاوة ، ثم ظهرت بعد وفاته امرأة صغيرة في السن ادعت أنها زوجته ، فأنكر الورثة حقها في الإرث ، فترافع عنها الوالد ابن عبيد الله ـ وهو العالم الذي لا يشق له غبار في هٰذه المسائل ـ وترافع السيد محسن بن عبد الله بن محسن عن بقية الورثة ، وكان السلطان مؤيداً لصالح فارس وإخوته في إنكار حق المرأة في نصيبها من الإرث ، ولما دخلت القضية محكمة سيؤن وترافع فيها الوالد ابن عبيد الله . . اتضح أن القضية ستنتهي لصالح موكلته ، لولا تدخل السلطان في القضية ، مما أدىٰ إلىٰ صدور الحكم لصالح فارس وإخوته ، فغضب الوالد ابن عبيد الله من تدخل السلطان والتواء الحكم ، فأخذ القضية لمحكمة شبام ـ وهي تابعة ـ للدولة القعيطية ، وليس للسلطان الكثيري أي تأثير عليها ـ فصدر الحكم بحق المرأة في نصيبها من الإرث ، ثم بعث الوالد ابن عبيد الله بوثيقة الحكم إلىٰ محمد شيبان بجاوة ـ وهو الشخص المسؤول عن شركة شيبان واكد ، والتي تدير الأملاك المتنازع عليها بجاوة ـ إلا أن محمد شيبان لم ينفذ الحكم ، وأرسل إلى السلطان الكثيري بالوثيقة التي أرسلها له الوالد ابن عبيد الله ، فغضب السلطان من لجوء الوالد ابن عبيد الله إلى القعيطي في أمر يخص السلطان الكثيري ، كما غضب الوالد ابن عبيد الله من تصرف محمد شيبان ، ووصمه بالخيانة ، حتىٰ أنه لما مات فيما بعد أحد إخوة محمد شيبان وخلف مالاً وأولاداً قُصَّر بالحبشة وكتبوا لمحمد شيبان بحضرموت ليأتي ويشرف علىٰ تركة أخيه وأولاده القُصَّر . .

اشترط عليهم شرطين : الأول خدمة ، والثانية : خرج ، فقال الوالد ابن عبيد الله : أدركوه قبل أن يقول الخاء الثالثة ، وهي الخيانة .

وممن يحبهم الوالد ابن عبيد الله حباً جماً الحبيب علوي بن عبد الرحمٰن السقاف ، وقد تولىٰ قضاء سيؤن ، واشتهر بعلمه وشدة ورعه ، وكان الوالد ابن عبيد الله يحبه ويجله ويسميه بـ : قاضي الآخرة ؛ كناية عن شدة ورعه رغم فقره الشديد ، وهو من شيوخ الوالد ابن عبيد الله ، ثم صار بعد ذلك يحضر دروس تلميذه العلامة الوالد ابن عبيد الله .

وكان بصفته القاضي يتولىٰ عقد النكاح ، وقد حدد السلطان أجرته علىٰ ذلك بربع ريال ، ثم عقد لأحد الأثرياء من القبائل فأعطاه ريالاً ، فقال له الحبيب علوي : اصرفه وأعطني حقي ، ولم يقبل أن يأخذ أكثر من أجرته المقررة .

وجاء مرة إلىٰ منزله فوجد أهله يطبخون غداءً رغم علمه بعدم توفر غداء بالبيت ، فسألهم : من أين هٰذا ؟ فأخبروه أنه من فلان الذي كان يتقاضى اليوم في المحكمة ، فأمر أهله أن يعيدوا له الطعام ، وألا يذوقوا منه شيئاً رغم جوعهم .

وأصيب أحد قرابته بالجدري وأدنف ، فزاره الحبيب علوي بن عبد الرحمٰن ، ونسي أن بيده قليل من رائحة العطر ، وأهل حضرموت يعتقدون بأن العطر يزيد من شدة الجدري ، ولما تذكر الحبيب علوي ذلك بعد المصافحة . . تكدر كثيراً ، ثم صدف أن زاد المرض علىٰ قريبه بعدها وتوفي ، فتصور الحبيب علوي أن ذلك بسبب العطر ، ورفض أن يقبض نصيبه في إرثه ؛ لاعتقاده بأنه تسبب في موته .

وتميز قضاؤه بالإصلاح بين المتداعين ، ولم يحكم طوال فترة قضائه إلا في قضية أو قضيتين .

وكان الحبيب علوي يأتمن أحد التجار علىٰ أموال اليتامىٰ والقصر ، ثم

احتاج الحبيب علوي لشيء من الطعام ، ولم يكن يملك نقوداً ، فسار إلىٰ دكان التاجر ، وصرَّ ما اشتراه في صرة صغيرة ، فسأله التاجر عن الثمن فقال له الحبيب علوي : ندفعها لكم لاحقاً عندما تتيسر ، فقال له التاجر : إذا ما معك الثمن . . لا تشترِ الآن ، وفكوا صرة الحبيب علوي الصغيرة ، وسكبوا ما فيها في السحارة وهو يقول : ما يحنق ، ما يحنق ؛ أي : ما يزعل .

وعاش الحبيب علوي في بيته عيشة جوع وتقشف ، لا يتذوقون اللحم إلا مرة أو مرتين في السنة ، فدعاه الثري السيد عبد الله مشهور إلىٰ مأدبة فيها الوالد ابن عبيد الله وغيره من أعيان سيؤن ، وأحب الحبيب علوي لولده حسن أن يذوق اللحم ، فقال له : إذا جاء وقت الغداء تعال وكأنما أنت تريدني في أمر ، وعندها سيستبقيك صاحب الدعوة . ثم جاء السيد حسن في الوقت المناسب وذهب إلىٰ والده وأسر له بكلام ، ثم جلس في طرف الغرفة ، وأخذ والده الحبيب علوي يرحب به ويقول : يا حيا بحسن ، يا مرحباً بحسن ، فقال له الوالد ابن عبيد الله : اترك لصاحب المنزل أن يرحب به ، فقال له الحبيب علوي ببساطة : لٰكن ما حد رحب به .

وكان الحبيب علوي يجل الحبيب العلامة أبو بكر بن شهاب ، ولما أوغر بعض أثرياء تريم صدر السلطان على العلامة ابن شهاب . . حدد السلطان إقامته في بيته ، ومنع زيارته ، ثم جاء الحبيب علوي بن عبد الرحمٰن لزيارة تريم ، وبعد أن زار الفقيه المقدم . . توجه مباشرة إلىٰ بيت الحبيب أبو بكر بن شهاب ليزوره غير آبه بالسلطان ولا أوامر السلطان ، مما يدل علىٰ شجاعته وهيبته .

ومن طرائف الحبيب علوي : أنه تزوج علىٰ زوجته فغضبت عليه ، ولٰكن لم يكن لها من مكان آخر تنفر إليه ، فألقت بستارة بينها وبينه ، فلا يراها ولا تراه ، ومضى الحال كذلك لعدة أيام ، ثم طلق الحبيب علوي زوجته الجديدة ، ولما عاد لبيته وجلس مع زوجته وبينهما الستارة التي يسميها أهل حضرموت بـ : الشبح . . شد الحبيب علوي الستارة وقال لزوجته : خلاص ، سدينا ؛ أي : تصالحنا .

ولما قرب أوان وفاته . . خاف أن يدفن فوق قبر أحد الصالحين ؛ حتىٰ لا يتسبب موته في نبش قبر رجل صالح ، فاختار لنفسه مدفناً جديداً في المنطقة التي تسمى الآن بـ : علوي ، وكان أول من قبر فيها ، كما دفن في ناحية أخرىٰ من نفس هـٰذه المقبرة الوالد ابن عبيد الله ومن توفي بعد ذلك من أفراد أسرته .

ومن أصحاب الوالد ابن عبيد الله : السيد شيخ بن أحمد بانقيل السقاف ، وهو من أصحاب الثروة والجاه ، وكان يحب الوالد ابن عبيد الله ويسميه بأمير المؤمنين ، إلا أنهما اختلفا فيما بعد بسبب قضية بير السور ؛ فقد ورث السيد شيخ عن والده مزرعة خارج سور سيؤن تسمىٰ (السور) ، تجاورها مزرعة لحسن بارجاء ، وهو من الأثرياء الحضارمة بجاوة ، ووكيله بسيؤن : الشيخ سعيد بارجاء ، وحدثت بينهما قضية بسبب قطعة صغيرة من مزرعة السيد أحمد ، يسميها أهل حضرموت بالرقبة ، تمتد إلىٰ مزرعة بارجاء ، وقد حاول الشيخ حسن بارجاء شراء هـٰذه الرقبة سابقاً من والد السيد شيخ بجاوة ، إلا أنه رفض بيعها رفضاً باتاً ، رغم محاولات بارجاء المتكررة ، ودخل بينهما العناد ، فبقي السيد أحمد علىٰ رفضه البيع ، ولما كان السيد أحمد غائباً بجاوة غيبة لا ننتظر عودته منها . . فقد باع القاضي الرقبة نيابة عنه لحسن بارجاء فاستعان السيد شيخ بصديقه الوالد ابن عبيد الله الذي تولى الدفاع عنه ، وأخذ القضية إلى المحكمة ، فترافع الوالد ابن عبيد الله في هـٰذه القضية ، وكان لا يشق له غبار في هـٰذه المسائل الشرعية ، ولما قارب أن يكسب القضية لصالح السيد شيخ ، وقبل أن يحكم القاضي بأحقية السيد شيخ بالرقبة . . قام السلطان وجماعة من الأعيان بزيارة السيد شيخ بن أحمد وطالبوه بإنهاء القضية بطريقة ودية ، وحشموه وعظموا شأنه ، ووعدوه بوعود كبيرة ، وما زالوا به حتى استجاب لطلبهم وتنازل عن القضية دون أن يخبر الوالد ابن عبيد الله ، الذي بذل جهداً عظيماً في هـٰذه القضية ، وعادىٰ فيها السلطان وآل بارجاء وآخرين ، ولما سأل العم عبد الرحمـٰن السيد شيخ بن أحمد عن سير القضية . . أجابه ببرود : (خلاص تصالحنا وأعطيناهم الرقبة) ، فغضب العم

عبد الرحمـٰن من هـٰذا التصرف وقال : إنك قبلت أن يقطعوا رقبة أبيك . . فبقيت مقطوعة إلىٰ يوم الدين ، وردد العم عبد الرحمـٰن قول الشاعر :

كم صاحب عاديته في صاحب   فتصالحا وبقيت في الأعداء

وبقيت علاقة الوالد ابن عبيد الله بالسلطان علي بن منصور علاقة متوترة رغم أن الوالد ابن عبيد الله ذكر أن السلطان حاول أن يزوره ويصلح الأمور . . لولا معارضة بعض بطانته لهـٰذا الصلح .

ولما مات السلطان علي بن منصور وتولىٰ بعده السلطان جعفر . . صادف ذلك وقت العيد ، فأعد الوالد ابن عبيد الله كلمة يقولها في كلمته التي اعتاد أن يقولها في جلسة العواد بمسجد طه ، ثم توقف عنها بسبب إقامته في بيته ، فخرج الوالد ابن عبيد الله من بيته للعواد بعد فترة من الغياب ، وألقىٰ كلمة بليغة بدأها بأبيات المتنبي :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضىٰ أم بحالٍ فيه تجديد

فاعتبر الوشاة أن ذلك إشارة من الوالد ابن عبيد الله إلى الوضع السياسي الجديد في حضرموت ، وأثاروا حفيظة السلطان الجديد عليه ، وتدهورت إثر ذلك الأمور بين الوالد ابن عبيد الله والسلطان جعفر ، لدرجة أن تسلق أحمد بن السلطان جعفر دار محضارة المواجه لبيت ابن عبيد الله ومعه بندقيته لاغتيال الوالد ابن عبيد الله من البعد ، إلا أن الوالد ابن عبيد الله اعتصم بالأجل ، فلم تنجح خطة الاغتيال .

كما لم تكن العلاقات وديّة بين الوالد ابن عبيد الله والعم بو بكر بن شيخ الكاف ، بسبب اختلافهم في التوجهات السياسية ، فكان العم بو بكر بن شيخ يتصور أن صلاح حضرموت واستقرارها سيحققه الإنجليز ، خصوصاً وأنه عاش فترة بسنغافورة ورأىٰ ما حققه فيها الإنجليز من استقرار وأمن وازدهار ، ولهـٰذا كان مندفعاً في هـٰذا الاتجاه ، بينما كان الوالد ابن عبيد الله يكره الإنجليز ويحاول جهده إبعادهم عن حضرموت ، وكان يعمل علىٰ إدخال

حضرموت تحت سيادة دولة الخلافة العثمانية ، وله اتصالات مستمرة في هـٰذا الاتجاه مع قائد الجيوش العثمانية بلحج علي سعيد باشا ، وكان الوالد ابن عبيد الله يلقي القصائد في مدح دولة الخلافة الإسلامية والدعاء لها ، ويتغنىٰ بانتصاراتها .

وكان كل منهما يحاول أن يحرج الآخر ويدبر له المقالب ؛ ففي أحد المجالس تكلم الوالد ابن عبيد الله ـ وكان العم بو بكر جالساً بجواره ـ وقال أثناء الحديث عن خطف البدو للأطفال من حضرموت واسترقاقهم وبيعهم في نجد ، بأن البدو خطفوا شخصين ؛ واحد من آل خرد وواحد من الكاف ، وذهبوا لبيعهم بنجد ، فأما خرد فبيع بسرعة ، وأما الكاف فلم يفلحوا في بيعه ، ولم يرغب فيه أحد ، فتخلصوا منه وباعوه بحزمتي قصب ، ثم التفت الوالد ابن عبيد الله إلى العم بو بكر وقال له : هـٰذا من جماعتكم يا بو بكر ، فرد العم بو بكر : (لا ، لا ، هـٰذا من الهجرين) .

وقد ترافع الجد ابن عبيد الله في قضية أملاك كبيرة لآل عاشور باحميد بمقابل مناسب ، ونجحت القضية ، إلا أن العم بو بكر أمرهم بألا يدفعوا أتعاب الوالد ابن عبيد الله ، ففعلوا ، وبعد فترة حاول العم بو بكر استرضاء الوالد ابن عبيد الله فأرسل له منهم عشرة آلاف شلن مع السيد عبد القادر بن محمد بن طه (أبوعلوي) ، إلا أن الوالد ابن عبيد الله رفض أن يستلم المبلغ ، وأعاده إلى العم أبو بكر .

إلا أن هـٰذه الواقعة لم تقلل من احترام الوالد ابن عبيد الله للعم بو بكر والإعجاب بكرمه الحاتمي واستقباله الضيوف وإكرامهم ، حتىٰ إنه قال مرة لعمر بن شيخ الكاف عندما دعاه لقصره الجديد بتريم : إن مطبخ بو بكر بن شيخ أحسن من هـٰذا القصر ؛ في إشارة لكرمه .

ورغم كراهية الوالد ابن عبيد الله للإنجليز . . إلا أنه لم يرفض استقبال الضابط الإنجليزي انجرامس في بيته ، برغم أن انجرامس صرح للوالد ابن عبيد الله برأيه ، وهو أن الشريعة الإسلامية لا تصلح للحكم ، فرد عليه الوالد

ابن عبيد الله وأقنعه بأن حال المسلمين لا يترجم قوة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للحكم في كل زمان ومكان ، وقد سجل الوالد ابن عبيد الله إعجابه بذكاء الضابط الإنجليزي وفطنته .

وذكر الوالد ابن عبيد الله أنه لما كان بالحديدة تقابل مع الإيطاليين الذين احترموه احتراماً كبيراً وقدروه حق التقدير ، رغم كرهه لهم لما فعلوه بالمسلمين في ليبيا ، قال الوالد ابن عبيد الله : ولما شرحت لهم الإسلام . . قالوا له : لو أن أحداً شرح الإسلام بهٰذه الطريقة في إيطاليا . لأسلمت إيطاليا كلها .

كما لم تكن علاقة الوالد ابن عبيد الله علاقة طيبة بالكثير من السادة بسيؤن ، وكان الوالد ابن عبيد الله يشتكي مما يعانيه منهم من جفوة وحسد .

وفي مرة من المرات قام بعض السادة في مسجد طه واتهم الوالد ابن عبيد الله باستخدام نفوذه على السلطان للتأثير على الأحكام القضائية ، فوقف الوالد ابن عبيد الله يرد ، واستشهد بالسلطان علي بن منصور الذي كان حاضراً فقام السلطان وتكلم ، وقال بأن الوالد ابن عبيد الله لم يتدخل بواسطته في أي قضية من القضايا ، فأفحم ذلك الكلام المتكلم وأسكته .

ولم يستطع السادة المناؤون للوالد ابن عبيد الله الانتصار عليه في أي قضية من القضايا ، حتىٰ أنهم فكروا بالاستعانة عليه بعالم من مصر أو العراق ، ولم يعرفوا أنه لم يوجد في زمانه من يماثله في قوة الحجة ووضوح البيان وغزارة العلم وعمق المعرفة ، وقد فصل الوالد ابن عبيد الله في كتابه « بضائع التابوت » الكثير مما حدث له من مثل هٰذه القضايا والأحداث .

وكان الوالد ابن عبيد الله يلقي درسه في إحدى الليالي بمسجد القرن بسيؤن عندما انطفأ عليهم السراج ، فقام أحد الحضور وأحضر السراج الذي يستخدمه التلاميذ الذين يتدارسون القرآن بالمسجد ، فغضب لذلك السيد سقاف بن محمد مؤسس مدرسة النهضة وكان ناظراً لمسجد القرن ، وقام وأعاد السراج للتلاميذ ، وترك الوالد ابن عبيد الله وطلبته في الظلام ، فقام الوالد ابن عبيد الله

لأخذ السراج ، فتشابك بالأيدي مع السيد سقاف ، ثم حجز بينهم الناس ظاهراً ـ كما يقول الوالد ابن عبيد الله ـ وواقعاً مكنوا منه السيد سقاف وكانت قضية وصلت للسلطان ، إلا أنه لم يفعل شيئاً للوالد ابن عبيد الله ، وقال الوالد ابن عبيد الله : ولم ينتصر لي في هٰذه القضية إلا أولاد العبيد الذين ذهبوا إلىٰ بيت السيد سقاف ودعوه ، فلما نزل إليهم . . أوسعوه ضرباً مبرحاً ، مما دفعه إلى الهجرة إلىٰ جاوة بعد هٰذه الحادثة ، ولم يعد بعدها إلىٰ حضرموت .

وقد كان السيد سقاف بن محمد يعمل بجاوة ، ويدخر ماله لأجل تأسيس مدرسة النهضة بسيؤن ، بينما يجمع بقية الحضارم أموالهم لأنفسهم ، فكان لتأسيس مدرسة النهضة بسيؤن دور كبير في نشر التعليم بحضرموت لا زال مستمراً إلى الآن ، وقد حضر الحبيب سقاف بن محمد بسيؤن عقد نكاح عقد فيه للسيد محسن بن بصري بن علوي وأبوه من الأغنياء ، وصاحب قصر آل بن بصري الذي ما زال شامخاً بسيؤن إلى اليوم ، وقد عقد له علىٰ بنت الثري عبد الله بن علوي المشهور ، كما عقد في نفس الجلسة للسيد سالم بن محسن بن جديد ، وهو رجل فقير ، وأبوه فقير ، وعقد له علىٰ بنت السيد عبد الله بن عمر بن حامد ، وهو أيضاً فقير ، فقفز الحبيب سقاف بن محمد لما سمع الأسماء وصاح : أيش هٰذا الظلم ؟! ابن الغني علىٰ بنت الغني ، وابن الوحش ـ الفقير ـ علىٰ بنت الوحش .

ويعتبر الحبيب علي بن محمد الحبشي أكبر شخصية دينية واجتماعية في ذلك العهد ، وقد اجتمع الناس علىٰ محبته وتقديره ، وكانت بينه وبين الوالد ابن عبيد الله علاقة قوية ، وصلة متينة ، إضافة لكون خالته زوجة الحب علي ، ولهٰذا كان يدخل على الحب علي في أي وقت ويزوره في غرفته الخاصة ، وكان الحب علي يحب الوالد ابن عبيد الله ، ويعتبره ولداً من أولاده ، وكان معجباً بفطنته وذكائه وغزارة علمه وسعة حافظته ، وكانا يتحدثان في الشعر والأدب ويتبادلان النوادر والطُّرف ، ولما مات والد العم عبد الرحمٰن الحبيب عبيد الله بن محسن . . رثاه الحب علي وقال : ما مات من خلف مثل

عبد الرحمـٰن ؛ إلا أن الحساد والوشاة سعوا لتكدير صفو العلاقة بين القطبين العظيمين ، وقد زار الوالد ابن عبيد الله الحب علي في مرضه الذي توفي فيه ، ولم تنقطع بينهما وشائج المحبة والاحترام .

وكان من عادة أهل سيؤن أن يستقبلوا الزوار العائدين من زيارة نبي الله هود بالشبواني والطبول من حين دخولهم سدة سيؤن وحتىٰ وصولهم لمسجد طه ، فترتب لهم الفاتحة في ساحة المسجد ، ثم ينصرف كل إلىٰ بيته ، وحدث في إحدى المرات أن تغيرت هـٰذه الطريقه القديمة ، فاتجه الزوار العائدون ومستقبلوهم إلىٰ حوش آل حبشي بدلاً من مسجد طه ، فغضب لذلك بعض الأثرياء من السادة ، ممن لهم دالة كبيرة على العبيد من آل غلفان ، فأوعزوا إلىٰ رئيسهم يسر غلفان أن يذهب مع جماعته إلى الشبواني ، ويكسروا الطاسات ويشقوا الطبول ، ففعلوا ، وهدأت فجأة كل الأصوات ، وتوقف الشبواني ، وصمت الناس ، ولم تكن للوالد ابن عبيد الله صلة بما حدث ؛ إلا أن الحساد والوشاة لا يتركون فرصة للوقيعة والفتنة بين الناس .

ثم وصل المغربي الدجال إلىٰ سيؤن أثناء مرض الحب علي الذي توفي فيه وأوهم الناس بقدرته علىٰ فك السحر وعلاج المس والعين ، وقد انتشر خبره في سيؤن وما حولها ، وجمع من الناس أموالاً عظيمة ، وكان يعمل الطلاسم والأوراق ثم يضعها سراً في مكان معين ، ويخبر الناس بأن صاحبهم مسحور وأن طلاسم السحر موضوعة في مكان يعينه لهم ، فيذهبون ويجدونها كما وصفها لهم ، فيصدقون .

وقد أحدث قطيعة وسوء فهم بين كثير من الناس في حضرموت ، ثم انتقل هـٰذا المغربي إلىٰ تريم وصادف من النجاح هناك ما صادفه في سيؤن ، إلا أن بعض الناس قد شك في أمره ، ففتحوا منزله في غيابه ، فوجدوا بداخله أدوات الشعوذة والدجل من طلاسم وتعاويذ وأوراق قديمة وعظام وشعر وكثير من الأشياء التي كان يدسها في أماكن معينة ويخبر الناس بمكانها ليصدقوه ، ولما انفضح أمره وانكشف سره . . كتب جماعة من أهل تريم منهم السيد حسين بن

عبد الرحمـٰن الكاف كتاباً باللغة العامية إلى السيد عبد الله بن محسن بن علوي وإلى السيد عبد الله بن علي الحبشي وذكروا ما اكتشفوه من أمر المغربي ، وطلبوا منهم أن يشيروا على السلطان بحبسه وذبحه ، إلا أن المغربي لما عرف اكتشاف أمره جمع حاجته وهرب لخارج البلاد .

وذكر لي الأخ عيدروس المحضار أيضاً أن الوالد ابن عبيد الله لما قدم للحج في عام (١٣٣٠هـ) كان بمكة شخص من أثرياء دوعن انتقل من دوعن وأقام بمكة ، وكان الوالد ابن عبيد الله قد هجاه من سنين طويلة عندما لم يحسن استقباله عند زيارته لدوعن ، فقال فيه :

وكنّا قد قصدنا بافلان لقربه   فكان لئيماً ناصبياً مجدعا

ولم ينس هـٰذا الرجل للوالد ابن عبيد الله هـٰذا الهجاء رغم مرور السنين الطويلة عليه ، ولما علم بوصول الوالد ابن عبيد الله للحج . . أقام عليه دعوىٰ قذف بالمحكمة ، إلا أن أصحابه نصحوه بالإقلاع عن ذلك وخوفوه من التعرض لابن عبيد الله ؛ حتىٰ لا تنقلب الدعوىٰ عليه ويتضرر ، فسحب دعواه ، وآثر السلامة مع ابن عبيد الله .

ولم يكن الخلاف بين الشيبان محصوراً بين الوالد ابن عبيد الله ومعاصريه ، بل كان يحدث بين كثير من الشيبان ، إلا أنه يمر في الغالب مروراً عابراً ، ولا يترك في نفوسهم أي أثر ، وكان الحبيب حسين بن محمد السقاف إماماً لمسجد طه ، ومتصدراً للجلسات التي تعقد فيه ، وهو سليم النية أبيض السريرة بادي الصلاح .

ثم وصل من مصر إلىٰ حضرموت الحبيب عبد الله بن محمد بن حامد السقاف ، وقد أقام بمصر مع ابنته وزوجته الغنية ابنة السيد عبد القادر بن عبد الرحمـٰن السقاف ، وزير السيد محمد بن أحمد السقاف ، أكبر أثرياء سنقفورة لفترة طويلة ، وألف أثناء إقامته بمصر كتابه الموسوعي « تاريخ الشعراء » في حضرموت ، ولما توفيت زوجته . . عاد إلىٰ حضرموت في أبهة كبيرة ، وموكب فخم ، وصار بعد قدومه يتصدر الجلسات بمسجد طه ،

ويجلس إلىٰ جوار الحبيب حسين بن محمد إمام المسجد ، واعتاد الحبيب محمد بن علي الحبشي أن يهدي الحبيب حسين عشرة سنبوسات في كل ليلة من ليالي رمضان ، فيتأدم بها الحبيب حسين ويفرح بها فرحاً عظيماً ، ثم طلب الحبيب محمد من الحبيب حسين قراءة مولد آخر بمسجد طه بدلاً من « مولد الديبعي » الذي اعتاد السلف قراءته بمسجد طه ، فوافق الحبيب حسين ، واعترض الحبيب عبد الله بن محمد بن حامد ، وتكلم في ذلك في جلسة بمسجد طه كنت من حضورها ، فقال له الحبيب حسين : اسكت يا بن حامد ، فاغتاظ الحبيب عبد الله وقال : أنا ما لي اسم يا حسين قبله ، فقال الحب حسين : أنت ليش تعترض ، وأيش دخلك في مسجد طه ، وأيش الفايده من كتابك هـٰذا « تاريخ الشعراء » ؟! محمد بن علي يرسل لي كل ليلة عشر سنبوسات ، فضحك الناس علىٰ بساطة الشيبان وسلامة نياتهم .

وعُرف الحبيب حسين بن محمد السقاف ببساطته وسلامة نيته وبحبه لإمامة الصلاة بمسجد طه ، ولا يسمح لأحد بأن يتقدم للإمامة متىٰ كان موجوداً ، وقد عرف عنه ذلك الناس وخدم المسجد والمؤذن ، فلا تقام الصلاة قبل حضوره حتىٰ لو تأخر ، وحدث في مرة من المرات أن تأخر العم حسين كثيراً وظنوا أنه لن يحضر للصلاة ، حيث كان يحضر مشياً على قدميه من مسكنه البعيد عن المسجد في ساحة الصبّان ، فتقدم العم محمد مساوي لإمامة الصلاة ، وأحرم بالصلاة ، وأثناء سجود الركعة الأولىٰ . . وصل الحبيب حسين ومشىٰ مشياً متواصلاً إلى القبلة ورفع عكازه وضرب به العم محمد مساوي وهو ساجد في الصلاة ، فهرب العم محمد من فوره لخارج المسجد ، وأحرم الحبيب حسين بالصلاة من جديد .

ومما يدل علىٰ سلامة بال الحبيب حسين وبساطته : ما تدل عليه هـٰذه القصة ؛ فقد أرسل له ابنه حسن المقيم بجاوة هدية بالبريد ، ولما وصلت الهدية لجمرك سيؤن . . استدعى العم حسين العم علي بن عبد الله السقاف والحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف في وقت متأخر ، فظنوا أن أمراً خطيراً

قد حصل ، ولما وصلوا بيته . . أخبرهم بأنه قد وصلته هدية من ابنه حسن ، وأنها موجودة بالجمرك ، وطلب منهم أن يذهبوا للسلطان ليعفيه من الجمرك ، ويذكروه بأن آل سقاف بن محمد مجبرين ـ أي : معفين ـ من الجمرك باتفاق أجداده وجدنا الحبيب سقاف بن محمد ، وفتح الحبيب حسين لهم ترجمة الحب سقاف بن محمد المخطوطة ، وانتزع منها الورقة التي تثبت هٰذا الكلام ، وسلمها لهم ليطلعوا عليها السلطان .

وفي اليوم الثاني ذهب العم علي والحبيب عبد القادر إلى السلطان وأخبروه بهدية الحبيب حسين في الجمرك ، وأطلعوه على الورقة التي انتزعها الحبيب حسين من الكتاب، وطلبوا من السلطان الإعفاء من الجمرك ، فوافق السلطان وأعطاهم أمراً بذلك لمدحىٰ مدير الجمرك ، ولما استلموا الطرد المرسل من الجمرك . . وجدوا بداخله حبوة لا تساوي شلنات ، وأخبرهم مدحىٰ مدير الجمرك بأنهم لو جاؤوا إليه مباشرة . . لأعطاهم الحبوة دون الحاجة لمقابلة السلطان .

وللوالد ابن عبيد الله الكثير من القصص والنوادر مع معاصريه ؛ ومنهم منصب من مناصب الجهة القبلية ، وهو رجل لطيف ، ومن أصدقاء الوالد ابن عبيد الله المحببين ، وينزل في بيته ضيفاً حين يزور سيؤن .

وقد وصل المنصب إلىٰ سيؤن في أيام العيد ونزل كعادته ببيت الوالد ابن عبيد الله ، وقد تعود الوالد ابن عبيد الله بالقيام بزيارات للعواد لبعض الشخصيات حيث يجتمع في الناس ويتكلم فيهم ، ويحضر لسماعه الكثير ، وعندما ذهب الوالد ابن عبيد الله لعواد السيد عبد القادر الروش . . أخذ معه الحبيب المنصب ، وذهبت معهم لهٰذا العواد ، فجلس الوالد ابن عبيد الله علىٰ طراحة في صدر المجلس ، وجلس إلىٰ جواره الحبيب المنصب ، وبدأ الوالد ابن عبيد الله يتحدث والناس في صمت يستمعون ، وفي أثناء ذلك نعس الحبيب المنصب ، ثم أخذ يتمدد في الطراحة حتى انبطح ، وبعد قليل صدر منه غطيط ، وكان الوالد ابن عبيد الله يتحدث بحماس ، فالتفت عند سماعه الغطيط . . فوجد الحبيب المنصب بجانبه مستغرقاً في النوم ،

فتوقف عن الكلام وطلب من أحد الحضور أن يعطيه العكاز ، ولما استلمه . . شد به صارون المنصب وغطىٰ به وجهه ، فانكشفت عورته ، ثم واصل الوالد ابن عبيد الله حديثه وإلىٰ جواره الحبيب المنصب غاطاً في نومه مكشوف العورة ، والناس يستمعون ويضحكون ، وكل من دخل الغرفة . . اندهش من هـٰذا المنظر ؛ فهـٰذا ابن عبيد الله يتحدث وإلىٰ جواره الحبيب المنصب مستغرقاً في النوم وقد تغطىٰ وجهه بصارونه ، وعورته لا يسترها شيء ، ثم تنبه الحبيب المنصب واعتدل في جلسته وغطىٰ نفسه وجلس ، وكأن شيئاً لم يكن .

ومن معاصري الوالد العلامة عبد الرحمـٰن بن عبيد الله : العم هود التويني ، وهو من أثرياء ذلك الزمن ، وزوجته تنحدر من أسرة آل السقاف الغنية بسنغافورة ، ولما توفيت . . آلت تركتها له ولابنها أحمد ، فأسس العم هود في سيؤن قصراً كبيراً بقيت آثاره إلى الزمن الأخير ، ثم تصدع بنيانه في السنوات الأخيرة ، وعادت ملكية أرضه لمدرسة النهضة ، فتم هدمه لتبنىٰ علىٰ أرضه مدرسة النهضة للبنات .

هرياما بكامل زيه مع الطلمبة المتحركة ، وبجواره الشاعر الشعبي عمر كرامة
وبدا العم هود إلىٰ أقصى اليمين ، وخلفهم الأطفال

وللعم هود بعض الأفكار الطموحة ، مع أن بعضها غريب وسابق لأوانه ، وهو أول من أحضر المكائن الزراعية إلىٰ حضرموت ، فاستورد من سنغافورة في عام (١٣٤٨ هـ) مضخة ماء ضخمة ، وصلت بالسفن إلىٰ ميناء الشحر ، ثم نقلتها الجمال مجزأة إلىٰ سيؤن ، واستقدم معها مهندساً يابانياً يسمىٰ (هرياما) ؛ لتركيبها ، ونزل هرياما في أحد الملاحق الأرضية لقصر العم هود ، وشرع في تركيب المكينة ، ولما اكتمل تركيب المضخة بقصر العم هود . . اكتشف هرياما بأنهم يريدونها لمزرعة العم هود المسماة بالحمر ، مما أحدث مشكلة ؛ إذ إنه يتعذر حملها ونقلها إلى المزرعة بعد تجميعها ، فابتكر المهندس الياباني هرياما طريقة عجيبة لتحريك المضخة ، فقام بإضافة عجلة أمامية ، فتحركت المكينة بالدفع الذاتي على الطريق ، ووجهها هرياما إلىٰ طريق المزرعة ، فتحركت حركة مستمرة وبطيئة ، وكان يوم نقل المكينة إلىٰ مزرعة العم هود يوماً مشهوداً ؛ فقد خرجت المكينة ومعها العم هود والمهندس هرياما وبعض الوجهاء وخلفها مجموعة من أطفال سيؤن ، وكنت يومها في الثامنة من عمري ، فمشيت مع من مشىٰ خلف أول آلة متحركة تتحرك بنفسها داخل سيؤن .

وللعم هود قوانين ثابتة في قصره ؛ فهو يخصص غرفاً خاصة بالاستخدام لكل يوم من أيام الأسبوع ، ولا يجوز استخدامها في غير يومها المخصص .

ثم اتصل العم هود بالوالد العلامة عبد الرحمٰن بن عبيد الله وأخبره بأن هرياما يريد أن يدخل الإسلام علىٰ يديه ويتزوج ، ففرح العم عبد الرحمٰن بهٰذا الخبر وقال للعم هود : سآتيك من فوري لنشهد إسلام هرياما ، ولٰكن العم هود قال : لا يكون ذلك إلا يوم الإثنين ، فأجابه الوالد ابن عبيد الله بأنه لا يجوز أن يبقىٰ هرياما كافراً إلىٰ يوم الإثنين ، ولا بد من المبادرة بإسلامه ، فقال العم هود : لا يا عبد الرحمٰن ، أنت تفهم في العلم ، ولٰكنك لا تفهم في القانون ، وهٰكذا تأخر إسلام هرياما حسب قانون العم هود إلىٰ يوم الإثنين ، وتزوج هرياما بعد إسلامه من إحدى الفتيات الحضرميات ، وعلىٰ نفقة العم هود .

وعرف العم هود بكرمه وأريحيته ، وعرف عنه ذلك العبيد بسيؤن ، فاحتالوا للاستفادة من كرمه ، فأخذوا يفتعلون فيما بينهم المشاكل الوهمية ويتظاهرون بالتأهب للقتال ، ثم يذهبون للعم هود فيدفع لهم ويصلح فيما بينهم .

وللعم هود باع في الأدب البسيط ، ويقام الشبواني في الساحة بين بيته وبيت العم علي بن صالح الحامد ، ويجلس العم هود في بنقلته يتابع شعراء الشبواني وهم يتساجلون بأبيات الشعر ، ثم يلقي لهم العم هود بيتاً من الشعر الركيك فيتغنىٰ به الشبواني ويصيحون جميعاً قال الفتى الحبيب هود ، فيسر العم هود منهم ويرمي لهم من شرفته بالريالات الفرانصة ، فيستمر الشبواني علىٰ هـٰذا المنوال .

وفي أحد الأيام أحب شخص من آل باحميد أن يستعير حمار العم هود ليزور عليه تريس ، فأرسل طلبه شعراً للعم هود وقال :

قضيت لنا حاجة ابغت الحمار تريسا

فأعجب العم هود ببيت الشعر هـٰذا ، وصار يؤنب أولاده أنهم لم يصلوا في فن الشعر لهـٰذه المرتبة .

وقد عمل العم هود في بنقلة قصره مكتبة ملأها بالكتب ، وكان يستقبل فيها الضيوف ، ولما استضاف فيها الحبيب اللطيف شيخ بن محمد الحبشي وانفرد بنفسه بالغرفة . . فتح الكتب ليستفيد ، فوجد أن العم هود قد كتب علىٰ كل كتاب منها : (قرأنا هـٰذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره) ، فأضاف العم شيخ تحت تلك العبارة : (ولـٰكننا لم نفهم شيئاً) .

واشتهر العم هود بقوة الإرادة ، ولديه طاقة كبيرة وحزم شديد ، وقد أسس مسجد الروضة بجوار قصره ، وكان من أوائل الذين امتلكوا سيارة بسيؤن، كما أدخل التلفون السلكي إلى منزله بسيؤن .

وعندما عزم الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف علىٰ بناء بيته بسيؤن . . دعا الوالد ابن عبيد الله ليضع حجر الأساس ، كما دعاني والعم علي بن

عبد الله ، وكان الحبيب عبد القادر فقيراً ولم نكن نتصور أن بمقدوره تحمل تكاليف بناء هـٰذا البيت ، فهيّؤوا المكان لجلوس الوالد ابن عبيد الله تحت ملة ذات ظل عجيب ، وانتظم المجلس بحضوره ، وبعد ذلك قام الوالد ابن عبيد الله بوضع حجر الأساس ، ولـٰكنه فوجىء بخطة لبيت كبير لا يتناسب وحال الحبيب عبد القادر بن أحمد ، فوضع الأساس ورتب الفاتحة ، وبعد ذلك ذبحوا عند التأسيس رأسين وأولموا لنا ، كما أرسلوا لبيت الوالد ابن عبيد الله ربع رأس ، وعندما رجعت مع العم عبد الرحمـٰن إلىٰ داره وطلعت معه إلى الغرفة . . قال لي : شوف هـٰذا عبد القادر ما معه شيء ، والبيت كبير ، والظاهر أنه معتمد علىٰ تيسير الله ، وربك هـٰذه الأيام معاد ييسر ، وضحك وضحكت معه ، فلما كانت جلسة البردة التي يعقدها صباح كل جمعة . . قال الوالد ابن عبيد الله : إن عبد القادر بنىٰ بيتاً كبيراً وما معه شيء ، ومحسن قال الظاهر أنه معتمد علىٰ تيسير الله ، وربك هـٰذه الأيام ما ييسر ، وضحك ، والواقع أن النكتة أعجبته ، ولـٰكنه استحىٰ أن تصدر منه ، فأضافها لي .

وقد قام الوالد ابن عبيد الله برحلات كثيرة داخل حضرموت وخارجها ، فزار الحجاز للحج وزيارة المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، ثم حج أيضاً علىٰ أيام الملك عبد العزيز ، وكان الوالد ابن عبيد الله يكره الشريف حسين ؛ لخروجه علىٰ دولة الخلافة الإسلامية واشتراكه مع الإنجليز في حرب الأتراك ، وكان معجباً بشخصية الملك عبد العزيز آل سعود ؛ لما يرىٰ فيه من قيادة إسلامية مستقلة ، ولما سمعه من أخباره وشهامته .

وقد قال قصيدة في يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة من سنة (١٣٦٤هـ) بعد سماعه في المذياع مع عدد من الحضور من احتجاج أهل الحجاز ونجد بشأن فلسطين وما دعا به الملك عبد العزيز من التضامن والاتحاد ، وإيوائه للكيلاني ، وتناقش الحضور وقالوا : إن ابن السعود لا بد أن يسلم الكيلاني ، فقال الوالد ابن عبيد الله : معاذ الله أن يسلم ابن سعود جاره ، ولو انشقت

الأرض أو خرت الأخاشب هداً ، وأخذته الحمية فأملى القصيدة التالية :

فخر تخر لـه مـن أوجهـا الشهـب	على جبين المعالي خطه الذهب
فخـر أعـاد علـى الأيـام رفعتهـا	كـأنمـا هـي أيـام الألـى القشـب
فضيـف هـذا ملـوك الأرض تطلبـه	ومجرم الحرب محتوم له الحرب
لكـن ذمتـه للجـار غـاليـة	فلـن يجـاب إلـى تسليمـه طلـب
شهـامـة وسجـايـا كلهـا كـرم	والحق أبلج لا تلوى به الحجب

وقال الوالد ابن عبيد الله : وقد صدق ما توقعته إذ عزم الله لذلك العاهل العظيم بالثبات ، وأبقى لنفسه وللعروبة الشرف الخالد التالد .

وقد قابل الوالد ابن عبيد الله الملك عبد العزيز في مجلس استقبال كبار الحجاج بمنىٰ ، ويذكر الأخ عيدروس المحضار هٰذه المقابلة فيقول : وقد تأخر الوالد ابن عبيد الله عن الحضور ، وكنا قلقين من تأخره ، فلم نكن نريد أن نراه في طرف القاعة ، ولما وصل ابن عبيد الله متأخراً ووجد القاعة غاصة بالمدعوين . . اتجه مباشرة إلىٰ مقعد بجوار الملك جرت العادة علىٰ تركه فارغاً لا يجلس عليه أحد ، فدخل الوالد ابن عبيد الله بزيه الحضرمي العلوي وقصد مباشرة إلىٰ هٰذا المقعد ، ولم يستطع أحد أن يقف في طريقه ، ثم ألقى الشعراء قصائدهم أمام الملك ، وخطب الخطباء من علماء مصر والشام والعراق ، وأخيراً وقف الوالد ابن عبيد الله ولخص كل ما قالوه ، ثم أوضح حال البلاد الإسلامية ، ونصح الملك عبد العزيز حتىٰ دمعت عيناه ، ويذكر الشيخ خالد باخشب الذي حضر هٰذه الجلسة : أن الملك عبد العزيز قال بعد أن انتهى الوالد ابن عبيد الله من كلمته : لله در البلاد التي أنجبتك ، كما قال السيد عيدروس : بأننا سألنا ابن عبيد الله كيف جلس في هٰذا المكان بجوار الملك دون بقية ضيوف الدولة ؟! فقال بأنني دخلت عليه مع أسلافي ، ويقول الوالد ابن عبيد الله : إن الملك عبد العزيز أخبره بأن الإنجليز قد عرضوا عليه حكم حضرموت ، وهٰذا مما أثلج صدر الوالد ابن عبيد الله الذي يكره الإنجليز ولا يريد لحضرموت إلا حكماً إسلامياً صرفاً ، وأعقب هٰذا الحديث خروج

الضابط الإنجليزي عبد الله فيلبي بسيارته من الحجاز إلىٰ حضرموت ، ووصل تريم ، وكان أول شخص يقطع الجزيرة العربية بالسيارة إلا أن شيئاً مما تمناه الوالد ابن عبيد الله لم يحدث .

وكان الوالد ابن عبيد الله يحظى بالحفاوة والرعاية في أي مكان ينزل فيه ، وكتب في مذكراته : ولما كنا بمكة المكرمة ـ ولعل ذلك كان أثناء حجه عام (١٣٥٤هـ) ـ دعانا الفاضل الشاعر الأديب أحمد إبراهيم الغزاوي إلى منزله ، فإذا دار أنيق ، وطبع رفيق ، ومنظر جذاب ، وجماعة من أهل الفضل والعلم ، تجاذبنا معهم لطائف المحاضرات ، وشهي المحاورات ، وأنشدنا طائفة وافرة من أشعاره العذبة ، ولما اطمأن المجلس. . تقدم إلي بقصيدة من نظمه الفائق ، تناهز الخمسين بيتاً ، أخجلني بمدحها البليغ ، ولكنه ضنَّ علي بمسودتها بعد أن وعدني بتبييضها ، فما كان مني إلا أن أعتقت اليراع ، وأعانني طيب المجلس ، وبهاء المنزل ، ورقة طباع الحاضرين ، وسلامة أذواقهم ، وحسن رعيهم ، وجميل وعيهم فكتبت فيه أبياتاً .

وقد سافر الوالد ابن عبيد الله إلى الحبشة والسواحل الإفريقية ، وسافر إلىٰ جاوة ، وحاول جهده الإصلاح بين العلويين والإرشاديين في الفتنة المذهبية التي أشعلها بينهم النصارى الهولنديون ؛ لتشتيت جهودهم ووقف المد الإسلامي بإندونيسيا ، إلا أنه لم يوفق في حل هـٰذه الفتنة المستشرية ، ويقول الوالد ابن عبيد الله : إنه تمكن من إقناع الإرشاديين ولم يستطع إقناع السادة .

وزار الوالد ابن عبيد الله الحبيب محمد بن أحمد المحضار بجاوة ، وكانت بينهما محبة كبيرة وتقدير عظيم ، وكان الحب أحمد المحضار يقول إذا دخل عليه الوالد ابن عبيد الله :

إن هـٰذا الطويل من آل طه ... نشر العلم بعد أن كان ماتا
وبنىٰ مثل ما بنىٰ أولوه ... هكذا يتبع البناةُ البُناتا

ولما ذكر الوالد ابن عبيد الله مسألة الإصلاح . . شجعه الحب أحمد المحضار ووافقه وقال له :

تـــدور لكـــم حـــركـــات الفلـــك وإن شئتـــم الحكـــم منـــي . . فلـــك

وقد أثَّرَت هـٰذه الزيارة في الوالد ابن عبيد الله ؛ إذ قام إثر عودته من إندونيسيا بنبذ الخلافات والتقارب مع من يخالفه من السادة بحضرموت ، كما ذكر ذلك في كتابه « بضائع التابوت » .

ولما وصل الوالد ابن عبيد الله إلى السواحل الإفريقية على متن باخرة أقلته من عدن ، ومعهم في نفس الباخرة أحد الشخصيات الإنجليزية الكبيرة . . وجدوا الميناء غاصاً بالناس ، فحسبهم الإنجليزي قد جاؤوا من أجله ، ولما هبط من الباخرة . . تركوه في حاله واتجه الناس لاستقبال الوالد ابن عبيد الله .

كما قام الوالد ابن عبيد الله بزيارة للهند ذكرها في كتابة « بضائع التابوت » ، وذكر أنه قام بهـٰذه الزيارة ممثلاً للسلطان القعيطي لحضور الاحتفالات بتتويج الملك جورج ، ويقول الوالد ابن عبيد الله بأننا لما ركبنا الباخرة الإنجليزية بعدن مع سلاطين المحميات . . استقبلنا الإنجليز بالباخرة بمنتهى الود والاحترام ، إلا أنه بعد أن سرنا بالبحر تغير الوضع وقل منهم الاحترام ، ولم يكترثوا بنا ، وحدث أن كنت أتحدث في مخزني مع أحد السلاطين . . إذ انطلقت صافرات الباخرة ، وحدث بالباخرة هرج ومرج ، وظننا أن الباخرة ستغرق ، فتهيأنا لملاقاة البحر ، وصعدت مع السلطان إلىٰ سطح الباخرة استعداداً للقفز لولا أننا لقينا في طريقنا سلطان لحج ، فلما عرف بنيتنا . . قال : لا لا ، إنما هـٰذا تمرين روتيني على الغرق ، قال الوالد ابن عبيد الله : ولولا ملاقاتنا السلطان واعتصامنا بالأجل . . لـٰكنا قفزنا إلى اليم .

وللوالد ابن عبيد الله علاقة ود واحترام مع الإمام يحيىٰ حميد الدين إمام اليمن ، وقد كلف الأمير البدر ابن الإمام يحيى الوالدَ ابن عبيد الله بعقد التحالفات مع سلاطين المحميات لصالح حكومة اليمن ، وقام الوالد ابن عبيد الله بمسعىً طيب في هـٰذا المجال ، إلا أنه استشار الإمام يحيىٰ فيما بعد

فيما كلفه به ابنه البدر ، فأخبره بأن هٰذا الأمر خطير ، ونصحه بتركه ، ولم يكن الوالد ابن عبيد الله راضياً كل الرضا على الإمام يحيىٰ ، وقد يكون من أسباب ذلك حروب الإمام يحيى المتواصلة مع دولة الخلافة الإسلامية ، ولما قام الانقلاب في اليمن . . بادر الوالد ابن عبيد الله بتهنئة المنقلبين ، ثم ندم على استعجاله بعد فشل الانقلاب ، إلا أن هٰذا لم يمنع أن تستمر علاقته الطيبة بالإمام أحمد حميد الدين الذي يعرف قدر ابن عبيد الله ومكانته ، حتىٰ إنه كان يقدمه لإمامة الصلاة إذا حضر ، رغم أنه شافعي يقنت في صلاة الفجر ، مما دفع العلماء الزيود للشكوىٰ للإمام ، فطلب منه عدم القنوت في الصلاة ، إلا أن الوالد ابن عبيد الله قرأ في صلاة الفجر في اليوم الثاني : ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا . . .﴾ [الأحزاب: ٦٧] إلىٰ آخر الآية ، فانزعج العلماء الزيود وسمحوا له بالقنوت بعد ذلك .

وكان الشيخ العالم الفقيه سالم باصهي من طلبة الوالد ابن عبيد الله بن محسن ، ثم انتقل إلىٰ صبيا وأصبح شيخاً للأمير الإدريسي ، ولما توفي الحبيب عبيد الله بن محسن . . أرسل الأمير الإدريسي خطاب تعزية للوالد ابن عبيد الله في والده ، وكان ذلك بداية العلاقة بينهما ، وقد حدثه الشيخ سالم باصهي علىٰ ما عليه الأمير الإدريسي من التقوىٰ والصلاح ، ثم دعا الأمير الإدريسي الوالد ابن عبيد الله لزيارته في عاصمة حكمه صبيا ، فوصل الجد ابن عبيد الله إلى الحديدة ، وركب منها السفينة إلى صبيا ، وقد التقى على ظهر هذه السفينة بالأديب المسيحي المعروف (أمين الريحاني) وذكر هذا اللقاء في كتابه : « بضائع التابوت » وقال بأنني قلت للريحاني : إن الناس يقولون : إنك جاسوس ، كما تبارى الجد ابن عبيد الله معه ومع مرافقه اللبناني في الشعر ، فلم يستطيعوا مجاراته في قدرته وتمكنه من الشعر .

وقد نشرت مجلة الهلال المصرية في عدد فبراير (٢٠٠٦) بعض الوثائق الأمريكية القديمة المفرج عنها حديثاً ، والتي بينت أن أمين الريحاني كما توقع الجد ابن عبيد الله كان في مهمة تجسس في جزيرة العرب هدفها المعلن التمهيد

للوحدة العربية وهدفها الباطن دراسة أحوال الشعوب العربية وظروف معيشتها وحالتها السياسية ، وقد زار الريحاني في رحلته هذه الإمام يحيى في اليمن ، ثم زار الأمير الإدريسي والشريف حسين بمكة ، والملك فيصل بالعراق ، والملك عبد العزيز بنجد ، ووصل إلى المقاطعة العربية بإيران عربستان ؛ ليقابل أميرها الشيخ خزعل ، وقد كتب أمين الريحاني أخبار رحلته هـٰذه في كتابه « ملوك العرب » الذي أكثر فيه من التهكم الخفي على التقاليد الإسلامية ، وقد ذكر في هـٰذا الكتاب مقابلته للوالد ابن عبيد الله وتكلم عنه بما يتوقع أن يتكلم به عن عالم دين مسلم ، وقد عرف الوالد ابن عبيد الله بما كتبه عنه الريحاني ولم يعره انتباهاً ، إلا أن بعض الكتاب الحضارمة رد بشدة على الريحاني في الصحف العربية بعدن وجاوة .

وقد احتفى الأمير الإدريسي بالوالد ابن عبيد الله وقال له : حاجتك مقضية ، فاطلب ما تريد إلا أن الوالد ابن عبيد الله ـ كما يقول عن نفسه ـ أخذته العزة بالإثم فلم يطلب إلا سلامة الأمير ، مع أنه كان في ذلك الوقت مديوناً بدين لم يقدر علىٰ سداده ، ولما كان الوالد ابن عبيد الله في مجلس الأمير الإدريسي . . حضر مجموعة من المطاوعة واعترضوا علىٰ طرق أهل حضرموت الصوفية ووقوفهم أثناء قراءة المولد ، وكان الإدريسي ومن معه في انتظار القنصل البريطاني ، فقال لهم الوالد ابن عبيد الله لا داعي لكثرة النقاش ولننتظر وصول القنصل ؛ فإن قمتم له ثبتت عليكم الحجة ، وإن لم تقوموا فالحق في جانبكم ، فلما وصل القنصل . . هب المطاوعة جميعهم واقفين ، فقال لهم الوالد ابن عبيد الله : تقومون لهـٰذا وتعترضون علىٰ قيامنا لرسول الله ، فوجموا ولم يعرفوا جواباً .

وختاماً لهـٰذا الفصل فإنني أود أن أذكر أنني سمعت ما ذكرته عن الوالد ابن عبيد الله منه مشافهة وقد ذكر بعض هـٰذه الأحداث في كتبه إلا أن سماعها من فمه يختلف عن قراءتها في كتبه .

* * *

وفاة الوالد ابن عبيد الله

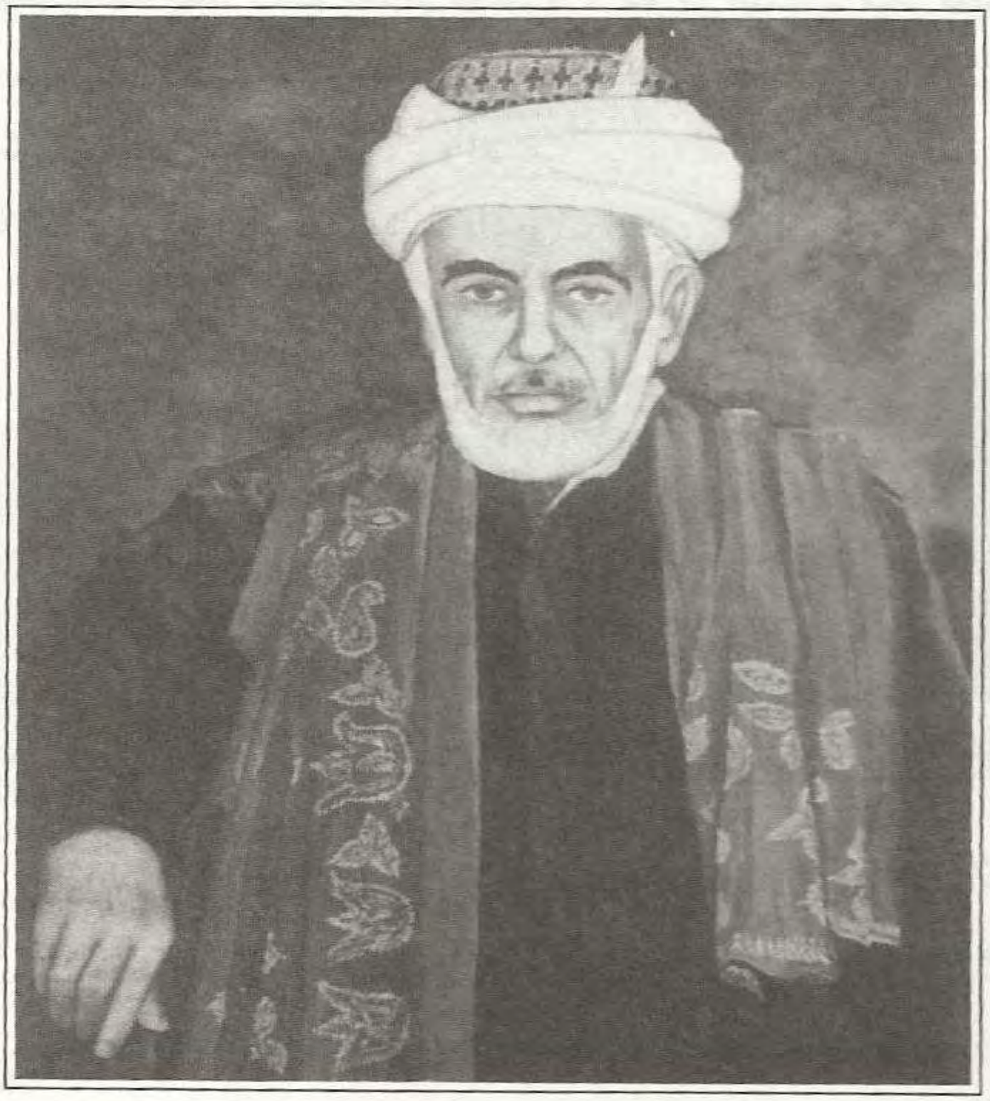

ولما كنت في المكلا مع الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله في بعض أعمالنا في سنة (١٩٥٧) ميلادية . . إذ وصلنا الخبر الجلل بوفاة الوالد ابن عبيد الله في بيته بسيؤن ، فنزل علينا هـٰذا الخبر نزول الصاعقة ، وعدنا على الفور إلىٰ حضرموت ، إلا أننا وصلنا بعد دفن الوالد ابن عبيد الله في مقبرة علوي بسيؤن ، وهـٰكذا سقط نجم حضرموت الساطع ، وانطفأت منارة العلم الوارفة ، وتوارت شعلة النور الباهر ، بعد أن ملأت الدنيا وشغلت الناس ردحاً من الزمن .

وبوفاة الوالد ابن عبيد الله انتهت فترة من أهم فترات حياتي ، والتي تمركزت وتمحورت في معظمها حول الوالد ابن عبيد الله ، الذي كان معلمنا وجامعنا ومكرمنا وأنيسنا وجليسنا ، فصرنا بعد وفاته مع بقية الزملاء كالأيتام ، ولم تعد حضرموت تعجبنا ، ولا المجالس تؤنسنا ، وقد استمرت حياتي العملية بحضرموت بعد ذلك لفترة قصيرة ، ثم مرضت ـ كما فصلت ذلك في مكان آخر من هٰذا الكتاب ـ وسافرت بعدها لأسمرة للعلاج ، ثم هاجرت من أسمرة مباشرة إلى السعودية ، واستقر بي المقام في جدة ، ولم أعد لحضرموت إلا في زيارات قصيرة للوالد والوالدة .

* * *

علاقة عائلتي مع السلاطين آل كثير

السلطان الأخير في الدولة الكثيرية حسين بن علي الكثيري مع السلطان القعيطي
وبينهما الأخ محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله أثناء زيارتهم الأخيرة لمصر عام (١٩٦٧)

ارتبط آبائي وأجدادي من السادة العلويين بسلاطين الدولة الكثيرية برباط متين من التقدير والاحترام ، ومنذ زمن بعيد وقد لعب جدي الحبيب محسن بن علوي بن سقاف دوراً هاماً في تأسيس الدولة الكثيرية الأخيرة ، والتي بدأت بالسلطان غالب بن محسن الكثيري وانتهت بالسلطان حسين بن علي الكثيري .

وقد عشت طفولتي بحضرموت في زمن السلطان علي بن منصور ، وشبابي في عهد السلطان جعفر بن منصور ، ثم زاملت السلطان حسين بن علي الكثيري الذي كانت بيني وبينه علاقة ود وصداقة استمرت حتىٰ وفاته بجدة .

وقد بدأت الدولة الكثيرية الأولىٰ في حضرموت بالسلطان علي بن عمر الكثيري في عام (١٤١١م) ، وفي عام (١٤٩٦م) حكم حضرموت السلطان المشهور بدر بن عبد الله الكثيري أبو طويرق ، واستمرت الدولة الكثيرية بعد ذلك رغم فترات الصراع على السلطة بين القبائل الكثيرية حتىٰ تلاشت معالم الدولة الكثيرية ، وسقطت حضرموت في براثن القبائل اليافعية نهائياً عام (١٧٣٧م) والتي حكمت حضرموت حتىٰ قيام الدولة الكثيرية الثانية عام (١٨٤٥م) علىٰ يد السلطان غالب بن محسن الكثيري .

وقد ولد السلطان غالب ببلدة تاربة عام (١٨٠٨م) ويعود نسبه إلى السلطان بدر بن عبد الله أبو طويرق ، ولذا سميت دولته بدولة آل عبد الله ، وقد درس علىٰ يد السادة العلوية بحضرموت ، ثم انخرط في سلك الجندية في شبام أثناء حكم السلطان عمر بن جعفر الكثيري ، وكان السلطان غالب يحضر في شبام دروس الحبيب أحمد بن زين بن سميط ، الذي كان يتنبأ بمستقبله الكبير ويقول في كلامه : إن حضرموت لا يصلحها إلا سلطان عادل ، ولعله الآن بين ظهرانينا .

ثم هاجر السلطان غالب إلى الهند في عام (١٨٣٠م) وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان قد سبقه إليها عمه علي بن أحمد وابن أخته عبود بن سالم الكثيري ، واستقر أولاً في بلدة صولافور عند الجمعدار علوي بن سالم العيدروس ، ثم غادرها إلىٰ مدينة حيدر أباد حيث التحق بجيش النظام في حيدر أباد ، ومكنته مواهبه العسكرية من الترقي في الرتب العسكرية حتىٰ وصل إلىٰ رتبة الجعمدارية ، واستطاع خلال إقامته في الهند أن يُكوِّن ثروة كبيرة ويبرز بسرعة فائقة ، وقد ساعده علىٰ ذلك زواجه من سيدة هندية ثرية .

وما زال الحبيب حسن بن صالح البحر والجد محسن بن علوي يراسلون السلطان غالب ويحثونه على العودة إلىٰ حضرموت وإقامة الدولة حتى استجاب لطلبهم ، فأرسل مالاً لأخيه عبد الله بن محسن الكثيري المقيم بتاربة في حضرموت ، ثم أرسل السلطان غالب من الهند بعمه علي بن أحمد وابن أخته

عبود بن سالم ، وطلب من الجد محسن وبقية السادة أن يتعاونوا مع وفده ؛ للتمهيد والتحضير لقيام الدولة الكثيرية .

فنفذ الحبيب محسن طلب السلطان غالب وتعاون مع رجال الدولة وخطط لهم شراء الغرف ؛ لتكون نواة للدولة الكثيرية الثانية ، والتي بدأت انطلاقتها الأولىٰ من هناك .

واستمر الجد محسن يساند هٰذه الدولة ويخطط لمستقبلها ويوجه سلاطينها ، حتىٰ إنه أرسل بوصية جامعة للسلطان غالب بن محسن تعتبر دستوراً كاملاً للبلاد ، وتشهد بنودها علىٰ عبقرية الجد محسن وحسن سياسته وحكمته البالغة وبصيرته النافذة .

واستمر الجد محسن يعين الدولة بجهده ويبذل من أجلها ماله ، حتىٰ إنه باع عدداً من آباره ليعين بثمنها علىٰ تغطية مصاريف الدولة ، وسيَّر الكتب إلىٰ أثرياء الحضارم بجاوة وسنغافورة وإلى السيد فضل بن يحيىٰ بمكة يطلب منهم المساعدات المالية لدولة آل عبد الله ، وتبرع السيد علي بن عمر الجنيد بعدة مدافع وثلاثين مملوكاً ومبلغاً كبيراً من المال ، وتبرع السيد إسحاق العيدروس بسبعة عشر ألف ريال نمساوي ، وتبرع الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيىٰ بمبلغ كبير من المال .

وكان الجد محسن قبل كل معركة من معارك الدولة الجديدة يبيت ساهراً متهجداً وداعياً الله لها بالنصر والتمكين ، حتىٰ كتب الله لها النصر والغلبة واستولت علىٰ تريم وسيؤن وتوابعهما .

وتعرض الجد محسن خلال هٰذه الفترة الحرجة للحبس والتهديد بالقتل عدة مرات من جانب قبائل يافع التي كانت تعرف دوره الهام في تأييد آل كثير والتخطيط لتحركاتهم العسكرية ، ولٰكنه لم ينثن عن عزمه ، واستمر باذلاً كل ما يستطيع لطرد يافع من حضرموت ، وبلغ من شجاعته أن شارك بنفسه في الحملة التي جردها آل كثير لإنقاذ الشحر .

واستمرت المراسلات بين الجد محسن بن علوي والسلطان غالب بن محسن الكثيري بالهند ، وقد حدد له الجد محسن الوقت المناسب لخروجه إلىٰ حضرموت ، ورتب له الترتيبات المطلوبة لتنظيم أعمال الدولة ، وقدم له النصائح بخصوص تطبيق الشريعة الإسلامية وإعلاء شأنها ، وكانت بلدة الغرف التي يقع فيها مطار سيؤن القديم تحت حكم القرامصة من يافع ، والذين أسسوا فيها دولة ضعيفة قال فيها الشاعر الشعبي :

أيا دولة الدجر والحنبص

فخلـوا البنـادق لأربـابهـا

وشلوا بدال البنادق عصي

وبتوجيه من الحبيب حسن بن صالح البحر قام الجد محسن بن علوي بطلب وساطة الحبيب عبد الله بن حسين بن طاهر ، الذي يحترمه القرامصة ويدينون له بالولاء ، فنجحت الوساطة ووافق القرامصة علىٰ بيع الغرف بعشرة آلاف ومئتي ريال ، فأصبحت نقطة تجمع لآل كثير ، ونواة الدولة الكثيرية الأخيرة ، ثم أرسل السلطان غالب بن محسن ـ كما ذكرنا سابقاً ـ ابن أخته عبود بن سالم من الهند ليتولى القيادة وترتيب الأمور ، وكان بطلاً شجاعاً ، فرتب الأمور ، وجند الجنود ، وهاجم تريم ، وطرد منها يافعاً ، ثم اتجه بعد ذلك بجيشه لاحتلال سيؤن ، وكان الجد محسن يتابع سير المعارك ويمضي لياليه داعياً متهجداً راجياً ربه أن ينصر آل كثير في معركة سيؤن الحاسمة ، والتي سيتحدد بها مصير الدولة الجديدة ، فكتب الله لها النصر ، واستقرت الأمور للدولة الكثيرية بحضرموت .

وقد قاد السلطان عبود بن سالم المعارك الأولىٰ ، فلما استقرت الأمور . . وصل السلطان غالب بن محسن من الهند إلىٰ حضرموت ، واستقبل في سيؤن استقبالاً كبيراً ، وقد ارتجز عبود بن سالم في تلك المناسبة أبياتاً أوعز بها إلىٰ غيره ، وقال فيها :

قد جيت يا غالب وقدها سابرة قد سبروها لي يكنون المخيف
خضنا المعارك بالسيوف الباترة وحروب تفرق كل من قلبه سخيف

فلما سمع السلطان غالب هٰذه الأبيات.. أوعز إلىٰ أحد مرافقيه ليرد بأبيات علىٰ نفس قافيتها ووزنها :

الفضل كله للوجوه الطاهرة يدعون لي في الليل في الوقت الشريف
ولا بخلنا بالفلوس الياسرة واقوام سقناها كما سيل الخريف

وكان السلطان غالب يحب أهل البيت ويحترمهم احتراماً شديداً ، وقَبْلَ أن يستقر السلطان غالب بن محسن في سيؤن.. قرر أولاً زيارة سيد الوادي الحبيب حسن بن صالح البحر ، المقيم بذي أصبح ، والذي كان يراسله بالهند ويستحثه على العودة إلىٰ حضرموت ، ويدعو له ، فاتجه السلطان غالب إلىٰ ذي أصبح مع ستين من مرافقيه ، فاستقبله الحبيب حسن بن صالح البحر أحسن استقبال ، واستضافه ومرافقيه ثلاثة أيام ، وقد ذكر السلطان غالب للحبيب حسن بن صالح البحر بأنه تعرض في الهند لخطوب عظيمة ، وتعرض للقتل عدة مرات ، إلا أنه كان يحمل في كل مره يتعرض فيها للقتل خطابات الحبايب ، ويقول : حاشا على الله أن تدنس الدماء هٰذه الخطابات الطاهرة ، وقد علق الوالد ابن عبيد الله علىٰ كلام السلطان غالب فقال : انظر إلىٰ قوة اعتقاد السلطان ، وإنما هٰذا سيدنا عثمان قتل وهو يقرأ كتاب الله ، وسالت دماؤه عليه .

ثم جمعت يافع جموعها وزحفت علىٰ حضرموت بمساعدة السلطان القعيطي بجيش جرار ، وأشيع أن هٰذا الجيش قد أحضر معه القيود للجد محسن بن علوي ، وللسيد عبد الله بن عمر بن يحيىٰ ؛ لمساعدته الدولة الكثيرية والتمهيد لانتصارها ، إلا أن آل كثير انتصروا عليهم في وقعة المحايل التي اشترك فيها السلطان غالب بن محسن بنفسه ، وانكسرت بعد ذلك شوكة يافع ، واستقرت أمور الدولة الكثيرية الأخيرة ، وانتظمت لها الأمور بحضرموت .

وحكم السلطان غالب حضرموت وأشاع فيها العدل والأمن والاستقرار ، واحترام الشرع الشريف ، ولما توفي السلطان غالب. . تطلع كل من عبود بن سالم وشقيق السلطان عبد الله بن محسن لخلافته ، وكان كل منهما ينفرد بالجد محسن بن علوي ويحادثه في أمر التولية أثناء دفن السلطان غالب ، وكان الجد محسن يطيب خواطرهم ويقول لهما : دعونا ندفن السلطان ثم ننظر في هـٰذا الأمر ، وبعد أن تم دفن السلطان غالب. . سأل الجد محسن عن الأمير منصور بن غالب ، وظن الحاضرون أن الجد محسن سيعزيه في وفاة أبيه ، ولما جاء الأمير منصور ـ وكان لا يزال في السادسة عشر من عمره ـ أخذ الجد محسن عمامته ووضعها علىٰ رأس الأمير منصور ؛ كناية عن التولية ، وأمر المنادي أن ينادي : إن ما في وجه غالب صار إلىٰ وجه منصور ، وانقطع بهـٰذا التصرف ما كان يمكن أن يحدث من خلاف بين الرجلين القويين عبود بن سالم وعبد الله محسن ، والذي ربما أدىٰ إلىٰ فتنة تقوض أساس السلطنة الكثيرية الوليدة ، وتعود بالأمور في حضرموت لما كانت عليه قبلها من فوضىٰ واضطراب .

وقد رأى الجد محسن بن علوي بنظره الثاقب السديد وحكمته وحنكته السياسية أن الأمير منصور بن غالب رغم صغر سنه هو الشخص المناسب لاستمرار الدولة وسلامتها ، وكان السلطان منصور تقياً ورعاً متديناً شديد المحبة للسادة وعلماء الدين .

وقد شارك السلطان منصوراً في الحكم أخوه الأصغر محسن بن غالب الذي تولى حكم تريم وماتبعها ، بينما تولى السلطان منصور حكم سيؤن وما تبعها ، إلا أن السلطان محسن مات قبل أخيه في عام (١٣٤٠هـ) وخلف أربع بنين أكبرهم السلطان عبد الله بن محسن الذي لم يكن راغباً في الحكم ، واستقر بسيؤن وبقيت سلطنة محسن لبنيه الثلاثة ، كل يحكم بنفسه وبالاشتراك مع إخوته حتى ضمتها الحكومة البريطانية إلى سلطنة سيؤن أثناء حكم السلطان جعفر بن منصور الذي تولى بعد السلطان علي بن منصور .

واستمرت علاقة أسرتي بسلاطين آل كثير والدولة الكثيرية ، فتولىٰ جدي

عبد الله بن حسين القضاء بسيؤن في أيام السلطان منصور بن غالب ، وكانت توليته في مدرس الإثنين بمسجد الرياض ، بحضور السلطان وأهل الحل والعقد من أهل البلاد ، فقام بأمر القضاء وتولىٰ زعامة البلاد ، وأصبح المستشار الأول للسلطان ؛ بحيث لا يطمئن السلطان إلا لمشورته ونصيحته التي لم يكن يشوبها أي غرض ، وقد قام بدور هام في التوفيق والسداد بين الدولة القعيطية والدولة الكثيرية بمشاركة السيد حسين بن حامد المحضار وزير الدولة القعيطية ، مما حافظ علىٰ مصلحة البلاد وجنبها الكثير من الشرور ، وقد كان الحبيب أحمد بن عبد الرحمـٰن السقاف يقول بأن دولة آل عبد الله الكثيريين بدأت بمحسن بن علوي ، وختمت بوفاة حفيده عبد الله بن حسين ، وكان السلطان منصور كثير التردد على الجد عبد الله بن حسين ، وكانت أمور القضاء وكثير من أمور الدولة تتم في الغرفة الكبيرة في بيت الجد عبد الله بن حسين بالبلاد بسيؤن .

ومن أخبار السلطان الصالح منصور بن غالب : أنه لما عزم للحج عام (١٣٤٧هـ) جاءه الحبيب حسين بن حامد المحضار وزير الدولة القعيطية ليودعه قبل ركوبه المركب ، وقال له : إن شاء الله نكون في استقبالكم عند عودتكم من الحج ، فأجابه السلطان منصور : (يا حبيب حسين ؛ إذا كانت البضاعة طيبة . . باتنفق في عرفات) ، وفعلاً مات السلطان منصور أثناء الوقوف بعرفات ودفن بها .

وقد حج بتلك السنة الحبيب محمد بن هادي السقاف وعدد من طلبته ؛ ومنهم الحبيب محمد بن شيخ المساوي .

ويشبه السلطان علي والده السلطان منصور في الورع والصلاح والتقوىٰ ، وقد حضر دروس الوالد ابن عبيد الله ، وكانت بينهما علاقة طيبة استمرت حتىٰ دخل بينهما الوشاة ، فحدثت القطيعة بين الاثنين .

وبعد وفاة السلطان علي بن منصور ، تولى السلطنة السلطان جعفر بن منصور ، وقام والدي وبايعه من على منبر المسجد الجامع نيابة عن بقية الناس ، ثم رأى السلطان جعفر بعد ذلك أن يجعل ولاية العهد لابنه أحمد ،

فاعترض السلطان حسين بن علي بن منصور ، ورأى والدي أن السلطان حسيناً هو الأحق بولاية العهد ، فاجتمع والدي بالسلطان جعفر وتمكن من إقناعه ثم جمعه بالسلطان حسين في الغرفة الشرقية البحرية ببيتنا بالبلاد ، وهي الغرفة التي كان يستخدمها الجد عبد الله بن حسين لممارسة القضاء ، ويسميها بغرفة الحكم ثم استخدمها والدي فيما بعد لفترة لنفس الغرض .

وقد تم في هذا الاجتماع عقد ولاية العهد للسلطان حسين بن علي الكثيري الذي تولى السلطنة بعد وفاة السلطان جعفر بن منصور .

السلطان منصور بن غالب الكثيري

السلطان علي بن منصور الكثيري

وقد توطدت الصداقة بيني وبين السلطان حسين بن علي الكثيري ، وهو الذي اختارني لرئاسة بلدية سيؤن ، وكان يحضر في منزلي في الكثير من المناسبات ، ولما أرسلت الدولة الكثيرية بعثة من الطلاب الحضارمة للدراسة بالسعودية . . كلفني السلطان أمر الإشراف عليهم وتسهيل مهمتهم بالسعودية ، فقمت بالاهتمام بأمورهم الدراسية والمعاشية ، وعاملتهم كأبنائي ، وكان منهم

باكثير ومدحي وهود العيدروس ، وقد نبغ هـٰؤلاء الطلاب في دراستهم وأنهوا دراستهم الثانوية بتفوق ، والتحق بعضهم بالجامعات السعودية ، وعاد الباقون إلىٰ حضرموت ، ثم أرسلوا في بعثات للدراسة الجامعية بالخارج .

كما اخترت ممثلاً للدولة الكثيرية في اللجنة الأهلية لمساعدة حضرموت ، والتي تكونت من وجهاء الحضارم بجدة ، وحضرت عدة اجتماعات لهـٰذه اللجنة ، إلا أن ما لاحظته هو كثرة الاختلاف بين أعضاء اللجنة ورغبة كل منهم بتوجيه المساعدات لمنطقته في حضرموت دون غيرها ، ولهـٰذا لم يحالف النجاح أعمال هـٰذه اللجنة ، وتوقفت نشاطاتها واجتماعاتها فيما بعد .

وفي سنة (١٩٦٧م) رتب الإنجليز لسلاطين المحميات وحضرموت رحلة دولية وعربية طويلة ، سلموا خلالها الأمور إلى الشيوعيين الذين اختاروهم لحكم البلاد ، وقد مر وفد السلاطين بجدة ، واستقبلت السلطان حسين مع مرافقيه ومعهم صهري الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، ثم لما انتهت جولتهم العربية والدولية وعادوا إلىٰ جدة . . كانت الأمور قد انتهت وتسلم الشيوعيون مقاليد الحكم بحضرموت ، فاختار السلطان حسين وبقية السلاطين الإقامة بجدة حيث كانت الأمور في حضرموت مضطربة أشد الاضطراب ، بينما غادر الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله جدة بالباخرة في ظروف صعبة إلى المكلا ، ومنها براً إلىٰ سيؤن .

وقد أخبرني الأخ محمد بن عبيد الله بأن الإنجليز كانوا يلاحقونهم خلال هـٰذه الجولة بالبرقيات التي تصور تدهور الأمور بحضرموت والمحميات بأكثر مما هي عليه ، حتىٰ لا يفكر أحد السلاطين بالعودة إلىٰ بلاده ، ووقف تدهور الأمور .

وقد سلمني السلطان حسين أثناء مروره بجدة مبلغاً من المال أمانة عندي ، وأعطىٰ مبلغاً مماثلاً لجماعته من التجار ، ولما احتاج السلطان فيما بعد لهـٰذا المبلغ . . وجده حاضراً عندي ، واستلمه كاملاً في نفس اليوم الذي طلبه فيه ،

بينما اشتكىٰ لي السلطان بأن جماعته مطلوه في رد ما عندهم ، واعتذروا له بعدم توفر السيولة المالية .

وكنت خلال إقامة السلطان بجدة أساعده في ترتيب أموره وحل مشاكله ، وكان يستشيرني في الكثير من الأمور ، وكنا نتبادل الزيارات والمجاملات .

ثم مرض السلطان حسين بالتهاب المرارة وأدخل مستشفى الملك بجدة ، وقرر له الأطباء عملية جراحية ، فمات - يرحمه الله - بعد إجراء العملية الجراحية ، ودفن بجدة .

* * *

قصة المجاعة بحضرموت ورحلة الهجرة الأولى

وفي سنة (١٩٣٩) اندلعت الحرب العالمية الثانية ، ولم تتأثر بها حضرموت ، حتىٰ دخلت اليابان الحرب واستولت علىٰ جاوة وسنغافورة ، فانقطع اتصال حضرموت بتلك الجهات ، وانقطع ما يصل حضرموت منها من خيرات ، بعد أن اعتمدت حضرموت علىٰ جاوة اعتماداً كبيراً ، وزاد الأمور تعقيداً ما أصاب البلاد في تلك السنة من الجفاف والقحط ، فخيمت علىٰ حضرموت في عام (١٣٦٣هـ) مجاعة شديدة ، وتأزمت الأمور ، ومات من الجوع خلق كثير ، وذكر الوالد ابن عبيد الله أنه مات في تريم وحدها خلال شهر واحد أربع مئة نفر ، ومن سيؤن نصف هٰذا العدد .

وقد رتب والدي يرحمه الله ترتيبات حكيمة لمواجهة هٰذه الأزمة وإعالة أسرته الكبيرة ، فكان يقرض الفلاحين مالاً ليعطوه مقابل ذلك من غلة البر والحبوب ، حسب المخابرة الشرعية المعروفة ، كما كانت للوالد زراعة بسيطة

ببيته (روضة) يستعين بها علىٰ معيشتنا اليومية .

وفي يوم من أيام المجاعة أعطاني والدي ريالاً وأرسلني إلى السوق لأشتري طعاماً ، فلما ذهبت السوق . . وجدته خاوياً من الناس ، وليس به طعام ولا بائعين ، وقد جلس بعض الناس علىٰ زوايا الطريق ووجوهم مكفهرة ، وعيونهم القلقة مركزة علىٰ مداخل السوق في انتظار أي فلاح يأتي السوق بشيء من الطعام .

وبعد فترة طويلة من الانتظار . . وصل السوق أحد الفلاحين وعلىٰ ظهره كيس صغير من الحبوب ، فهجم عليه الناس وكادوا يقتتلون علىٰ كيسه ، كل يريد أن يشتريه ، فسقط الكيس على الأرض ، وتناثرت منه الحبوب ، فقام الناس يبحثون عن الحبوب في التراب ويجمعونها حبة حبة ، فأدركت أنني لن أحصل علىٰ شيء من السوق ، فعدت أدراجي إلى البيت دون أن أتمكن من شراء شيء ، وقد دفعتني هٰذه التجربة القاسية إلى التفكير في السفر ؛ لأتمكن من مساعدة والدي وأهلي بعد أن أطبقت عليهم مجاعة شديدة لا يعلم إلا الله متىٰ ستنتهي ، وقد أخبرت الوالد بما حصل في السوق وبعزمي على السفر ، فوافقني علىٰ رأيي ، وشجعني ، ودعا لي بالتوفيق .

وقد ظهرت أثناء المجاعة قصص من الشهامة والنجدة ، رغم قساوة الزمن ؛ فقد حدثنا الوالد ابن عبيد الله عن الشيخ سالم بن يماني أنه أحصىٰ أثناء المجاعة ما في خزائنه من رز وبر وسكر وسمن ، فقد كان القبائل في حضرموت يتقاتلون مع بعضهم البعض ويضطرون لتخزين الأطعمة في حصونهم بكميات كبيرة ؛ حيث إنهم يلزمون حصونهم أثناء الحرب ولا يغادرونها لفترات طويلة ، ولما ضربت المجاعة حضرموت . . استدعىٰ سالم بن يماني ابنه محمداً وهو مثل أبيه في الشهامة والكرم ، وكان الوالد ابن عبيد الله يحبه ويثني عليه ، فسأله أبوه عن محتويات المخازن من الرز والسكر والبر والزيت والسمن ؟ فأجابه محمد بأن الموجود شيء كثير ، فقال له : انصب القدور في الشارع ، واطبخوا الرز والشربة ونادوا في الناس : من يريد

أن يأكل فليحضر ، ولا تبقوا في المخازن شيئاً ، فتكالب عليهم الجياع من كل مكان ؛ حيث كانت المجاعة في شدتها ، وكان الناس يموتون من الجوع في كل يوم ، وكان بعض الحبائب يذهبون إلى الشيخ سالم بن يماني فيكرم وفادتهم ، وإذا عزموا العودة . . أعطاهم ما يكفيهم لأسرهم . . وقد أحيا الله بموائده هٰذه أنفساً كثيرةً ، واستمرت موائد الشيخ سالم بن يماني حتىٰ نفد كل ما في مخازنه ، وبعد أيام من نفادها أدركته المنية بعد أن قدم لنفسه كل هٰذا الخير ، وقال الوالد ابن عبيد الله فانظر إلىٰ هٰذا التوفيق العظيم ، وإلىٰ حسن خاتمته .

وقد قررت السفر إلى الحبشة لقربها من حضرموت ، ولأنها لم تتأثر بالحرب ، ولخيراتها الكثيرة ، كما يعيش بها كثير من الحضارمة الدوعنيين حياة طيبة وسعيدة .

وقد رافقني لطلب الرزق في الحبشة الأخ محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، ولم يكن سنه قد تجاوز الستة عشر عاماً ، بينما كنت في العشرين من عمري ، وكنا لا نعرف شيئاً عن الغربة والسفر ، فقررنا أولاً زيارة دوعن وأخذ توصية من الحبيب مصطفى المحضار للسيد محمد باهادون زعيم الحضارمة في تلك البلاد .

وانطلقنا في رحلتنا من سيؤن إلىٰ دوعن بسيارة أجرة لصاحبها فرج بن سعيد ، ورافقنا في هٰذه السيارة تاجر من تجار المجاعة يسمى الكسيح ، كان يقوم بجمع المفارش والذهب من مناطق حضرموت التي ضربتها المجاعة ، ويشتريها بأبخس الأثمان ، ثم يذهب ليبيعها في دوعن التي لم يتأثر أهلها بالمجاعة ؛ لاتصالهم القديم بالحبشة والحجاز ، وعدم اعتمادهم مثلنا علىٰ سنغافورة وجاوة اللتين انقطعت طريقهما أثناء الحرب .

وركبنا في سيارة فرج بن سعيد وقد تكدست بداخلها السجاجيد والفرش والشنط المليئة بالبضائع والحلي ، وكانت سيارة قديمة متهالكة ، فجلسنا فوق هٰذه البضائع ، ولم تكن معنا جوازات أو هويات ولا أي استعداد لرحلة طويلة

وشاقة وكان معنا في هٰذه الرحلة السيد حسين بن محمد المحضار ، وكان متجهاً معنا إلى المكلا ، أما نحن فكان اتجاهنا لدوعن ، ومنها إلى المكلا ، ثم عدن ، ثم إلىٰ حدود اليمن ، ومن اليمن إلى الحبشة .

ومشت بنا السيارة في طرق صعبة ووعرة ، ووصلنا مشارف دوعن قبل دخول المغرب بقليل ، وقد بلغ بنا التعب مبلغه ، وفجأة سمعنا صوت انفجار ضخم توقفت بعده السيارة ، وخرجنا نستطلع الأمر وخرج معنا فرج بن سعيد يتفقد سيارته ، فوجد قطعة من قطع الموتور قد طارت من مكانها واستقرت في مكان بعيد ، فلم يأبه كثيراً للأمر ، وأمرنا بالبحث عن رصاص ليلحم القطعة في مكانها ويستمر في رحلته ؛ لأنه قد تعود علىٰ هٰذه المشاكل الفنية ، وأسقط في أيدينا ؛ فمن أين لنا بالرصاص ونحن في فلاة وفي واد بعيد بجوار بلدة صيلع ؟ وقد بدأ الظلام يخيم على المكان ، وتجمع حولنا أفراد مسلحين من البدو تبدو عليهم ملامح الغدر والشر ، وبدأنا البحث عن الرصاص ، والبدو يترددون علينا ، وكلما قدم منهم قادم.. أدخل رأسه في السيارة يتفقد محتوياتها ، ولعابه يسيل علىٰ ما فيها من المتاع ، ثم يعقبه آخر ، ثم رأينا ثمانية من هٰؤلاء البدو المسلحين وقد أخذوا على البعد يتحدثون ويتشاورون ، وكانوا علىٰ ما يبدو يخططون لنهبنا وسلبنا ، ولم يكن يؤخرهم عن تنفيذ الخطة إلا اكتمال هبوط الظلام ، وأدركنا قرب نهايتنا ، وكان من عادتي في كل أزمة من الأزمات التي مرت بي أن أنتظر فرج الله الذي لا يتأخر عن المضطرين ، وبينما كنا في هٰذه الحالة وفرج بن سعيد يوجهنا وينادينا بصوته المرتفع . إذا به ينادي علىٰ حسين المحضار ، وما إن سمع البدو اسم المحضار حتىٰ تغير الحال ؛ إذ كان بدو هٰذه الجهة يحترمون المحاضير ويقدسونهم ، وأقبل علينا البدو بعد سماع اسم المحضار مسلمين ومرحبين ، وبدؤوا في مساعدتنا علىٰ تصليح السيارة ، وخرج شيوخهم من الجبل مرحبين ، وطلبونا للضيافة والعشاء ، وأحضروا الفوانيس ، وقالوا : ما عليكم ، تفضلوا معنا ونحن نتولىٰ إحضار الرصاص وتصليح السيارة ، وكان التعب قد بلغ منا مبلغه ،

فصحبناهم والفوانيس تنير لنا الطريق ، وتركنا فرج بن سعيد ومساعده مع بقية البدو لإصلاح السيارة ، وسرنا مع مضيفينا من البدو إلىٰ قمة الجبل ، ثم قادونا إلىٰ منزل متواضع من منازلهم ، له ديوان كبير ، وقد شك السلاح علىٰ جدرانه ، وقام البدو بواجب الضيافة علىٰ أكمل وجه ، وذبحوا وقدحوا ، وأحضروا العشاء وبه التمر واللحم الكثير ، فأكلنا حتىٰ شبعنا ، ثم ارتحنا بعد العشاء ، ونمنا إلى الصباح ، ثم استأذناهم في الصباح ووجدنا أنهم قد أصلحوا السيارة فانطلقنا بها مكرمين معززين ، بعد أن أشرفنا على الهلاك علىٰ أيديهم ، لولا عناية الله التي أنقذتنا في اللحظة الأخيرة .

واتجهت بنا السيارة بعد ذلك إلى القويرة لزيارة الحبيب مصطفى المحضار وطلب الدعاء منه والتوصية علينا لأهل الحبشة ، إلا أننا لم نجد الحبيب مصطفىٰ بمنزله ، وأخبرونا أنه قد ذهب إلىٰ غيل بلخير لحضور حفل زواج ، فاتجهنا إلى الغيل مشياً على الأقدام بعد أن انتهت رحلتنا بسيارة فرج بن سعيد بوصولنا دوعن ، ولم تكن المسافة التي مشيناها طويلة ، ولما اقتربنا من مكان الزواج . . سمعنا أصوات المراويس والزغاريد ، فعرفنا المكان وقصدنا إليه ، ودخلنا مباشرة إلى الحب مصطفىٰ في صدر المجلس وسلمنا عليه ، وعرّفناه بأنفسنا ومقصدنا ، فرحب بنا وطلب منا الجلوس ، ورحب بنا المشايخ آل بلخير ، وبعدما جلسنا . . دخلت الموائد وعليها العسل وأنواع من الكعك والحلوىٰ ، وكنا في غاية الجوع والتعب ، فأبلينا في هـٰذه المائدة بلاء حسناً ، إلا أنه بعد قليل رفعت هـٰذه المائدة ودخلت صحون اللحم والرز ، وكنا في غاية الشوق لهما ، إلا أنه لم يعد لهما من مكان في بطوننا ، وكنا لا نعرف عادات سكان هـٰذه المناطق ، وإلا . . ما كنا غلطنا هـٰذه الغلطة الفاحشة والتي ضيعت علينا وجبة كنا نتمناها منذ فترة طويلة ، إلا أن هـٰذا لم يمنعنا من بعض المشاركة .

وبعد الغداء خرج الحبيب مصطفىٰ متوجهاً إلىٰ بيته بالقويرة ماشياً علىٰ قدميه ، وخرجنا معه ، ورغم أنه قد تقدمت به السن كثيراً إلا أنه بقي صلب

العود قوي البنية ، فمشىٰ أمامنا ولم نستطع أن نلحق به ، حتىٰ وصلنا إلىٰ بيته ، فرحب بنا واستقبلنا استقبالاً طيباً ، وأنزلنا عنده ، وبتنا ليلتنا تلك في منزله ، وفي الصباح كتب لنا كتاب توصية للحبيب محمد بن هادون في الحبشة ، ودعا لنا وودعنا .

ثم انطلقنا في سيارة لوري مسافرة إلى المكلا ، وكانت الطريق إلى المكلا أكثر وعورة وصعوبة من طريقنا إلىٰ دوعن ، ولما وصلنا المكلا . . التقينا الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله الذي كان قد سبقنا في السفر إلىٰ هناك ، ونزلنا عند من يقيم معهم في عزبة تحمل فيها الأخ محمد بن حسين بن حامد مسؤولية الطبخ ، وكان يطبخ لنا طبخات لذيذة من الرز والسمك ، ولم تكن المكلا تعاني من المجاعة معاناة حضرموت الداخل ، وجلسنا بالمكلا حوالي الأسبوع في انتظار الساعية التي ستنقلنا إلىٰ عدن ، ولما وصلت الساعية . . حجزنا فيها أماكننا وركبناها أنا والأخ محمد بن عبد الرحمـٰن متوكلين على الله ، ومشت بنا الساعية في بحر هادىء أحياناً وثائر في أغلب الأحيان ، ومكثنا فيها أسبوعاً مر كأنه سنة ؛ لما صادفنا في هـٰذه الرحلة من مشاق وأهوال ، وزاد من صعوبة الرحلة أن الساعية لم يكن بها حمام ، فعانينا من ذلك أشد المعاناة .

وكلما اقتربت الساعية من عدن . . جاءت ريح معاكسة ردتها إلى الخلف لمسافة بعيدة ، وتكرر هـٰذا عدة مرات .

ولما وصلنا عدن . . لم نعرف من نقصد ، ولا إلىٰ أين نتجه ، فلم نكن نعرف بها أحداً ، ولم تكن معنا نقود تكفي لاستئجار مكان ، فخرجنا نبحث عمن يؤوينا ، فأخبرنا الناس أن الشيخ سعيد يستقبل الضيوف في بيته ، فسألنا عن مكانه واتجهنا إليه ، ولما دخلنا عليه . . لم يرحب بنا ولم يستقبلنا الاستقبال اللائق ، فمكثنا عنده علىٰ مضض ؛ إذ لم نكن نعرف في عدن أي مخلوق يمكن أن نذهب إليه ، ومضت علينا أيام عنده ونحن غير مرغوب فينا ، حتىٰ وجدنا سيارة تنقلنا إلىٰ لحج ، فتركنا بيت الشيخ سعيد وركبنا السيارة إلىٰ

لحج في رحلة استغرقت حوالي الخمسة أيام .

وفي لحج قصدنا شيخ المهندس ، وكان من أصحاب الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، فاستقبلنا ورحب بنا ، وأنزلنا في منزله ، وكان شيخ المهندس قد تحصل علىٰ شهادة في الهندسة من استانبول ، وأصبح مهندساً عظيماً ، فأحبه سلطان لحج واحتضنه ، وصارت له عنده مكانة كبيرة ، وخاله الحب مصطفى المحضار ، وأبوه ذلك البدوي الخشن الذي أحسن الحب مصطفى استقباله في وجود الوالد ابن عبيد الله ، مما أثار دهشة الوالد ابن عبيد الله الذي بادر الحب مصطفىٰ بالسؤال عن هـٰذا البدوي الخشن الذي استحق كل هـٰذا التكريم ، فهمس الحب مصطفىٰ في أذنه : هـٰذا زوج الكريمة ، فقال الوالد ابن عبيد الله للحب مصطفىٰ : كل هـٰذه الدعوات الصالحة للبنات والإلحاح من والدك الحبيب أحمد المحضار وما جابت إلا هـٰذا الكرموع .

وكان الحب أحمد المحضار والد الحب مصطفىٰ علىٰ علمه وهيبته وصلاحه لطيفاً مرحاً ، وكان يدعو الله أن يسهل زواج البنات ، ويردد الأبيات التالية :

يا رسول الله الدرك انها ضاقت الصدور
الشرايف بناتكم ما لحقنا لهن صهور
يا كرامات حاصلة تذهب الهم والكدور
يا منيات عاجلة والتحمال للقبور

وقد احترمنا المهندس وطيب خواطرنا ، وأنزلنا في منزله في لحج ، ومكثنا عنده يومين معززين مكرمين ، حتىٰ وجدنا سيارة تنقلنا إلى اليمن ، وتوجهنا بهـٰذه السيارة في رحلة أخرىٰ شاقة ، حتىٰ وصلنا الراهدة وهي قرية علىٰ حدود اليمن ، جميع منازلها من العروش ، وتعتبر بوابة اليمن السعيد ، وأرشدنا سائق السيارة إلىٰ عريش لامرأة يمنية حولته لقهوة تستقبل فيها

المسافرين ، ولم يكن للغريب من مأوىٰ في الراهدة إلا هـٰذا العريش ، وتضع هـٰذه المرأة علىٰ رأسها عصابة وتعمل كالرجال ، فتبيع وتشتري وتقدم القهوة والطعام ، والناس في قهوتها يأكلون ويشربون ويدفعون .

فقعدنا مع الناس في هـٰذه القهوة علىٰ كراسي مستطيلة من الخوص ، ولم تكن معنا جوازات أو هويات ، ويحتاج الدخول لليمن الذهابَ إلىٰ موظف الحكومة بالراهدة لطلب إذن الإمام ، ولم يكن الأمر يتطلب إلا إعطاء الموظف الحكومي أسماءنا فقط ، فيبرق بالأسماء إلى الإمام الذي يتفحص الأسماء بنفسه ويصدر إذن الدخول .

فذهبنا إلىٰ عامل الإمام وسجلنا طلبنا وأعطيناه أسماءنا ، وبقينا في الراهدة بالعريش في انتظار رد الإمام الذي وصل بعد ثلاثة أيام ، فبدأنا الاستعداد لرحلتنا إلى اليمن .

* * *

الوصول لليمن ومقابلة الإمام

الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن

وبعد ثلاثة أيام من الانتظار بالراهدة وصلت برقية الإمام بإذن الدخول ، فأعددنا عدة السفر واستأجرنا الحمير التي ستقلنا إلىٰ تعز مقر الحكومة والإمام ، ولم تكن باليمن وسيلة أخرىٰ للمواصلات في تلك الفترة غير الحمير .

ثم سرنا بالحمير مسيرة يومين كنا نواصل فيها السير ليلاً ونهاراً حتىٰ وصلنا إلىٰ تعز ، وسألنا عن السيد إبراهيم بن عمر بن يحيىٰ ، وهو من أهل حضرموت ومقيم بتعز ، وتربطه بالعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله علاقة طيبة ، وكنا قد قررنا النزول عنده حال وصولنا إلىٰ تعز ؛ حيث لم نكن نعرف باليمن كلها شخصاً سواه ، واتجهنا إلىٰ منزله ، إلا أنه للأسف تنكر لنا ورفض أن يستقبلنا ، فأسقط في أيدينا ولم نعرف إلىٰ أين نتجه ، وقد زارني هـٰذا الشخص

في جدة مؤخراً فاستقبلته بما يليق من التقدير والاحترام ، ولم يترك تصرفه معي قبل خمسين عاماً أي أثر في قلبي نحوه .

وفىٰ هـٰذه اللحظات الصعبة ونحن نبحث عن مأوىٰ في بلد غريب . . تذكرنا الشيخ أحمد الحضراني الأديب والشاعر اليمني الذي زار حضرموت وتربطه بالعم عبد الرحمـٰن علاقة الشعر والمساجلة ، فسألنا عن منزله واستفسرنا عن عنوانه ، وبعد مشقة اهتدينا إلىٰ مكانه ، فوجدناه بيتاً متواضعاً علىٰ ربوة عالية خارج تعز ، وما أن طرقنا بابه وعرفناه بأنفسنا . . حتىٰ هب مرحباً ومستقبلاً .

ويتكون بيت الحضراني المتواضع من دور أرضي به حظيرة لحصان ، وينام أيضاً بهـٰذا الدور أخوه إبراهيم ، ودور علوي به غرفة لنوم الشيخ أحمد الحضراني ، وبجوارها صالة وضعنا فيها رحلنا ، وللمنزل حمام عليه ستارة من الخيش .

وقد فرح الشيخ أحمد الحضراني بقدومنا واستقبلنا بالحفاوة والتكريم ، رغم أنه لم تسبق له بنا معرفة ، وقدم لنا العشاء ، وقضينا ليلتنا في منزله ، وفي صباح اليوم الثاني . . أخبرنا بنيته الذهاب بنا للسلام على الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن ، فوافقناه علىٰ رأيه ، وأخذنا في الاستعداد لمقابلة الإمام أحمد ملك اليمن .

ثم ذهبنا معه إلىٰ قصر الإمام مشياً على الأقدام ، وبعد فترة من المشي لا بأس بها . . وصلنا لقصر الإمام الواقع خارج نطاق مدينة تعز ، وعلىٰ ربوة عالية ، ومن هـٰذا القصر يدير الإمام بنفسه جميع شؤون البلاد اليمنية من أقصاها لأدناها .

وللقصر بوابة ضخمة تقودك إلىٰ فناء علىٰ جوانبه أقفاص الأسود التي تثير في النفس مشاعر الهيبة والرعب ، وقد أخبرنا الشيخ أحمد الحضراني بأن الإمام أحمد قد اصطاد بنفسه واحداً من هـٰذه الأسود ، ثم قادونا إلىٰ ديوان

الإمام ، وهو عبارة عن صالون كبير يجلس في صدره الإمام ليدير أمور الدولة ، ويجلس حوله العلماء والقضاة ، وتوضع أمام الإمام مجموعة من الأوراق والمعاملات ، فيلتقط هٰذه الأوراق واحدة واحدة ويقرؤها ، ثم يكتب عليها أوامره بخط يده ؛ فإذا انتهىٰ من هٰذه المجموعة . . أحضروا له مجموعة أخرىٰ من الأوراق والمعاملات ، وهٰكذا يستمر الإمام في عمله ، بينما يبقىٰ جميع من في المجلس في صمت تام ، فإذا تعب الإمام من عمله . . استند علىٰ ظهره وتوجه إلىٰ حضور مجلسه وألقىٰ إليهم بسؤال فقهي أو أدبي ، فيشتعل المجلس في مداولات ومجادلات ، يشترك فيها الإمام ، ثم يعود الإمام بعد ذلك للعمل ، ويعود الحضور للصمت التام .

ويتمتع الإمام أحمد بشخصية مهيبة ، وهو رجل متوسط الطول ، بطين ، وله عينان كبيرتان تشعان بالفطنة والذكاء ، وقد خطرت لي عند رؤيته تلك الصورة التي تصورتها للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ولا يتكلم أحد في مجلس الإمام ، ولا يوجه له الكلام مباشرة ، وإذا أراد أحد أن يبلغ الإمام شيئاً . . فعليه أن يكتبه علىٰ قصاصة من الورق تقدم للإمام ، فيكتب الإمام رده عليها بنفسه ، ويعيدها الجندي المكلف بخدمة الإمام إلىٰ كاتبها .

ولما وصلنا المقام ودخلنا مجلس الإمام . . أخذنا أماكننا قريباً منه بأمره ، وكتبنا له قصاصة تعريفاً بنا ، فرحب بنا وسألنا عن حضرموت وأحوال حضرموت ، ثم كتبنا له قصاصة أخرىٰ بطلب الإذن في الانصراف ، فكتب لنا تحويلاً على الجمرك بمئتي ريال ، وأمر بإنزالنا بدار الضيافة ، وأجرىٰ لنا ريال فرانصة في كل يوم .

وشكرنا الله علىٰ هٰذه الثروة التي هبطت علينا من السماء ، فلم نكن نحلم بامتلاك هٰذا المبلغ الكبير ، فبادرت بشراء كيس من الرز وبعض الأغراض الأخرىٰ وأرسلتها مع شيء من المال لوالدي بحضرموت .

ولم تتأثر اليمن في تلك الفترة بالحرب ؛ لكونها دولة منعزلة تعتمد علىٰ نفسها في جميع أمورها ، فتوفر فيها الطعام الرخيص بكثرة .

وانتقلنا إلىٰ بيت الضيافة بأمر الإمام ، وهو بيت متواضع من دورين ، وخصصت لنا به غرفة خاصة ، كما ينزل ببيت الضيافة عدد آخر من ضيوف الإمام ، وكنا نستلم الريال في كل يوم ونشتري بجزء منه ما نحتاجه من الطعام ، ونحتفظ ببقية الريال للأيام القادمة .

وقد تعلق بنا في دار الضيافة شابان ظريفان من شباب اليمن ، هما السيدان : أحمد بن محمد الشامي وإبراهيم الحضراني ، وكانا ذكيين ولطيفين ، ولهما باع طويل في الشعر والأدب ، إلا أنه لم يكن لهما علىٰ ما يبدو من مأوىٰ أو معاش في تعز إلا ما يتيسر من ضيوف الإمام ، ولهٰذا أخذوا يشاركوننا الإقامة والطعام ، إلا أننا سعدنا بوجودهما معنا ، فلم نأبه بمشاركتهما لنا الأكل والمكان .

ثم جاءت مناسبة عيد جلوس الإمام على الملك ، وهي مناسبة سنوية هامة ، يقام فيها احتفال رسمي كبير يحضره الإمام وتكتظ فيه ساحة الاحتفال بآلاف الناس ، ويجلس الإمام علىٰ منصة عالية ، تليها منصة الشعراء والقضاة ، وقد قررت أن ألقي قصيدة في هٰذه المناسبة لتحية الإمام أحمد ، دبجتها بمساعدة الشامي والحضراني ، وجاء مطلعها :

دب سحر القريض في أفكارك ... فامض في ساحة البيان وشارك
وتغنىٰ بالمن كي يدرك النا ... س جلال الإله في قيثارك

وقد وقفت وأنا شاب صغير أمام الإمام أحمد وألقيت قصيدتي تلك وقد أثارت إعجابه وإعجاب اليمنيين الذين يتذوقون الشعر ويحترمون الشعراء .

وقد تعود الشعراء بعد إلقاء قصائدهم أن يتقدموا ليسلموا على الإمام ويسلموه قصائدهم ، ولذا تقدمت بعد إلقاء قصيدتي وصافحت الإمام وسلمته القصيدة ، فربت علىٰ كتفي بيده القوية الضخمة وقال : لا فض الله فاك .

وقد جلبت لي هٰذه القصيدة التي أثنىٰ عليها الإمام شهرة لدىٰ أهالي تعز ، فكنت إذا مشيت في الشارع . . تهامس الناس من حولي بأن هٰذا هو الشاعر ،

ويشيرون بأيديهم نحوي مما يشعرني بأهميتي وقيمتي عندهم .

ومضت علينا حوالي خمس وعشرين يوماً استمتعنا فيها بكرم الإمام وضيافته ، ثم قررنا زيارته لطلب الإذن بالسفر ؛ حيث إن هدفنا هو الوصول للحبشة وكسب عيشنا في تلك البلاد بعرق الجبين ، ولم نكن نتصور أن نمكث في اليمن كل تلك الفترة .

فذهبنا لزيارة الإمام الذي رحب بنا وأجلسنا قريباً منه ، وقد أعددت قصيدة جديدة لهٰذه المناسبة لم يساعدني فيها في هٰذه المرة أي أحد ، ولما جاء الوقت المناسب . . أذن لي الإمام في إلقاء القصيدة ، فألقيتها أمامه ، ونالت إعجابه ، ثم كتبنا له قصاصة ضمناها طلب الإذن بالسفر ، إلا أن الإمام أعاد القصاصة مكتوباً عليها : (حماكم الله تعالى ، لا نحب استعجالكم . . .) وكتب لنا تحويلاً على الجمرك بمئتي ريال ، وهٰكذا مرت علينا أيام أخرىٰ ونحن نتمتع بكرم الإمام وضيافته ، إلا أن نفوسنا كانت تواقة بشدة إلىٰ مواصلة السفر ، وما زلت أحتفظ بقصاصة من هٰذه القصاصات بخط الإمام وتوقيعه .

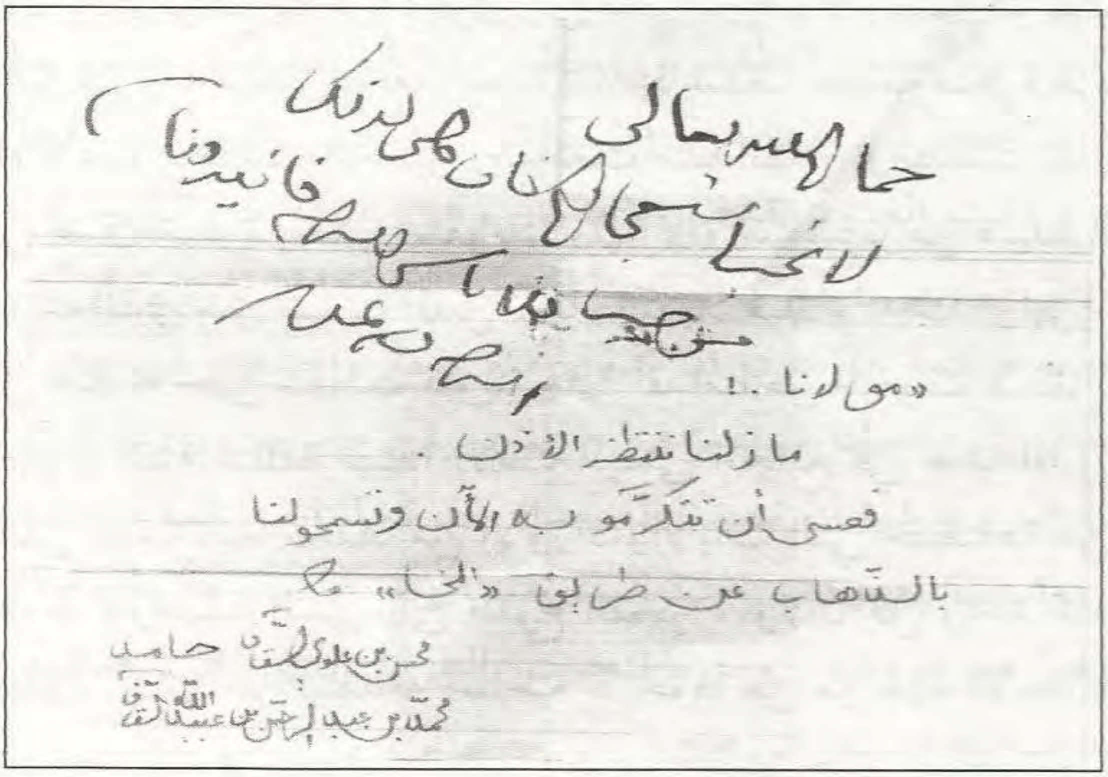
«مولانا . !
ما زلنا ننتظر الإذن .
فعسى أن تتكرموا به الآن وتسمحوا لنا
بالذهاب عن طريق «الحبشة» ...

قصاصتنا المرسلة للإمام ورد الإمام أحمد عليها بخط يده

وخرجنا من ديوان الإمام واتجهنا إلى الجمرك واستلمنا ما قرره لنا الإمام لنا ، ثم عدنا أدراجنا إلىٰ دار الضيافة ، وهٰكذا مكثنا باليمن شهرين كاملين ، زرنا خلالها الإمام ثلاث مرات لطلب الإذن بالسفر . . إلا أنه في كل مرة لم يرغب في استعجالنا ، ويحولنا على الجمرك بمبلغ من المال ، ثم إننا أصررنا عليه في المرة الأخيرة بطلب الإذن في السفر فأذن لنا ، وانشرحت نفوسنا بهٰذا الإذن الملكي ، وخرجنا من مجلس الإمام لإعداد العدة للرحيل .

وذهبنا إلى السوق لاستئجار الحمير التي ستقلنا إلىٰ ميناء المخا القريب من سواحل الحبشة ، كما استأجرنا دليلنا للطريق وسائساً للحمير لإعادتها إلىٰ أصحابها بتعز بعد انقضاء رحلتنا .

وفىٰ فجر اليوم الثاني تحركنا على الحمير باتجاه المخا مع زَمِيلَيِ الرحلة محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله وحامد العطاس الذي صحبنا من تعز متوجهاً مثلنا إلى الحبشة .

وواصلنا السفر ليلاً ونهاراً في طرق طويلة ومطاوي شاقة تهبط بنا أحياناً إلىٰ قاع الوديان ، ثم ترتفع بنا مرة أخرىٰ إلىٰ قمم الجبال ، وبينما كنا نسير في ثلث الليل الأخير في واد سحيق تحفه الجبال . . إذ سمعنا صيحة منكرة هزت الوادي من أقصاه لأدناه فجفلت الحمير وانقطعت مشداتها ، وانطلقت بنا في سرعة شديدة في طرق خطرة يخشىٰ سقوطنا منها ، واستفسرنا من دليلنا اليمني عن هٰذا الصوت الذي شق صمت الليل ؟ فأجابنا بلا مبالاة : هٰذا زئير أسد ، ولم يكد يكمل عبارته حتىٰ سقطت قلوبنا علىٰ أقدامنا من الخوف ؛ فمن المحتمل جداً أن نكون لقمة سائغة لهٰذا الأسد اليمني الجائع في هٰذا الليل البهيم ، فاستعنا على الأسد بما نحفظ من الأوراد والآيات التي حفظناها عن أهلنا في حضرموت ، وواصلنا السير إلىٰ طلوع الفجر ، وكان كل واحد منا في هٰذه الأثناء يحاول أن يتأخر ليتقدمه صاحبه ؛ خوفاً من مواجهة الأسد في الظلام الدامس ، وما زلنا في خوف شديد وكرب عظيم حتى انبلج نور الصباح ، وظهرت معالم الطريق ، فاطمأنت نفوسنا وهدأت خواطرنا ، فأدينا الفريضة ثم

واصلنا المسير إلىٰ منتصف النهار ، حتىٰ بلغنا منطقة رحبة بها ماء وشجر ، فقررنا التوقف عندها لأداء الصلاة وأخذ قسط من الراحة .

وفي هـٰذه الأثناء مر بنا راعي غنم بقطيع من الأغنام المليحة ، فاشتهت نفوسنا اللحم والشواء ، وقررنا أن نعوض ما أصابنا ليلة البارحة بوجبة دسمة تعيننا علىٰ ما تبقىٰ من الطريق ، فاشترينا من الراعي جدياً صغيراً ، وبدأنا في إعداد المكان والبحث عن الحطب ، وقد تطوع الأخ حامد العطاس فذبح الجدي وعلقه علىٰ فرع شجرة ، ثم قام بسلخ الجلد ، بينما كنا نعد العدة للشواء ، وبينما كنا مشغولين بترتيبات الغداء . . إذ لمحنا علىٰ قمة الجبل علامة سوداء ، ما لبثت أن كبرت وتوضحت معالمها فإذا هي قرد أسود ضخم ، تسمر في مكانه بالجبل ، وأخذ يرمقنا بنظراته ، ونحن مشغولون عنه بتحضير مستلزمات الشواء ، وبطوننا تتضور جوعاً ، ثم اختفى القرد الضخم من علىٰ قمة الجبل ، غير أنه بعد مرور نصف ساعة من اختفائه ظهرت علىٰ قمة الجبل مجموعة من القرود الصغيرة ، ثم أخذت القرود تتكاثر حتى امتلأ الجبل بالمئات من القرود الكبيرة والصغيرة ، ولم نشعر ونحن في انهماكنا في تقطيع أوصال اللحم والتحضير للطعام بأي خطر ، إلا أنه بعد قليل بدأت بعض القرود في قذفنا بالحجارة ، وما هي إلا دقائق . . حتى انهمرت علينا الأحجار كالمطر ، وكانت القرود تقذف الأحجار وهي تقهقه من الضحك ، فأسرعنا بلملمة ما طرحناه من متاع ، وسحبنا الحمير وهربنا لا نلوي علىٰ شيء وتركنا جدينا المذبوح كما هو دون أن نذوق منه لقمة واحدة ، ثم بعد أن تجاوزنا منطقة الخطر . . واصلنا مسيرنا في طريق جبلي متعرج ، إلا أنه لم ينفك عنا كرب ذلك اليوم ، فما أن تنفسنا الصعداء بعد نجاتنا من الموت المحقق رجماً بالأحجار بواسطة القرود . . حتىٰ هبت علينا ريح عاصفة متربة ، ولم نعد نرىٰ بعضنا البعض من الرمال ، وسرنا نتحسس الطريق الذي زالت معالمه ، خائفين من أن ننحرف عنه فنسقط في هاوية .

وبعد مسيرة طويلة متباطئة ومحفوفة بالمخاطر استمرت أسبوعاً . . وصلنا

إلىٰ أطراف مدينة المخا ، والرياح المتربة ما زالت تعصف من حولنا ، حتىٰ إننا دخلنا المخا ولم نتبين أياً من معالمها ، كما لم نر أثراً لبشر أو شجر .

وبعد مدة من البحث والانتظار . . عثرنا علىٰ أحد الأشخاص فتمسكنا به راجين منه أن يدلنا علىٰ فندق أو نُزُلٍ نستطيع أن نقضي به ليلتنا ، فأخبرنا بأنه لا يوجد بهـٰذه المدينة شيء من هـٰذا القبيل ، ثم استجاب لإلحاحنا وتوسلاتنا وقادنا إلىٰ زريبة من زرائب الماشية وقال : يمكنكم أن تقضوا ليلتكم في هـٰذا المكان ، فأخذنا متاعنا من فوق الحمير ودفعنا أجرة الدليل وسائس الحمير الذي كان عليه أن يعيد الحمير لأصحابها في تعز .

ثم دخلنا الزريبة التي امتلأت بالأوساخ والتراب ، وقفلنا علىٰ أنفسنا الباب ولم نأبه لحالتها المزرية ؛ لشدة ما أصابنا في رحلتنا الطويلة من المشقة والتعب ، فألقىٰ كل منا بنفسه على الأرض ، ورحنا في نوم عميق لم نستيقظ منه إلا في ساعة متأخرة من النهار ، وعندما استيقظنا من النوم . . حاولنا أن نخرج من زريبتنا ، فوجدنا أن بابها قد سدته كثبان الرمال وجاوزته بأكثر من متر ، وقد بذلنا كل ما نستطيع من قوة لإزاحة الرمل والخروج من هـٰذه الزريبة التي أصبحت قبراً يضم أحياء . . إلا أننا لم نقدر علىٰ تخليص أنفسنا ؛ فقد كان الكثيب الرملي سميكاً وعالياً ولم يكن بالزريبة متسع لاستقبال الرمل المزاح ، كما لم يكن معنا من أداة لنقل الرمل سوىٰ أيدينا المرتجفة ، وعند ذلك أدركنا أن لا سبيل للخروج من هـٰذا القبر إلا بمساعدة من خارج الزريبة ، غير أننا لم نشاهد عند دخولنا هـٰذه البلدة أي بشر يمشون في شوارعها ، مما آيسنا من الخروج أحياء من هـٰذه الزريبة المدفونة ، ثم رفعنا عقيرتنا بالصراخ ؛ لعل أحداً يسمعنا فيتطوع لإنقاذنا ويخرجنا من هـٰذا القبر الذي دفنا فيه أحياء ، وبقينا نصرخ ونستغيث لعدة ساعات . . حتىٰ قيض الله لنا من سمع صراخنا فأسرع وأحضر من شاركه في جرف الرمال من باب الزريبة حتىٰ تمكنوا من إحداث فتحة في كثيب الرمل انتشلونا من خلالها إلى الخارج مع متاعنا ، بعد أن أشرفنا على الهلاك المحقق ، لولا عناية الله التي أدركتنا في اللحظات

الأخيرة ، وبعد أن شكرنا الله وشكرنا من ساعدنا علىٰ نجاتنا من هـٰذا المدفن . . اتجهنا مباشرة إلى الساحل باحثين عن وسيلة تنقلنا لميناء عصب علىٰ ساحل الحبشة ، وهو ميناء قريب من مدينة المخا ومحاذ لها على الساحل الإفريقي المقابل ، إلا أننا لم نعثر علىٰ وسيلة مأمونة لسفرنا ، ولم تتوفر إلا السنابيك الصغيرة التي تنقل القات اليمني المهرب إلى الحبشة عبر ميناء عصب .

وركبنا السنبوك علىٰ بركة الله ، وجلسنا مع متاعنا فوق حزم القات المرصوصة علىٰ سطح السنبوك ، وتوجهنا علىٰ هـٰذه الصورة إلى الحبشة في رحلة محفوفة بالمخاطر ، سأذكر أحداثها في الفصل التالي من هـٰذا الكتاب .

* * *

السفر من اليمن إلى الحبشة

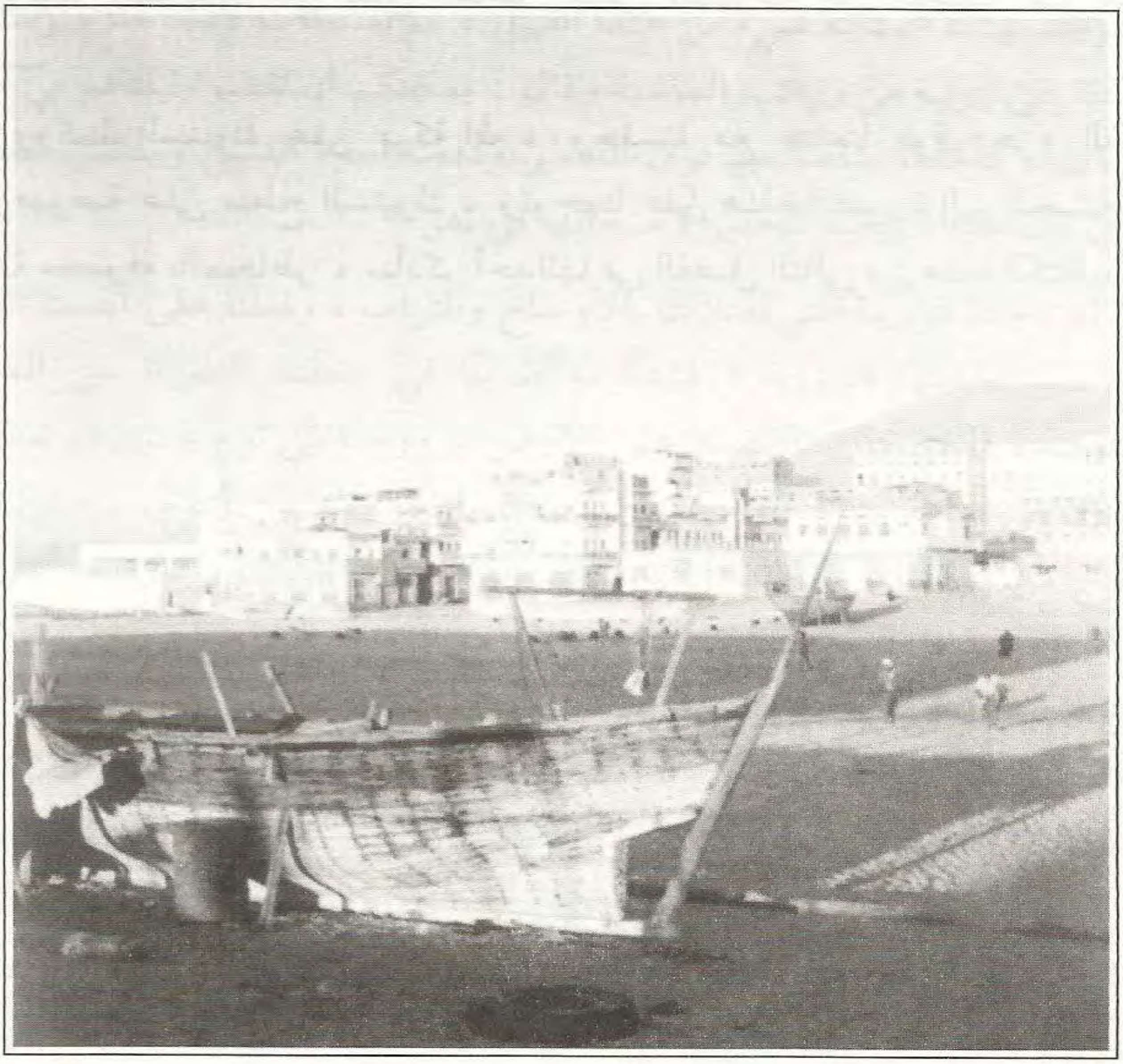

واضطررنا إلىٰ ركوب واحد من السنابيك الصغيرة التي تعمل في تهريب القات اليمني بين ميناء المخا اليمني وميناء عصب بالحبشة ، معتمدين علىٰ أن مسافة الرحلة قصيرة خاصة وأننا كنا نبصر من المخا أنوار عصب في الليل ، مما أكد لنا قرب المسافة وسهولتها .

وركبت السنبوك مع زميلَي الرحلة محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله وحامد العطاس ، وقد حمل كل منا حقيبته ومتاعه في يده ، وانطلق بنا السنبوك مع بزوغ الفجر بقيادة الربان ومساعده ، وقد تكدست علىٰ سطحه حزم القات المهرب ، وبدأت الرحلة في بحر هادىء بعض الشيء مما أشاع في أنفسنا الطمأنينة والهدوء ، فلم تكن لنا خبرة بركوب البحار ونحن من أبناء حضرموت الداخل ، وما أن توغلنا في داخل البحر . . حتىٰ دخلنا في منطقة الأمواج العاتية ، فكانت الأمواج ترفع القارب عشرات الأمتار ثم ترميه علىٰ سطح البحر ، والقارب يترنح يميناً ويساراً ، وكأنما هو ريشة في مهب الريح .

وصار القارب يمتلىء بالمياه ويشارف على الغرق مع كل موجة من هـٰذه الموجات العاتية ، فيسارع الربان ومساعده ونحن معهم بالمغاريف فنفرغ الماء من القارب بأقصىٰ سرعة ، وما نكاد ننتهي من عملنا . . حتىٰ تأتي موجة ثانية فتفعل بنا مثل أختها ، ونحن نتوقع الموت في كل لحظة ، ولم تكن لنا رغبة في طعام ولا شراب ، ومضت علينا ثلاثة أيام ونحن نكابد أهوالاً عظيمة ومحناً أليمة حتىٰ قاربنا ميناء عصب ، فاستبشرنا خيراً بنجاتنا ، إلا أنه لم تمض لحظات حتىٰ هبت علينا رياح معاكسة ردتنا مرة أخرىٰ إلىٰ منتصف البحر ، لنعود مرة ثانية ونكابد ما كابدناه في المرة السابقة من أمواج وأهوال ، ثم عدنا واقتربنا من عصب مرة ثانية ، إلا أن الرياح المعاكسة عادت ودفعتنا مرة أخرىٰ إلىٰ حيث كنا ، وتكرر هـٰذا عدة مرات حتىٰ آيسنا من الوصول إلىٰ عصب ، وكان الربان ومرافقه خلال هـٰذه الأهوال في منتهى الهدوء وعدم الاكتراث ؛ حيث إنهم يقومون بهـٰذه الرحلة لتهريب القات بين المخا وعصب طوال الأسبوع .

وأخيراً آذن الله بوصولنا إلىٰ ميناء عصب بالحبشة ، ولم تكن معنا جوازات ولا وثائق أو مستندات ، وكنا معتمدين في تدبير دخولنا لعصب على البحارة اليمنيين بمساعدة زملائهم في التهريب بميناء عصب .

ولما وصلنا بمحاذاة البر وعادت لنا أرواحنا . . خرج بحارة السنبوك لتدبير

نزولنا لميناء عصب ، وتكلموا في شأننا مع مسؤلي الميناء من الأحباش ، ولٰكنهم رفضوا السماح لنا بالنزول ، وطلبوا من البحارة إعادتنا إلى المخا ، فأخبرناهم باستحالة قبولنا العودة إلى المخا بعد ما قاسيناه من أهوال البحر ، وأننا نفضل الموت علىٰ بر عصب على الغرق في هٰذا البحر .

ثم عاد بحارة السنبوك لمراجعة مسؤلي الميناء والتفاوض معهم بشأن الدخول ، واستمرت المفاوضات وقتاً طويلاً وكنا أثناء ذلك في منتهى الخوف والقلق ، وأخيراً حصل الفرج وسمح الأحباش بدخولنا عصب ، شريطة أن يدفع كل منا عشرة ريال فرانصة ، وألا ندخل من الميناء الرسمي ، ولٰكن من منطقة معزولة بعيدة عن الميناء ، فوافقنا علىٰ شروطهم فوراً وسلمناهم الريالات ، ثم واصلنا الرحلة بالسنبوك حتىٰ وصلنا لمنطقة بعيدة عن الميناء ، فاقترب السنبوك من الساحل ، فحمل كل منا متاعه بيده ، وتقافزنا من السنبوك وخضنا في المياه الضحلة حتىٰ وصلنا لليابسة فرحين بنجاتنا من البحر والسنبوك .

ثم مشينا علىٰ أرض صحراوية باتجاه الميناء آملين أن نجد أحداً من العرب يساعدنا على الوصول إلىٰ هدفنا المنشود بالحبشة (أديس أبابا) ولٰكنا لما اقتربنا من الميناء ونظرنا إلى الناس المجتمعين بقربه . لم نجد إلا أناساً غرباء لهم سحنات لم نعهدها من قبل ، فأخذنا نتفرس في الوجوه لعلنا نجد بينهم عربياً يساعدنا ويهتم بأمرنا ، وكنا في غاية الإرهاق والتعب ، فلم نهتم لثيابنا الرثة المبتلة وحالتنا المزرية ، ثم سخر الله لنا شخصاً عربياً أشفق لحالنا ، فتقدم منا وسألنا عن أنفسنا ، فلما علم بخبرنا وعرف أننا من حضرموت . رحب بنا ودعانا للنزول في منزله ، وأخبرنا بأن اسمه علوي ، وأن أصوله تعود إلىٰ حضرموت ، وكان لهٰذا الرجل الكريم منزل صغير مكون من غرفة واحدة كبيرة مع مطبخ وحمام ، فنزلنا بداره وشعرنا بالراحة والأمان ، واغتسلنا واسترحنا ، ثم أحضر لغدائنا الرز المطبوخ مع السمك ـ في الوقت الذي كدنا نموت فيه من الجوع ، فلم نهنأ بطعام ولا شراب منذ بدأت رحلتنا

إلى الحبشة ، فأكلنا وشبعنا في بيت هـٰذا الرجل الشهم الكريم ، ثم نمنا مكرمين معززين ليلة هادئة هانئة ، وفي الصباح ذهبنا معه للبحث عن سيارة تنقلنا إلىٰ أديس أبابا .

وبعد البحث والسؤال . . لم نجد إلا سيارة من سيارات نقل البن الثقيلة لخواجة من الطليان وافق أن ينقلنا بسيارته بملغ معين اتفقنا عليه ، وكانت هـٰذه السيارة الضخمة تجر عربتين محملتين بأكياس البن ، وكان للسائق الإيطالي كابينة في مقدمة السيارة بها سرير للنوم ومكان لجلوس عدة أشخاص ، وقد حسبنا أننا سنجلس في هـٰذه الكابينة إلا أنه عندما حاولنا دخولها انتهرنا بشدة وأشار لنا بالركوب فوق أكياس البن .

وما زال الإيطاليون في تلك الفترة رغم هزيمتهم في الحرب وقيام الإنجليز بطردهم من الحبشة غاية في العنصرية واحتقار الأجناس غير الأوروبية ، فلا يجالسونهم أو يسمحون لهم بدخول مطاعمهم ومحالهم ، وهـٰكذا أذعنَّا لأمر السائق الطلياني وحملنا متاعنا وصعدنا علىٰ ظهر السيارة ، وجلسنا فوق أكياس البن ، وانطلقت بنا السيارة الضخمة في طرق جبلية متعرجة ، وطقس شديد البرودة ، وأخذت أكياس البن تتمايل مع انحناءات الطريق ونحن فوقها معرضين للسقوط في أي لحظة إلىٰ تلك الوديان السحيقة ، وإضافة لهـٰذا الخطر فقد حصل سوء تفاهم ومناوشات كلامية بين زملاء الرحلة محمد بن عبيد الله وحامد العطاس ، تطورت إلىٰ تعارك بالأيدي ، فكنت أقوم بالإصلاح فيما بينهم خوفاً من أن يسقط أحدهم إلىٰ قعر الوادي ويموت ، إلا أنه كلما هدأ بينهما الموقف . . عاد واشتعل من جديد ، حتىٰ وصلنا إلىٰ مشارف أديس أبابا ونحن علىٰ هـٰذه الحال .

وكنت منبهراً بجمال الطبيعة في هـٰذه الربوع الإفريقية التي أشاهدها لأول مرة ، رغم ما أقاسيه من البرد الشديد ، ورغم خطر السقوط من فوق أكياس البن ، بينما استمرت عربتنا الطويلة تصعد الطرق الجبلية المتعرجة وكأنما هي أفعىٰ بطيئة تتسلق شقوق الجبال ، وسائقها الطلياني غير مكترث بنا ولا يهمه إن

بقينا على السطح أو وقعنا في الهاوية .

واستمرت المناظر الجميلة من حولنا بطول الطريق من عصب إلىٰ أديس أبابا عاصمة الحبشة ، فأينما نظرت . . تجد الجبال الخضراء والوديان التي تجري بالمياه .

وقد أبدع المهندسون الطلاينة في شق هـٰذه الطرق الجبلية ؛ فرغم الارتفاع الشاهق لهـٰذه الجبال . . تمكنت عربتنا المحملة بأكياس البن من تسلقها بسهولة ويسر شديدين دون أن نقع نحن أو يقع منها كيس واحد من أكياس البن ، كما كانت تمر من فوق رؤوسنا عربات التلفريك المعلقة التي تنقل البضائع والأمتعة عبر الجبال مباشرة من ميناء عصب إلىٰ أديس أبابا .

واستمرت سيارتنا الضخمة تسير في طريقها سيراً متواصلاً وبطيئاً من ساعات الصباح الأولىٰ وحتىٰ دخول الليل ، ثم وصلنا بعد ذلك إلىٰ قرية جبلية صغيرة اسمها (دِسّي) ، قرر عندها الخواجة أن يتوقف للراحة والنوم ، وأخبرنا بأنه سيواصل الرحلة مباشرة مع أول تباشير الصباح ، وخرجنا من السيارة لنبتاع ما نأكله ، فوجدنا الأحباش يبيعون الخبز والبيض المسلوق ، فاشترينا منهم ما يكفينا لباقي الرحلة ، وسألنا عن عرب بهـٰذه القرية المعزولة ، فأخبرنا الأحباش بأن بهـٰذه القرية عربياً يسمى الشيخ سعيد بازرعة ، أخذونا إلىٰ منزله فوجدناه بيتاً صغيراً ، طرقنا بابه ففتحوا لنا ، ودخلنا إلىٰ ديوان طويل خافت الإضاءة يلفه الدفء والسكون ، وجلس في وسطه شيخ مهيب الطلعة نوير الوجه ، وحوله عدد من الشباب ـ أحسبهم أولاده وموظفيه ـ يقرؤون القرآن (يحزبون) بين المغرب والعشاء ، فسلمنا وجلسنا .

ثم لما انتهوا من قراءتهم . . شرعوا في قراءة راتب الإمام الحداد ، ونحن مندهشون من هـٰذه الطقوس السلفية التي نشاهدها في هـٰذه القرية الجبلية المعزولة ، وكأنما قد انتقلنا فجأة إلىٰ أهلنا في حضرموت ، ثم لما انتهوا من الراتب . . أقاموا صلاة العشاء ، فصلينا معهم الفريضة خلف الشيخ سعيد ، وبعد أداء الصلاة والسنة . . رحب بنا الشيخ سعيد وسألنا عن أنفسنا ، فأخبرناه

بخبرنا ، فزاد من الترحيب والاحترام ، ثم دخل العشاء المكون من صحاف من الخزف مليئة بإدام به قطع اللحم الصغيرة والبيض المسلوق وأقراص كبيرة من الخبز اللين الذي عرفنا فيما بعد بأن اسمه (الانجيرا) ، وهو من الأكلات الحبشية المشهورة ، وأخذنا نأخذ القطعة من هـٰذه الانجيرا ونغمسها في الإدام فتلين أكثر فنلتهمها ، ونلحقها بلقمة أخرىٰ وأخرىٰ حتىٰ شبعنا من هـٰذا الأكل اللذيذ ، ثم قضينا ليلتنا معهم ، وزال ما بنا من الجوع والبرد والتعب .

وبعد صلاة الفجر . . أسرعنا مهرولين إلى السيارة حتىٰ لا نتأخر فيتحرك الإيطالي بدوننا ويتركنا في هـٰذه القرية المعزولة ، خاصة وأنه لا يقيم لنا أي اعتبار .

ثم أخذنا مواقعنا فوق أكياس البن وقد تزودنا ببعض الزاد للطريق ، وسارت بنا السيارة سيرتها الأولىٰ في رحلة استمرت أسبوعاً كاملاً في طرق جبلية صعبة وأجواء باردة ، ولم يكن معنا ما نحتمي به من الزمهرير سوىٰ ثيابنا المهلهلة ، وكنا نتوقف عن السير كلما دخل الليل لينام السائق في كابينته المرتبة ، بينما نتمدد نحن فوق أكياس البن إلى الصباح حيث نواصل الرحلة مع بزوغ النور .

وفي نهاية أيام الرحلة دخلنا مشارف أديس أبابا ، فأمرنا السائق الإيطالي بمغادرة السيارة ، ولما وجدنا أننا ما زلنا بعيدين عن المدينة . . تلكأنا في النزول ، فطلع علىٰ ظهر الشاحنة ونهرنا ، وألقىٰ بمتاعنا في الطريق ، ودفعنا خارج السيارة ومضىٰ في طريقه لا يلوي علىٰ شيء .

* * *

الحياة في أديس أبابا

مع البكيري في أديس أبابا عام (١٣٦٣هـ)

ولما نزلنا مع متاعنا إلى الأرض.. لم نعرف أين نتجه وإلىٰ أين نسير ، فسألنا المارة عن أماكن تواجد العرب في هـٰذه المدينة فأخبرونا ببعد المكان ،

فاستأجرنا عربة حصان أخذتنا إلىٰ مناطق العرب التي أرشدونا إليها ، ولما وصلنا . سألنا من وجدناه من العرب عن منزل السيد محمد باهادون رئيس الجالية العربية بأديس أبابا ؛ لننزل لديه ونسلمه كتاب التوصية بنا من الحبيب مصطفى المحضار ؛ ليهتم بنا ويدبر أمورنا في هـٰذه البلاد الغريبة .

وبعد جهد ومشقة . . وجدنا من يدلنا علىٰ بيته ، فوصلناه بعد صلاة الظهر ، وطرقنا الباب ، وسمعنا قبل دخولنا أحاديث وضحكات لمجموعة من الرجال ، ثم دخلنا إلىٰ قاعةٍ جلسَ فيها عدد من الشباب الحضارمة ، وأغلبهم من المحاضير الذين لم نعرف منهم أحداً ، وقد أخذوا يشربون الشاي ويتحدثون ويتضاحكون ، ولما دخلنا عليهم . . توقفوا عن الكلام والضحك ، وأطبق عليهم الصمت وكأنما دخل عليهم شيطان ، فسلمنا عليهم واحداً واحداً ، حتى انتهىٰ بنا المجلس إلى الباب فجلسنا ، ولم يكلمنا أحد أو يسألنا عن أمرنا أحد ، بل استمر القوم في صمتهم ونظراتهم نحونا ، وتمنيت ساعتها أن لو انشقت بي الأرض وابتلعتني من فرط ما أحسست به من المهانة والذل علىٰ يد هـٰؤلاء الشباب ، الذين عرفت فيما بعد كثيراً منهم وأصبحوا من أصدقائي مثل السيد عيدروس المحضار والسيد بوبكر المحضار الملقب بالبكيري ، وآخرين من الذين لم أنس منهم هـٰذا الموقف المهين .

وبينما نحن في ذلنا وانكسارنا لا يكلمنا أحد . . إذ دخل علينا السيد جعفر ابن الحبيب علوي بن محمد المحضار وهو من الحضارم المولودين بجاوة ، فلما رآنا عند الباب . . اتجه نحونا ورحب بنا وقال لنا : مَن الإخوان ؟ فأخبرناه بأسمائنا فزاد في الحفاوة والترحيب ، ثم أخبرناه بخبرنا ، ولم نصدق أن نجد في هـٰذه الدار من يكلمنا ويستمع إلينا ، ثم أخذناه خارج الغرفة وشرحنا له أمرنا ، فغضب من تصرف المحاضير معنا ، وعاد يعنفهم ويقول : جاءكم فلان وفلان من حضرموت ولم ترحبوا بهم أو تقدموا لهم غداء ، فاستحى القوم وقاموا من فورهم وأحضروا لنا الغداء إلى الغرفة المجاورة .

ولم أنس طول حياتي هٰذا الموقف الشهم النبيل للسيد جعفر بن محمد المحضار ، والذي استمرت علاقته الطيبة بي حتىٰ وفاته بحضرموت في السنوات الأخيرة .

وعلمنا منهم أن صاحب الدار السيد محمد باهادون والذي نحمل له كتاب التوصية مسافر في حضرموت ، وقد وضع مكانه شريكه في العمل أحمد بن علي بن حسن المحضار ، فسلمناه كتاب الحب مصطفى المحضار .

وفي صباح الغد بادرت بإرسال الأخ محمد بن عبيد الله إلىٰ أسمرة حيث يقيم صديق والده السيد حامد المحضار ليتدبر أمره ، وبقيت أنا علىٰ مضض في هٰذه الدار لعدة أيام ، وعلىٰ أحر من الجمر ، حتىٰ تحصلت علىٰ وظيفة مدرس للغة العربية بمدرسة هرر ، براتب شهري قدره سبعة جنيهات ، قبلتها فوراً حتىٰ أتخلص من الجلوس في هٰذا المكان وبين هٰؤلاء الناس .

وكانت الحبشة في تلك الأيام بلاداً غنية تكثر فيها المنتجات الزراعية والحيوانية ، ويكاد أن يكون الأكل فيها بالمجان ، فلم آبه لقلة مرتبي ، واتفقت علىٰ مشاركة السيد بوبكر البكيري في الأكل والسكن في مكان سكنه بمستودع من المستودعات التي يبيع فيها الملح للأحباش مقابل الجلود التي يصدرها للخارج بواسطة شركة البس في عدن ، وكان السكن عبارة عن غرفة كبيرة ومطبخ خارجي وحمام .

ورغم تجاوز البكيري السبعين من عمره . . إلا أنه تمتع ببنية قوية ونشاط وحيوية ، كما تميز بلطافته وطيبته ، وكان من المحاضير الذين استقبلونا الاستقبال البارد عند وصولنا أديس أبابا من حضرموت ، فبقيت ألومه دائماً علىٰ هٰذا الموقف المشين .

ويتقن البكيري الطبخ ، وخصوصاً طبخة المختوم ، التي يجيدها بطريقة مدهشة ، وإذا دخل المطبخ . . فلا يسمح لأحد أن يشاركه أو أن يساعده في الطبخ ، ويحب أن يعمل كل شيء بنفسه ، فكنت أترك له هٰذه المهمة وأذهب

لعملي بالمدرسة في الصباح ، وأعود بعد الظهر لأجد البكيري قد أعد الطعام وقام بتحضير الشاي .

ويقع بيت البكيري علىٰ ربوة عالية من روابي أديس أبابا المبنية علىٰ مجموعة من الهضاب والمرتفعات ، وكانت المعارك تشتعل في كل ليلة بأسفل الهضبة بين اللصوص والشرطة ، فما أن يخيم الليل حتىٰ ينطلق اللصوص الأحباش وفي أيديهم البنادق والقنابل اليدوية ليسرقوا وينهبوا ، فإذا حضرت الشرطة اشتبكوا معها في معركة تستخدم فيها البنادق والقنابل ، فتتعالىٰ من تحتنا أصوات الانفجارات والطلقات ، فنبقىٰ في دارنا متوجسين خائفين ، حتىٰ تنتهي المعارك ويهدأ الليل فننام .

ثم قررنا الانتقال للسكن إلىٰ منطقة أخرىٰ أكثر أمناً وسكوناً من سكننا الحالي ، فاستأجرنا بيتاً لأحد الإيطاليين يقع داخل حوش به مجموعة من البيوت الصغيرة ، وكان يجاورنا في السكن السيد سالم المحضار .

وفي أحد الأيام نزل بضيافتنا السيد طه بن علوي الحداد ابن مفتي جوهور العالم المشهور السيد علوي بن طاهر الحداد ؛ وبينه وبين البكيري قرابة صهر ، فاستقبلناه على الرحب والسعة ، رغم أن بيتنا صغير ، وبعد العشاء والسمر لبست ثياب النوم وتركت له مكاني لينام فيه ، وذهبت للمبيت بمنزل الأخ سالم المحضار .

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة . . داهم اللصوص الأحباش منزلنا وهم مسلحون بالقنابل والبنادق ، وأخذوا كل ما في البيت من متاع وثياب وأدوات ، ولم يتركوا خلفهم أي شيء ، وقد أحس بهم البكيري وضيفه ، إلا أنهم آثروا السلامة فبقوا في أماكنهم ساكنين لا يتحركون ، حتىٰ فرغ اللصوص من مهمتهم ، وعندما عدت في الصباح لأتناول فطوري في بيتي وأتحضر للذهاب إلىٰ عملي . . وجدت باب البيت مفتوحاً ، ولما دخلت . . لم أجد بالبيت أي شيء مما كان فيه بالأمس ، ووجدت البكيري مع ضيفه يجلسان صامتين ، ولما سألتهم عما حدث . . أخبراني بزيارة اللصوص وأنهم أخذوا

من المنزل كل شيء ، ووقعت في ورطة كبيرة ، فلم تبق لي ثياب أذهب بها إلى المدرسة ، ولم أعد أملك إلا الصارون الذي نمت فيه ، ولحسن الحظ فقد كانت معي دراجة (بسكلته) أذهب بها إلى المدرسة وأوقفها خلف البيت فلم يرها اللصوص ، فبقيت علىٰ حالها ، كما تبرع لي جارنا السيد سالم المحضار ببالطوا لبسته فوق الصارون ، وركبت دراجتي واتجهت إلى المدرسة لألحق بعملي مندفعاً في شوارع أديس أبابا المرتفعة والمنخفضة .

ولما انحدرت بدراجتي في طريق شديد الانحدار .. إذا بفرامل الدراجة الذي يساعدني في النزول المتباطىء ينقطع فجأة ، فتندفع الدراجة في المنحدر بسرعة فائقة وأفقد سيطرتي عليها ، وبأسفل هـٰذا الطريق شارع رئيسي تكثر فيه حركة السيارات ، وخلفه سور قصير لكنيسة ، ثم هاوية سحيقة .

وتوقعت الهلاك المحقق ؛ إذ كانت السيارات تقطع الشارع أسفل مني بسرعة ، ودراجتي متجهة نحوهم ؛ إلا أنني اعتصمت بالأجل فمرقت دراجتي بمعجزة وسط الشارع ، واصطدمت بسور الكنيسة ، وطرت من فوقها إلىٰ داخل الكنيسة ، وفقدت وعيي ، ثم استيقظت بعد ذلك فإذا بي داخل الكنيسة والراهبات الحبشيات من حولي ينضحن الماء علىٰ وجهي ، وأنا بصارون النوم ، بعد أن طار مني البالطو مع الدراجة ، ولما تحسنت حالتي .. شكرت الراهبات علىٰ مساعدتهن وغادرت الكنيسة ، وذهبت أبحث عن دراجتي ، فوجدت أن عجلاتها قد انطعجت ، ولم تعد صالحة للاستعمال ، فاستأجرت سيارة نقلتني مع دراجتي إلى البيت ، ولما دخلت البيت .. ألقيت بنفسي علىٰ فراشي وحمدت الله أن سلمني من موت محقق ، وكتب لي عمراً جديداً .

وكنت أقوم بتدريس اللغة العربية في مدرسة للأحباش ، وقد تكيفت حياتي علىٰ هـٰذه الوظيفة ومكثت فيها سنة كاملة ، وتعرفت علىٰ كثير من العرب والأحباش .

وقد أُعْجِبَ بمهاراتي وذكائي أحد المشتغلين بالتجارة ممن تعرفت عليهم بأديس أبابا واسمه باداوود ، فأقنعني بأن المستقبل في التجارة ، وأنني لن

أحقق شيئاً لنفسي من التدريس ، ووعد بأن يبحث لي عن عمل ، فشكرته علىٰ مسعاه ، ثم اتصل بي بعد فترة وأخبرني بأنه قد تحصل لي علىٰ وظيفة بأسمرة لدى التاجر عبد الله حسان وبراتب جيد .

وقد فرحت بالوظيفة الجديدة رغم أنها بأسمرة التي تبعد ثمان مئة كيلو متر عن أديس أبابا ، وكان من الصعب علي أن أترك حياتي الرتيبة والمريحة مع البكيري وأغادر أديس أبابا ، التي عرفت أهلها ومحلاتها وشوارعها ، وأن أتغرب من جديد في مكان لا أعرف فيه أحداً ، إلا أنني حزمت أمري وقررت الانتقال إلىٰ أسمرة والعمل مع آل حسان ، وقد أكملت تفاصيل ذلك في الفصل التالي .

* * *

الحياة والاستقرار بأسمرة

في أسمرة مع مجموعة من الأصدقاء منهم الحبيب حامد المحضار
والشيخ محمد باجنيد والشيخ سالم بالعمش عام (١٣٦٤هـ)

ولما قررت الانتقال إلىٰ أسمرة . . تقدمت بطلب الإعفاء من وظيفة التدريس بمدرسة الأحباش بأديس أبابا ، وأعددت نفسي للسفر إلىٰ أسمرة ، وفي يوم السفر ودعت زميلي وصديقي البكيري ، وخرجت أبحث عن سيارة تنقلني إلىٰ أسمرة ، وكانت وسيلة السفر بالحبشة في تلك الفترة سيارات اللوري التي تنقل البضائع بين المدن والقرىٰ ، فوجدت سيارة لوري متجهة لأسمرة ، فدفعت لسائقها الأجرة المطلوبة ، وركبت على السطح بين أكوام البضائع المتنوعة .

وقد سبقني في الركوب شاب حضرمي يدعى ابن عبد الرب العمودي ، يعمل بالتجارة ويتنقل ببضاعته بين المدن والقرى الحبشية ، وكان شاباً دمثاً لطيفاً ، وله خبرة طويلة في التنقل بين أنحاء الحبشة ، فتعارفنا وسعدنا بمقابلة بعضنا البعض ، ثم انطلقت بنا سيارة النقل البطيئة باتجاه أسمرة في رحلة الثمان مئة كيلو .

وانشغلت مع العمودي بالحديث معظم النهار ، حتىٰ أحسست بالجوع ، فاقترح العمودي أن نتغدىٰ ، فتذكرت في تلك اللحظة بأنني لم أقم بإعداد أي زاد لهٰذه الرحلة الطويلة ، بل ولم أكن أعرف أنها ستستغرق ثمانية أيام بلياليها ، إلا أن العمودي ـ صاحب الخبرة الطويلة بالسفر في هٰذه البلاد ـ مد يده إلىٰ زنبيل من زنابيله ، وأخرج منه عدداً من أقراص الخبز الطويلة ، ثم مد يده إلىٰ زنبيل آخر ، وأخرج منه خروفاً كاملاً مسلوقاً ومملحاً ، فأكلنا العيش باللحم المملح حتىٰ شبعنا ، وكان طعاماً شهياً لذيذاً ، إلا أن ذلك صار طعامنا الوحيد طوال أيام الرحلة الثمانية ، وكلما أحسسنا بالجوع صباحاً أو مساءً . . أكلنا العيش واللحم المملح .

في أيامي الأولىٰ بأسمرة

ولما وصلت لأسمرة . . سألت عن أرباب عملي الجديد من آل حسان ، حتىٰ وصلت لمكانهم ، فاستقبلوني استقبالاً طيباً ، وأخذوني إلىٰ دكانهم الصغير الواقع علىٰ أحد شوارع أسمرة الرئيسية ، وبخلف الدكان غرفة تستخدم كمكتب ، وبها حمام ، أخبروني بأنها ستكون مكان سكني ، ثم بدأت في اليوم الثاني عملي معهم كمسؤول الحسابات في دكانهم الذي يقومون فيه باستيراد بعض الأدوات من الخارج وتصدير الجلود لأوربا عن طريق عدن ، والمسؤول عن عملهم أكبرهم : الشيخ عبد القادر حسان ، وأخوه عبد الله .

في دكان آل حسان بأسمرة

وقرب الظهر أخذوني معهم إلىٰ منزلهم لتناول الغداء ، ولٰكنني لم أستسغ غداءهم المكون من المأكولات اليمنية مثل الحلبة وأشياء أخرىٰ لا أعرفها ؛ حيث أن أصولهم يمنية ، وقد صعب علي ذلك بعد أن تعودت مع البكيري علىٰ أكلات الرز واللحم اللذيذة .

ثم تعرفت على الأخ محمد البيض ، وهو من أهل الشحر وكان شخصاً ذكياً ولطيفاً ، يبيع ما يتيسر له من بضاعة مثل الرز والسكر وخلافه ، وأصبح البيض من أقرب أصدقائي وأحبهم إلي ، وعشنا معاً سنوات عديدة بأسمرة ، ثم في جدة من عام (١٣٧٦ هـ) حتىٰ وفاته بجدة عام (١٤٢٤ هـ) .

وقد كلفت الأخ محمد البيض أن يتولىٰ بأسلوبه الجذاب إقناع آل حسان بالتحول من أكل الحلبة إلىٰ أكل الرز ، ولم يجد البيض بذكائه اللماح طريقة

أفضل في الإقناع من أن يخبرهم بأن منافسيهم في التجارة من آل باحبيشي قد تحولوا قبلهم إلىٰ أكل الرز ، وما أن سمع آل حسان بهٰذا الكلام حتى اشتروا من البيض كيساً من الرز لتجربته ، ثم قمت شخصياً بتعليمهم طريقة إعداده وتحضيره للأكل ، فأعجبوا به وأحبوه ، وهٰكذا تحولوا معي إلىٰ أكل الرز واللحم ، ولم يعد للحلبة والأكلات اليمنية الأخرىٰ وجود علىٰ مائدتهم .

مع الأخ محمد البيض في إحدى الاحتفالات بأسمرة عام (١٣٦٤ هـ)

مع الأخ محمد باجنيد وبعض الأصدقاء في أسمرة

ثم تعرفت بأسمرة علىٰ كثير من الحضارمة المقيمين بها ؛ منهم الإخوان محمد باجنيد ، وأحمد بن علي بلفقيه ، والجماعة آل باحبيشي وآل عمودي ، وسالم بالعمش وباخشب .

وكان العم حامد المحضار مقيماً في تلك الفترة بأسمرة ، وله بيت كبير وعائلة ، فكنا نجتمع في كل ليلة في بيته للعشاء والسمر ، فتكون بيننا المساجلات الشعرية والنوادر الأدبية ونتحدث في أحوال السياسة بحضرموت والعالم ، وكان العم حامد لا يستطيب الطعام بدون ضيوف ، فكانت مائدته ممدودة للضيوف حتىٰ ولو كان مسافراً خارج أسمرة .

مع العم حامد المحضار وابنه علي والعم علوي الكاف بأسمرة

وعندما استقر العم حامد قبل عدة سنوات في جدة . . بقي علىٰ طريقته ، فكان يتناول عشاءه كل ليلة مع زواره ، وكان العم حامد متحدثاً بارعاً وعالماً أزهرياً متبحراً ، يحمل شهادة العالمية من الأزهر الشريف ، وقد تولى الوزارة القعيطية لفترة قبل أن يعمل الضابط الإنجليزي (انجرامس) علىٰ تنحيته مع زميله في الوزارة المقدم أحمد البطاطي .

كما تولى العم حامد أثناء إقامته بأديس أبابا منصب السفير اليمني بها ، وكان الإمام يحبه ويحترمه ، إلا أن العم حامد بصفته عالماً دينياً وأزهرياً لم تعجبه سياسة الرئيس جمال عبد الناصر الاشتراكية ، فأخذ ينتقد الرئيس عبد الناصر ويختلف ويتجادل مع السفير المصري الذي أبلغ حكومته ، فطَلَبَتْ من الإمام أحمد عزل العم حامد من السفارة ، فعزله الإمام مجاملة لمصر وعبد الناصر .

وكان للجالية العربية بأسمرة نشاط اجتماعي وسياسي هام ، فتعقد فيها المحاضرات والندوات التي يحضرها السفراء العرب ، ويحضر إليها كل من زار الحبشة من الشخصيات العربية ، كما تخرج منها المظاهرات متفاعلة مع ما يدور في العالم العربي من أحداث في تلك الفترة من تاريخه المضطرب .

في إحدى احتفالات الجالية العربية بأسمرة وإلىٰ جانبي الأخ محمد باجنيد

وكان التنافس علىٰ أشده بين الوجهاء والأثرياء بأسمرة علىٰ رئاسة الجالية ، فكانت الانتخابات السنوية للجالية العربية حدثاً مهماً تدور فيه المشاورات

والمناورات السياسية ، وكان المتنافسان الرئيسيان علىٰ رئاسة الجالية في تلك الفترة الشيخان : محمد باخشب ، وأحمد باحبيشي كبير عائلة آل باحبيشي ، وكنت مع الأخ محمد البيض من مؤيدي باخشب ، فلما انتصر علىٰ منافسه أحمد باحبيشي ، وعرف باحبيشي بدوري في الانتخابات . . سعىٰ لدىٰ قرابته من آل حسان لفصلي من العمل ، فاستدعاني الشيخ عبد القادر حسان وهو يبكي ؛ لأنه يحبني ويقدر أمانتي وكفاءتي ، وأخبرني بانتهاء عملي معهم بعد أن أمضيت في خدمتهم ثلاث سنوات ، وهٰكذا فقدت عملي الأول بأسمرة بسبب السياسة .

وبعد أن فقدت وظيفتي التجارية . . عدت إلى التدريس بمدرسة الجالية العربية بأسمرة في الفترة الصباحية ، وفتحت دكاناً خاصاً بي أذهب إليه في

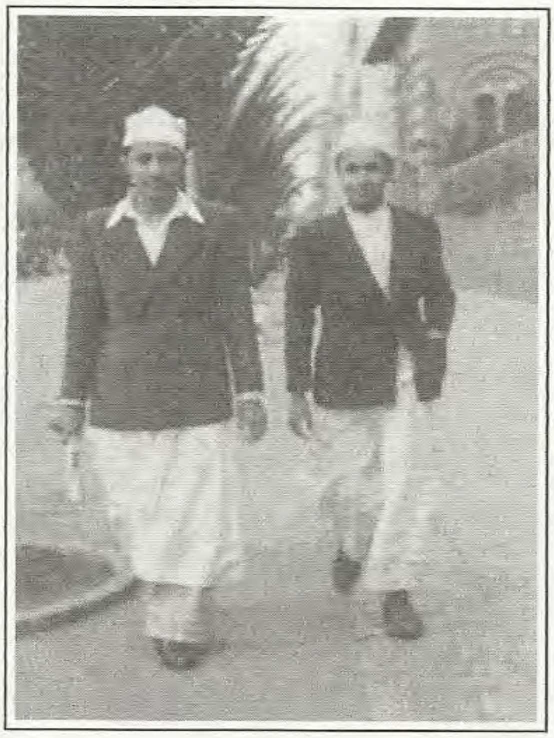

مع الأخ أحمد بن علي بلفقيه زميلي في التدريس بمدرسة الجالية العربية بأسمرة

المساء ، ووضعت مكاني بالدكان من ينوبني في الصباح ، ولم أجد إلا شخصاً حضرمياً يكنىٰ شارلي ، وكان شخصاً مجذوباً ، وكان السيد محمد البيض يزوره في الدكان ليتندر عليه ، وفي إحدى المرات جاء الشيخ محمد باخشب

يسأل عني بالدكان ، ولم أكن موجوداً ، وكان البيض حاضراً ، فأقنع البيض شارلي بإكرام باخشب الذي حضر بنفسه للدكان ، فذهب شارلي ليحضر العصائر والفواكه والكيك ، وذهب باخشب لحال سبيله ، ولما عدت . . وجدت البيض يفترس المائدة التي مدها شارلي علىٰ حسابي .

وقد استمر نشاطي بالجالية العربية ، فتوليت سكرتارية الجالية ، وأشرفت علىٰ عقد الكثير من الندوات والمؤتمرات التي يحضرها الشخصيات والسفراء بأسمرة .

وقد زار السلطان صالح بن غالب القعيطي أسمرة ، فعُملت له الاحتفالات والاستقبالات الكبيرة ، وأنزله باخشب علىٰ حسابه في أحد قصور أسمرة الفخمة ، وكان السلطان يلتقي في كل يوم بأهل ناحية من نواحي حضرموت التابعة له ، أما أنا . . فلم أجتمع به ؛ لأنني من رعايا الدولة الكثيرية .

ألقي خطاباً في أحد احتفالات الجالية العربية بأسمرة

وأتذكر ما حدث في الاحتفال الكبير الذي أقامته الجالية العربية بأسمرة علىٰ شرف السلطان القعيطي ، والذي منح فيه السلطان لقب الباشويّة للشيخ محمد باخشب ، الذي بقي معتزاً بلقبه لآخر حياته ؛ فقد حدث أثناء الإعداد للحفل

خلاف بين الوجيه باخشب وبين شخص يعمل بالنادي يسمىٰ بنطرش ، فيه شيء من الحمق والتسرع ، فهدد بنطرش بإفساد الحفل ، وركب باخشب سيارته ليدوس بها بنطرش . . لولا أن تدخل المصلحون وسويت المسألة بطريقة ودية .

وقام الرعايا القعيطيون بالاحتفاء بسلطانهم ، فأولموا له الولائم العامرة ، فعزمه جماعة من أهل الشحر بمنزل رجل ثري ولٰكنه مبتلىً بمعاقرة الخمر ، فأغلقوا عليه الأبواب حتىٰ لا يصل إلىٰ مكان الاحتفال بالسلطان ، ولٰكنهم نسوا في عجلتهم إغلاق أحد الأبواب الجانبية لمكان الحفل ، فلما انتظم الحضور وبدأ الحفل . . دخل عليهم صاحب البيت وهو في حالة شديدة من السكر ، وذهب رأساً إلى المنصة ليرحب بالسلطان ويقول : هٰذا السلطان عمر بن عوض ، فيصحح الحضور كلامه ويقولون له : هٰذا السلطان صالح بن غالب ، فيصر على الترحيب بجد السلطان ، فضحك السلطان غالب ، وعرف أنه سكران وقال : لقد قال لي علوي العطاس : إن آل أسمرة يشربون (العسلي) وهو نوع من الخمر .

وأخذ السلطان يدعو رعاياه للعشاء في مكان نزوله ، وعين لكل بلد ليلة معينة ، وحضر الأخ محمد البيض عزومة السلطان لأهل الشحر ، وقال لي بأن السلطان سأل الحضور : من أقدمكم هجرة إلىٰ هٰذه البلاد ؟ فقال له شخص : أنا يا سلطان ، فسأله السلطان عن أحوال هٰذه البلاد لما دخلها لأول مرة ؟ فأجاب بأن إيطاليا لما دخلت الحرب . . هدده أحد الطليان بأسمرة بقوله : إننا عندما ننتصر علىٰ بريطانيا . . سنحتل بلدكم اليمن ، وسأخرج إلىٰ حضرموت وسأعتدي علىٰ أسرتك ، ثم قال هٰذا الرجل للسلطان : فلما انتهت الحرب وانهزمت إيطاليا . . ذهبت إلىٰ بيته واعتديت علىٰ أسرته .

وكانت الحياة في أسمرة سهلة ، والأمور المعاشية ميسرة ، وكانت لنا ـ بالإضافة إلىٰ جلساتنا شبه اليومية مع العم حامد المحضار ـ الكثير من النزهات والمناسبات .

فكنا نذهب لمدينة كرن الواقعة علىٰ بعد حوالي سبعين كيلو متر من أسمرة ، وهي مدينة جميلة يقيم بها صديقنا الشهم الكريم خالد باخشب ،

فيستضيفنا بأجمعنا بمنزله لعدة أيام ، ونعيش معه أيام ونحن في منتهى السعادة والانبساط ، وحدث مرة أن اجتمعنا بمدينة كرن وكان معنا صديقنا اللطيف الظريف العم علوي الكاف ، ولما علم أنني ذاهب لحلاقة شعري لدى الحلاق الإيطالي المشهور بمدينة كرن . . استغفلني وسحب محفظة نقودي ، ولم أفطن لما فعل إلا بعد أن انتهى الحلاق الإيطالي من حلاقة شعري ، وأخذ مساعده ينظف ما علق بثيابي من شعر ، ويمسح وجهي بالعطر ، فلما أدخلت يدي في جيبي . . لم أجد المحفظة ، ووقعت في حرج شديد أمام الإيطالي ومساعده وزبائن المحل ، ولما رجعت للبيت . . سلمني العم علوي محفظتي ، ولٰكن بعد أن تصببت عرقاً وخجلاً أمام الحلاق الذي ظن أنني أتهرب من دفع أتعابه .

وقد زار الوالد ابن عبيد الله مدينة كرن ، وأقام فترة بمنزل الشيخ خالد باخشب ، وأعجب بطبيعة كرن الجميلة ، وقد حج الشيخ خالد باخشب مع الوالد بن عبيد الله وحضر الحفلة السنوية التي يقيمها الملك عبد العزيز للحجاج بمنىٰ ، ويقول الشيخ خالد باخشب بأن الوالد ابن عبيد الله بعد أن ألقىٰ خطبته البليغة أمام الملك عبد العزيز ، والتي تفوق فيها علىٰ من سبقه من علماء مصر والشام والعراق . . قال الملك : لله در البلاد التي أنجبتك .

في إحدى الفسح بأسمرة عام (١٣٦٤ هـ)

ومن الطرائف ما حصل بين الأخ محمد البيض وفرّاش نادي الجالية بامعس ، فلم تكن العلاقة بينهما علاقة ودية ، فقام البيض باستثارة عيدروس الحامد ـ وهو رجل قوي ومتسرع ـ علىٰ بامعس ، فلما جاء بامعس وبدأ يرقى السلم . . انتظره عيدروس بأعلى السلم ، ولما اقترب بامعس . . عاجله عيدروس بضربة ذهبت به إلىٰ أسفل السلم وطار طربوشه بعيداً عنه ، والبيض يتفرج علىٰ هـٰذا المنظر ، وهو في منتهى السعادة والتشفي ، وأنشد قصيدة بعد ذلك يصف فيها هـٰذا المنظر ويقول في مطلعها :

ألم تر للطربوش كيف تدحرجا ينبئك أن الرأس بالرجل دحقا

وقد اندهش بامعس من تصرف عيدروس ؛ لأنه لم يكن بين الاثنين أيّ مشاحنات أو سوء فهم سابق ، كما أن عيدروس رجل قوي ، فلم يستطع بامعس الرد الفوري علىٰ هـٰذا الهجوم ، إلا أنه غافل عيدروس بعد أيام وشد رباط عنقه (الكرافته) حتىٰ كاد أن يخنقه .

ألقي خطبة في إحدىٰ الجلسات بنادي الجالية العربية بأسمرة

ولم تحقق تجارتي بالدكان فائدة تذكر ، ولهٰذا فكرت بوسيلة أخرىٰ أتكسب منها ، فطلبت من صديقي بعدن عيدروس الحامد أن يرسل لي بعض الأفلام السينمائية المصرية لعرضها على العرب المقيمين بأسمرة ، وعلى الأريتريين الذين يتكلمون اللغة العربية ، فأرسل لي عيدروس فيلماً مصرياً عرضناه بدار السينما ، ثم تعرفت علىٰ أحد الطليان بالجمرك وكان عمله مراقبة الأفلام وقد بقي بعمله رغم أن الإنجليز قد استولوا علىٰ أريتريا وطردوا منها الإيطاليين ، إلا أنهم أبقوا على الإدارة المدنية الإيطالية ـ ومنها الجمرك ـ وكانت الأشياء في زمن الحرب العظمىٰ وبعدها مرتفعة الأثمان في أسمرة مقارنة بأسعارها المتدنية في عدن ، فاتفقت مع عيدروس الحامد أن يرسل لي من عدن المجوهرات والساعات والأقلام داخل علب الأفلام السينمائية ، واتفقت مع مسؤول الجمرك الإيطالي المشرف علىٰ مراقبة الأفلام علىٰ تمرير المهربات مقابل حصة من الأرباح ، فنجحت الخطة ، وأخذ عيدروس يبرق لي عند إرساله البضاعة ويضع علامة معينة علىٰ علب الأفلام التي تخصنا ، فأتصل بالخواجة ليعزلها ويسلمها لي .

مع صديقي الإيطالي وبنته بأسمرة

وقد كسبنا من هـٰذه الطريقة مكاسب كبيرة ؛ لأن ما يباع في عدن يباع في أسمرة بعشرة أضعافه ، إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان ؛ فقد أرسل عيدروس البضاعة دون إشعاري ، وتصادف غياب موظف الجمرك الإيطالي فقام مدير الإعلام الإنجليزي بمراقبة البضاعة بنفسه ، وفتح علب الأفلام المرسلة لنا . . فلم يجد بها أفلاماً ، ولـٰكن وجدها مكدسة بالبضائع الثمينة ، فعرف أن الموظف الإيطالي ضالع في عمليات التهريب ، فأعاد علب الأفلام لمكانها وانتظر عودة الإيطالي ليحاسبه ، ولما عاد الإيطالي وعرف من زملائه ما حدث . . جاءني ليلاً وهو يرتجف ؛ لأن ما عمله سيؤدي به إلى المحكمة العسكرية ثم طرده من عمله وسجنه ، ولما عرفت بأنه يحمل مفتاحاً لمستودع الإعلام بالجمرك . . كتبت خطاباً بالعربية موجهاً له من عيدروس من عدن يقول فيه بأنه يشكر له استضافته له في أسمرة ، وقد أرسل له هـٰذه الهدايا داخل علب الأفلام عرفاناً منه بجميله ؛ لأنه لا يعرف عنوانه ، وطلبت من الإيطالي أن يذهب فوراً إلى الجمرك ويضعها داخل علب الأفلام ، فإذا فتحها المدير الإنجليزي في الصباح . . لم يجد سبيلاً عليه .

وفي الصباح استدعى المدير الإنجليزي الموظف الإيطالي ، وأحضر علب الأفلام وقال له : افتحها أمامي ، فلما فتحها ووجد بها البضاعة المهربة . . سأله ما تفسيرك لهـٰذا ؟ فقال الإيطالي إن صديقي العربي المقيم بعدن أرسل لي بعض الهدايا ، ولـٰكنه لغبائه أرسلها لي بهـٰذه الطريقة الغريبة ، والتقط الخطاب من وسط البضاعة وقال لمديره : وهـٰذا خطاب منه لا بد وأن يكون قد شرح فيه السبب ، فالتقط المدير الإنجليزي الخطاب وفتحه فوجده مكتوباً بالعربية ، فطلب من يقرأه له ، فوجده مطابقاً لما قاله الإيطالي ، فأسقط في يدي مدير الجمرك الإنجليزي ، ولم يجد سبيلاً لاتهام الإيطالي بالتهريب رغم شكه الشديد ، ولم يستطع إلا تهديده بالطرد لو عاد لمثل هـٰذا العمل .

وهـٰكذا أسدل الستار علىٰ نشاطي في تجارة التهريب من عدن ، فاتفقت مع عيدروس علىٰ طريقة أخرىٰ للكسب المشروع ، فطلبت منه أن يرسل لي

السيارات القديمة من عدن فأستعين بالمهندسين الإيطاليين بأسمرة علىٰ إصلاحها وتسييرها ، ثم أبيعها بأسمرة بأسعار طيبة ؛ حيث إن السيارات بأسمرة نادرة الوجود ، وأثمانها مرتفعة جداً ، وكسبنا بهـٰذه الطريقة المأمونة أرباحاً لا بأس بها .

ولما اقترب شهر رمضان . . طلبت من شريكي عيدروس الحامد أن يرسل لي فلماً مصرياً لعرضه على العرب والأريتريين أثناء عيد الأضحىٰ ، إلا أنه حدث في أول يوم من دخول شهر رمضان المبارك ما لم يكن بالحسبان ؛ فقد ثار الأحباش على العرب بتشجيع علىٰ ما يبدو من الإنجليز متهمين إياهم باستغلالهم والاستيلاء علىٰ ثروات بلادهم ، وخرج الأحباش إلى الشوارع يقتلون كل من صادفوه من العرب ، وذهبوا إلىٰ مناطق العرب بأسمرة يحرقون ويقتلون وينهبون ، ووقعت في العرب المسلمين العُزَّل مقتلة عظيمة ، وكان الجنود البريطانيون يتفرجون من مدرعاتهم علىٰ ما يحدث ، ولا يحركون ساكناً ، وكأن ما يحدث لا يعنيهم من قريب أو بعيد ، مع أنهم مسؤولون عن الأمن في البلاد بعد هزيمة إيطاليا واحتلالهم البلاد ، وقد اختبأ العرب في بيوتهم وهم ينتظرون الموت في كل لحظة ، وكنت أسكن مع الأخ محمد البيض قريباً من بيت باخشب ، فلزمنا بيتنا ودعمنا بابه بما توفر لنا من الأخشاب والقضبان ، ثم شاهدنا جمهرة من الأحباش متجهة إلىٰ بيت باخشب ، ولما وَصلَتْه . . بدأت في إشعال الحرائق بأبوابه ، إلا أن باخشب غادر البيت مع أسرته من بابه الخلفي واتجه مباشرة إلى المطار ، حيث ركب الطائرة إلىٰ جدة ولم يعد إلىٰ أسمرة بعد ذلك أبداً .

وبعد أن أحرق الأحباش بيت باخشب أمام أعيننا . . اتجهوا نحو منزلنا ونحن نشاهدهم ، وقلوبنا تكاد تنخلع من الرعب ، وما هي إلا لحظات . . حتىٰ وصلوا وبدؤوا محاولتهم لخلع باب بيتنا ، ونحن نسمع أصواتهم ونتشهد ، ونتوقع الحرق والموت في أية لحظة فاستعنا عليهم بما نحفظ من الأدعية والأوراد ، وبما وضعناه على الباب من متاريس ، إلا أن عناية الله

صرفتهم عنا لسبب لا نعرفه ، فتركونا فجأة واتجهوا إلىٰ بيت آخر ليحرقوه بمن فيه .

وهٰكذا مرت الأيام الأولىٰ من رمضان على العرب المسلمين وهم في كرب عظيم ومصيبة كبرىٰ ، وغادر بعضهم أسمرة بعد هٰذه الثورة ، وعادوا إلىٰ حضرموت ، واتجه بعضهم إلى السعودية ، إلا أن لقمة العيش اضطرت أغلبهم للبقاء بأسمرة رغم ما حدث فيها من أحداث مرعبة .

ومن الطرائف : أنه زارنا بعد هدوء الأحداث سالم علي وهو من أهل عدن ، وقد عمل مع الإنجليز وأثرىٰ أثناء الحرب ، فزار منزلنا بعد هدوء الأحداث ووصلنا وهو يتقلد سيفاً طويلاً ، وادعىٰ بأنه قد قتل بهٰذا السيف مجموعة من الأحباش ، ولما كان البيض يعرف أن شجاعته لا تصل للقتل . . أخذ السيف ليشمه ، فوجد أن رائحته فواحة بالبصل ، فعرف أن سيفه لم يستخدم في قتل البشر ولا قتل الغنم .

في شارع موسيليني بأسمرة مع عيدروس الحامد في يوم عادي

ولما هدأت ثورة الأحباش وجاء العيد . . قررت مع الأخ محمد البيض الاستمرار في خطتنا لعرض الفيلم السينمائي المصري ، فذهبت معه لدار السينما لتسليم الفيلم وتجربته ، إلا أننا اكتشفنا نسيان بكرة أخرىٰ من بكرات الفلم بالبيت ، فذهبت لإحضارها من البيت ، وما أن مشيت قليلاً في شارع

موسيليني باتجاه البيت . . حتىٰ واجهتني زخات كثيرة من الرصاص ، ثم تزايد إطلاق النار من حولي ، واختفى المارة من شارع موسيليني المزدحم في مثل هـٰذا الوقت من النهار ، ولم أعد أرَ بشراً أو سيارات ، وأغلقت المطاعم والمحلات أبوابها ، وكنت أمشي وزخات الرصاص تمر حولي من جميع الاتجاهات ، فاعتقدت بأن ثورة الأحباش قد اشتعلت من جديد ، وتوقعت الموت في أي لحظة ، ثم رأيت مطعماً إيطالياً مفتوحاً فدلفت إلىٰ داخله بسرعة لأجده مزدحماً بالناس المذعورين .

وعرفت فيما بعد أن جنديين من جنود الفرقة السودانية بالجيش الإنجليزي دخلا الليلة الماضية لإحدى الحانات بأسمرة فتلاسنا مع الأحباش السكارىٰ والمنتشين بانتصارهم على العرب ، فقام الأحباش بالإمساك بهما ، وقتلا أحدهما رضخاً بالحجارة ، بينما نجا الثاني وفر هارباً إلىٰ فرقته ليحكي لهم ما حدث ، وتصادف كون الجندي القتيل شقيقاً لقائد الفرقة السودانية ، فلما علم هـٰذا القائد بما حصل لأخيه . . اشتعل رأسه غضباً وخرج بفرقته السودانية المدرعة للانتقام من الأحباش ، فأخذ يقتل كل من يصادفه منهم في الطريق ، بل وأخذ الجنود السودانيون يدخلون إلى المطاعم والمتاجر والحانات ، ويأخذون منها الأحباش ليقتلونهم .

وحدث أثناء اختبائي بالمطعم الإيطالي أن دق الجنود السودانيون باب المطعم ، وسألوا عن الأحباش بيننا ، وكان معنا خمسة من عمال المطعم الأحباش يرتعدون من الخوف ، فأخذهم الجنود السودانيون فادعوا بأنهم مسلمون ، فأمرهم الجنود بقراءة الفاتحة فلم يعرفوها ، فأخذوهم لخارج المطعم وأطلقوا عليهم النار علىٰ مسمع منا .

وذهبت الفرقة السودانية إلىٰ منطقة سكنية للأحباش بها كثير من البيوت والعشش ، فأطلقوا رشاشاتهم عليها بمن فيها ، وقتلوا من الأحباش المئات .

وهنا أيضاً لم تفعل بريطانيا شيئاً لإيقاف الفتنة ، ولعله منطق المستعمر في

التفريق بين الناس وإذكاء الخلافات النائمة وإشعال الفتن الجامحة ؛ حتىٰ يتمكن من السيطرة والتمكين .

وقد قتل السودانيون من الأحباش خلقاً كثيراً ، وانتقم الله من الأحباش علىٰ فعلتهم بالعرب المسلمين في أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك انتقاماً سريعاً ومريعاً .

* * *

صفقة السلاح مع الإمام أحمد

حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله السقاف

وبعد أن فشلنا في عمليات التهريب التجارية . . عدت إلىٰ عملي المعتاد بالدكان ، ثم اتصل بي بعد فترة أحد الضباط الإيطاليين الكبار ، وأخبرني بأنه يود مقابلتي سراً ، وكان ذلك بعد سقوط الحبشة في أيدي الإنجليز ، فاستغربت هـٰذا الأمر ، ولما اجتمعنا سراً حسب طلبه . . أخبرني بأنه لديه كمية

كبيرة من السلاح يريد أن يبيعها على الإمام أحمد إمام اليمن ، وعرض علي أن أتوسط في بيعها على الإمام مقابل مبلغ كبير من المال ، واتفقنا على الذهاب معاً إلىٰ مصوع حيث مستودع السلاح لأشاهده بنفسي ، وبالفعل ذهبنا معاً ، فوجدت في مستودعه كميات ضخمة من الأسلحة المتنوعة ، وأخبرني باستعداده لشحنها من مصوع وتسليمها لحكومة الإمام في المياه الإقليمية اليمنية حالما تصله قيمتها ، وقد فرحت بهٰذه الفرصة الذهبية التي يمكن أن تجعلني من كبار الأثرياء في فترة زمنية قصيرة ، وكان صهري الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله يقيم في الحديدة ، وله بها دكان لم يحقق النجاح المطلوب ، وكان يزور الإمام بين الوقت والآخر ؛ لكون والده صديق الإمام ، وبحكم إقامته في اليمن ، كما أنه متزوج باليمن من ابنة الشيخ الحضراني .

فقررت لهٰذا السبب الاستعانة به على الإمام ؛ حيث سيتمكن كل منا لو نجحت هٰذه الصفقة من زيادة ثروته بطريقة لم يحلم بها من قبل ، فأخذت صور الأسلحة وسافرت من أسمرة بالطائرة إلىٰ جزيرة كمران أولاً ؛ إذ لم يوجد خط جوي بين أسمرة واليمن ، وهي جزيرة صغيرة جميلة ، يحتلها الإنجليز لموقعها الاستراتيجي الهام ، وبها مندوب سامي ، وكانت تابعة للجنوب رغم أن بينها وبين ميناء بندر عباس اليمني مسافة قصيرة جداً ، ولم أكن أعرف أحداً في كمران ، ولما وصلتها . . احترت إلىٰ أين أذهب ، ورأيت فيها كثيراً من الأشخاص اليمنيين الذين لم أعرف أحداً منهم ، وبينما أنا في حيرتي . . إذ اقترب مني شخص من أصل حضرمي ـ عرفت فيما بعد أنه من آل بايعشوت بن داهل ـ وتعرف علي وطلب أن أنزل ضيفاً عليه ، فذهبت معه إلىٰ بيته ، وكان البيت ـ كبقية بيوت كمران ـ عريشاً به عدد من السرر ، وكانت بيوت كمران كلها من العشش ، وقد ارتحت في هٰذا العريش من تعب الرحلة ، ولما حل الليل . . عرض علي أن أذهب معه لمشاهدة السينما المجانية في بيت المندوب السامي ، فاستغربت من وجود السينما في هٰذا المكان المعزول ، ولٰكنها طريقة الإنجليز في التأثير على الناس وتغيير أفكارهم ،

فذهبت معه وشاهدت السينما بكمران ، وبعد يومين أو ثلاثة . . وجدت سنبوكاً متجهاً إلىٰ بندر عباس في اليمن ، فركبته فأوصلني لبندر عباس ، إلا أنه ميناء ضحل لا يستطيع حتى السنبوك الرسو علىٰ بره ، فكانت طريقة نقل المسافرين من السنابيك إلىٰ بر بندر عباس أن يفرد البحارة أيديهم ويشابكوها ثم يحملوا عليها المسافرين ، فشبك اثنين من البحارة أيديهما مع بعضها البعض وأركبوني عليها حاملاً شنطتي ، وأوصلوني علىٰ هٰذا الوضع إلىٰ شاطىء بندر عباس ، وهناك استأجرت حماراً اتجهت به إلى الحديدة ؛ حيث يقيم الأخ حسن بن عبد الرحمٰن .

ولم أكن أعرف أن المسافة بين بندر عباس والحديدة مسافة طويلة ، ولهٰذا كانت رحلتي علىٰ ظهر الحمار شاقة وطويلة ، ولما وصلت الحديدة . . بحثت عن مكان الأخ حسن الذي لا أعرفه ، فدلني المارة علىٰ مكانه ، وكان يسكن في بنقلة بها غرفة واحدة وحمام .

ولٰكنني لما وصلت بيته وناديت عليه . . لم يجبني أحد ، وأخذت أنادي مرات ولا من مجيب ، فلما طال الأمر . . ارتبت في الأمر ، حتىٰ جاء من يخبرني بأن حسن قد أعرس في هٰذه الليلة ، وأنه الآن متواجد في حفل زواجه ببيت العروس الواقع بأطراف الحديدة .

واستفسرت عن مكان الزواج ، ثم سرت إليه مشياً ، ووصلت لمنطقة بيوتها من العشش ، ولما اقتربت . . سمعت أصواتاً في أحد العشش ، فقصدت إليها ، ولما دخلت . . لمحت الأخ حسن وبجواره زوجته وأقارب زوجته ، فلما رآني . . ارتبك قليلاً ، ولٰكنه قام ورحب بي واستأذن من أهل زوجته ، وأخذني إلىٰ بيته بالحديدة ، حيث سمرنا وتناولنا العشاء ، وكانت تلك الليلة ليلة دخلته ، فأخبرني بأنه سيأخذني إلىٰ بيت أحد أصدقائه لأقضي ليلتي فيها ، ريثما يرتب أموري في الصباح ، وأخذني إلىٰ بيت صديقه الزبيري ، وهو من أهل صنعاء ، ويحضر إلى الحديدة بين الحين والآخر ، فشرح الأخ حسن للزبيري وضعه الحرج ، وطلب منه أن يسمح لي بالمبيت معه لليلة واحدة ،

وأخبره بأنني سآتيه بعد السمر ، وتناول العشاء معه .

وبعد أن تعشيت وسمرت مع الأخ حسن . . تحركت إلىٰ بيت الزبيري قبل وصول العروس ، ولما وصلت لبيت الزبيري وبدأت أنادي عليه . . أطفأ الزبيري السراج الذي كان مضيئاً عند وصولي ، وناديت عليه فلم يجبني ، فأخذت أنادي وأنادي ولا من مجيب ، فوقعت في مشكلة عظيمة ؛ فهٰذا اللئيم لا يريد أن يستقبلني ، وليس لي من مكان آخر آوي إليه ، والدنيا ظلام دامس ، فليس في الحديدة كهرباء ولا أستطيع العودة إلىٰ حسن بعد حضور العروس ، وبينما أنا في هٰذه الحالة الصعبة . . أدركني فرج الله الذي لا يتأخر عن المضطرين ، فمر بي وأنا أنادي على الزبيري في تلك الساعة المتأخرة من الليل شخص يسمى الضوراني ، ولما سمع ندائي المستمر . . جاء إلىٰ عندي ، وسألني الخبر ؟ فأخبرته القصة ، فقال لي : هٰذا رجل لئيم ، وتفضل إلىٰ بيتي ؛ فعائلتي قد سافرت إلىٰ جيبوتي ، وأنا أعمل سكرتيراً لدى السفير الفرنسي ، فطرت فرحاً بهٰذه الدعوة ، وذهبت معه إلىٰ بيته ، ومررنا في طريقنا علىٰ دار السفير الفرنسي ، وكان بيتاً جميلاً وبه ماكينة كهرباء تغذي السفارة وبيت السفير ، وهو البيت الوحيد بالحديدة المضاء بالكهرباء ، ويشرف علىٰ تشغيل ماتور الكهرباء عامل إيطالي .

ولما مررنا ببيت السفير . . عرض عليَّ الضوراني أن ندخل عند السفير الفرنسي ونسلم عليه ونجلس معه قليلاً قبل أن نذهب إلى البيت ، فوافقت علىٰ ذلك ، ودخلنا عند السفير الذي تبين أنه يجيد اللغة الإيطالية ، والتي أجيدها أيضاً ، فجلسنا وسمرنا ، وتعشيت معه عشاء فخماً ، وبعد ذلك ودعته واتجهت مع الضوراني إلىٰ بيته ، وهو بيت من بيوت اليمن القديمة ، تستأجره السفارة للضوراني ولمشرف الكهرباء ، ويسكن الضوراني في الدور العلوي ، وبيته مرتب ونظيف ، وبه السرر المفروشة ، كما أن مطبخه عامر بأطيب المأكولات المتنوعة ، وفيها اللوز والعسل وكل شيء ، وأخبرني الضوراني بأن كل ما في المطبخ هو لك وتحت أمرك فشكرته علىٰ كرمه وأخلاقه ، وسعدت

بذلك غاية السعادة ، ونمت نوماً هادئاً مريحاً في مكان مرتب ونظيف ، وشكرت ربي علىٰ عنايته التي أدركتني في آخر لحظة ، ولولاها لنمت ليلتي تلك في شوارع الحديدة مع الكلاب والسباع .

وفي صباح اليوم التالي جاء طباخ السفير بصينية الفطور ، وبها المربىٰ والزبدة والعسل والكيك ، وأحسست وكأنني في فندق فخم .

ولما استيقظ الأخ حسن في صباح ليلة دخوله . . ذهب فوراً لصاحبه الزبيري ليسأل عني ، فزعم له الزبيري أنه لم يرني ولم يسمع بي ، فانزعج حسن وقال : كيف لم تره وقد ذهب إليك في الليل وليس له من مكان آخر يأوي إليه ؟! فردد الزبيري إنكاره ، وذهب الأخ حسن يبحث عني في كل مكان ، وقد توقعت أن يبحث عني وأن ينزعج من اختفائي ، فذهبت أتحسس عنه ، ووجدته قلقاً علي ، فشرحت له ما صار من الزبيري وما عمله الضوراني ، ثم جلست مع الأخ حسن وأخبرته عن السبب في قدومي الحديدة ، وأطلعته علىٰ صور الأسلحة ، وطلبت منه أن يذهب إلىٰ تعز ويعرضها على الإمام ، وقلت بأن هٰذه الصفقة لو نجحت . . فسنصبح معاً من أصحاب الملايين ، ولن نحتاج بعد ذلك إلى التغرب والسفر ومفارقة بلادنا العزيزة حضرموت .

وحمل حسن صور الأسلحة وعروض الأسعار المغرية التي قدمها الضابط الإيطالي وشرطه بتسليم البضاعة في المياه الإقليمية بعد استلام الثمن ، وذهب لمقابلة الإمام في تعز .

ومكثت بالحديدة في انتظار نتيجة المهمة التي حَمَّلْتُهَا الأخ حسن ، وأنا علىٰ أحر من الجمر ؛ إذ إن نجاح هٰذه الصفقة سيغير مجرىٰ حياتي كلياً ، وسأتمكن من العودة لبلدي وأهلي وأولادي بحضرموت .

وتصادف في هٰذه الأثناء وجود صديقي العزيز العم حامد بن أبي بكر المحضار في الحديدة ، وكان ذلك بعد أن أعفاه الإمام من منصب السفير بالحبشة ؛ بناء علىٰ طلب من مصر واستدعائه إلى اليمن ، وكان السيد حامد

وهو العالم الأزهري لا يوافق سياسة الرئيس عبد الناصر الاشتراكية ، فكان دائم الاختلاف مع السفير المصري بالحبشة ، مما دفع السفير المصري إلى الشكوىٰ إلىٰ حكومته ، وكان الإمام يجامل الرئيس عبد الناصر ، فطلبت مصر إبعاد العم حامد من السفارة ، وحقق لهم الإمام أحمد طلبهم .

وقد خفف وجود العم حامد علي قلق الانتظار ، وسعدت بوجوده ، كما سعد هو بوجودي ، وقضينا معاً عدة أيام بالحديدة ونحن في منتهى الأنس والانبساط .

ثم عاد الأخ حسن وأخبرني بأن الإمام وافق علىٰ شراء السلاح ، بشرط أن يدفع الثمن بعد وصول الأسلحة لمخازنه في الحديدة ، وهـٰذا ما لا يمكن أن يوافق عليه الضابط الإيطالي الذي لن يطمئن علىٰ حقوقه إذا أصبحت أسلحته في مخازن الإمام .

وهكذا فشلت هـٰذه الصفقة الخيالية ، وتبخرت أحلامنا في الثروة والغنىٰ ، فودعت الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن والعم حامد المحضار ، وعدت أدراجي إلىٰ أسمرة مروراً بتعز ثم عدن بعد أن فشلت صفقة السلاح .

* * *

قصة التهريب الفاشلة

من اليمين لليسار أحمد بلفقيه ثم عيدروس الحامد
زميلي في التهريب ثم محمد باجنيد ثم أنا بأسمرة

ولما فشلت صفقة الأسلحة مع الإمام قررت العودة إلىٰ أسمرة عن طريق عدن ، فاتجهت إلىٰ تعز ، ومكثت بها أياماً وتقابلت أثناء وجودي بها بشخص من عدن اسمه سالم علي ، سبق أن قابلته بأسمرة ، وكان قد أثرىٰ من تعامله مع الإنجليز أيام الحرب العظمىٰ ، رغم أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فطلب مني سالم علي أن أكتب له عريضة يقدمها للإمام أحمد بطلب فتح سينما بتعز ، وقال في مسوغات طلبه بأنه يهدف من فتح السينما إلىٰ تثقيف الشعب ، إلا أن الإمام أحمد المعروف بذكائه ودهائه . كتب علىٰ طلبه بالموافقة علىٰ

فتح السينما علىٰ أن يكون الدخول بالمجان ما دام أن الغرض تثقيف الشعب .

وهكذا حزم سالم علي أمتعته عائداً إلىٰ عدن ، وكانت معه سيارة لاندروفر جديدة وسائق متمرس بالطريق ، فانتهزت هٰذه الفرصة ورافقته إلىٰ عدن ، واستمرت السيارة تطوي بنا الطريق حتىٰ وصلنا عدن بعد منتصف الليل ، فوجدنا المدينة غارقة في النوم ، ولا يتحرك في شوارعها إنسان أو حيوان .

واتجه سالم علي بسيارته إلىٰ بيته ، وقام وخرج من السيارة ، ودخل بيته دون أن يلتفت نحوي أو ينطق بكلمة تفضل ، ولم يسألني أين سأذهب في هٰذا الليل البهيم والمدينة النائمة ، واحتار السائق معي وقال : إلىٰ أين ستذهب ؟ ففكرت في الذهاب إلىٰ بيت صديقي العم علوي بن بو بكر الكاف ، رغم معرفتي بأنه سيكون وأولاده غارقاً في النوم في هٰذا الوقت المتأخر من الليل .

ولٰكني لم أجد مكاناً آخر أقصده ، فذهبت لبيت العم علوي الكاف الذي يقيم فيه مع أولاده وبدون عائلة .

ولما وصلت . . وجدت باب البيت كما توقعت مغلقاً ، وكل من في البيت نيام ، فوضعت شنطتي على الأرض وصعدت فوقها إلىٰ كوة فوق الباب دخلت منها ، ثم فتحت الباب ، وأخذت شنطتي وصعدت إلىٰ سطح البيت حيث ينام أبناء العم علوي ، وأخرجت من شنطتي فرشي وغطائي ونمت بين أولاد العم علوي الثلاثة .

وفي الفجر صعد العم علوي لإيقاظ أولاده الثلاثة للصلاة فوجدهم أربعة ، فأخذ يعدهم ويكرر عدهم واحد اثنين ثلاثة أربعة ولا يعرف من أين جاء الرابع ، وفي هٰذه الأثناء رفعت غطائي عن وجهي . . فعرفني العم علوي ، فعانقني ورحب بقدومي .

ويتمتع العم علوي الكاف بروح لطيفة ، وهو صاحب نكتة وذوق سليم ، وقد نزلت ببيته في زيارات سابقة ، كما اجتمعت به عدة مرات بأسمرة .

وفي اليوم الثاني لوصولي عدن ذهبت لزيارة صديقي وشريكي التجاري بعدن السيد عيدروس الحامد ، فقابلته وشرحت له ما حصل بالحديدة وتعز ،

فخفف عني فشل صفقة السلاح وشجعني أن أصطحب معي إلىٰ أسمرة مجموعة من الساعات الرخيصة الثمن بعدن والباهظة الأثمان بأسمرة ، مما سيعوضني عن فشلي السابق .

وكان الأخ عيدروس يتحدث معي وإلىٰ جواره شخص من المحاضير أخبرني بأنه من موظفي الجمرك بميناء مصوع الحبشي ، وقد وعد الأخ عيدروس بأنه سيتولىٰ تسهيل دخول البضاعة حال وصولي لجمرك الميناء .

فراقت لي الفكرة واشتريت مجموعة كبيرة من الساعات ، وضعتها داخل لحاف من ألحفتي ، وخطت عليها خياطة محكمة ، وسافرت بالباخرة من عدن إلىٰ مصوع معتمداً علىٰ بركة الله ومعونة المحضار بالجمرك .

ولما وصلت ميناء مصوع ودخلت الجمرك . . أخذ مفتش الجمارك الإيطالي يقلب أمتعتي ، ثم أمسك باللحاف فوجده ثقيلاً فأخذ يقلبه مستغرباً من زيادة وزنه ، وكان المحضار إلىٰ جانبه يرمقني ، فكنت أغمز له بطرف عيني وهو يطمئنني ، ثم فتح المفتش الإيطالي لحافي وأخرج ما به من الساعات ، والمحضار ثابت في مكانه لا ينبس ببنت شفة ، وانتهىٰ بي الأمر إلى الإيقاف والمحاكمة، ووقعت في مشكلة كبيرة ، ولم ينفعني المحضار ولا غير المحضار .

وقبل عرضي على المحاكمة تفاهمت مع مفتش الجمرك الإيطالي بأن يقول في أقواله بأنه وجد صعوبة في التفاهم معي لجهلي باللغة الإيطالية ، ودخلت المحكمة العسكرية للجيش الإنجليزي في الموعد المحدد لها ، وكان يرأسها ضابط عربي من سوريا ، أحسست بتعاطفه معي من أول وهلة ، كما ساعدتني شهادة الإيطالي بعدم معرفتي بالإيطالية على الحصول على البراءة ، ولٰكن مع مصادرة الساعات .

وقد دفعتني هٰذه المشكلة وما سببته لي من خسارة فادحة إلى التخلي عن أي رغبة لكسب العيش بهٰذا الطريق ، طريق التهريب ، واتجهت بعد ذلك إلى التركيز علىٰ أعمالي التجارية .

* * *

العودة لحضرموت وقصة الطائرة

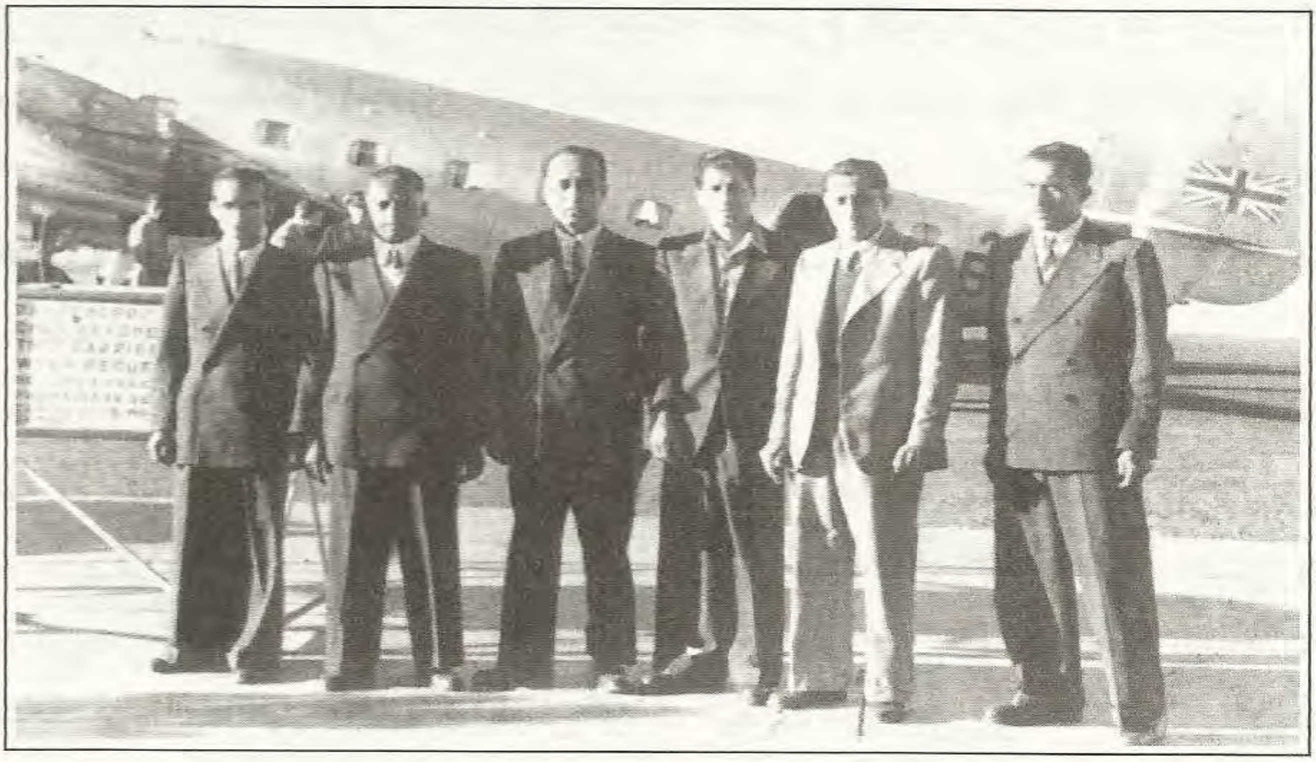

في مطار أسمرة لوداع المؤرخ صلاح البكري

وبعد أن قضيت بأسمرة سبع سنوات . . قررت العودة إلىٰ حضرموت ، فأنهيت ارتباطاتي التجارية وعلاقاتي المالية ، وودعت الأصدقاء والزملاء ، وسافرت من أسمرة إلىٰ عدن علىٰ طائرة خطوط عدن الجوية .

وقد نزلت في عدن ضيفاً علىٰ بعض الإخوان من آل العمودي ، ومكثت في عدن عدة أيام ريثما اشتريت بعض الهدايا ، ثم حجزت مقعدي من عدن إلىٰ سيؤن علىٰ طائرة خطوط عدن الجوية ، وهي طائرة داكوتا صغيرة بمحركين ، ولما وصلت في يوم السفر إلى المطار . . وجدت أن ما حملته من عفش يزيد علىٰ ما يسمح لي بأخذه ، فتركت عفشي الزائد بعدن ، وركبت الطائرة وأنا مشتاق لأهلي وعائلتي بحضرموت .

وكان معي في هـٰذه الرحلة مجموعة من المدرسين السودانيين الذاهبين لأول مرة إلىٰ حضرموت .

وقبل أن نصل إلىٰ مطار الغرف بسيؤن حصلت بالطائرة بعض الاهتزازات القوية ، ثم أعلن قائد الطائرة عن توقف أحد المحركات ، وأنه سيضطر للعودة إلىٰ مطار عدن ؛ حيث لا توجد إمكانية فنية لتصليحه بسيؤن ، ونظرت من شباك الطائرة إلى الجبال العالية والوديان السحيقة وإلىٰ طائرتنا التي تترنح في الهواء علىٰ محرك واحد . . فانتابتني في تلك الساعات العصيبة الكثير من المشاعر والأحاسيس ، وتوقعت أن تسقط الطائرة في أي لحظة من اللحظات علىٰ جبل من جبال حضرموت وينتهي الأمر قبل أن أصل إلىٰ أهلي وأولادي ، والذين لم أرهم منذ فترة طويلة ، إلا أنني والحمد لله تنتابني في اللحظات العصيبة رباطة جأش وهدوء وطمأنينة وإيمان عميق بأنه لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا .

جبال وادي حضرموت كما تبدو من الطائرة

غير أن أحد المدرسين السودانيين علىٰ هٰذه الرحلة أصيب بحالة هستيرية عنيفة ، فصار يتحرك داخل الطائرة حركات غير طبيعية ، ويذهب إلىٰ جهة النافذة ثم يعود إلى النافذة الأخرىٰ ، ثم يحاول إخراج رأسه من النافذة فيصدمه الزجاج ، وهٰكذا والطائرة تهتز والمضيف يطلب منه ومنا الالتزام بالهدوء والجلوس بالمقاعد وربط الأحزمة ، واستمر الحال علىٰ هٰذه الصورة لمدة ساعة حسبناها سنة ، حتىٰ وصلنا فوق عدن ، فقام الطيار الإنجليزي بعدة محاولات للهبوط حتى استطاع أن يهبط بالطائرة بسلام .

وبعد أن هنأنا موظفو المطار بسلامة الوصول طلبوا منا العودة في صباح اليوم الثاني لمواصلة الرحلة ، وهٰكذا عدنا في اليوم الثاني وانتهزت الفرصة فأخذت ما بقي من أغراضي وشنطي ، وذهبت بها إلى المطار وشحنتها معي بكل سهولة ويسر ، وانطلقت بنا الطائرة مرة ثانية إلىٰ مطار الغرف بسيؤن مع المدرسين السودانيين وزميلهم الذي استمرت عليه علامات الاضطراب والقلق ، ووصلنا سيؤن بسلامة الله ، ووجدت أهلي وأولادي في استقبالي .

أما المدرس السوداني الذي تأثر بحادثة الطائرة . . فلم يمكث بسيؤن إلا فترة بسيطة عاد بعدها إلى السودان بعد أن فقد عقله في حضرموت .

* * *

الاستقرار بحضرموت والمشروع الزراعي والصناعي

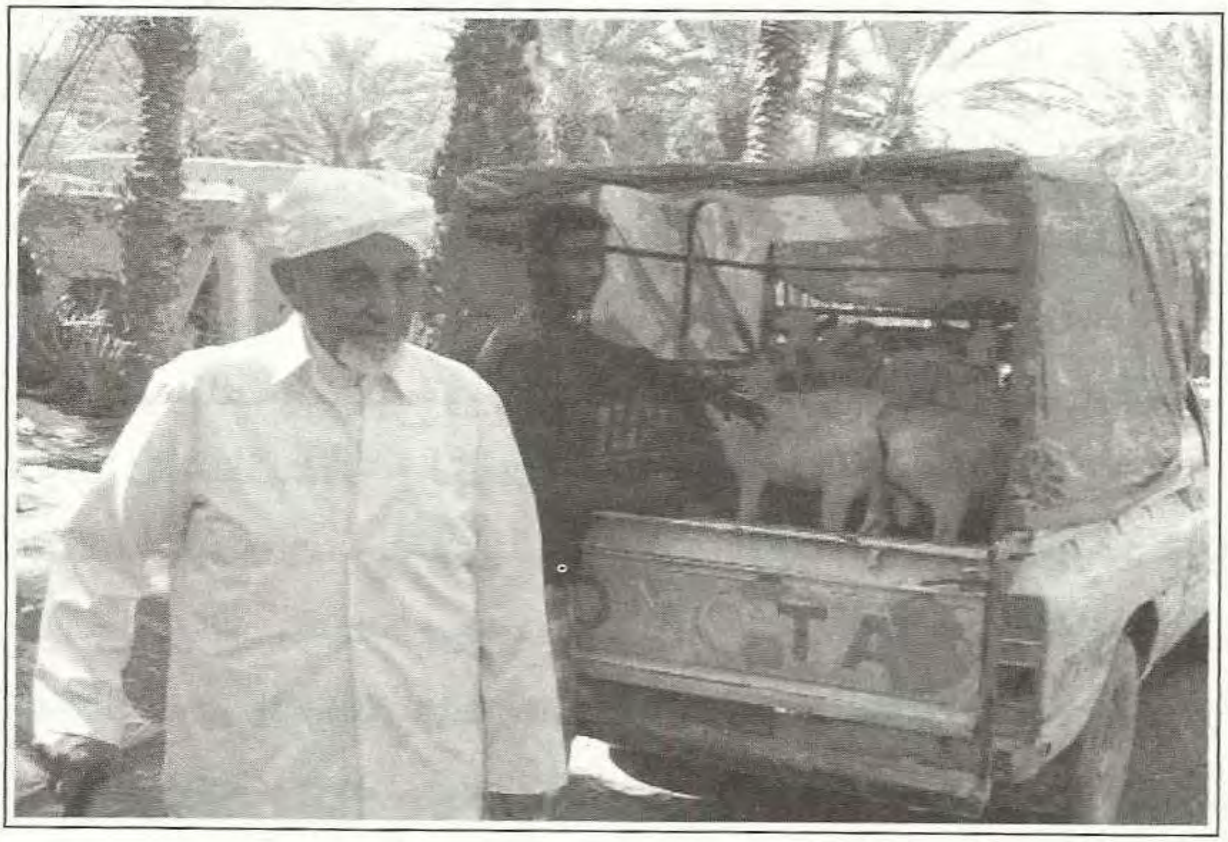

بعد أن استقر بي المقام في حضرموت بعد سبع سنوات قضيتها بأسمرة . . بدأت أبحث لنفسي عن عمل ، وأذكر أنني حضرت بعد وصولي من أسمرة بأيام مع العم علي بن عبد الله جلسة قراءة البخاري في بيت الحبيب محمد بن هادي السقاف ، وجلس إلى جوارنا شخص من المشايخ من أهل تريم معروف بجذبه إلا أنه له مع ذلك الكثير من الحكم والعبارات البليغة ، ولم يكن يعرفني ، فسأل عني العم علي ، فأجابه بأن هـٰذا ابن أخي علوي وأنه عاد لتوه من السفر ، فقال له الشيخ : هل بدأتم تهبطونه أم لا ؟ ولما لم يعرف العم علي مقصده . . قال : إن المسافر إذا وصل يكون كالعلب المثمر يجمع الدوم من تحته ، فإذا مرت عليه فترة . . بدؤوا يهزونه ليسقط منه الثمر ، فإذا مرت عليه فترة أطول بدؤوا في تهبيطه ؛ أي : ضرب فروعه بالعصي ليسقط ما بقي عليه

من ثمر . ومن حكم هٰذا المجذوب أنه ذهب مرة إلى السلطان حسين بن علي الكثيري فلقيه خارجاً من الحصن ، فبدأ يكلمه ، فقال له السلطان : ليس الآن ؛ فأنا مشغول ؛ فأمسك بيد السلطان وأشار إلى المقبرة القريبة من الحصن وقال : انظر يا سلطان إلى أصحاب هٰذه القبور فإنهم كلهم ماتوا ولديهم أشغال لم ينتهوا منها . . . فانتظر حتى تسمع مني .

وحيث إن الشيء بالشيء يذكر ؛ فقد قال لي العم علي بأنه قابل هٰذا المجذوب بعد انتهاء السلطنة الكثيرية ، وتولي الحزب حكم البلاد وتنكيله بالسادة العلويين ، فقال المجذوب للعم علي : شف نحن أهل حضرموت كأننا عصا كان في رأسها السادة وفي أسفلها العمال ونحن المشايخ في الوسط ، فجاء الحزب وقلب العصا ، وجعل العمال في رأس العصا والسادة في أسفلها أما نحن المشايخ فلم نتأثر ؛ لكوننا بوسط العصا فبقينا على حالنا .

ثم بعد أن مكثت في حضرموت عدة أشهر أعلنت الحكومة البريطانية المسيطرة علىٰ حضرموت عن برنامج أسمته برنامج المضخات الزراعية (البمب سكيم) ؛ لتشجيع الزراعة بوادي حضرموت ، وقامت حكومة بريطانيا بإحضار المضخات الزراعية ، وأسست ورشة لصيانتها بسيؤن جلبت لها المهندسين من عدن والهند ومن أماكن أخرىٰ ، ووضعت علىٰ رأسهم المهندس الألماني قولتنباخ ، كما عينت من سيؤن المهندس حسن بن شيخ بانقيل .

وأعلنت الحكومة أنها ستعطي كل من يريد أن يزرع مضخة ماء وسلفة بدون فوائد ، مقدارها ثلاثة آلاف شلن ، وعليه أن يزرع ويسدد ما عليه بالتقسيط نقداً أو من المحاصيل الزراعية ، ولمواسم الزراعة بحضرموت نجوم مخصصة لزراعة المحاصيل يعرفها الفلاحون منذ القديم ، منها البلدة والحوت والمرزوم والزبرة ونطح وسهيل وبطين ، ويقول الفلاحون في أهازيجهم :

لا كان بغيت الحرث يا بن يعشوت

شتاك بالبلدة وبرك الحوت

والصيف بالزبرة ياللي بغيت القوت

ويزرع البر والذرة في نجم الشتاء ، وتزرع الذرة الصيفية في نجم الصيف ، والذرة الصيفية هي الأجود .

وعندما زرع أحد السادة براً في غير وقته قال عنه الفلاحون :

السيـــد الجفـــري عـــديـــم لشـــوار   ســـيـــب شتـــاويـــه ويعفـــر ابـــرار

وقد قررت الاستفادة من هٰذا البرنامج الحكومي ، فأسست شركة زراعية انضم إليها والدي والوالد ابن عبيد الله والعم علي بن عبد الله والثري عبد القادر كريسان، كما أشركنا حسن بن شيخ بانقيل بصفته مهندساً نحتاجه لصيانة المكائن.

وبعد استلام المضخة الزراعية وقرض الثلاث آلاف شلن من الحكومة. . بدأنا المشروع الزراعي (ببير زين) ، وهي بير تقع في وسط سيؤن تابعة لآل بانقيل ، فزرعناها بالمحاصيل من البر والذرة ، وحققنا إنتاجاً زراعياً طيباً وأرباحاً لا بأس بها ، رغم بعض المشاكل التي اعترضت طريقنا بسبب موقع الأرض ومساحتها الصغيرة ، فسبب توسط مزرعتنا لمدينة سيؤن تعرضها الدائم لاعتداءات الحمير والجمال والأغنام المتجولة في الشوارع ، مما سبب لنا بعض الأضرار المادية ، كما قللت مساحة الأرض من حجم الإنتاج .

وبعد أن أمضينا بمزرعة بير زين سنة كاملة. . أدركنا أن هٰذه البير لا تتناسب مع طموحاتنا ، فبدأنا البحث عن موقع جديد لمشروعنا الزراعي الطموح ، وبدأت القيام بنفسي بجولات استكشافية للمناطق الزراعية المجاورة لسيؤن ؛ بحثاً عن الأراضي الجيدة المناسبة للمشروع .

ووصل بي البحث إلىٰ منطقة مدودة القريبة من سيؤن ، والمشهورة بخصوبة أراضيها ووفرة مياهها ، وبها الكثير من الأراضي الغابة ـ كما يسميها الفلاحون ـ وهي الأراضي التي تعرضت للشمس منذ زمن طويل ولم تستخدم بعد في الزراعة .

فوجدت بعد فترة من البحث والاستكشاف ما أريد ، وتعرفت علىٰ عدد من الأراضي الواسعة ذات المياه الغزيرة ، وحيث لا يتجاوز بعد الماء عن سطح

الأرض سوى المترين ، وكانت أغلب هٰذه الأراضي مهملة ، وبعضها يزرع زراعة بسيطة وبأساليب قديمة غير مجدية ، وتروىٰ بطرق الري البدائية التي يسميها أهل حضرموت بالسناوة .

وقد وقع اختياري علىٰ بير (حويلاة) الواقعة في أطراف مدودة ؛ حيث إنها واسعة جداً ، ومياهها قريبة من سطح الأرض ، ويملكها أحد الأعيان من عائلة آل مليباري .

وقد بحثت عن صاحبها واتفقت معه على المخابرة الشرعية لمدة محددة ، مقابل خمس صافي الإنتاج السنوي ، مع شروط أخرىٰ معروفة في المخابرات الشرعية ، ثم وثقت بيننا وبينه المواثيق .

واتفقت مع العمال المقيمين بعوائلهم بالمزرعة منذ سنين طويلة ، فاتفقت معهم على العمل معنا والقيام بالذري والسقيا وتشغيل المكائن وشرح السنابل من الطيور ، والمسؤولية الكاملة عن كل شيء ، مقابل تسع صافي الإنتاج .

كما اتفقنا معهم علىٰ تشغيل عمال إضافيين بالأجرة اليومية عند زيادة العمل والتوسع في مساحة الأرض المزروعة ، وكان ذلك الاتفاق اتفاقاً مجزياً لجميع الأطراف ، وناجحاً بجميع المقاييس التجارية .

وَخَفَّفَتْ هٰذه الترتيبات عن كاهلنا الأعباء المالية ، فلم نكن ندفع نقداً إلا للعمال الإضافيين الذين نستخدمهم عند الحاجة ، ويصل عددهم في بعض الأحيان لخمسين أو ستين عاملاً .

كما نعطي البقار الذي يحرث الأرض أجرته من محاصيل المزرعة ، ونعطيه كذلك العكضة ، وهي شجيرات تطلع من جذور العمل ، وتستخدم لإطعام البقر .

أما المفيشين الذين يكسرون كتل الطين . . فيستلمون أجرتهم من الوصر وقت الحصاد ، ولا ندفع لهم مالاً .

وهكذا بدأ مشروعنا الزراعي الكبير بمدودة ، وبلغ إنتاجنا الزراعي في

السنة الأولىٰ ألفاً ومئتي قهاول من البر ، بما يساوي مئة وعشرين كيساً ، وبكل كيس مئة مصرا من بر مدودة المشهور بجودته ، والذي يقال عنه بأنه يخبز وطر - أي : أن ما تبقىٰ من العجين السائل يمكن أيضاً خبزه - وهي ميزة يتميز بها بر مدودة عن غيره من أنواع البر الأخرىٰ ، كما يختلف بر مدودة عن بر سيؤن في الشكل ؛ فبر مدودة فاتح اللون وله حبة صغيرة وعريضة ، ولونه يميل للحمرة ، ويختلف عن بر سيؤن الطويل الحبة المحمر اللون .

وشجعنا النجاح الذي حققناه بمزرعة حويلاة على المزيد من التوسع في المشروع ، فطلبنا من الحكومة مضخة أخرىٰ ، وامتطيت دابتي ورحتُ أبحث عن الأراضي الزراعية الأخرى المناسبة للمشروع .

فوصل بي سيري إلىٰ حصن آل مليباري ، الذي يبعد عن مدودة حوالي النصف ساعة ، ووقع اختياري على البير المسماة (بير وبر) ، وتعود ملكيتها لآل مليباري أيضاً ، وكانت أرضها غابة من القديم ، ومساحتها شاسعة ، ولم يكن أصحابها موجودين ، فاتفقت مع وكيلهم المسمىٰ سعيد بنفس اتفاقنا مع أهل مدودة ، وبدأنا الزراعة في الأرض الجديدة بنفس طريقتنا وأسلوبنا الذي طبقناه في البير الأولىٰ ، وحققنا في هـٰذه البير نتائج تفوقت علىٰ ما حققناه في بير حويلاة ، وساعدنا علىٰ تحقيق ذلك مساحة الأرض الكبيرة ، وتربتها الخصبة الخام ، فأنتجت لنا براً تفوق علىٰ بر حويلاة وذرة شتوية جيدة ، وكنا نحصل منها في الشتاء علىٰ حوالي ألف ومئة قهاول بر ، وسبع مئة قهاول ذرة بما يساوي سبعين كيساً ، وبكل كيس مئة مصرا من الذرة ، كما نحصل في الصيف علىٰ ست مئة قهاول ذرة .

وللزراعة في حضرموت كما ذكرت سابقاً ثلاثة مواسم ، يسميها أهل حضرموت بالصروع ، ويحقق كل منها نتاجاً زراعياً وفيراً ، وكان بهـٰذه البئر كوت قديم لآل مليباري ، كانوا يستخدمونه في الأيام الماضية عندما تستعر الحرب بينهم وبين القبائل الأخرىٰ ، فاستفدنا من هـٰذا الكوت وأسكنا به مشرفاً

على المزرعة استقدمناه مع زوجته من سيؤن ، واتفقنا مع عمال بير وبر بنفس اتفاقنا مع عمال بير حويلاة .

وقد شجعتنا النتائج التي تحققت في البير الجديدة علىٰ مزيد من التوسع في المشروع ، فركبت دابتي وذهبت أبحث مرة أخرىٰ عن المناطق الصالحة للتوسع في مشروعنا الزراعي ، وانتهىٰ بي البحث إلىٰ منطقة بعيدة بها بير مناسبة تسمىٰ (باحلوان) ، وهي لجماعة آخرين من آل مليباري ، وكانت هٰذه البير أفضل وأوسع من آبارنا السابقة ، فاستأجرتها بمخابرة شرعية مماثلة لاتفاقاتنا السابقة ، والتي أصبحت بنودها معروفة لجميع الملاك ، وطلبنا من الحكومة مضخة ثالثة لهٰذه المزرعة الجديدة ، وبدأنا في تهيئتها للمشروع ، إلا أن صاحب هٰذه الأرض وهو الشيخ محمد عامر بن مليباري رئيس قبيلة آل مليباري اشترط أن يشاركنا مع أخيه عبد الله في المشروع ، فوافقنا علىٰ طلبه ، فأصبح من الشركاء الذين يتقاضون نسبتهم من الأرباح إضافة إلىٰ ما يحصل عليه من المخابرة الشرعية .

وكنت بصفتي المسؤول الأول والوحيد عن جميع الشؤون الفنية والمالية والإدارية لهٰذا المشروع الزراعي الضخم أتقاضىٰ ٥ ٪ من الأرباح إضافة إلىٰ سهمي في الشركة .

وفي أيام الحصاد نحصد البر ونضعه في الوصر ، وهو مكان فسيح يمحض بالطين وتوضع به سنابل القمح في مكان يسميه الفلاحون بالمدومة ، ثم نحضر الجمال والحمير ونربط بها الجذوع الكبيرة فتتحرك بالجذوع على السنابل وتدوسها حتىٰ تنفصل الحبوب عن سنابلها تماماً ، وبعد ذلك يقوم نساء الفلاحين بنشر الحبوب في الجو ليطير القشر وتبقى الحبوب ، فإذا صفيت المدومة جمعنا ما فيها من الحب ووضعناه في حفرة ممحوضة الجوانب ، جهزناها لهٰذا الغرض ، ثم إذا امتلأت هٰذه الحفرة بالحبوب . . نقوم بكيلها وقياسها وتعبئتها في الأكياس .

في زيارة حديثة لمزرعة والدي بعبد الملك بسيؤن

ثم انتقلت مع عائلتي للسكن بمزرعة الوالد المسماة (عبد الملك) ؛ لكونها أقرب إلىٰ مدودة من سيؤن ، مما يمكنني من متابعة المشروع في مدودة رغم كونها مزرعة نائية ومعزولة في تلك الأيام ، وكنت أسير علىٰ دابتي في كل ليلة من عبد الملك إلىٰ مدودة لأفاجىء العمال في مزارعنا بمدودة وأشعرهم برقابتي المستمرة وأسير في الليل البهيم بصحبة كلب أسود أسميته (عكّار) ، ولا أعود إلىٰ عبد الملك إلا في ساعة متأخرة من الليل ، وقد تربىٰ (عكّار) في مزرعة عبد الملك وخصاه فلاح عبد الملك ؛ لأنه يعتقد بأن الكلب إذا خصي في مزرعة لزمها ولم يفارقها بعد ذلك أبداً .

وكنت أستفيد من الكلب عكار فائدة كبيرة ، فحال ما يبدأ فلاح مزرعة عبد الملك بتهيئة دابتي للرحيل حتىٰ يبدأ عكار بالاستعداد للسفر ويدور حول الدابة حتىٰ أتحرك بها ، فإذا تحركت . . سبقني وسار أمامي يستكشف الطريق لمسافة طويلة ؛ فإذا اطمأن للطريق . . عاد وصحبني إلى المكان الذي وصله من قبل ، ثم يعود فيسبقني مرة أخرىٰ ليستكشف مسافة أبعد ، ثم يعود إلي ، وهٰكذا كان يفعل طول الطريق حتىٰ أصل بدابتي سالماً إلىٰ مدودة .

وكان الطريق يأخذ مني على الدابة حوالي الساعة ، والدنيا ظلام دامس ، ثم أعود آخر الليل في حراسة عكّار ، وإذا وصلنا إلىٰ مزرعتنا الأولىٰ في مدودة . . وقف عكار بعيداً عن الوصر احتراماً للكلاب المسؤولة عن حراسة الوصر ، فيبقىٰ في مكانه يراقبني ولا يتحرك ، حتىٰ أبدأ في ركوب الدابة فينطلق معي إلى البير الأخرىٰ بنفس الطريقة التي شرحتها سابقاً .

وكنا نزرع من البر والذرة ثلاث صروع ـ أو مواسم ـ فنزرع البر في أول الشتاء ، والذرة في آخر الشتاء ، كما نزرع الذرة في الصيف .

ثم قررنا عدمَ الاقتصار في زراعتنا على البر والذرة وزراعةَ الأصناف الأخرىٰ ، فقررنا أن نزرع بين الصروع دخن وشبرم ، وهو الذي يعرف أيضاً بالكزبرة ، وحقق لنا الشبرم مبالغ كبيرة تفوقت علىٰ دخل الصروع السابقة ، ثم زرعنا مسيبلي وهو أشبه بالقمح ، إلا أنه مائل للسواد ، كما زرعنا مساحات واسعة بالخضار والدّبا والقوطة والبصل ، ومساحات واسعة أخرىٰ زرعناها برسيم ، واتفقنا مع أهل مدودة علىٰ توصيل البرسيم للبيوت بشكل يومي ، فكان لكل بيت من بيوت مدودة حصة يومية (سبار) من البرسيم ، واشترينا دابتين واستأجرنا ولدين لتوصيل البرسيم يومياً لمنازل مدودة ، ويتم دفع الحساب في آخر الشهر ، وكنا نزرع مئتين إلىٰ ثلاث مئة مطيرة بصل ، ويأتينا التجار من دوعن والمكلا وغيرها من المناطق بسياراتهم لشراء البصل ، فيحددون المطر التي يريدونها ويدفعون ثمنها مقدماً ، ثم يأتون علىٰ فترات لقلع ما يريدون من البصل بأنفسهم ، ويشحنونه بسياراتهم ، ويذهبون لبيعه بمناطقهم ، ثم يعودون لأخذ ما تبقىٰ من المطر حسب رغبتهم .

و من مزايا البصل أنه لا يتعفن طالما بقي في الأرض ، حتىٰ ولو مرت عليه سنة ، أما إذا قلع . . فإنه يتعطن مع مرور الوقت .

كما يأتينا التجار وأصحاب المخابز لمدودة ليشتروا منا الأكياس الكثيرة من

البر والذرة ، وكنا نأخذ لبيوتنا ما نحتاجه من الحبوب ، ونخزن ما يكفينا لسنتنا من البر والذرة .

وفي اعتقادي أنه بقليل من الاقتصاد يمكننا الاكتفاء في معيشتنا بحضرموت علىٰ ما نحصل عليه من الحبوب من مدودة وما جاورها ، وما يتوفر لنا من التمر من مزارعنا في عبد الملك والبصرة وبلمر وبما نبيعه من فائض الإنتاج لشراء الأغراض الأخرى التي نحتاجها .

وكنا نستخدم السماد الطبيعي في تسميد الأرض ، وتولى الوَلَدان المكلفان بتوصيل البرسيم لبيوت مدودة جمع السماد الطبيعي من البيوت في طريق عودتهم للمزرعة .

ثم وقعنا في مشكلة كبيرة ؛ فقد نضب السماد الطبيعي بمدودة ولم نجد مصدراً آخر لتزويدنا به ، ولا يمكننا الاستغناء عن السماد بأي حال من الأحوال ، ثم انحلت هـٰذه المشكلة بطريقة لم أكن أتصورها ؛ فقد تعرفت علىٰ شخص بسكرتارية الدولة الكثيرية يسمىٰ عبد الله السوداني ، ونشأت بيني وبينه صداقة بحكم ترددي على السكرتارية لدفع أقساط القرض والمكائن ، فلما علم عبد الله السوداني بمشكلتنا مع السماد . . ذكر لي أنهم يعملون في السودان سماداً أشبه بالطبيعي بطريقة معينة شرحها لي ، فقمت بتطبيق هـٰذه الطريقة في مزرعتنا بمدودة ، فحفرنا حفرة كبيرة بالمزرعة وطلبنا من العمال أن يلقوا بهـٰذه الحفرة بكل ما معهم من نفايات وخرق وأوراق وجذوع ، حتىٰ قاربت الحفرة على الامتلاء ، وبقي بينها وبين السطح خمسة وعشرون سنتمتراً ، ثم طمرناها بالتراب ما عدا الخمس سنتمترات القريبة من السطح ، وقمنا بعد ذلك بريها بالماء كل يوم ، ولمدة ستة أشهر ، ثم فتحنا الحفرة بعد ذلك فوجدنا المكونات قد تفاعلت بفعل الحرارة والماء واتحدت وصارت مسحوقاً أسود اللون ، فأخذنا منه حاجتنا من السماد ، وسمدنا به المزرعة ، فأعطىٰ نتائج تفوقت علىٰ نتائج السماد الطبيعي ، واستغنينا بهـٰذا السماد الصناعي عن السماد الطبيعي .

ومرت خمس سنوات حققنا فيها نجاحاً متواصلاً في مشروعنا الزراعي ،

وسددنا قيمة المضخات بالكامل ، وأصبحت ملكاً لنا ، وكسبنا نقوداً ، كما ملأنا بيوتنا بما يكفينا من الحبوب للعام كله .

و كنت أحصل علىٰ نصيبي من الشركة إضافة لما أحصل عليه منه من نسبة لكوني المشرف والمخطط والمتابع اليومي لكل شؤون المشروع ؛ حيث لم يكن لبقية الشركاء دور مباشر في إدارة المشروع ، ولهـٰذا فقد جمعت مبلغاً طيباً من المال تمكنت به من بناء بيتي بسيؤن ، كما زوجت بنتي من هـٰذا الدخل .

وقد سعد الوالد علوي والعم عبد الرحمـٰن بن عبيد الله بما حققناه من نجاح ، ومن الطرائف : أن الوالد ابن عبيد الله أحب أن يمازحنا في إحدى المرات ، فأرسل ابنه الأخ حسن لمراقبة المشروع ، فقام حسن بعدّ المُطر وما بها من السنابل وحسب عائدها ـ قيمتها ـ دون اعتبار لما يمكن أن يموت وما يأكله الطير وما تستهلكه الآفات ، مما دفع بشريكنا ابن مليباري إلى المجيء إليّ في الصباح ليخبرني بأن السيد حسن بن عبيد الله قائم بإحصاء المُطر ليحاسبنا ، فقلت له : لا تهتم ؛ لأن الوالد ابن عبيد الله لا يقصد إلا المداعبة ، وهـٰكذا كان .

كما حصل أن ابتاع العم بو بكر بن شيخ منا بعض الشبرم الغالي الثمن ، ثم تأخر في دفع قيمته ، ولما قدم إلىٰ بيتي بسيؤن شريكنا بالمشروع ابن مليباري والذي يتنقل علىٰ حصان . . انتهزت هـٰذه الفرصة واستعرت حصانه وأرسلت أخي حسين علىٰ هـٰذا الحصان ـ لأن الخير معقود بنواصي الخيل ـ لمطالبة العم بو بكر بما عليه ، فدفع لنا حسابنا ، ونجحت مهمة حسين .

كما كنت أقوم في هـٰذه الفترة بتربية الأغنام في مزرعة الوالد بعبد الملك ، فأشتري الأغنام الضعيفة من البدو بخمسة عشر شلن للرأس الواحد ، ثم أقوم بتسمينها بمزرعة عبد الملك فتسمن وتتوالد وتتكاثر ، ثم أبيع الرأس الواحد بعد ذلك بثلاثين شلن .

تتميز سيؤن بأغنامها المليحة ذات الطعم اللذيذ

وفي مرة زارني من دوعن صديقي السابق بأسمرة محمد باجنيد ، فوصل لبيت الوالد فلم يجدني ، فذهب ليزورني بعبد الملك ، فوصل مع استعراضي اليومي لأغنامي ، فاندهش باجنيد من كثرة الأغنام وجودتها ؛ لأن الأغنام لا تتوفر لهم بسهولة في دوعن وما جاورها .

وقد أقام العم بو بكر بن شيخ الكاف عزومة علىٰ شرف باجنيد الذي يحب المظهر ويدّعي معرفة كل شيء ، فتعددت أصناف الطعام علىٰ سفرة الأكل ، وذاق باجنيد الكروبو الجاوي لأول مرة ، فأعجبه ، فسألني عنه ونحن علىٰ سفرة الأكل ، فأخبرته بأنه يخبز ، فتكلم باجنيد وسأل العم بوبكر : هٰذا الكروبو كيف تخبزونه يا عم بوبكر ؟ فضحك عليه الحاضرون وعرف أنني أوقعته في مقلب ؛ حيث أن الكروبو يأتي جاهزاً ويحضر بالقلي .

وكنا لا نقتصر على العمل في المشروع الزراعي ، بل نستمتع بأوقاتنا في نفس الوقت ، فبنينا غرفة مفتوحة الجوانب نسميها (المبرد) نتظلل تحتها من الشمس ، ونستريح فيها من العمل ، كما نقيم بها الفسح والجلسات الترويحية ، وإذا جاء وقت الحصاد ـ وهو ما يسميه الفلاحون الوصر ـ نقيم بالمبرد عشاء كبيراً ندعو له جميع من نعرف من الأصدقاء والمعارف ، ونذبح لهم ونقدح ، ونجلس معهم في المبرد ونسهر طول الليل في أنس وبسط

وانشراح ، ونوقد الكهربانات طول الليل ، ويحضر معنا من أصحابنا الحبيب عبد القادر بن أحمد ، والعم عبد القادر الروش ، والأخ سالم باحبيشي ، وأبو علوي ومعنا السيد أحمد بن عمر السقاف المعروف بالصنبل ينشدنا ويطربنا بصوته في الوقت الذي يتولىٰ فيه عمال المزرعة أمر الحصاد .

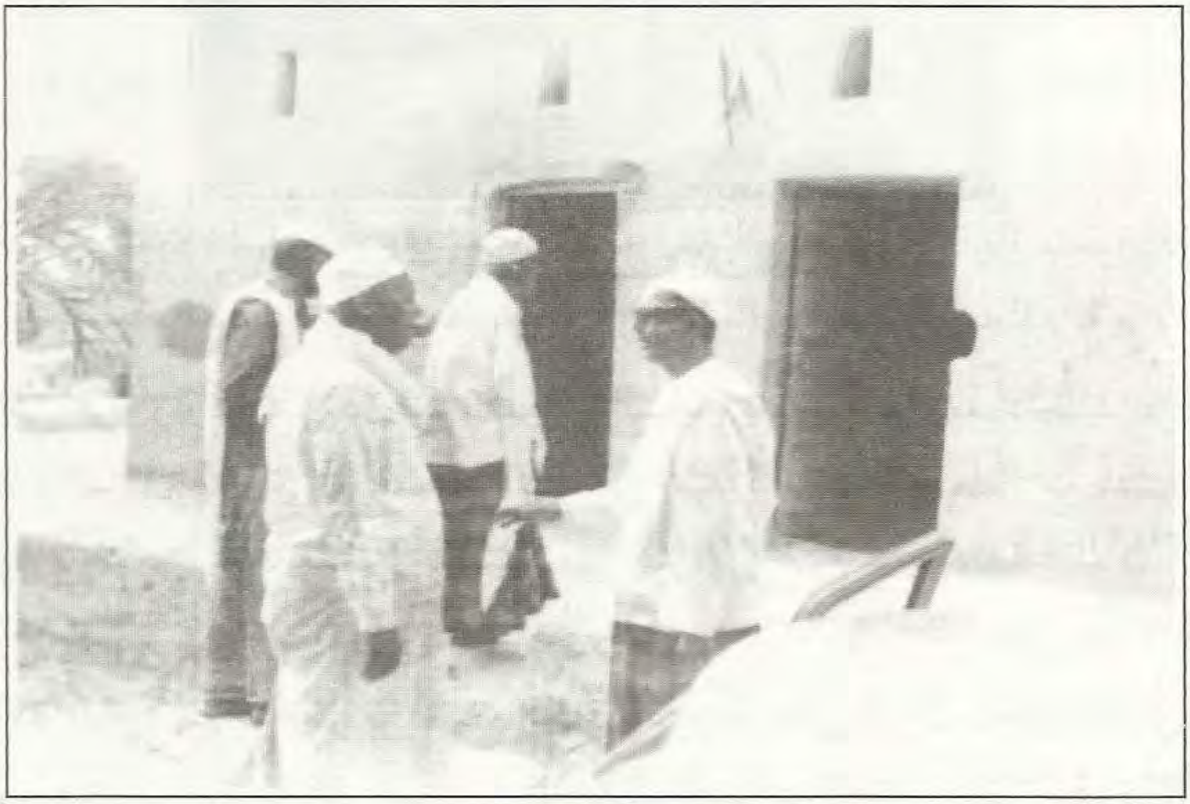

أبو علوي والعم علي في إحدى الفسح بالمشروع الزراعي

ومن شركائنا في المشروع عبد الله سالم باحميد ، ورغم نحافته وضعف بنيته . . فإنه ينزل إلىٰ مستودع الحبوب بالحفرة ويقوم بكيل الحب ووضعه بالأشولة (الجواني) ، ثم يسلمها لشخص بجانبه يرفعها إلى الأعلىٰ ؛ ليستلمها منه عامل آخر ، ويعطيهم شوالاً آخر ليملأه ، وكلما استلم العمال منه شوالاً . . خاطوه ونقلوه وهٰكذا ، وكان عبد الله باحميد يكيل بنفسه أكثر من ألف ومئتي قهاول ، وكان متحمساً للعمل ، ولا يحب أن يساعده أحد ، رغم أنه يعمل تطوعاً بدون مقابل ، وكان يكيل طول الليل ولا يتعب ولا يسأم ، ونحن مع الحبايب في أنس متصل وانبساط تام ، وعندما يحين موعد العشاء يجتمع العمال والضيوف في المبرد لتناول العشاء .

وفي إحدى المرات زرعنا ذرة صيفية ، وكان هٰذا الصرع من أنجح الصروع بجميع المقاييس ، وجاءت نتائجه أكثر مما توقعناه ، ولما كان صباح الجمعة خرجنا من سيؤن إلىٰ مدودة لحصاد الذرة ، ولما وصلنا مزرعتنا بمدودة . . وجدنا سنابل الذرة ممتلئة بالحبوب علىٰ أحسن ما يكون ، وكأنما ينطبق عليها الوصف القرآني ﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ فطلب منا الفلاحون البدء في الصراب ، فطلبنا منهم الانتظار لحين الانتهاء من صلاة الجمعة ، ولٰكننا لما عدنا من الصلاة . . وجدنا المزرعة مغطاة بأسراب من الجراد المنتشر ، وقد حجب الشمس من كثرته وهو يتنقل بين المزارع والآبار ، ولحركته دوي الريح العاصف ، وأكل الجراد في فترة قصيرة كل ما في مزرعتنا من الأخضر واليابس ، ولم يترك لنا حبة واحدة من الذرة في أي سنبلة من السنابل ، واختفت سبع مئة قهاول من الذرة الصيفية الجيدة في لحظات ، فسلمنا أمرنا للمولى القدير ، واعتبرنا ما حصل عقوبة لنا من الله لشيء اقترفناه ونسيناه ، أو تقصير قصرناه ، وبعد رؤيتنا لهٰذا المنظر المحزن . . نفضنا ثيابنا ورجعنا إلىٰ سيؤن بخفي حنين ، بعد أن خسرنا في لحظات خسارة فادحة .

ولم نهتم لأمرنا قدر اهتمامنا بما علينا من التزامات للعمال والحراثين والبقار والمفيشين ، فوعدناهم بتسديد حقوقهم من الصرب القادم ، ولم يكن بإمكانهم إلا القبول والتسليم بعد أن رأوا بأعينهم ما حدث لمزرعتنا .

وقد تعود العم علي بن عبد الله علىٰ مرافقتي بعض الأحيان في رحلتي اليومية إلىٰ مدودة ، فذهبت معه مرة راكباً دابة والدي القوية الضخمة ، وهو علىٰ دابته الصغيرة الرشيقة ، ومعنا الشيخ بو عوض باسلامة ، وهو رجل ظريف وصاحب نكتة ، وهو من أهل مدودة الذين سكنوا سيؤن ، ولما وصلنا المسيال الذي يفصل مدودة عن سيؤن . . وجدناه يجري بماء السيل ، ولم يكن بسيؤن أو مدودة آثار لمطر ، إلا أن هٰذا المسيال يستقبل السيول القادمة من مناطق دوعن وأعالي وادي حضرموت ، فترددنا في عبوره ، ثم توقعنا أن يكون الماء ضحلاً فعزمنا علىٰ عبوره ، فخاضت

دابتي الماء بسهولة وخرجت منه سالمة ، وأما دابة العم فوصلت لوسط المسيال ثم انغرزت رجليها في الطين ، وتوقفت عن الحركة ، وخلفها باسلامة يخوض الماء برجليه ، فصاح العم علي علىٰ باسلامة أن شد بذيل الدابة ، فشد باسلامة الدابة من ذيلها ، فانغرزت رجليه في الطين وأصبح الوضع حرجاً وخطيراً ، وبذل باسلامة جهداً حتىٰ تمكن من إخراج الدابة من المسيال ، ولما عبر المسيال. . نفض ثيابه وقال : أيش هـٰذا ؟ تعبنا مع رئيس بلدية مدودة ولـٰكن رئيس بلدية سيؤن أتعبنا أكثر ، وكان العم علي حينها رئيساً لبلدية سيؤن .

وكان الشيخ عبد الله بن سالم باسلامة رئيساً لبلدية مدودة ، ولم تكن علاقته ودية مع بوعوض ، وكثيراً ما يحصل بينهم الاختلاف .

ومن الظواهر الغريبة التي شاهدتها أثناء تفقدي للمزرعة ولم أستطع تفسيرها إلى الآن. . أنني كنت في إحدى المرات أتفقد المزرعة بعد صلاة الفجر ، ومع شروق الشمس اشتعلت بعض أوراق الشجر بالنار واحترقت ، ولم أستطع معرفة السبب لذلك .

ومن الأشياء الطريفة خلال هـٰذه الفترة أن شخصاً بمدودة من آل باحميد اشتهر بضخامة الجسم وقوة البنية ، وكان الناس يخافونه لعسفه وجهله ، ولم يكن له من عمل إلا دابة يتركها في حال سبيلها فتحمل من الحمير ، فيبيع ما تلده ، ويعيش من هـٰذا الطريق ، وكان يقول بأن رزقه من ذكر الحمار ، وقد ادعىٰ علينا بعض القراريط في بير حويلاة ، وعمل لنا بعض المعاكسات ، وأتعبنا حتىٰ أرضيناه .

واستمرت شركتنا الزراعية في نجاح متواصل خمس سنوات وسددنا جميع القروض الحكومية وحققنا أرباحاً طيبة ، ثم ظهرت أطماع أصحاب المزارع ، فطالبوا باسترجاع آبارهم ، وتعللوا بأنهم سيزرعونها مع أولادهم ، ولم نستطع إقناعهم في مواصلة الاتفاق ، فاضطررنا لتسليمهم آبارهم ، وبعنا عليهم المضخات والمعدات الزراعية ، وانتهت بهـٰذا شركتنا الزراعية بعد أن ربحنا منها أرباحاً كبيرة ، ولم نعرف شيئاً بعد ذلك عن هـٰذه الآبار ، إلا أنه بلغني أن

آل بير حويلاة فشلوا مبكراً ولم يستطيعوا الاستمرار في مشروعهم .

وقد علمتني تجربتي الزراعية في حضرموت أن الاهتمام بالزراعة والإخلاص فيها وإدارتها الإدارة الجيدة يمكن أن توفر الغذاء الكافي لسكان وادي حضرموت ، بل يمكن أن يصدروا للخارج كميات كبيرة من الخضار والحبوب والأعلاف .

ولا بد أن أذكر هنا أن بعض الأشخاص قد استلموا المكائن وقرض الثلاث آلاف شلن دون رغبة حقيقية في الزراعة ، وعندما حل موعد سداد الأقساط . . لم يستطيعوا السداد ، وانتهىٰ بهم الأمر إلى السجن .

ومن الطريف أن والد أحدهم حاول جمع التبرعات لإخراج ابنه من السجن ، وفي مرة أقام آل الكاف عزومة في سيؤن بمناسبة زواج الحبيب علوي المحضار علىٰ مخلفة السيد عبد الرحمـٰن بن شيخ الكاف ، وقد حضرها الوالد ابن عبيد الله ، ففكر والد المحبوس في أن هـٰذه الفرصة مواتية لجمع التبرعات لولده ؛ حيث سيحضر جميع آل الكاف الأغنياء هـٰذه العزومة ، ولما انتظم المجلس . . تحدث الرجل عن ابنه المسجون وأنه أخطأ ويحتاج المساعدة ، ثم بكىٰ في المجلس ، فقال له الوالد ابن عبيد الله على الفور : خلاص ، توقف عن البكاء ؛ فقد حولت العزومة إلىٰ مأتم ، فسكت ، ثم استمر الوالد ابن عبيد الله في إدارة الجلسة علىٰ طريقته الخاصة .

كما حدث في نفس الجلسة أن دخل الحبيب حامد بن شيخ الحبشي ، وكان قد هاجر إلى الشرق الأقصى ، وعاش في الفليبين ما يقارب الأربعين سنة ، وكان معزوماً لهذه المأدبة ، فدخل والوالد ابن عبيد الله يتحدث ، فلما رآه . . توقف الوالد ابن عبيد الله عن الكلام وقال : يا مرحباً بحامد ، متى وصلت يا حامد ، ولماذا لم تزرني إلى الآن ؟ ثم قال لنا بأن السيد حامد هو الذي علمه ربط عمامته هكذا ، ثم نزع عمامته وقال : تعال يا حامد وعممني مرة أخرى ، فقام الحبيب حامد وعممه مرة أخرى كما علمه ذلك من أربعين سنة .

وكنت أعمل خلال هـٰذه الفترة سكرتيراً للجنة المزارعين بالمنطقة ،

وكانت تصلني شكاوى المزارعين من تلاعب المهندسين في قطع الغيار ، حتىٰ وصلني في أحد الأيام أحد المزارعين من منطقة قبلية بعيدة ، وقد أرشده لمنزلي وحضر معه محمد فرقز ، وقد اشتكىٰ لي هـٰذا الرجل مر الشكوىٰ من فساد المهندسين وتلاعبهم إلىٰ حد أنهم يأخذون قطع الغيار الجيدة من المكائن ، ويكلّفون المزارع بشراء بدلها ، ثم يأخذون القطع الجيدة المستعملة ويركبونها للآخرين ويقبضون ثمنها .

ثم دعا المستشار (بوستيد) إلىٰ مؤتمر عام لكافة المزارعين والمسؤولين لمناقشة ما يعترض المشاريع الزراعية من عراقيل ، وكان مؤتمراً حاشداً كبيراً ، حضره جميع مأموري المناطق بأمر المستشار ، حتىٰ إن سكرتير الدولة القعيطية السوداني (القدّال) لم يتخلف عنه ، وقد وقفت في هـٰذا المؤتمر وعرضت ما وصلني من شكاوىٰ عن المهندسين ، وفصلت كلامي مما أغضب المهندس الألماني قونتباك المسؤول الأول عن الورشة والمهندسين ، فوقف يعترضني ، ولـٰكنني فندت كلامه ، وكان الشيخ القذال وهو شخصية دبلوماسية يتدخل في الحديث ويحاول التوفيق فيما بيننا ، وبعد انتهاء المؤتمر وذهاب المستشار والمسؤولين . . استوقفني الأخ هادون العطاس ، وكان مأموراً في منطقته ، وامتدح خطابي وجرأتي ، ولـٰكني استدعيت بعد أيام إلىٰ مكتب المستشار للتحقيق ، وكان المكتب يعج بالضباط والجنود والموظفين الإنجليز ، فطلبوا مني إثبات التهم التي أوردتها في خطابي ، فأخبرتهم بزيارة المزارع القبيلي لبيتي وما ذكره لي بحضور محمد فرقز ، فاستدعى المستشار محمد فرقز للشهادة ، إلا أنه قال بأنه لم يسمع شيئاً ، وقد تألمت من موقف فرقز المتخاذل الذي ربما أدىٰ إلىٰ مضرتي ، إلا أن لجنة التحقيق قررت الانتقال إلى القطن لمقابلة المزارع القبيلي الذي تحدثت عن مشكلته في خطابي ، فذهبت معهم إلى القطن ومعنا فرقة من الضباط والجنود لتخويفي ، وكأنني متهم يساق للتحقيق ، ثم قابلت اللجنة هـٰذا المزارع القبيلي الشجاع ، فأعاد علىٰ مسامعهم كل ما ذكره لي عن فساد المهندسين ، ولما تأكدت اللجنة من صدق كلامي . . صمتت عن الموضوع ، ولم

يبحث فيه أحد بعد ذلك ، وقد طلب مني الناس أن أتقدم إلى المستشارية لأسأل عما تم في التحقيق ؛ لأحرجهم بعد تصرفهم معي ، إلا أن شهادة فرقز وامتناع المزارعين المتضررين عن مساندتي . . أحبط آمالي ، فصرفت نظري عن هٰذا الموضوع .

وبعد بيع المكائن وتسليم الآبار لأصحابها بقيت بلا عمل ، ففكرت في مشروع الطاحونة لطحن الحبوب ؛ حيث إن أهل حضرموت يتكبدون مشقة كبيرة في طحن الحبوب ، ويستخدمون لذلك الرحىٰ ، فتجلس المرأة على الرحىٰ ساعات طويلة لتطحن كمية بسيطة من الحبوب ، كما تتفاقم المشكلة في الأعراس والمناسبات ، حيث تزيد الحاجة لطحن كميات كبيرة من الحبوب في وقت قصير ، فأجريت الاتصالات اللازمة بمن أعرف بالسعودية واشتريت طاحونة شحنت إلىٰ حضرموت ، ولما وصلت الطاحونة . . أسست شركة للطاحون ، تكونت مني ومن الأخ حسن بن شيخ بانقيل بصفته مهندساً نحتاج لخبرته ، وآخرين ، وكان ذلك في العام (١٣٧١ هـ) ، وقد فكرت أن أضع الطاحون في دكان بمنطقة البلاد ، ثم وجدنا بأن المكان المناسب للطاحون في وسط السوق ؛ لأن البدو يأتون إلىٰ سيؤن ويشترون كميات كبيرة من الحبوب ، ويبحثون عمن يطحنها لهم .

ووقع الاختيار علىٰ غرفة بجوار حصن السلطان القبلي بوسط السوق ، ووجدنا أنها مناسبة جداً للطاحون ، فأدخلت بدر بن عبد الله الكثيري ابن صاحب الحصن في شركتنا ، وأعددنا هٰذه الغرفة لتركيب الطاحون ، ولما وصل الطاحون وتم تركيبه . . بدأ المشروع ، وصادف بدايته زواجاً في بيت الحبيب محمد بن هادي السقاف ، فانتهزنا هٰذه الفرصة وأعلنا أننا سنقوم بطحن دقيقهم بالمجان ، ووفرنا عليهم مشقة كبيرة ، كما كسبنا دعاية طيبة ، ثم طحنا البر مجاناً لأختي نور ، إلا أنها نشرت دعاية غير مشجعة ؛ حيث ذكرت بأن للطحين طعم القاز ، مع أن مكينة الطحن يحركها سير ممتد من مكينة بعيدة من الطاحون .

وقد نجح مشروع الطاحون وتقاطر علينا الناس بحبوبهم لطحنها ، وحققنا من المشروع أرباحاً طيبة ، ثم فكرت بعد ذلك في إضافة الرضاخة إلىٰ مشروع

الطاحون ؛ حيث يطعم أهل حضرموت أغنامهم الرضيخ ، وهو نوى التمر بعد تكسيره ونقعه بالماء ، ويتكبدون في دقه وتكسيره مشقة كبيرة ، فاشتريت من المدينة المنورة رضاخة شحنت إلىٰ حضرموت ، وركبت بموقع الطاحون ، وحققت الرضاخة نجاحاً كبيراً وأرباحاً طيبة ، وهٰكذا دخل الطاحون والرضاخة إلىٰ حضرموت لأول مرة في هٰذا المشروع الصناعي الحديث .

ثم بدأت التوسع في مشاريعي الصناعية ، فبدأت التحضير لمصنع الثلج ، والمنجرة الأوتوماتيكية ، ولم يكن الثلج والماء البارد متوفرين بحضرموت ، إلا لكبار الأغنياء ، أما غالبية الناس فتستخدم القِرب الجلدية لتبريد الماء .

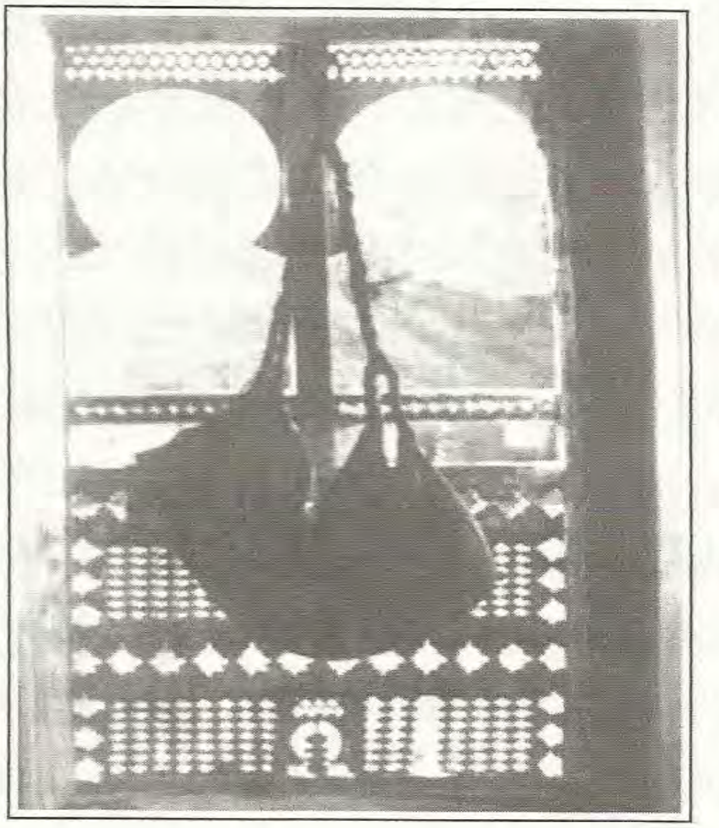

طريقة تبريد الماء بحضرموت قبل افتتاح مصنع الثلج

كما لم يعرف أهل حضرموت طرق النجارة الحديثة ، وكان النجار المشهور بازياد يجلس أياماً طويلة ليصنع باباً واحداً أو شباكاً واحداً بطريقته اليدوية ، ولهٰذا فقد كانت البلاد بحاجة ماسة لهٰذين المشروعين ، فأسست شركة المنجرة ومصنع الثلج ، وفيها من الشركاء العم علي بن عبد الله والأخ طه بن محمد

السقاف ، كما أشركت الأخ عمر بن قاضي في مشروع المنجرة ؛ لخبرته السابقة بالسعودية في المناجر الحديثة ، ونظراً لضخامة المشروع . . فقد خصصنا له قطعة أرض (بعبيدان) ، وهي تابعة لآل بانقيل ، ولا زالت المنجرة باقية في مكانها هـٰذا إلى اليوم .

وقد استوردنا الأجهزة والمعدات اللازمة لمصنع الثلج والمنجرة من الخارج ، وحضر المهندسون لتركيبها وتشغيلها ، وبدأ الناس في سيؤن يشاهدون قوالب الثلج البللورية لأول مرة ، وأصبح الماء البارد في متناول الجميع ، كما بدأت المنجرة في صناعة الأبواب بالطرق الحديثة ، وأصبحت تنجز من الأبواب المحكمة في اليوم الواحد ما ينجزه النجار الماهر بازياد في سنة كاملة ، ونجح المشروعان نجاحاً باهراً ، واستمر مصنع الثلج يعمل لفترة من الزمن ، ثم توقف عن العمل ، أما المنجرة فلا زالت تعمل في نفس المكان إلى اليوم ، بعد أن بيعت على الشيخ عمر بن قاضي ، وأعتقد أنه طوّرها ووسع عملها .

* * *

بداية قصة المرض

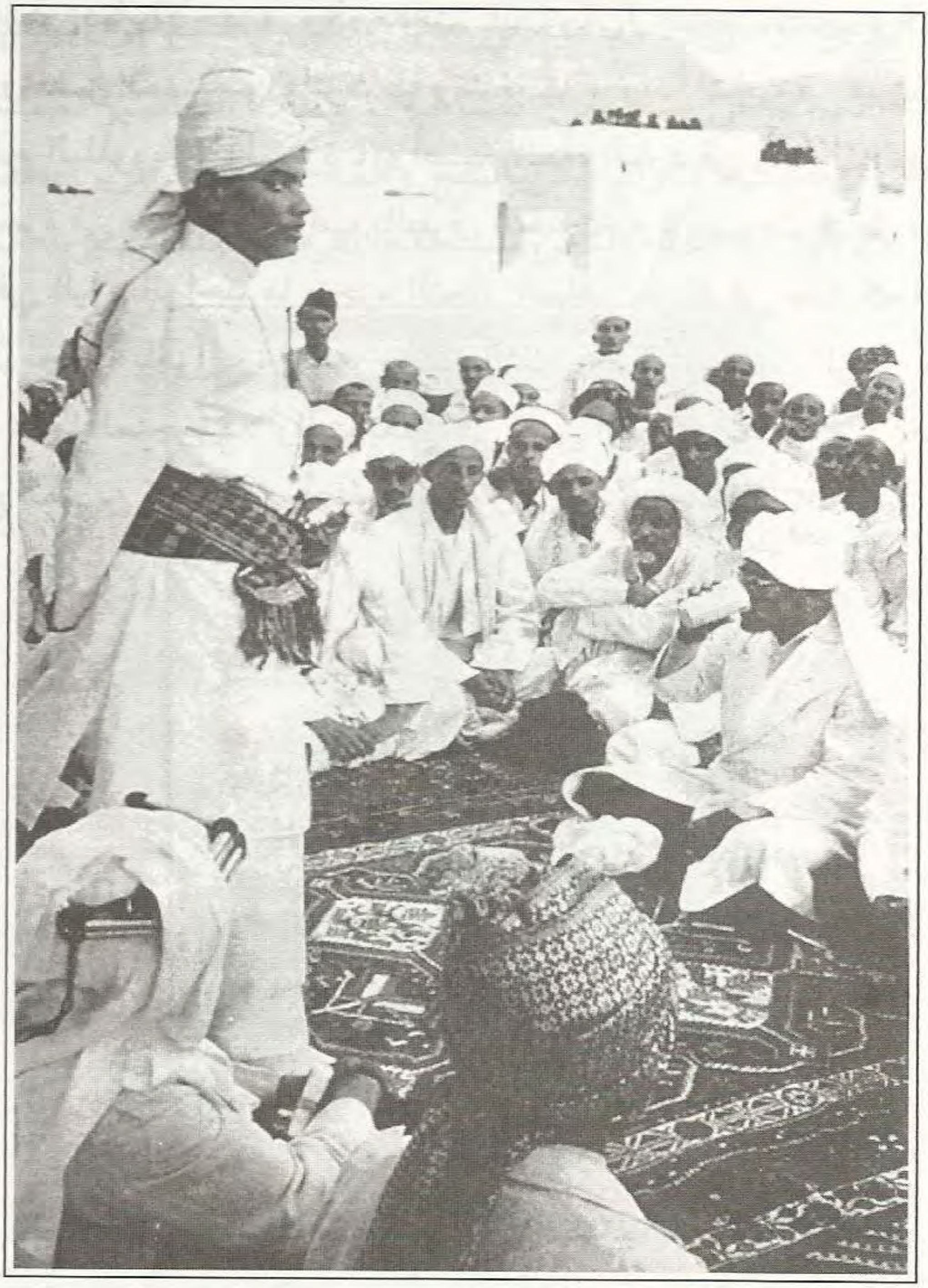

السلطان علي عبد الكريم يخطب في حفل آل كثير بالحوطة، وإلىٰ جواره السلطان ، وأمامه الأستاذ صالح الحامدي ، وأبدو في الصورة بالنظارة السوداء خلف العم علي بن عبد الله .

وبعد استقراري بحضرموت . . رشحني السلطان حسين بن علي الكثيري لرئاسة بلدية سيؤن ، وقد زار حضرموت في تلك الفترة السلطان علي عبد الكريم سلطان لحج ، الزعيم الوطني المعروف ، فأقيمت له بحضرموت الاحتفالات الضخمة ، ومدت علىٰ شرفه الموائد الفاخرة ، وكنت أحضر بصفتي رئيس البلدية أغلب هـٰذه الحفلات .

وقد أقام آل كثير احتفالاً كبيراً في الحوطة علىٰ شرف السلطان علي عبد الكريم ، وكان ذلك بعد وصول منصبهم ابن سند إلىٰ حضرموت ، وكان هـٰذا المنصب واجهتهم الرسمية في هـٰذا الحفل الكبير الذي أقاموه علىٰ شرف السلطان علي عبد الكريم ، وكان السلطان علي عبد الكريم خطيباً مفوهاً ومتحدثاً بارعاً ، فألقىٰ في هـٰذا الحفل خطبة مركزة ورائعة ، ثم قام بعده منصب الشنافرة وزعيم آل كثير بن سند ليرد علىٰ خطاب السلطان علي عبد الكريم ، إلا أنه أرتج عليه ولم يدر ما يقول ، ثم تمتم بكلام غير مفهوم ، وأخيراً رفع صوته وقال : (نحن قبائل أهل السيف ، من مد راسه قطعناه) وانتهىٰ خطابه بهـٰذا الكلام .

ثم إننا دعينا إلىٰ عزومة بتريم أقامها جمل الليل الكاف للسلطان علي عبد الكريم ، وذهبت إلىٰ تريم برفقة العم علي بن عبد الله السقاف والسيد عبد القادر بن محمد بن طه السقاف (بوعلوي) ، ونزلنا بدار السيد عبد الرحمـٰن بن شيخ الكاف .

وعندما اجتمع المدعوون لتناول الغداء بدار جمل الليل الكاف . . مُدَّتْ لنا مائدة أسطورية لا يكاد يرىٰ طرفها ، وقد امتلأت بكل ما لذ وطاب من أصناف الطعام والشراب ، وتعددت فوقها تباسي الرز وتقاربت ، وكان علىٰ كل تبسي من هـٰذه التباسي خروفاً كاملاً جاهزاً للأكل ، وحيث إننا في حضرموت لا نأكل اللحم إلا في المناسبات . . فقد أكلت من هـٰذه المائدة الملكية بشراهة كبيرة ، وتذوقت جميع الأصناف ، ولـٰكن في المساء . . بدأت في بطني آلام فظيعة ، استمرت بلا انقطاع ، وحاول العم علي والسيد بو علوي والعم بو بكر الكاف

علاجي بالوصفات الشعبية ، غير أن شيئاً من هٰذا لم يخفف عني الآلام ، وكلما فشل علاج من هٰذه العلاجات الشعبية . . جرب العم بو بكر بن شيخ علاجاً آخر ، وهٰكذا دون فائدة ، فطلبنا الطبيب فلم نجد طبيباً بتريم ، ولا يوجد الطبيب إلا في سيؤن ، غير أن الذهاب إلىٰ سيؤن في ذلك الوقت لم يكن ممكناً ؛ فقد هبط الليل وهطلت أمطار شديدة قطعت الطريق في منطقة حيد قاسم بين سيؤن وتريم ، وامتلأ المسيال بالماء ، وأصبح اجتيازه مستحيلاً ، فوقعنا في مشكلة كبيرة وورطة عظيمة ، حتىٰ أدركتنا عناية الله التي لم تكن تفارقني في الأوقات العصيبة ، فتطوع مساعد المستشار وهو ضابط إنجليزي شاب ولطيف ، كان بين المعزومين في هٰذه المأدبة وأخبرني باستعداده لنقلي إلىٰ سيؤن بسيارته اللاندروفر الجديدة ، فلم نصدق هٰذا العرض ، وركبت سيارته ومعي العم علي والأخ بو علوي ، واجتاز بنا مساعد المستشار بسيارته الجديدة منطقة حيد قاسم المملوءة بالمياه ، فكان الماء يصل إلىٰ ركبنا ونحن جلوس داخل السيارة ، واستمرت اللاندروفر تخوض بنا الماء حتى اجتزنا حيد قاسم ، ثم مشى بنا حتىٰ وصلنا سيؤن ، فأوصلني لمنزلي وذهب العم علي وبو علوي لإحضار الطبيب ، الذي أعطاني حقنة مهدأة استطعت بعدها أن أنام ، إلا أن صحتي تدهورت بعد ذلك المرض ، فلم أعد أستطيع أن آكل لقمة واحدة دون أن تصيبني الآلام المبرحة في بطني ، فانخفض وزني إلىٰ خمسة وأربعين كيلو بعد أن كان فوق الثمانين كيلو .

واستمرت مراجعتي للطبيب بسيؤن دون أن أشعر بتحسن ملموس ، فقررت السفر إلىٰ أسمرة لاستكمال العلاج علىٰ يد الأطباء الإيطاليين .

* * *

رحلة العلاج لأسمرة

في أسمرة أثناء رحلة العلاج عام (١٣٧٦ هـ)

ولما تدهورت حالتي الصحية ولم أستفد من علاجي بحضرموت . . قررت السفر إلىٰ أسمرة للعلاج ، فأبرقت بنيتي القدوم إلىٰ أسمرة إلىٰ صديقي الشهم الكريم الشيخ سالم باحبيشي للعلاج ، وطلبت منه أن يحجز لي موعداً للكشف لدى الطبيب الإيطالي بأسمرة .

وقد اضطررت بسبب هٰذا المرض للتخلي عن مشاريعي التجارية الناجحة ، فبعت حصتي في المنجرة ومصنع الثلج للسيد طه بن محمد السقاف ، وطلبت إجازة من عملي في بلدية سيؤن ، ورتبت أمور عائلتي وتجهزت للسفر .

وبعد استلامه برقيتي . . اتصل الشيخ سالم باحبيشي على الفور بالشيخ محمد سعيد العمودي في عدن ، وطلب منه أن يستقبلني بعدن ، وأن يتولىٰ أمور سفري إلىٰ أسمرة ويسجلها علىٰ حسابه الخاص ، ثم سافرت بالطائرة من سيؤن إلىٰ عدن بدون أن يصحبني مرافق ، رغم كوني مريضاً ، ولما وصلت عدن . . لم أجد الشيخ محمد سعيد العمودي في استقبالي بالمطار ، وبحثت عنه فلم أجد له أي أثر ، فاستأجرت سيارة تكسي وذهبت أبحث عن فندق ، فأخذني التاكسي إلىٰ فندق (إحسان) ، فإذا به فندق مهجور ليس به إنسان ، وغرفه مغطاة بالتراب وفي غاية السوء والقذارة ، فكنس مسؤول الفندق غرفة من غرف الفندق ورتبها لي بعض الشيء فنزلت بها وحيداً رغم مرضي ، غير أن الشيخ محمد سعيد علم فيما بعد بوصولي فجاءني في اليوم الثاني وأخذني إلىٰ منزله ، ونفذ طلبات الشيخ سالم باحبيشي ، فاشترىٰ لي تذكرة السفر وأنهىٰ باقي الإجراءات ، واشترىٰ لي بعض الملابس ، ثم سافرت بالطائرة من عدن لأسمرة ، ولما وصلت المطار . . وجدت الأخ سالم باحبيشي في المطار ، فاستقبلني بحفاوة بالغة ، وأنزلني في فندق من أفخم فنادق أسمرة زيادةً في الإكرام ، وكنت أتناول طعامي في بيته ، ثم أذهب إلى الفندق للراحة والنوم ، كما كان يتولىٰ مؤانستي وتسليتي .

ثم بدأت بعد وصولي مرحلة العلاج من مرض القولون علىٰ يد الأطباء الإيطاليين بأسمرة ، وتبين أن دواء الآميتين الذي كنت أتعالج به في سيؤن قد زاد من حساسية القولون وسبب تدهور حالتي ، ثم حصلت العافية بعد مدة من العلاج ، وبدأت فترة من النقاهة والاستجمام ، وانهالت علي الولائم والدعوات من أصدقائي القدامىٰ بأسمرة .

فدعاني الشيخ الفاضل الكريم علي بن عبد الرحمـٰن العمودي إلىٰ منزله .

كما استضافني بمنزله الأخ الفاضل عمر بن سعيد العمودي ، ثم تتابعت الدعوات من آل عمودي وآل باحبيشي .

ثم انتقلت للاستجمام بفيلا الشيخ سالم باحبيشي بمنطقة (أمبت كلا) وهي منطقة جبلية جميلة بين أسمرة ومصوع ، وبقيت بها فترة حتى انتهت فترة النقاهة والعلاج .

وأثناء وجودي في هـٰذا المنتجع الجبلي الجميل خطرت ببالي فكرة الهجرة إلى السعودية ، وانشرح خاطري لها ، رغم أنني ما زلت أعمل رئيساً لبلدية سيؤن ، والمفروض أن أرجع إلىٰ عملي بعد انتهاء العلاج ، فكتبت لخالتي الصالحة العابدة زهراء حرم الوالد ابن عبيد الله وأم زوجتي وبنت الحبيب عبيد الله بن حسن البحر وكنت أستأنس وأتبرك برأيها ، وسألتها هل أرجع إلىٰ سيؤن أم أسافر إلىٰ جدة ، فأجابت بأن سافر إلىٰ جدة ، فأرسلت استقالتي من البلدية إلى السلطان وعزمت على السفر إلىٰ جدة ، وكتبت للجماعة آل ابن طه في جدة ليكونوا في استقبالي بالمطار ، وكان الشيخ سالم باحبيشي في وداعي بمطار أسمرة ، وقد تحمل جميع مصاريف علاجي ودوائي وإقامتي ، ولم أنس له هـٰذا المعروف طوال حياتي ، وقد استمرت آلام البطن تعاودني في جدة بين الحين والآخر ، واستشرت عدداً من الأطباء بجدة ، كما راجعت عدداً من أساتذة الطب المصريين الذين يأتون جدة في زيارات طبية قصيرة ، وقد نصحني الدكتور المصري المشهور ياسين عبد الغفار بالاقتصار في طعامي على المسلوق ، وأمضيت فترة طويلة علىٰ هـٰذا النظام الغذائي الصعب ، ورغم ذلك فلم تبرح آلام البطن تعاودني بين الحين والآخر ، ثم وصل إلى الرياض عام (١٣٨٨هـ) الطبيب الإنجليزي المشهور (تانر) ، والمتخصص في أمراض الجهاز الهضمي ، فسافرت إلى الرياض وعرضت نفسي عليه ، فقرر إجراء عملية لاستئصال المرارة ، وفي اليوم الثاني دخلت المستشفى الوطني بالرياض وأجريت لي العملية ، ثم مكثت بالرياض عدة أيام بمنزل قريبي الأخ محمد بن عبد القادر السقاف ، وبعد أن تماثلت للشفاء عدت إلىٰ جدة وأمضيت أشهراً في عافية ، ثم عاودتني آلام البطن ، فنصحني بعض أقاربي بشرب العسل المبرد في الصباح مع الحبة السوداء ، فواظبت علىٰ هـٰذا النظام

الذي كان له أثر فعال في تخليصي من آلام البطن وتقلباتها ، وتمكنت بعد ذلك من تناول الطعام العادي دون مشاكل أو آلام .

وتعودت علىٰ تناول العسل بعد صلاة الفجر مع قراءتي للقرآن ، وأدعو الله تعالىٰ مع شربه بقولي : (اللهم هٰذا كتابك وهٰذا عسلك ، وقد قلت فيهما الشفاء ، فاشفني) وقد واظبت علىٰ هٰذه العادة سنين عديدة ، وما زلت مواظباً عليها إلى الآن ، وقد أفادتني هٰذه الطريقة فتخلصت من آلام البطن ، ولم تعاودني بعد ذلك والحمد لله . إلا أنه أصابتني في السنوات الأخيرة أمراض الشيخوخة ، وقللت من نشاطي وحركتي وحيويتي .

* * *

الهجرة للسعودية

صورتي في أيامي الأولى بجدة

وطارت بي الطائرة السعودية من أسمرة إلىٰ جدة ، وكان ذلك في عام (١٣٧٦ هـ) ، ولما وصلت مطار جدة استقبلني الإخوان من آل ابن طه علىٰ باب الطائرة ، فلم تكن هناك أي تعقيدات في دخول المطار والوصول لباب الطائرة ، وجميع الأمور سهلة وبسيطة ، وبعد استلام متاعي.. ذهبت مع المستقبلين إلىٰ دارهم بالصحيفة ، وكانوا جميعهم من العزاب الذين هاجروا من حضرموت لطلب الرزق ، ويقيمون جميعاً في بيت مستأجر صغير بحي الصحيفة الشعبي .

وكان جميع أفراد هـٰذه العزبة من أقاربي ومعارفي ، ولم يكن بينهم غريب ، ويرأسهم السيد طه بن محمد السقاف ، وفيهم أخوه سالم بن محمد السقاف وابن أخيه علوي بن عبد القادر السقاف ، وصهري أمدو بن عبيد الله ، والعبدن ابن الأخ حسن بن عبيد الله ، وآخرون ، وكانوا يعيشون حياة هانئة

وسعيدة رغم صعوبة أحوالهم المعيشية وقلة رواتبهم التي لا تتجاوز المئتي ريال لأحسنهم حالاً .

وقد قابلت بجدة شخصاً ممن كنت أعرفهم بأسمرة اسمه باعشن ، ولم يكن من أصدقائي المقربين بأسمرة ، بل كان في الجانب المنافس لنا في انتخابات الجالية العربية بأسمرة ، إلا أنه تطوع بالبحث لي عن عمل ، فجاءني مرة ، وأخبرني بأنه قد تحصل لي علىٰ عمل بدكان لآل بقشان ، إلا أن هٰذه الوظيفة لم تتسهل أمورها .

وقد هاجر صديقي جعفر بن محمد المحضار من أديس أبابا واستقر بالسعودية وعمل مدرساً بالشرائع ، وهي قرية صغيرة علىٰ مقربة من مكة ، ولن أنسىٰ لجعفر ما فعله لنا عند وصولنا أديس أبابا لأول مرة من حضرموت عندما أنكرنا من قصدناهم من المحاضير واستقبلونا استقبالاً غير لائق ، فقام جعفر ورحب بنا وأكرمنا ، وخفف عنا ما أصابنا .

فقررت السفر إلى الشرائع لزيارة الأخ جعفر المحضار ، وذهبت في اليوم الثاني لوصولي مع صهري أمدو بن عبيد الله إلىٰ موقف السيارات ، وركبنا سيارة أجرة إلى الشرائع ، ولما وصلناها . . وجدناها قرية صغيرة بيوتها من اللبن ، فسألنا عن السيد جعفر المحضار ، وعرفنا بيته المكون من حوش بداخله غرفة وحمام ، غير أن البيت كان مقفولاً ولم يكن به أحد ؛ لأن جعفر ما زال في المدرسة ولا يعود منها إلا بعد صلاة الظهر ، وكان الجو حاراً والشمس محرقة ، ولم نكن قادرين على البحث عن المدرسة في هٰذا الجو الملتهب ، فقررنا تسلق سور الحوش وانتظار جعفر داخل البيت ، ولما جاء جعفر ووجدنا داخل الدار . . رحب بنا وأهل ، وفرح بنا فرحاً شديداً وأولم لنا جدياً مليحاً ، ثم أخذنا في اليوم الثاني وزار بنا أصحابه وبعض المسؤولين الموجودين بالشرائع ، ثم أولم لنا في يوم ثالث ببستان لأحد الأمراء يتولاه شخص يعرفه ، ومكثنا مع جعفر بالشرائع أسبوعاً كاملاً تمتعنا فيه بكرم ضيافته وجميل أريحيته .

ولما عدت لجدة وجدت الشيخ علي باعبد الله وهو من أصحابي القدامىٰ بأسمرة يبحث عني ليخبرني بأنه قد تحصل لي علىٰ عمل لدى الشيخ سليمان النانيه ، وهو من الوجهاء المرموقين ، وقد عزم على السفر لخارج السعودية ويريد وكيلاً يتولىٰ أمر بيوته وشؤون عائلته خلال فترة غيابه ، وفي اليوم الثاني أرسل النانيه سيارته الخاصة وابنه عبد العزيز مع الشيخ علي باعبد الله في موعد حددوه لي ، واصطحبوني إلى الشيخ سليمان النانيه ليقابلني ، فوجدته جالساً في ديوان بيته ، ولما دخلت عليه . . قال على الفور : وجه خير ، ففرحت بهـٰذا الاستقبال الطيب ، ثم سألني عن أحوالي وقال لي : غداً تذهب في الصباح إلىٰ مكتب الصنيع بسوق الندىٰ ، وسيرتب لك الأمور ، وكان مكتب الصنيع مجاوراً لمكتب شخص لا أعرفه اسمه سالم باعشن ، ولما وصلت لمكتب الصنيع بسوق الندىٰ . . وجدت الشيخ سليمان النانيه ومعه الصنيع وباعشن ، وكان الصنيع قد تشاور مع باعشن من قبل فيما أستحقه من راتب ، واتفقا أن يكون راتبي تسع مئة ريال ، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام ، ورغم أن باعشن لا يعرفني ولم يقابلني قبل هـٰذا اليوم إلا أنه أحب أن يخدمني في مسألة الراتب ، ولما سألهم النانيه عن المرتب الذي قرروه لي . . استكثره وقال : هـٰذا كثير ، ثم أخذنا وأعطينا في مسألة الراتب حتى استقر الأمر علىٰ خمس مئة ريال ، وكان هـٰذا المبلغ بالنسبة لرواتب جماعتي في العزبة شيئاً كثيراً ؛ فراتب أقدمهم وأحسنهم لا يزيد عن مئتي ريال في الشهر ، ثم سألني الشيخ النانيه عن سكني وعائلتي فأخبرته بأنني أعزب وعائلتي بحضرموت ، فقال على الفور : بدون عائلة وأسلمك أموالي وبيوتي ، لا ، ما تصلح ما تصلح ، فأسقط في يدي ، وبدا لي أن فرصتي الذهبية قد ضاعت ، وشعرت بإحباط وخيبة أمل .

إلا أن النانيه اعتدل في جلسته ثم قال : سأقبلك بشرط أن يكفلك أحد التجار كفالة غارم ، ولـٰكن من أين لي بالتجار ، وكل من أعرفهم من ذوي المئة والمئتين فتلاشت أحلام الوظيفة ، إلا أن عناية الله أدركتني في اللحظة الأخيرة ، فتدخل الشيخ سالم باعشن وهو الرجل الحضرمي الذي لا يعرفني

ولا أعرفه وقال : أنا أكفله واكتبوا علي ما تريدون ، ودهشت من مروءته وشهامته التي لم أنسها له طول حياتي ، وكتب النانيه كفالة غرم مفصلة وقعها باعشن ، ثم طلب النانيه أن أحضر في الصباح لاستلام العمل .

وفي صباح اليوم الثاني سلمني الشيخ سليمان النانيه مسؤولية عمائره السبعة ، إضافة إلىٰ بيته ، وأخبرني أنه مسافر ، وطلب مني العناية والاهتمام بممتلكاته ، وطلب من خادمه سعد أن يساعدني في مهمتي ، وهٰكذا استلمت عمائر النانيه وأصبحت المسؤول عن تأجيرها والعناية بها ، وكلما تجمع الإيجار . . سلمته للنانيه ، وكان يرفض أن يعد المبلغ الذي أسلمه له رغم إصراري علىٰ ذلك ، ويأخذني إلىٰ خزنته الخاصة ويفتحها لي ويأمرني أن أضع بداخلها ما أحضرته من نقود ، وكانت ثقته في أمانتي وإخلاصي كبيرة ، وكنت ولله الحمد محلاً للتقدير والثقة ، فكنت أحافظ علىٰ أمانتي وأصون نفسي عمَّا لا يليق ، وكان ذلك بحمد الله وتوفيقه سبباً لنجاحي في حياتي وتقدمي في عملي .

وبعد مرور سنة . . استدعاني الشيخ سليمان النانيه وقال لي : ما رأيك لو سلمتك العمائر بكاملها تؤجرها لحسابك الخاص وتعطيني مبلغاً معيناً في السنة ، فقبلت على الفور هٰذا العرض المغري ، والذي لم أكن أتوقعه ؛ لأني أعرف العمائر وأعرف دخلها ، فتساومنا مع بعضنا البعض واتفقنا علىٰ مبلغ سنوي محدد ، وبدأت أعمل علىٰ هٰذا الأساس ، وكنت في هٰذا الوضع الجديد شديد الحرص والخوف من الخسارة ، فكنت حالما أستشعر بنية ساكن علىٰ إخلاء شقة من الشقق أقوم على الفور بالبحث عن مستأجر آخر وآخذه ليتفرج على الشقة وهي لا زالت مسكونة ؛ ليتعاقد عليها ، ثم يتسلمها فور خروج الساكن الأول ، حتىٰ إن صديقي الظريف السيد محمد البيض كان يتندر عليّ ويقول : إن محسن إذا خلت شقة أحرم بعمرة ، وكنت أقوم بنفسي بإصلاح خراب الحمامات والسيفونات ، فكنت ألبس التليك وأباشر التصليح بنفسي ؛ توفيراً لأجرة السباكة المكلفة ، كما كنت أتنقل بين سكني بالعزبة بالصحيفة وعملي بالبغدادية مشياً على الأقدام ، وهي مسافة ليست قصيرة ،

ويتكرر هٰذا المشوار أربع مرات في كل يوم ، وأعاني خلاله ما أعاني من الحر الشديد والرطوبة القاسية ؛ توفيراً للمصاريف .

وفى السنة الثانية من استلامي العمل اشتريت لنفسي دراجة عادية (بسكليت) ، وكان ذلك تطوراً كبيراً في حياتي .

وكسبت من حصيلة هٰذا المجهود المضني المتواصل مكسباً كبيراً في أول سنة بعد هٰذا الاتفاق ، وأذكر أنني بعد أن سلمت الشيخ سليمان النانيه المبلغ المتفق عليه . . تبقت لي خمسة وثلاثون ألف ريال ، وكانت هٰذه ثروة كبيرة جداً في ذلك الوقت ، فاشتريت بهٰذا المبلغ قطعة أرض بالشرفية مع الشيخ صالح كرامة حماد ، وهو سعودي ، ولم أكن سعودياً حينها ، وقد تعرفت على المقاول الحضرمي الشيخ صالح حماد بعد قيامه ببعض الترميمات والمهمات البسيطة في عمائر النانيه ، ثم اتفقت معه علىٰ بناء عمارة بسيطة فيها بعض الدكاكين مع شقق وبتكلفة متواضعة ، وقال لي الشيخ صالح حماد الذي استمرت علاقتي به لفترة طويلة بأن والده كان أيضاً يعمل بالبناء ، وحدثني عن والده بأنه كان رجلاً شديداً ، حتىٰ إنه كان ذات مرة يباشر البناء مع إخوته علىٰ سقالة مرتفعة ، فجاء والدهم ولم يعجبه العمل ، فغضب علىٰ أبنائه ، وفك حبال السقالة وتركهم يتساقطون من فوقها .

عمارتي الأولىٰ بالشرفية

ومع أن هـٰذه العمارة تطل علىٰ شارع الشرفية ، وهو من الشوارع المهمة بجدة في ذلك الوقت ، إلا أن دخلها كان ضعيفاً ، ولهـٰذا استجبت لإغراءات بالبيد ، وهو من تجار العقار ، فبعتها لأشتري بثمنها عمارة في عدن ؛ حيث أخبرني بالبيد أن الإنجليز يستأجرون العمائر بعدن ويدفعون فيها الإيجارات الكبيرة مقدماً ، فاقتنعت بنصيحة بالبيد وبعت عمارتي بجدة على الشيخ سالم بامفلح بمبلغ خمسين ألف ريال ، وأرسلت المبلغ إلىٰ عدن واشتريت بالمعلا نصف عمارة مع الأخ طه بن محمد السقاف .

عمارتي بعدن وقد ملكت الحكومة الشيوعية شققها للمستأجرين

وبلغ ما نحصل عليه من هـٰذه العمارة أربعين ألف شلن ، وهو ما يساوي أربعين ألف ريال ، تسلم بشيك في أول كل سنة باسم الشيخ بافضل بعدن ، فيقوم بصرف الشيك وتحويل المبلغ لنا في جدة .

ثم ارتفعت قيم الأراضي والعقارات بالسعودية ارتفاعاً كبيراً ، أما عدن فقد ذهب منها الإنجليز وهبطت فيها الإيجارات وخلت البيوت من المستأجرين ، ثم جاءت الحكومة الشيوعية وملكت العمائر والبيوت لساكنيها ، وأصبحت عمارتنا ملكاً للمستأجرين رغماً عنا ، ولا زالت هٰكذا إلى اليوم ، إلا أنني لم أندم كثيراً علىٰ ذهابها ؛ لإيماني العميق بأن هٰذه الأمور تسير وتتصرف بتقدير المولىٰ عز وجل .

وبعد أن تمرست في أعمال العقار مع الشيخ سليمان النانيه . قمت بافتتاح مكتب لتأجير العمائر والبيوت بالعمولة ، أسميته مكتب السقاف العقاري ، وما زال هٰذا المكتب يعمل إلى اليوم ، ومكتبي الذي أرتاده لأعمالي موجود فيه إلى اليوم ومنذ خمسين سنة ، وحيث إنني لم أكن حينها سعودياً فقد جعلته مع عمي حسين بن عبد الله السقاف يرحمه الله وكان سعودياً ، ولزيادة الدخل فقد افتتحت إلىٰ جانب المكتب العقاري بقالة شبيهة بالسوبر ماركت الصغير ، وبها ملحمة ، ووليت شؤونها شخصاً فلسطينياً كان يحضر في الصباح وعلىٰ كتفه رأس غنم مذبوح يقوم بتعليقه في البقالة ويبيعه .

وفي مرة من المرات اتصلت بنا إحدى العوائل الكبيرة بجدة وأخبرونا برغبتهم في التعامل مع بقالتنا ، ففرحنا بهٰذا التعامل غاية الفرح ؛ حيث إن هٰذه العائلة كبيرة وغنية وتوقعنا أن يشتروا من بقالتنا اللحم والمواد التموينية بكميات كبيرة ، غير أن الذي حدث لم يكن في حسباننا ؛ فقد ندبت لنا العائلة سائقهم وخادمهم لإحضار اللحم والتموين ، وفي أثناء انتظار تقطيع اللحم وفرمه لا يتوقف الاثنان عن التهام أصناف البقالة وبشراهة عجيبة ، وكأنما بقالتنا ملك لسيدهم ، ثم يذهب الاثنان بالمشتريات دون دفع الحساب ، وأتعبنا التعامل معهم غاية التعب ، وانتهى الأمر بخسارة كبيرة لبقالتنا .

وفي هٰذه الأثناء قمت بزيارة قصيرة إلىٰ حضرموت ، وتركت في مكاني أخي أحمد ليتولىٰ إدارة العمل في غيابي ، ولما كنت بحضرموت وصلتني قصيدة لطيفة من صديقي الظريف محمد البيض ، إلا أنني للأسف لم أعد أذكر

إلا مطلعها ونتفاً من أبياتها ، وقد بدأها بقوله :

سلم علىٰ محسن كبير الصورة   تلقـاه يتلهـىٰ مـع السنيـورة

ثم ذكر أخي أحمد الذي تركته في عملي بجدة فقال :

خليت أحمد فـي العمـل يتقهّـر   وكسّـر السفـون والمـاسـورة
وعمـك النـانيـه مـا هـو فـاكـر   يقـول حقـي فـي كتـب مـزبـورة

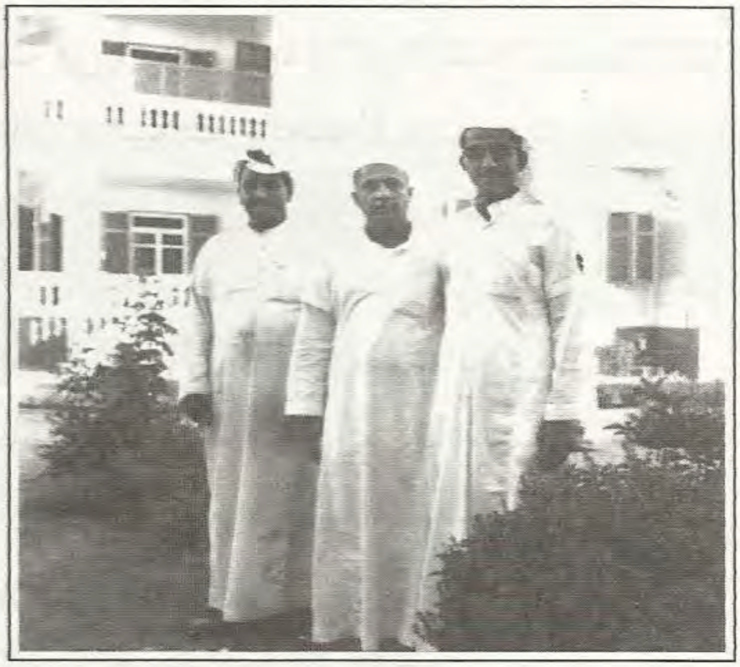

مع الأخ محمد البيض في جدة عام (١٣٧٦هـ)

وبلغ من حرصي علىٰ تطوير خبرتي وتأمين مستقبلي أنني قررت أن أتعلم النجارة ؛ حيث اعتقدت بأنني لو رجعت إلىٰ حضرموت فإن النجارة ستفتح لي باباً واسعاً من أبواب الرزق ، وبإمكاني أن أستعيد المنجرة التي أسستها بنفسي في سيؤن ـ ثم بعتها للأخ طه بن محمد السقاف عندما اضطرتني ظروف المرض للسفر ـ فأعود لتشغيلها لحسابي ، وتعرفت علىٰ سوري من الجوار يعمل بإحدى المناجر الحديثة ، ولما عرف برغبتي في النجارة وافق علىٰ تدريبي معه في المنجرة ، فتغير دوامي اليومي وصرت بعد أن أنتهي من أعمالي العقارية آخذ طريقي إلى المنجرة وأشارك العمال في أعمالهم ، ثم أخبرني صاحب المنجرة ، أن الثوب الذي ألبسه لا يتناسب مع عمل المنجرة وطلب مني أن

ألبس بنطلوناً وقميصاً أثناء العمل ، ولما كنت أستحي أن يراني أصحابي بالبنطلون . . صرت أذهب للمنجرة بثوبي المعتاد ، فإذا وصلت المنجرة . . خلعته ولبست لباس العمل ، فلا تفرقني وأنا بالقميص والبنطلون عن بقية عمال المنجرة ، ثم أعود لثيابي الأولىٰ عند مغادرة المنجرة .

وأمضيت بالمنجرة فترة لا بأس بها ، واكتسبت الخبرة التي تؤهلني لتشغيل المنجرة بسيؤن ، إلا أن ظروف الحياة قادتني في اتجاهات أخرىٰ بعيدة ولم أحتج لاحتراف النجارة .

* * *

أخبار عزبة آل ابن طه بجدة

في عزبة آل ابن طه بجدة عام (١٣٧٧ هـ)

وقد سكنت بجدة بعد وصولي بنية الاستقرار في عزبة آل ابن طه ، ورئيسها الأخ طه بن محمد السقاف ، وفيها أخوه سالم بن محمد السقاف المتزوج من شقيقتي ، وابن أخيه علوي بن عبد القادر السقاف ، وآخرون من قرابتنا وأصدقائنا ، وكنا نعيش في العزبة في غاية السعادة والبسط ، ويتولى الأخ طه بن محمد إدارة العزبة وتوزيع مصاريفها ، وتصل استحقاقات العزبة

الشهرية لكل منا إلىٰ ستين ريالاً ، شاملة الإيجار والكهرباء والماء والطعام .

وقد حظيت باهتمام صهري سالم بن محمد السقاف وابن أخيه علوي بن عبد القادر الذي خدمني بإخلاص ، حتىٰ إنه كان يغسل لي ثيابي دون أن أطلب منه ذلك ، وكانت خدمة العزبة موزعة على العزاب ، فيتولىٰ سالم بن محمد بن طه مسؤولية الشاهي ، وعلوي بن عبد القادر تنظيف الحمامات ، ويتولىٰ رئيس العزبة طه بن محمد الطبخ وتحضير الأكل ، كما يتولىٰ أمدو بن عبيد الله تكنيس البيت ، وفي يوم الجمعة نقوم جميعاً بكنس البيت وتنظيفه جماعياً .

ومن سكان العزبة السيد عبد القادر كريسان ، وكان يتأخر في دفع استحقاقات العزبة ، ولما عاد الأخ طه مبكراً إلى العزبة في أحد الأيام . . وجد خطاً طويلاً من النمل يبدأ في مدخل العزبة وينتهي إلىٰ شنطته ، ففتح طه الشنطة ليجد خط النمل ينتهي إلىٰ بقية من عنب ، فأزاح طه العنب والنمل ، ولـٰكنه اكتشف بالشنطة رزماً من الريالات ، فأخذ منها استحقاقات العزبة وأعاد كل شيء لمكانه .

ومن طرائف العزبة أنه كان للأخ عبد القادر كريسان كوفية مكلبتة يتركها بجانبه عند النوم ، ولا ينام معنا في الغرفة ، وينام في البلكونة ، ويلبسها قبل النوم ومعها رادي ومنشفة ، فإذا تمدد في البلكونة . . غطى الجزء الأعلىٰ من جسمه بالرادي والجزء الأسفل بالمنشفة ، ووضع الكوفية إلىٰ جواره ، وأراد علوي عبد القادر مداعبته ، فخاط دون معرفته الرادي بالمنشفة ليسهل له المهمة .

وكان لمدير العزبة الأخ طه بن محمد شاة حلوب ، يتركها طليقة في العزبة والحوش ، وحدث في إحدى الليالي أن بالت هـٰذه الشاة في كوفية الأخ عبد القادر كريسان أثناء نومه ، وتشربت الكوفية بالبول طول الليل ، ولما أيقظناه لصلاة الفجر . . لبس الكوفية علىٰ عجل وتوضأ بسرعة ؛ ليلحق الصلاة ، وكان يصلي بجانبي ويتأفف من ريح البول ، ولا يعرف أن مصدره كوفيته .

ومن الأحداث الطريفة في تلك الفترة ما حصل للأخ عبد الرحمن بن عمر السقاف المعروف بلقبه مقدح ، وكان يسكن في عزبة مجاورة ، إلا أنه يقضي أغلب وقته معنا للضحك والدردشة ، وكان ابن أخته طه سالم الذي يعمل بالرياض قد ترك عمله وقرر العودة إلىٰ حضرموت ، فأحضر متاعه إلىٰ جدة ، وفيه سرير من الحديد بشناكل أهداه لخاله مقدح ، ففرح السيد مقدح بالسرير غاية الفرح ؛ حيث إنه لم ينم في حياته علىٰ سرير ، ومع إيقاظه لصلاة الفجر . . قفز مقدح من السرير بطريقته السريعة ، إلا أن أحد الشناكل تعلق بدبره وجرحه جرحاً بليغاً ، فتولى الأخ طه بن محمد صاحب الخبرة السابقة في الطب والتمريض علاجه ، وصار السيد مقدح يحضر لعزبتنا في كل يوم ويتم علاجه في غرفة بمدخل العزبة ، ويقوم طه بتنظيف الجرح بالمكركوم الأحمر ، ومقدح في وضع السجود ، وكنا نشتري الماء من سقَّاء عولقي ونحاسبه بالشهر ، ولما جاء السقاء لتوصيل الماء إلى المطبخ . . مر في طريقه على الغرفة الصغيرة ، فرأىٰ الأخوين مقدح وطه في وضع المعالجة ، وسمع أصواتنا في الغرفة المجاورة ، فصاح السقاء العولقي صيحة منكرة وخرج مسرعاً من عندنا ، ولم يعد حتىٰ لاستلام حسابه ، ويبدو أنه تصور الاثنان في وضع شاذ ، وأن الرجال في الغرفة المجاورة في طابور الانتظار .

وفي مرة طبخنا شربة في قدر كبير ، وطلعنا إلىٰ سطوح البيت لتناولها ، وكان الوصول للسطح بسلم متحرك، ولما جاء وقت العشاء . . صادفتنا مشكلة رفع قدر الشربة الكبير إلى السطح، فاقترح علينا العبدن وهو شاب ظريف أن نستخدم طلمبة الماء اليدوية التي ترفع الماء للخزان العلوي بالسطح في شفط الشربة من القدر، وعلىٰ كل واحد استلام حصته من الشربة عند فتحة ماسورة الماطور بالسطح .

ثم أنقذ الموقف الأخ مقدح المعروف بقوته وجلده ، فقام برفع القدر الكبير علىٰ رأسه وطلع السلم الذي كان يتهزهز من تحته ، وتطوع اثنان منا لتثبيته على السلم أثناء طلوعه ، وهٰكذا وصلت الشربة للسطح سالمة ، وقضينا معاً أمسية حلوة وجميلة .

و انضم إلىٰ عزبتنا من جاوة الأخ علوي بن حسين الحداد ، وكان منظماً في لبسه وهندامه ، وله ثياب مخصصة للنوم ، وناموسية وطقوس طويلة للنوم ، وبعد أن ينتهي من تجهيزات النوم يذهب للسمر عند أولاد الحبيب أحمد مشهور الحداد بالكندرة ، ثم يعود إلينا آخر الليل ، فيدخل سريره وينام ، وكنا مغتاظين من ذهابه للسمر خارج العزبة .

ثم نزل بضيافتنا ليلاً السيد سالم محمد بن هادي السقاف ، وبينه وبين علوي الحداد قرابة ، وقد وصلنا وقد انتهى الأخ علوي الحداد من تهيئة مكان نومه ، وذهب للسمر بالكندرة ، فلما تعشينا مع ضيفنا . . أخبرناه بأن هـٰذا المكان وأشرنا إلىٰ مكان نوم الأخ علوي قد خصصناه لمبيت الضيوف ، وهـٰذا الصارون الذي تحت المخدة هو أيضاً للضيوف ، فلبس الضيف صارون الأخ علوي الحداد ودخل الناموسية ونام ، وكان ذلك في وقت الشتاء ، والبرد قارس ، وتظاهرت أنا وعلوي بن عبد القادر بالنوم ، وبقينا تحت أغطيتنا لنشهد ما يحصل بين علوي وضيفه ، ولما عاد علوي الحداد . . وقف فوق ناموسيته وقال : من هـٰذا ؟ فقام سالم من النوم ، فعرفه وقال : أهلاً بسالم ، كيف حالك ؟ وأخذا يتحدثان ، واستحىٰ علوي أن يقول له : قم من مكاني ، أو يطلب شيئاً من ضيفه ، وكذلك لم يفطن الضيف لما حدث ، وبعد أن انتهت عبارات الترحيب . . تغطى الضيف بأغطية علوي ونام علىٰ فراشه وهو يلبس صارونه ، إلا أن علوي تجرأ قليلاً وقال لسالم : من فضلك أعطنا هـٰذه القطيفة تحت الفرش ، فأخذها علوي وخرج لينام فوقها في الصالة الخارجية بدون غطاء وفي البرد الشديد وبدون حماية من لسعات الناموس ، وكنت وعلوي بن عبد القادر في هـٰذه الأثناء علىٰ وشك الانفجار من الضحك من الورطة التي وقع فيها الأخ علوي الحداد ، وفي صباح اليوم الثاني نزل طه بالفطور من الدور العلوي حيث يسكن مع عائلته ، فوجد علوي مجفياً في الصالة بدون فرش ولا غطاء ، فسأله عما حدث ؟ فأجابه : الجماعة نكتونا .

ولم ينس الأخ علوي الحداد هٰذا المقلب الذي اتهمني بتدبيره وبقي مغتاظاً مما حدث له ، وكان أفراد العزبة يحرضونه على الانتقام والتشفي ، وجاءت فرصته للانتقام عندما وصل خالي سقاف بن محمد بن طه إلىٰ جدة لاستلام جائزته من مؤسسة ابن لادن لقاء القصيدة السنوية التي يلقيها بديوان المعلم محمد بن لادن بمنىٰ أثناء الحج ، ويمدح فيها المعلم ، فوجد علوي الحداد الفرصة مواتية للانتقام ، وقد وصل الخال سقاف يتصبب عرقاً ، وقد تعود بعد استلام جائزته علىٰ تناول الغداء معنا بجدة قبل أن يعود إلىٰ سكنه بالرباط بمكة .

وقد وصل الخال سقاف ولم أكن موجوداً بالعزبة ، فقام السيد علوي الحداد وأحضر فرشي ومخداتي وأجلس الخال سقاف عليها ، ولما وصلت العزبة بعد صلاة الظهر . . وجدت الخال سقاف ممدداً علىٰ فرشي مستنداً علىٰ مخداتي وهو يتصبب عرقاً .

ومن طرائف حياة العزبة ما حصل بين الأخ علوي بن عبد القادر وعمه طه بن محمد رئيس العزبة ؛ فقد كان علوي بن عبد القادر صديقاً لصاحب البيت الذي نستأجره واسمه رشدي العظمة ، وكان الأخ طه بن محمد يتولىٰ مصاريف العزبة ويكلف علوي بتوصيل الإيجار لصديقه رشدي العظمة ، إلا أن علوي يتكرم بالمبلغ علىٰ أصحابه ، ويرضي رشدي العظمة بالوعود السرابية ، وكلما جاء العظمة ليطلب الإيجار . . يخرج له علوي بسرعة ويرتفع الصوت بينهما قليلاً ثم يهدأ ويذهب العظمة لحال سبيله ، وفي مرة حضر رشدي العظمة وارتفع الصوت بينه وبين علوي ولم يهدأ ، فنزلنا ونزل رئيس العزبة الأخ طه بن محمد ليستطلع الأمر . . فاكتشفنا أن رشدي العظمة لم يستلم الإيجار منذ أشهر ، ووقع علوي في مشكلة كبيرة مع عمه الحازم طه ، إلا أننا تلافينا الأمر وحلت المشكلة بطريقة ودية .

وتميز رئيس العزبة الأخ طه بن محمد بالحزم والجدية والنظام ، وقد كلف صهره عبد الله بن يوسف الذي حضر من حضرموت وانضم لعزبتنا كلّفه بمهمة

غسيل الصحون والقُدور ، فغضب طه عليه لتقصيره في إحدى المرات ورماه من فوق السور إلى الشارع .

ثم اشترى الأخ طه بن محمد في عام (١٣٧٨هـ) بيتاً في الكندرة ، وقد افتتحت دخوله خالتي زهراء حرم الوالد ابن عبيد الله عندما قدمت معي من سيؤن لأداء فريضة الحج ، ثم انتقلت إلىٰ بيت ابنها حسن ، كما وصلت معنا من حضرموت زوجة الأخ طه بن محمد مع أمها ، وأقاما بالدور العلوي لهٰذا البيت .

ويتكون بيت طه بالكندرة من دورين ، دور علوي لسكن طه مع عائلته ، والدور الأرضي لإقامة أفراد العزبة ، وللبيت تكة كبيرة استفدنا منها في إقامة الفسح وترتيب الجلسات .

وإذا حضرنا من العمل . . أوقفنا دراجاتنا بالتكة ثم ذهبنا للاستحمام ، ويتولىٰ الأخ أحمد بن عبد القادر بن محمد ترتيبات الشاهي ، وتطبخ عائلة طه لنا الغداء ، فيوصله طه لنا للدور الأرضي ، ويتغدىٰ أفراد العزبة معاً ، ثم نحتسي الشاي في جو مرح ولطيف .

ونستقبل في العزبة الضيوف الواصلين من حضرموت ، سواء من قدموا بغرض الحج أو من قدموا للعمل وكسب العيش ، ولا نحمل ضيوفنا أي مصاريف ، وتكون الإقامة والطعام مجاناً ، ونتصرف كذلك مع القادمين الجدد حتىٰ يستقروا ويجدوا العمل المناسب .

وكان من زوارنا الدائمين الأخوان طه بانقيل ومحي الدين الحداد ، وكانا يتخاصمان ويتعاركان بطريقة مضحكة مسلية .

وكنا نعقد الجلسات المسائية ونقوم في بعض الجمع برحلات للمناطق القريبة من جدة مثل الخمرة ومنطقة البحر .

وفي أحد المرات ذهبنا للنزهة (بغبّة عشرة) وهي منتزه على البحر يبعد عن جدة حوالي العشرين كيلومتراً ، واشترينا جدياً مليحاً للمناسبة من الجزار

باعظيم ، وتوجهنا إلى البحر ، وتركنا الأخ طه بن محمد ليلحق بنا علىٰ دراجته النارية فيما بعد .

ولٰكن لما ركب الأخ طه دراجته ليلحق بنا قبل صلاة الظهر . . وصله العمدة مع الشرطة وأخذوه معهم للتحقيق ، فانزعج الأخ طه ولم يعرف السبب ، فلم يحدث أن زار الشرطة ولا زارته الشرطة من قبل ، ولما وصل . . اتهموه بمشاركتنا سرقة الغنم من الشوارع وأكلها وبيع جلودها علىٰ شخص يمني قبضوا عليه متلبساً بجمع الجلود ، وبعضها لأغنام مسروقة ، وقد اعترف المتهم بأنه يشتري الجلود من العزاب الحضارم المقيمين في أحد الأحواش ، ودلهم علىٰ مكاننا ، فأكدت كلمتي العزاب والحوش التهمة علينا بسرقة الغنم ، واستمر الأخ طه بن محمد رهن التحقيق بمركز الشرطة لفترة طويلة ، ولم ينفعه تأكيده بأنه صاحب عائلة وموظف محترم ، وأن كل ما يذبح في داره هو من الأغنام المشتراة لا المسروقة ، وسيؤكد لهم ذلك الجزار باعظيم ، ثم أخلي سبيله بعد أن كتب تعهداً علىٰ نفسه بعدم سرقة الغنم ، وتعهد أيضاً بإحضار أفراد العزبة لكتابة التعهد .

نستمتع بالبحر قبل وصول الأخبار المزعجة

وبعد أن خلص طه نجياً . . أسرع إلينا بالأخبار المزعجة إلىٰ غبة عشرة ، فوجدنا في غاية الأنس والانبساط ، فأخبرنا بخبره المزعج وبدعوتنا للحضور لقسم الشرطة ، فجمعنا متاعنا وركبنا مباشرة إلىٰ قسم الشرطة حيث كتب كل منا تعهداً علىٰ نفسه بعدم سرقة الغنم ، كما وجدنا جزارنا باعظيم رهن التحقيق والمساءلة .

وللشيخ محمد باشميل خرابة قريبة من مكان العزبة استأجرها منه الأخ علوي الموتر وسكنها ، فكنا نذبح فيها مساء كل جمعة جدياً مليحاً ، ويتولى الأخ علوي الموتر تحضير العشاء ، ثم نجتمع ويغني لنا الصنبل ونسمر ونتعشىٰ .

وزارنا في هٰذه الخرابة الشيخ سالم باحبيشي مع الشيخ علي بن عبد الرحمٰن العمودي ، فاندهشا مما وجدونا عليه من البسط والفرفشة ، وقالا لنا بأنهما يعتقدان أنه لا يوجد أحد في العالم مبسوط أكثر منا .

ويتولى الأخ علوي بن شيخ الملقب الموتر الذبح والطبخ ، وهو حاد الطباع ، وإذا وضع العشاء استثاره الأخوان أحمد بن عمر الملقب بالصنبل وعبد الرحمٰن بن عمر المعروف بمقدح اللذين يعرفان منه هٰذا الطبع ، فيقولان بأن اللحم ناقص ، فيحتد الموتر من هٰذا الاتهام ويغضب ، ويمتنع عن الأكل ، فيأكل الاثنان نصيبه من اللحم .

ويحضر معنا هٰذه الجلسات في بعض الأحيان العم عيدروس السقاف السوم والأخ أبو طالب الذي يحضر ومعه قارورة ثلج يعتبرها بدلاً من المشاركة في المصاريف .

وكنت في تلك الفترة أبذل جهداً عظيماً في عملي ، فكنت أعمل في المكتب العقاري ، وأشرف على البقالة ، وأتولى التأجير والتحصيل ، وأقوم بأعمال السباكة والصيانة ، وكنت أجمع دخل العمائر بخزنة في مكتبي ، فإذا تجمعت . . سلمتها للنانيه ، فتتجمع لذلك مبالغ كبيرة في خزنتي ، وكان

للنانيه عبد يتولىٰ حراسة أرضه الواقعة بمنطقة الخمرة ، وكان العبد يأتي إلىٰ مكتبي في أول الشهر لاستلام راتبه المقرر ، ولما رآني في إحدى المرات أفتح الخزنة لتسليمه المرتب . . سال لعابه علىٰ محتويات الخزنة من النقود ، وفي إحدى الليالي المظلمة جاء إلى المكتب بسيارة وبصحبته زميله في اللصوصية بنية الاستيلاء علىٰ خزنتي بالمكتب ، والتي أحتفظ فيها بودائع الشيخ سليمان النانيه ، وقام العبد وزميله بكسر باب المكتب الخارجي ثم أدخلا عتلة من الحديد بين شفتي الباب الداخلي لفتحه وأخذ الخزنة بمحتوياتها التي تزيد في تلك الليلة على الستين ألف ريال ، وهو في تلك الأيام مبلغ عظيم .

إلا أن عناية الله أنقذتني من هـٰذه المصيبة ، فكان يسكن بهـٰذه العمارة طيار مصري يعمل بالخطوط السعودية اسمه يحيىٰ ، وكان يذهب للمطار بعد منتصف الليل ، فخرج كعادته وأدار سيارته ، ولما سمع اللصان صوت السيارة في ذلك الوقت من الليل انطلقا هاربين ، فاستغرب الطيار حركة السيارة السريعة وخرج يستطلع الأمر ، فوجد باب المكتب مكسوراً والعتلة بين شفتي الباب الداخلي ، فعرف الأمر وأيقظ حارس العمارة وأرسله في طلبي ، وهـٰكذا أدركتني عناية الله في اللحظات الأخيرة من خسارة فادحة .

* * *

وصول عائلتي من حضرموت وقصة بناء البيت

بيتي الذي بنيته بجدة وانتقلت للسكن به عام (١٩٦٩م)

ولما تحسنت أحوالي المالية والعملية . . فكرت في إحضار عائلتي إلىٰ جدة خصوصاً وقد سبقني الأخ طه بن محمد السقاف في إحضار عائلته ، فقمت باستئجار فيلا بحي الكندرة يملكها الشيخ الميمني ، وهي فيلا حديثة ووحيدة في منطقة من مناطق البيوت الشعبية ، كما أنها قريبة من منزل الأخ طه بن محمد ، ولم يكن بجدة في ذلك الوقت من العوائل من سيؤن سوىٰ عائلة الأخ طه بن محمد وعائلة الأخ حسن بن عبد الرحمـٰن بن عبيد الله ، وبلغ الإيجار السنوي لهـٰذه الفيلا الكبيرة والحديثة ثلاثة آلاف ريال ، وقد سكنت في الدور

الثاني وأجرت الدور الأول مع الحوش بمبلغ ١٥٠٠ ريال في السنة على الشيخ عبد الله باحاتم - يرحمه الله - وزوجته الهندية ، وهم من أهل المكلا ، وتوطدت بيننا وبينهم علاقة قوية .

وفي سنة (١٣٨١ هـ) وصلت عائلتي إلىٰ جدة بالطائرة من سيؤن مروراً بعدن ، وكانت عائلتي مكونة من زوجتي وأبنائي الثلاثة الصغار علي وحسين وعبيد ، أما ابنتي الكبرى الوحيدة والمتزوجة من السيد سقاف كريسان . فقد بقيت بسيؤن .

وهكذا تركت العزبة وسكنت مع أولادي بهـٰذه الفيلا التي أثثتها ببعض الأثاث المستعمل البسيط ، ولم يكن بالبيت ثلاجة ، فكنا لفترة ليست قصيرة نرسل لحمنا وأغذيتنا المحتاجة للتبريد إلىٰ منزل الأخ طه بن محمد ليحفظها لنا بثلاجته ، ويتولى الأولاد توصيلها وإحضارها ، وكنت قد اشتريت لنفسي قبل وصول العائلة سيارة فولكس فاجن مستعملة بسعر زهيد ؛ لكونها بدون استمارة سير ، إلا أنني تخليت عنها بعد فترة قصيرة بسبب استمارة السير واستبدلتها بسيارة أوبل مستعملة ، وقد مكثت في هـٰذه الفيلا سنوات طويلة حتى العام (١٣٩٢هـ) ، وكنت وقتها أشرف علىٰ تنفيذ عمارة ضخمة مكونة من (٧) عمائر أقامها الشيخ أحمد موصلي في موقع الفيلا التي كان يسكنها بباب مكة ، وذلك بصفتي وكيلاً للموصلي والمسؤول عن عقاراته ، وكان يتولىٰ تنفيذ هـٰذا المشروع المهندس والمقاول المصري عبد الجليل عوض ، بسعر المتر الكامل على المفتاح ثلاث مئة ريال ، وقد استمر بناء هـٰذه العمائر لفترة طويلة توطدت فيها العلاقة بيني وبين المهندس عبد الجليل، وكان هـٰذا الرجل مثالاً في الأخلاق والأمانة والحزم والجزم والجدية في العمل والتنفيذ ، ويبدو أنه قد أعجب بما لمسه في التعامل معي من الإخلاص لموكلي والأمانة في التعامل ، وعندما عرف أنني لا زلت أسكن بالإيجار . . عرض علي أن يساعدني في بناء مسكن لي ، فقمت بشراء قطعة أرض صغيرة بالنزلة الشرقية بسعر (٢٠) ألف ريال ، وقد بنىٰ لي فيها المهندس عبد الجليل علىٰ حسابه مسلحات البيت كلها أو كما نسميه

العظم، ثم توليت أنا تشطيب الفيلا بتكلفة إجمالية لم تتجاوز التسعين ألف ريالٍ.

وقبل أن أنتقل لمنزلي الجديد جاءني أحد دلالي العقار وأخبرني برغبة السيد عبد الرحمـٰن الجفري بشراء بيتي الجديد بمبلغ مئة وستين ألف ريال، وكان ذلك مبلغاً كبيراً يسيل له اللعاب، وكنت قد تكلفت في بنائه تسعين ألف ريال فأعجبني المكسب، وفكرت في بيع البيت، إلا أن شيئاً ما منعني من إتمام هـٰذه الصفقة، ثم قمت في هـٰذه الأثناء باستقدام ابنتي الوحيدة من حضرموت لتعيش معنا بجدة مع زوجها السيد سقاف كريسان، وأسكنتها في الدور الأرضي من فيلا الميمني وبقيت أنا في الدور العلوي لفترة لا بأس بها، حتىٰ تم انتقالي إلىٰ فيلتي الجديدة.

ولما اكتملت الفيلا الجديدة وجهزت للسكن.. انتقلت إليها مع عائلتي، أما فيلا الميمني بالكندرة فقد سكنها بعدي الأخ حسن بن علي السقاف ومعه عائلته ووالديه في الدور الثاني، وبقيت ابنتي ساكنة بالدور الأرضي من نفس الفيلا.

وبقيت أسكن في نفس هـٰذا البيت من ذلك الوقت وإلى الآن، وشكرت ربي أن صرفني عن صفقة بيعه الخاسرة.

* * *

الجو الاجتماعي بجدة

الأخ عمر بن عبد الرحمن السقاف (مقدح) يتولى الذبح في إحدى الفسح بجدة

بعد وصول عائلتي من سيؤن إلىٰ جدة بدأت مرحلة جديدة في حياتي بالسعودية ؛ فقد ودعت حياة العزوبية وسكنت بفيلا حديثة واشتريت سيارة فولكس فاجن مستعملة من السيد أحمد الصافي بمبلغ ثلاث آلاف ريال استعداداً لوصول العائلة .

واستمرت حياتي العملية بجدة دون تغيير ؛ حيث واصلت العمل مديراً لمكتب الموصلي ، ومشرفاً علىٰ مكتبي الخاص للعقار ، والذي أدير منه أملاك الشيخ النانيه والموصلي وعدداً آخر من الأشخاص ، ثم وجدت أنني لم

أعد أستطيع القيام بواجبات وظيفتي مع الموصلي مع إشرافي الكامل على المكتب العقاري ، فوظفت شخصاً ليتولىٰ مسؤولية المكتب العقاري ، إلا أنه لم يكن محل ثقة ، فاستمر سنوات ، ثم استبدلته بأحمد بن هارون والذي قام بواجبه علىٰ أكمل وجه ، وكان محل ثقتي ومستودع أمانتي ، ولا زال شريكي في المكتب العقاري إلى اليوم .

ومن الطرائف أن أحمد بن هارون كان يتنقل بين بيته وعمله علىٰ دراجة نارية ، فصدم في يوم من الأيام أحد المشاة ، فأخذته الشرطة للحجز ، وأرسل المصاب لمستشفىٰ باب شريف ، وعملت له أشعة لتحدد وجود كسر من عدمه ، وقد يؤدي وجود كسر إلىٰ بقاء بن هارون في السجن لفترة حتىٰ يتعافى المريض ، إلا أن صديقي الدكتور أحمد المزروع الذي يتولىٰ إدراة مستشفىٰ باب شريف اطلع على الأشعة لكتابة تقرير للشرطة وقال : الأشعة فيها كسر ، ولـٰكن علشان السيد محسن ما هو باين ، وكتب تقريره للشرطة ، فنجى ابن هارون من السجن والغرامة .

وقد استمرت علاقتي الاجتماعية بأهل العزبة ، فكنا نجتمع بعد صلاة الجمعة تحت شجرة بجوار بيت العزبة ، ويحضر جلستنا هـٰذه عدد من الإخوان ؛ منهم الشيخ محمد باشميل وأصحابي القدامىٰ بأسمرة ، مثل صديق العمر محمد البيض والشيخ سالم بالعمش والعم حامد المحضار ، الذي انتقل بعد ذلك من عدن واستقر مع عائلته بجدة ، وكنت أقيم في بيتي بعض المآدب لهـٰؤلاء الإخوان ، ونتبادل النكات والقصائد الهجائية ، وكان الأخ محمد البيض المبرز فينا في هـٰذا المجال ، واشتهر بظرفه وموهبته الشعرية ، وكنا نستقبل في بيتنا بجدة الأقارب والمعارف القادمين من حضرموت لأداء فريضة الحج .

وقد سافرت إلىٰ حضرموت بعد وصول العائلة مرتين لزيارة الوالد والوالدة ، كما قام الوالد والوالدة بزيارتنا بجدة والإقامة معنا عدة مرات ، وفي مرة من المرات كتب لي الوالد بعزمه على العودة إلىٰ جاوة ، وحدد موعد السفر ، وقد انزعجت من هـٰذا الخبر غاية الانزعاج ؛ فقد تمتعنا بقرب الوالد

منا بحضرموت ، واستفاد الناس كثيراً من علمه وفقهه ورأيه ، وكان يعقد الدروس في مسجد طه ويستقبل الناس في بيته ويصلح بين المتخاصمين ويشير بالرأي السديد فيما يسأل عنه من القضايا والإشكالات .

كما سعدت الوالدة بوجوده معها في حضرموت بعد سنوات الغربة الطويلة بإندونيسيا ، إلا أني لم أكن أحب أن أعترض علىٰ رغبة من رغبات الوالد أو أن أشير عليه بشيء في هٰذا الشأن ، ولما عزم الوالد على السفر . . ذهب لزيارة تريم وقد زار عدداً من الشيبان وطلب منهم الإذن بالسفر ، ولم يكونوا مرتاحين لعزمه ، وقال له الحبيب علوي بن شهاب : إن البلاد محتاجة لك ، ولٰكن الوالد استمر في عزمه على السفر ، فقال له الحبيب علوي بن شهاب : إذا انتهيت من غرضك . . فعد سريعاً إلىٰ حضرموت .

وسافر الوالد بعد أيام من مطار الغرف بسيؤن متوجهاً إلىٰ عدن ، ومنها إلىٰ إندونيسيا ، إلا أنه بعد إقلاع الطائرة من سيؤن انتابه شعور بالضيق والقلق ، وتكدر خاطره ، ولما توقفت الطائرة بمطار القطن القريب من سيؤن كعادتها في تلك الفترة . . زادت الحرارة داخل الطائرة ، والوالد بطبيعته لا يحب الأماكن المغلقة ، خصوصاً مع الحرارة الشديدة ، فقام وخرج من الطائرة وقرر العودة إلىٰ سيؤن ، ولم يكن يعرف أحداً بمطار القطن ، إلا أن أحد الأشخاص واسمه عمر فقيه اقترب منه وقال : هل تريد سيؤن يا حبيب ؟ فلما قال الوالد نعم . . قال له : هٰذه السيارة استأجرتها ، وهي ذاهبة إلىٰ سيؤن ، وهي تحت أمرك ، فركب الوالد السيارة وعاد بها إلىٰ سيؤن .

ولما وصل البيت . . وجد الوالدة وأهل البيت يبكون علىٰ فراقه ، فدخل عليهم بجبته وعمامته ، فطابت الخواطر ورفرفت السعادة علىٰ جنبات البيت ،ولكنه لما طلب الغداء . . وجدهم قد التهموه بالكامل ولم يتبق له شيء ، وفرحت سيؤن كلها بعودة الوالد الذي استقر بعد ذلك بحضرموت ولم يعد يفكر بالعودة لجاوة ، وقد كان لعودته واستقراره بحضرموت فائدة عظيمة ؛ فقد استأنف دروسه وجلساته بمسجد طه ، واستفاد طلبة العلم

وأهله بهـٰذه الدروس ، كما قام بمشروعه العظيم لتجديد وعمارة مسجد طه ، ولو لم تكن عودته إلا لأجل هـٰذا المشروع . . لكفىٰ ، وقد عانىٰ في سبيل هـٰذا المشروع معاناة كبيرة ، وبذل الكثير من الجهد ، وواجه العديد من المشاكل والمعضلات ، وقد تم تفصيل ذلك في مكان آخر من هـٰذه الذكريات .

ولما سقطت الدولة الكثيرية الأخيرة واستولت الحكومة الشيوعية علىٰ مقاليد الحكم بحضرموت وعسفت بالناس عسفاً شديداً . . غادر الكثير من أقاربنا حضرموت واستقروا بالسعودية ، إلا أن الوالد استمر في إقامته بحضرموت ، وواصل التدريس والصلاة بمسجد طه .

وقد وصل إلىٰ جدة في هـٰذه الفترة الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف ، والعم علي بن عبد الله السقاف ، وقد أدىٰ وجودهم واستقرارهم بالسعودية إلىٰ نشوء جو اجتماعي وعائلي مشابه للحياة التي كنا نعيشها بالسابق في حضرموت ، فكنا نجتمع معهم في عدد من الجلسات الخاصة والمناسبات العامة ، كما كانت للحبيب عبد القادر جلساته العلمية والتي يواظب علىٰ حضورها الكثير من الناس .

كما كان من بين الذين انتقلوا إلى السعودية واستقروا بها الأستاذ العلامة محمد بن أحمد الشاطري ، والذي أثرى المجالس بجدة بعلمه وفصاحته وأحاديثه الشيقة ، وكانت لنا مع هـٰؤلاء مجالس متعددة وكثيرة ، ومكث الشاطري فى السعودية أكثر من ثلاثين عاماً لم يزر خلالها حضرموت ، وقد رافقته في أول زيارة له إلىٰ حضرموت بعد هـٰذه الغيبة الطويلة ، والتي استقبل فيها استقبالاً حافلاً من الناس والعلماء بتريم وسيؤن ، ورتبت له زيارة تاريخية لتربة تريم ، حضرها جميع العلماء والأعيان من تريم وسيؤن مع جمع غفير من عامة الناس ، كما انتقل من عدن إلىٰ جدة صديقنا القديم بأسمرة الشيخ محمد باجنيد ، وكان قد استقر بعدن بعد مغادرته أسمرة ، إلا أنه بعد تغير الأحوال السياسية بعدن . . قرر الهجرة إلى السعودية ، ولما وصل إلىٰ

جدة . . نزل بفندق آسيا بباب مكة ، فقمت مع الأخ محمد البيض والعم علي بن عبد الله والحبيب عبد القادر بن أحمد بزيارته والترحيب به في الفندق ، فاستقبلنا في المطعم العلوي بسطح الفندق ، وكان الوقت وقت حج ، وكانت تمر أمامنا أنواع مختلفة من طائرات الحجاج ، وكلما مرت طائرة . . أشار إليها باجنيد وقال : هٰذه الطائرة من البلد الفلاني وهٰكذا ، إلا أنه لم يقدم لنا شيئاً سوى الماء ، فذكر البيض الأبيات التالية والمناسبة لحالتنا :

أبـات الضيـوف علىٰ سطحـه يفـرجهـم فـي نجـوم السمـاء
وقـد قطّـع الجـوع أمعـاءهـم وإن يستغيثـوا يغـاثـوا بمـاء

وقد عاش الأخ محمد باجنيد وعمل في جدة حتىٰ توفي بها ، وكانت بيننا وبينه وبقية أصحابنا من أسمرة النوادر والمساجلات الشعرية ، وقد قام الأخوان سالم بالعمش والبيض باستثارة باجنيد ، فهجاني بقصيدة حمينية لاذعة ، فقمت بالرد عليه بقصيدة من نفس الوزن والقافية ، لا أذكر إلا مطلعها :

يـا بـاجنيـد الهجـو مـا يصلحـك وأنـت حيـاتـك كلهـا مـو غـادة
رسمـت عـادقنـك لخـرقـك صـورة وصحـت بـالمعصـاد يـا عصـادة

وكانت علىٰ ذقن باجنيد ندبة من جرح قديم أفادتني في هجائه ، وكان أولادي يحفظون هٰذه القصيدة ، فإذا حضر أصحابنا من أسمرة إلىٰ بيتي للعشاء . . طلبوا من الأولاد إلقاء هٰذه القصيدة .

وكنا نزور العم حامد المحضار في بيته ، كما كان يزورني في بيتي ، ثم تطورت هٰذه الزيارات وأصبحت جلسة رسمية بعد مغرب كل أربعاء في بيتي ، ويحضرها مجموعة من الكبار ؛ منهم العم حامد المحضار والأستاذ محمد الشاطري ، كما يحضرها أحياناً الحبيب عبد القادر بن أحمد ، إضافة إلى

حضور جلسة الربوعية في منزلي بجدة ويبدو الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف والعم عبد القادر الروش والأخ عيدروس المحضار والعم عبد الله السقاف والسيد محمد البيض إلى اليسار

بقية الإخوان مثل الأخ محمد البيض والأخ علوي بن أحمد السقاف ، كما يحضرها الأخ سالم باحبيشي ، والعم عبد القادر الروش ، والعم محمد المساوي عند زيارتهم جدة ، وقد يحضر أحياناً بعض السياسيين المحترفين مثل الأخ شيخان الحبشي ، والسلطان علي عبد الكريم ، وأدباء من اليمن مثل الحضراني والأخ أحمد محمد الشامي ، اللذَين تعرفت عليهم في زيارتي الأولىٰ لليمن في مطلع شبابي وأنا فىٰ طريقي إلى الحبشة ، وتدور في هٰذه الجلسات الربوعية الكثير من الأحاديث العلمية والأدبية والفقهية ، إضافة إلى الطرف والحكايات ، واستمرت هٰذه الجلسات لفترات طويلة حتىٰ غيب الموت أغلب فرسانها ، فتوقفت جلساتها .

كما كانت لنا جلسة خاصة أخرىٰ مع الحبيب عبد القادر بن أحمد في منزل الأخ عبد الرحمـٰن بن طه السقاف ، يحضرها العم علي والأخ علي بن سميط والأخ طه بن محمد ، وأذكر أنه في أحد المرات حضر معنا الأخ عبد القادر بن محمد بن طه (أبو علوي) ، وبينه وبيننا الكثير من الطرائف ، وقد شاخ وضعفت ذاكرته ، فقام أثناء الجلسة ودخل الحمام ، وفي هـٰذه الأثناء قدم للسلام على الحبيب عبد القادر بن أحمد أحد الضيوف السعوديين ، وجلس معنا ثم خرج علينا أبو علوي من الحمام رافعاً ثوبه وهو يترزح (يا ليلة السعد عودي) ولما دخل علينا في هـٰذه الهيئة . . ضحكنا عليه ، وانزعج الضيف السعودي ، وتصور أن من دخل علينا مجنون خَطِرٌ فَكَّ قيودَه وهجم .

وتعودت أن أقيم مأدبة بسيطة كل عام لأقاربنا القادمين لأداء فريضة الحج ، واستمرت هـٰذه المأدبة لسنوات طويلة ، ثم كبرت وتطورت وأصبحت جلسات عامة يحضرها المئات من معارفينا القادمين للحج والمقيمين بجدة ، كما يحضرها جميع الشيبان المقيمين بجدة والشيبان القادمين من حضرموت ، وتقال فيها كلمات الوعظ والتذكير ، وتنشد فيها الأناشيد .

ويعقب ذلك العشاء ، ثم تبعني العم علي بن عبد الله في هـٰذا التقليد ، فأقام مأدبة مشابهة للحجاج ، لا زالت مستمرة إلى اليوم علىٰ يد ابنه الأكبر حسن ، أما عزومة الحجاج الخاصة بي . . فقد توقفت قبل ثلاث سنوات بعد أن تقدمت بي السن ولم أعد أقوىٰ علىٰ أعبائها ، كما غيب الموت والمرض أغلب الشيبان الذين كنت أحرص علىٰ حضورهم هـٰذه الجلسات .

وبعد مرض الوالد ووفاته استقرت الوالدة بجدة حيث يعيش جميع أولادها وأحفادها ، وكنا نجتمع عندها دائماً ، كما كانت تشجعنا على القيام بالرحلات والنزهات ، والتي يشترك فيها جميع أفراد العائلة ، فذهبنا معها عدة مرات إلىٰ مصيف أبحر بجدة ، وإلىٰ خريص والطائف ، ووصلنا معها في رحلة جماعية إلىٰ مدينة أبها بعسير .

الحبيب عبد القادر بن أحمد يتحدث إلى الحضور في عزومة الحج ببيتي

ورغم دخولي نادي الشيبان . . فقد افتتحت قبل سنوات مغسلة أوتوماتيكية لغسل الملابس بجدة ، واستقدمت لها فنياً من تركيا اسمه نفزات ، عمل فترة

بالمغسلة وحقق بعض الأرباح ، وكان يحترمني ويقبل حتىٰ يدي إذا زرت المغسلة لمتابعة أعمالها ، إلا أنني اكتشفت أنه لم يكن رجلاً أميناً ، فسلمته مستحقاته المالية واستغنيت عن خدماته ، وبعد أن استلم فلوسه . . توقف عن تقبيل الأيدي ، فقلت فيه أبياتاً لا زلت أذكر بعضاً منها :

نفزات بطل ما يحايي السيد
من بعد ما صارت فلوسه بيده
والكلب إذا ما أكل واتسمن
في آخر الأوقات ياكل سيده
ويقول بو ميا إذا تستقدم
من تركيا عامل تمكن قيده

ومن اللطائف أيضاً أنني لما كنت في تركيا حدثت في شقتي مشكلة استدعت حضور السباك ، فجاءني سباك تركي لا يعرف أبجديات السباكة ، وأفسد أكثر مما أصلح ، فأوقفته عن العمل ، ولٰكنه لم يخرج من عندي إلا بأجرة خيالية ، وكان سيء الخلق إلىٰ أبعد الحدود ، ثم بعد أن عاد نفزات إلىٰ بلده تركيا . . كتبت لصديق لي بتركيا لإرسال فني مغاسل بدلاً منه ، وأرسلت له الفيزا وقيمة التذاكر ، وبعد شهر وصل الفني إلىٰ جدة ونحن في أشد الحاجة لخدمته ، إلا أنه لدهشتي الشديدة كان هو نفسه السباك السيء الخلق الذي اختلفت معه في تركيا والذي لا يعرف السباكة ولا يعرف أي شيء آخر ، فلم يسعني إلا الرضا بما حصل ، فاستقبلنا هٰذا السباك ورتبنا له العمرة وزيارة للمدينة ، ثم أعدناه إلىٰ بلده في الأسبوع اللاحق .

ولم تنجح المغسلة فيما بعد ، وحصلت بعض الخسائر ، ومنها أننا سلمنا بعض المعدات الزائدة لوكيل مغاسل يسمى الغادر ؛ إلا أن اسمه انطبق علىٰ خلقه ، فباع المعدات واستولىٰ علىٰ ثمنها ، وقد عرفت أن الأعمال التي

لا يشرف عليها صاحبها إشرافاً يومياً مباشراً وفي غياب إدارة حازمة يندر أن يكتب لها النجاح .

وقد استمرت حياتي في جدة علىٰ نفس المنوال ، وقد فصلت الأحداث المهمة التي حصلت في هـٰذه الفترة في فصول منفصلة من هـٰذه المذكرات .

* * *

بين الحرمين

في صلاة عيد الفطر بالحرم المدني مع أخي أحمد إلى اليسار وابني إلى اليمين
وبأقصى اليمين محمد بن عبد الرحمن السقاف

وقد أكرمني الله تعالىٰ بعد سنوات طويلة من العمل ببناء بيت في المدينة وبيت بمكة ، وكان ذلك بتشجيع من الشيخ أحمد موصلي رحمه الله ؛ فقد اشترىٰ أرضاً بالمدينة ومكة ، وزين لي شراء أرض مثلها ، فحذوت حذوه وامتلكت أرضاً بالمدينة ، وقاولت عليها في عام (١٤٠٥هـ) الجفري ليبني لي بها بيتاً ، وكنت أتابع بناء البيت وأقوم بتكرار الزيارة للمدينة ، كما أحضر معي في كل مرة بسيارتي الجمس بعض المستلزمات حتى استكمل البناء ، فصرت آوي إلىٰ منزلي كلما زرت المدينة .

صورة بيتي في المدينة إلى اليسار

وقد تعودنا قضاء أواخر رمضان وعيد الفطر بالمدينة منذ قدومي السعودية ، وكنا في الأيام الأولىٰ ننزل بفيلا قديمة للمعلم عبد الله بن لادن ، بواسطة السيد طه بن محمد السقاف ، ونسكن نحن وعائلة آل ابن طه في هٰذه الفيلا ، والتي ليس بها فرش أو أدوات ، ونمضي بها أسبوعاً رغم بعدها عن الحرم ، ثم لم تعد هٰذه الفيلا متاحة لاستخدامنا بعد ذلك ؛ فكنا نكلف السيد محمد بن عبد الله السقاف (القبيلي) والمقيم بالمدينة منذ قدومه السعودية قبل خمسين سنة باستئجار بيت لنا بقرب الحرم ، ولم تكن توجد إلا بيوت قديمة ، وبعضها مهجورة ، إلا أن إيجارها لم يكن يتجاوز المئتي ريال لكامل المدة ، فنمضي بها أواخر رمضان وأيام العيد ، وكانت هٰذه الأيام فرصة لتجمع الأهل والأقارب الذين تعودوا مثلنا علىٰ قضاء العيد بالمدينة ، وفي السنوات الأخيرة أصبح غالبية العلويين الحضارمة يتجمعون في المدينة ، كما يحضر الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف ، فيقام العواد في مكان إقامته بأول أيام العيد ، كما يقام عواد باليوم الثاني بمنزل العم علي بن عبد الله السقاف ، وقد انتقل عواد العم علي بعد ذلك إلىٰ بيته بجدة ، ويحضر هٰذين العوادين الكثير من الناس ، وتلقىٰ بالعواد الكلمات ، وتنشد الأناشيد ، ويهنىء الناس بعضهم

البعض بقدوم العيد ، وأذكر أنه لما كنا مرة بعواد الحبيب عبد القادر بالمدينة وكان يجلس بيني وبين الحبيب عبد القادر العم سالم بن عمر(بشيره) ، وهو رجل صالح ، وقد تولى القضاء بتريم ، فلما كان في العواد. . أخذته غفوة خفيفة ، ثم انتبه منها وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي لكل واحد من الحاضرين تمرة ، فاستبشرنا خيراً بهٰذه الرؤيا من هٰذا الرجل الصالح ، وقد تعودت في السنين الأخيرة أن أقيم مأدبة غداء للعم محمد بن علوي السقاف صاحب سربايا ، والمقيم مؤقتاً بالمدينة ، أدعو فيها أولاده وعدداً آخر من أقاربي وأصحابي ، وذلك في اليوم الثاني من أيام العيد ، وتكررت هٰذه المأدبة عدة مرات ، حتىٰ أصبحت من لوازم العيد ، كما يجتمع

عزومة العم محمد بن علوي صاحب سربايا ثاني أيام العيد بالمدينة المنورة

في العيد بمنزلي بالمدينة جميع أولادي بعوائلهم ، فنقضي سوياً أياماً رائعة بين العبادة وزيارة المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم والتمتع بالجلسات العائلية ، ثم يعود كل إلىٰ مكانه بعد اليوم الرابع من أيام العيد .

كما بنيت لنفسي بيتاً بمكة ، وكنت أقضي بمكة يوم الخميس والجمعة من كل أسبوع .

بيتي بمكة المكرمة

ثم لما أثقلتني الشيخوخة . . اقتصرت على الذهاب إلىٰ مكة يوم الجمعة ، كما كان أفراد أسرتي يجتمعون في بيتي بمكة كل خميس في رمضان ، فنفطر معاً ونتعشىٰ ، ثم نذهب للحرم لصلاة العشاء والتراويح ، ونعود بعد ذلك للبيت فنسمر إلىٰ وقت السحور ، ثم أعود بعد ذلك مع الأولاد إلىٰ بيتي بجدة ، وكانت صلاة العشاء والتراويح بسطح الحرم المكي من أسعد الأوقات التي تمر بي ، خصوصاً مع ترتيل أئمة الحرم بأصواتهم الشجية لآي القرآن الكريم .

صورة تراويح الحرم المكي

وكنت أحياناً أتقابل بعد التراويح بسطح الحرم مع الشيخ سالم باحبيشي يرحمه الله ، الذي يقضي كامل الشهر بمكة بجوار الحرم ، فنتجاذب الحديث ونجتر الذكريات ، حتىٰ يخف الزحام فنودع بعضنا البعض ، وأتوجه إلىٰ مواقف السيارات وأعود مع العائلة إلىٰ بيتي بمكة ، وقد قمت قبل سنوات بتحويل هـٰذا البيت إلىٰ عمارة من ثلاثة أدوار وستة شقق وقفتها علىٰ مستوصف عيديد الخيري الذي أسسته بتريم ، واحتفظت لنفسي بشقة بالدور الأرضي أستخدمها في زياراتي لمكة المكرمة وزيارة العائلة ، وقد وفقني الله تعالىٰ فحججت حجاً كاملاً مع المطوفين لعدة مرات ، كما حججت بوالدتي ثم بخالتي زهراء زوج الوالد ابن عبيد الله ، ولما حضر أولادي . . صرت أحج معهم بسيارتي وأقيم معهم بمخيمات المعلم محمد بن لادن في منىٰ وعرفات ، ولما زاد أقاربي وإخواني بجدة . . كنت أقوم باستئجار أتوبيس أحملهم عليه كلهم إلى الحج .

وعندما رأى الوالد علوي يرحمه الله ما نعانيه من الزحام الشديد بالحج . . اقترح علينا أسلوباً مختصراً للحج الصحيح ، ولا غرو ؛ فهو العالم المستنير والفقيه المتبحر .

في إحدىٰ رحلات الحج الكامل بالأتوبيس .

في الخيمة بمنىٰ في سنوات الحج الأولى

وقد درجنا علىٰ طريقته هـٰذه في حجنا كل عام ، فكنا نذهب مع عوائلنا إلىٰ مكة صباح يوم التاسع من شهر الحجة ونطوف ونسعىٰ ، ثم نتوقف فيما يصادفنا من ظل في الطريق إلىٰ عرفات ، ونتناول الغداء الذي أقوم بإعداده مسبقاً في البيت لكل المرافقين .

الغداء قبل الصعود لعرفات ببيتي في مكة

الوقوف بعرفات مع أفراد العائلة

وبعد صلاة العصر نتوجه إلىٰ عرفات ونتجمع للوقوف بها تحت ظل شجرة أو خيمة ، ونقرأ الأدعية المأثورة في هٰذا الموقف ، ثم نصلي بها المغرب والعشاء جماعة ، ونتناول عشاء خفيفاً بعرفات ، ثم ننطلق بعد ذلك بسيارتنا إلىٰ مزدلفة ، ونقوم هناك بجمع حصى الجمار ، ثم بعد الفراغ من ذلك نتوجه إلىٰ منىٰ وننتظر إلىٰ ما بعد منتصف الليل ، فنرمي جمرة العقبة ونتحلل ، ثم نسرع إلى الحرم ونطوف طواف الإفاضة ونتوجه بعدها إلىٰ جدة ، فنصلها قبل ساعات من طلوع الفجر .

ونمكث في جدة حتى اليوم الرابع عشر من ذي الحجة ، فنصعد إلىٰ منىٰ وقد غادرها أغلب الحجيج فنرمي الجمرات عن الأيام الثلاثة المؤجلة في سهولة ويسر ؛ لدرجة أننا في بعض الأحيان كنا نتنقل بالسيارة بين الجمرات ، وبذلك نكون قد أتممنا حجنا الصحيح دون أن تترتب علينا فدية أو دم ، إلا أنه لا يحج معنا من كان يحج حجة الإسلام الأولى التي تستوجب الحج مع المطوفين مع المبيت في منىٰ لثلاثة أيام ، وقد وجدنا في هٰذه الطريقة ما خفف

مع أخي محمد وحسن بن علي بأتوبيس أكبر ، بعد أن زاد عدد الأقارب

علينا مناسك الحج ، ومكّننا من الحج في كل عام ، فلم نتأخر عنه في سنة من السنين ، إلا في السنوات الأخيرة عندما تقدمت بي السن وزاد ضعفي ووهنت قواي ، وقد اشتهرت هـٰذه الطريقة في الحج ، وسماها البعض بحج آل قاضي ، ولما كنت مع الوالد علوي في زيارة للعلامة السيد حسن فدعق بمكة . . وجدنا عنده العلامة السيد حامد المحضار ، فقال السيد حامد : يا عم حسن شف عمي علوي اخترع طريقة جديدة للحج ، وروىٰ للعم حسن فدعق طريقة حجنا متهكماً ، فقال له السيد العلامة حسن فدعق : إن هـٰذه هي طريقة حج الشيخ أحمد بابصيل مفتي الشافعية بمكة ، وبعد سنتين التقيت بالسيد حامد المحضار بمنىٰ وهو يحج بالطريقة التي بينها لنا سيدي الوالد ، فسألته : ماذا حصل يا عم حامد ؟ فقال : لو عندكم طريقة أخرىٰ أسهل من هـٰذه للحج . . قولوا لي عليها .

وكما ذكرت فإننا قد توقفنا عن الحج في السنوات الأخيرة نتيجة الشيخوخة والضعف ، كما يتطلب الحج تصريحاً رسمياً يعطىٰ مرة كل خمس سنوات ، ولعل ذلك مصداق الحديث حجوا قبل أن تمنعوا .

* * *

عمارة مسجد طه بسيؤن

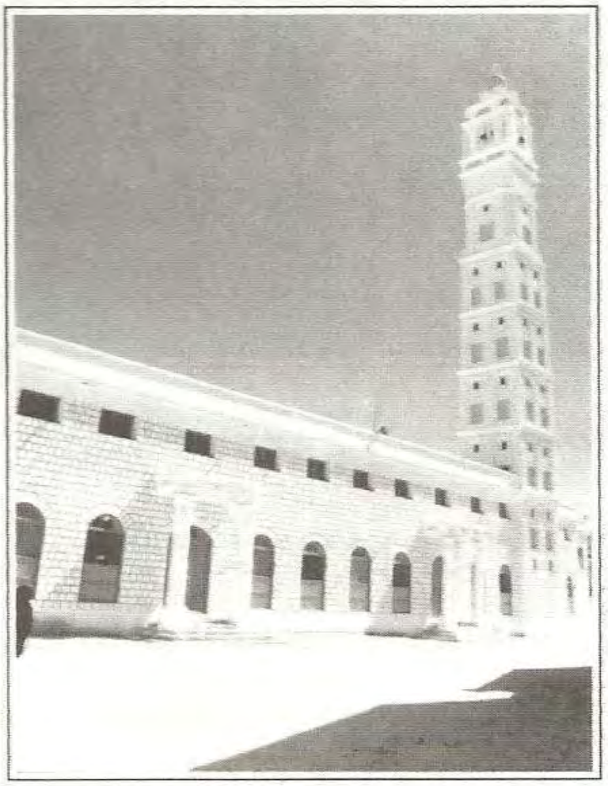

مسجد طه بعد تجديد عمارته

مسجد طه القديم

لما رأىٰ والدي يرحمه الله ازدحام مسجد الجد طه بن عمر بسيؤن بالمصلين ، واضطرار الكثيرين منهم للصلاة خارج المسجد في رمضان وغيره من المناسبات . . فكر في توسعته ، وشجعه علىٰ ذلك ما وصلت إليه حالة المبنى القديم من التدهور ، فرأىٰ أن من الأنسب هدم المسجد القديم وبناء مسجد واسع كبير بناء عصرياً قوياً ، يقاوم الزمن وعوامل المناخ ، فجمع الوالد في بيته أبناءه ونفراً من خاصته وأصدقائه ، وأخبرنا عن نيته بهدم المسجد القديم وإعادة بنائه بطريقة حديثة ، وقام الوالد وتبرع من جيبه لهٰذا المشروع وطلب من كل واحد منا التبرع ، فشجعناه علىٰ همته ، وتبرع كل منا بقدر استطاعته .

كما تبرع الشيخ سالم باحبيشي بمبلغ مئة ألف شلن ، وكان هٰذا المبلغ خرافياً في تلك الفترة ، ولٰكنها همة من همم هٰذا الرجل العظيم ، والذي أسبغ علىٰ حضرموت كثيراً من حسناته ليس أقلها الكهرباء التي دخلت سيؤن لأول مرة بمجهوده وعلىٰ نفقته ، ولم يكن يقصد منها الاستثمار ، بل كان يتصدق بأغلب دخلها .

وقد قام مع الوالد في هٰذا الأمر السيد عبد القادر بن محمد بن طه السقاف المشهور بسيؤن بلقبه بو علوي ، فكان يتصل بالعمال والبنائين ويشارك بجهده ورأيه في جميع شؤون المشروع ، واجتمع الوالد مع البنائين التريميين المشهورين من آل يعمر ، ووضع خطة المشروع ، وفكر بالتنفيذ ، إلا أنه قامت معارضة شديدة من بعض السادة لمشروع الوالد ؛ بزعم أن هدم المسجد سيحرمهم من بقية هامة من بقايا السلف ، كما ادعوا بأنه لا يجوز استخدام مال باحبيشي في بناء المسجد ، مع أن باحبيشي جمع ماله الحلال بعرق جبينه ، وكانت زكوات ماله وصدقاته لا تنقطعان .

وقد ذهب بعض المعارضين إلىٰ تريم لاستعداء علمائها علىٰ هٰذا المشروع ، فلم يتم لهم الأمر كما أرادوا ، واستمرت المعارضة علىٰ أشدّها ، وكثر اللغط ، فقام الوالد بالرد على المعارضين بكتاب جليل ألفه لهٰذا الغرض

وسماه : « النص الوارد في حكم تجديد المساجد » وأورد فيه البراهين الدالة والحجج الدامغة علىٰ مشروعية هدم المسجد وتجديده ، وقد أصبح هٰذا الكتاب بعد ذلك مرجعاً مهماً في هٰذا المجال ، حتىٰ إن السيد الصالح محمد البيتي أخبرني بأن هٰذا الكتاب قد أخمد فتنة بين فريقين في اليمن ، كاد أن ينشب بينهما قتال بسبب الخلاف علىٰ تجديد أحد المساجد .

ولما تهيأ الوالد لبدء المشروع .. أحجم العمال بسيؤن عن قطع نخيل المسجد لوضع قواعد البناء ، وقالوا وقال الناس : أمّا الخضرا ما حد يقطعها ، ووقع الوالد في مشكلة كبيرة إلا أن السيد علوي بن عبد القادر بن محمد بن طه ذهب إلىٰ تريس وأحضر عمالاً من تريس تولوا تهيئة المكان لأعمال التوسعة وقطعوا النخل .

وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل الحائط الذي ابتنىٰ فيه مسجده بالمدينة ، وجعلوا جذوعه في سقف المسجد كما ورد في الحديث .

ثم حدثت مشكلة أكبر عندما وصل التجديد إلىٰ هدم المنارة ، فرفض العمال الاشتراك في هدمها ، وسرت الإشاعات بأنه لو هدمت المنارة .. فستظهر نار تحرق سيؤن كلها ، وكانت العجوز رقيّة من جيران المسجد ، وخافت من اشتعال النيران عند هدم المنارة ، إلا أنه لم يكن معها مكان آخر تهرب إليه ، فبقيت تراقب أعمال المسجد من شرفتها وهي خائفة مما سيحدث .

ومن الطرائف أنه لما كان الوالد يبحث جاهداً عن عمال يوافقون علىٰ هدم المنارة .. جاء لزيارة العم بو بكر بن شيخ أحدُ المغتربين بالسواحل ، فلما جرى الحديث عن المسجد وخوف العمال من هدم المنارة .. قال الرجل للعم بو بكر : أنا يا عم بو بكر باهدمها ولا باخاف من شيء وقد اغتصبت قاضي في السواحل ، فضحك العم بو بكر وبعث للوالد بأنه وجد من يقبل بهدم المنارة ، إلا أن الوالد لم يعجبه الاعتداء على القضاة وهو منهم .

ثم أحضر الوالد بعض العمال ووقف معهم وضرب بنفسه أول ضربة في جسم المنارة ، وتوالت بعد ضربته الضربات حتىٰ سقطت المنارة ، ولم تشتعل النار التي تحدث عنها الناس ، وكانت رقية جارة المسجد تراقب هدم المنارة من شرفتها وهي خائفة ، ولما تم ذلك ولم تشتعل النيران . . قالت لأهلها : الظاهر أن السلف استقردوا ؛ أي أعجبهم الأمر بعد وقوعه .

ومن طرائف العجوز رقية جارة المسجد : أن أحد الشيبان توفيت زوجته ، فطلب منها أن تتكلم له عند أرملة شابة ، فوعدته خيراً ، ولكن الحبيب كلما صلى فرض بالمسجد عرج على بيت رقية ليستفسر عن طلبه ، فتخبره من شرفتها بأنها لم تحصل بعد على الرد المطلوب ، ولما طالت المدة ، وتكررت زيارة الحبيب . . تضايقت رقية ، فقالت له : اطلع يا حبيب ، فصعد الدرج مسرعاً منتظراً الخبر السعيد ، ولكن رقية كلمته من وراء الباب وقالت : إن الحرمة ما بغتك يا حبيب ، ولكنني أنا بغيتك ، فقام الحبيب وخرج مسرعاً وهو يقول : لش جو ، لش جو .

ثم استمر بناء المسجد واستمرت المعارضة والبلبلة ، ولما وصل العم عبد الله بن محمد بن حامد مؤلف كتاب « تاريخ شعراء حضرموت » إلىٰ سيؤن كانت الأمور علىٰ أشدها ، فذهب إليه المعارضون واشتكوا إليه من هدم المسجد ، وطلبوا مساعدته علىٰ وقف المشروع ، فعقد العم عبد الله اجتماعاً في بيته للمعارضين والمؤيدين ، وقال لهم : أنا لا أريد من كل منكم إلا جواباً واحداً فقط (يهدم أو لا يهدم) فدار على الحاضرين وكان العم علي بن عبد الله من الحاضرين ، فلما سأله . . قال العم علي : إذا كان السلف يريدون هدمه . . فسيهدم ، وإذا لم يريدوا . . فلن يهدم ، فأعجب العم عبد الله بهـٰذا الجواب وقال : خلاص ، هـٰذا هو الجواب ، ويترك الأمر للسلف .

ثم لما استمر العمل في المسجد . . تبين أن المشروع أضخم مما جمع له من مال ، ففكر الوالد بالسفر إلىٰ جدة وطلب العون من المعلم محمد بن لادن ، فاستشار والدي الحبيب البركة محمد بن طه السقاف ، فشجعه على

السفر ، ودعا له بالتوفيق ، وقال له : امشي وطه بن عمر قبلك .

وسافر الوالد مع سكرتيره في المشروع السيد عبد القادر بن محمد (بو علوي) إلىٰ عدن في طريقهما إلىٰ جدة ، وأبرقا لي بعزمهم الوصول لأتولى استخراج الفيزا ، غير أن الوالد وصل مع بو علوي إلىٰ عدن ، وتسهلت لهم الأمور بسرعة ، ولم ندر إلا بوصولهم جدة مع أخي عبد الرحمـٰن الذي خرجنا لاستقباله . . فوجدنا بصحبته الوالد وبو علوي من غير توقّع ولا انتظار .

وأبرق الوالد بعد وصوله إلى المعلم بن لادن ، وكان وقتها مقيماً بالهدىٰ مشرفاً بنفسه علىٰ تنفيذ طريق الهدى الجبلي ، والذي لا زال إلى الآن معجزة من معجزات الهندسة والتشييد ، فأرسل المعلم مندوباً عنه مع سيارته الخاصة ، وطلب حضور الوالد لمقابلته ، فذهبت مع الوالد ومساعده بو علوي والأخ طه بن محمد السقاف إلى الهدىٰ لمقابلة المعلم ، فوصلنا الهدىٰ قبل أذان المغرب بقليل .

ولما أقبلنا على المعلم . . وجدناه في مؤتمر مع المندوبين الأمريكان والإنجليز وحشد آخر من مختلف الجنسيات ، يجلس في الفضاء المجاور لبيته ، ولما أبصرنا ورأى الوالد بزيه العلوي المميز . . ترك كل من حوله وقام يقبل رأس الوالد ويديه ، وأخذنا مباشرة إلىٰ منزله وترك المؤتمر والمندوبين .

وكان المعلم محمد بن لادن قد قاول علىٰ طريق الهدىٰ بمبلغ معيّن ، إلا أنه تبين له فيما بعد بأن التكاليف أكثر مما توقعه بكثير ، فتظلم للملك فيصل المعروف بشدته وحزمه ، فقال له الملك : أكمل المشروع من أرباحك السابقة في الأعمال الحكومية .

وجلس الوالد مع المعلم بن لادن بعد صلاة المغرب وشرح له الوالد تاريخ مسجد طه وعرض عليه خارطة المشروع ، وكان المعلم في أثناء ذلك يستمع ويفكر ، ثم قال للوالد : إن شاء الله تذهبون لزيارة جدكم وبعد الزيارة بايكسّر السيل الضمر .

وصلينا العشاء وتناولنا عشاءنا مع المعلم الذي أخذ يباسط بو علوي ويطلب منه

ممازحة أن يبحث له عن عروس بسيؤن ، ثم أيقظونا مبكراً في صباح اليوم الثاني ، وأخبرونا بأن المعلم في السيارة ينتظرنا ليصلي معنا الفجر بمسجد ابن عباس بالطائف ، وهي مسافة ليست قصيرة ، خصوصاً وأن الطريق لم يكتمل بعد .

ولما دخلنا مسجد ابن عباس مع المعلم . . سمعت المصلين يتهامسون من حولي بوصول المعلم ، وبعد الصلاة . . جلس المعلم في سيارته بجوار السائق ، وفتح درج السيارة وأخرج ربطاً من النقود من فئة العشرة والخمسين والمئة ريال ، وتجمهر حوله الناس ، فأخذ يوزعها عليهم ، وكلما انتهت ربطة . . أخذ الثانية ووزعها ، ولا يفرق بين العشرة ريال والمئة ريال ، حتىٰ نفد ما معه ، فأمر سائقه بالتحرك إلى الهدىٰ .

وبعد مقابلة المعلم . . عدنا إلىٰ جدة ، ثم أرسل لنا المعلم سيارة من سياراته الخاصة لتأخذنا إلى المدينة المنورة ، فذهبت معه ومع بو علوي وابني علي ، ورتب المعلم نزولنا في فندق التيسير أكبر وأفخم فنادق المدينة في ذلك الوقت ، وبعد زيارة المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم . . عدنا إلىٰ جدة ، فوجدنا الأخ طه بن محمد السقاف ينتظرنا ليبشرنا بأن المعلم قد تبرع للمسجد بثلاث مئة ألف شلن ، وأن مشكلة المعلم في التعويض قد حلّت ؛ حيث عاد الملك فيصل رحمه الله وأمر بصرف كل ما خسره المعلم في المشروع ، واعتقد المعلم جازماً أن الزيارة قد آتت أكلها ؛ حيث إنه كرر الطلب من الوالد أن يدعو له بالفرج عند جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكأنه مرسل منه إليه .

ثم أدى الوالد وبو علوي العمرة وسافرا إلىٰ أسمرة لزيارة صديقهم الشيخ سالم باحبيشي وإطلاعه علىٰ ما تم في المشروع ؛ حيث يعتبر الشيخ سالم باحبيشي أول وأكبر مساند للمشروع ، وقد فاجأهم الشيخ سالم باحبيشي بتبرعه بمئة ألف شلن أخرىٰ للمسجد ، وكتب علىٰ نفسه ورقة ببيع بيوته في حضرموت إذا لم يقدر علىٰ تسديد هـٰذا المبلغ الكبير ، كما أحضر من صاحبيه عمر بن سعيد العمودي وأخيه محمد أربعين ألف شلن أخرىٰ ، وهـٰكذا عاد الوالد إلىٰ حضرموت سعيداً بما حققه من نجاح ، وما صادفه من تسهيل ، مما

يدل علىٰ أن السلف كانوا معه في هٰذا المشروع وفي هٰذه الرحلة ، وتمت عمارة مسجد طه الذي لم تتوقف أثناء عمارته الصلوات والدروس ، وأصبح المسجد جامعاً في حضرموت ، وأكبر مساجدها في ذلك الوقت ، وقد تأكد الجميع من حصافة رأي الوالد وبعد نظره بعد امتلاء المسجد بالمصلين رغم اتساعه .

وفي الأيام الأخيرة ضاق المسجد بالمصلين مرة أخرىٰ ، وبدأت فيه توسعة أخرىٰ جديدة .

* * *

وفاة الوالد علوي بن عبد الله السقاف

الجد علوي مع أفراد من عائلته بمنى في حجته الأخيرة

وفي سنة (١٩٧٢م) وصل الوالد علوي مع الوالدة خديجة إلىٰ جدة ، ومكثا معنا عدة أشهر ، وقد سعدنا وسعد الأهل والأقرباء بوجودهم معنا في جدة ، ثم أصيب الوالد بدوالي المريء ونزف منها ، فنقلناه إلى المستشفى الوطني بجدة ، ولما لم يستجب للعلاج . . نصحنا الدكتور محمد البار بنقله إلى القاهرة ، فأبرقت للإخوان عبد الرحمـٰن وسقاف ومعهم أولادي علي وحسين الذين يدرسون الطب بالقاهرة بما حصل ، وبنيتنا إحضار الوالد للعلاج بمصر ، وسافرت مع الوالد والوالدة على الطائرة السعودية ، وكان الوالد مسدوحاً علىٰ سرير أعد له في مؤخرة الطائرة ، ونحن إلىٰ جانبه ، ولما وصلنا القاهرة . . أخذتنا سيارة الإسعاف من الطائرة إلى المطار ، ثم أنهينا إجراءات المطار وأخذنا سيارة إلى الشقة التي يقيم بها الإخوان ، وطلبنا للوالد كبار أساتذة الجراحة بمصر ، فنصحوا بإدخاله مستشفىٰ دار الشفاء بالعباسية ، ومكث الوالد بالمستشفىٰ أياماً ، وكان يعطىٰ قرب الدم ، ولـٰكنه كان ينزفها

بعد ذلك ، وكان الوالد يرقد في سريره وكنت ملازماً له بالمستشفىٰ .

أما الوالدة فكانت تجلس بشقة الإخوان وتحضر للمستشفىٰ بين الحين والآخر ، وكان الوالد في شبه غيبوبة ، ويغذىٰ بالدم والمغذيات ، وفي يوم وفاته قام فجأة من سريره وطلب مني مساعدته على الذهاب للحمام للوضوء ، فساعدته وتوضأ ، ثم عاد إلىٰ سريره وركع ركعتين وأنا مستبشر بحصول العافية ، وكان معي ولدي علي ، وكان يقول لنا : أعانكم الله ـ ويكررها ـ ثم قال لي : لقني الشاهدتين ، فلقنته الشهادتين ، وكنت وأنا في تلك الحال في حيرة من أمري ؛ فهل ترىٰ لو نزل بالوالد قضاء الله هل ننقله إلىٰ جدة أم حضرموت ؟ ولم يكن نقله إلىٰ جدة سهلاً ؛ فلم أكن قد تحصلت على الجنسية السعودية ، كما كانت الأمور بحضرموت في ذلك الوقت في غاية الشدة والخطر ، وكانت الحكومة الشيوعية تحبس الأبرياء وتؤذي المغتربين ـ وأنا منهم ـ وعائلتي وعملي بجدة ، كما أني لم أكن لأتأخر عن أي طلب لوالدي ، ولما كنت في حيرتي . . قال لي الوالد ـ وكأنه يعرف ما يدور بخاطري ـ : إذا مت فادفني حيث أموت ، وبعد أن نطق بالشهادتين انسدح علىٰ سريره ، وصعدت روحه إلىٰ بارئها ، وحزنت لوفاته حزناً شديداً ، كما حزنت حضرموت بأسرها علىٰ فقده ، ولٰكن لا مرد لقضاء الله ، فشيعنا الوالد مع مجموعة من الحضارم المقيمين بمصر ، ودفن في مقابر اليمنيين بالقاهرة ، والتي قام بإعدادها وتخصيصها الشيخ سالم باحبيش ، والذي دفن فيها بعد ذلك أيضاً يرحمهما الله .

وقد عاشت الوالدة خديجة بعد وفاته معنا في جدة ، وكانت تقيم بمنزل أخي عبد الرحمٰن ، وكنا سعداء بوجودها بيننا ، وكانت تجمعنا عندها في أغلب الأحيان ، كما تنقل إقامتها بين أبنائها في جدة بين الحين والآخر ، حتىٰ إنها قامت بزيارة أخي طه في تعز باليمن ومكثت عنده شهرين ، وقمت بزيارتها في تعز ومكثت معها أسبوعين فوجدتها مرتاحة وسعيدة ومستمتعة بتعز وجوها البديع ، وكانت الوالدة تحرص على القيام بالنزهات والرحلات الجماعية لكافة

أفراد العائلة ، وقد تجمع عندها بجدة قبل وفاتها كافة أبنائها حتى الأخت نور وصلت من حضرموت وأقامت مع الوالدة ، إلا أن الوالدة انتقلت بعد صلاة الفجر في عام (١٩٨٥م) إلىٰ رحمة الله دون سابق مرض ، ودفنت بمقابر الحجون بمكة قريباً من السيدة خديجة الكبرىٰ .

وقد اعتنى الابن محمد بن عبد الرحمـٰن بن علوي السقاف بإقامة حفل تأبين سنوي لجده علوي بمنزله بجدة ، يجمع فيه من ذرية الجد علوي وقرابته وبعض من أهل العلم ويولم لهم ، وتقرأ فيه سيرة الوالد ويترحم عليه الحاضرون ، فجزاه الله خيراً عن هـٰذا العمل الطيب .

* * *

قصة الحصول على الجنسية السعودية

وقد صرت بعد استقراري بجدة ووصول عائلتي حريصاً على الحصول على الجنسية السعودية ، وقد واتتني الكثير من الفرص للحصول عليها .

وقد كلفني الشيخ محمد باحارث الذي كنت أتولىٰ إدارة بعض عقاراته الإشراف علىٰ تنفيذ عمارة بسوق الندىٰ بجدة ، لوالدة الأمير فهد بن عبد العزيز وزير الداخلية في ذلك الوقت ، والتي تتولىٰ بناءها شركة النصر

للمقاولات ، فقمت بالإشراف علىٰ هـٰذه العمارة من بداية بنائها حتى انتهائها ، ثم بعد الانتهاء من بنائها طلبوا منا القيام بتأجيرها ، وكان واسطتنا الشيخ محمد باحارث ، وأذكر أنني قلت للشيخ محمد باحارث ، إن عمولتنا ستكون خمسة في المئة كما نأخذ من بقية الناس ، إلا أن باحارث قال : إن هـٰذا مبلغ كبير لعمارة كبيرة ، فوافقت على اثنين ونصف في المئة .

وعند حضور الأميرة إلىٰ جدة أذهب إلىٰ بيتها بكشوفات الإيجار مرة كل ستة أشهر ، ومعي شيك بمبلغ الإيجار ، فأقابل ابنها الأمير تركي بن عبد العزيز الذي ينوب عن والدته ، فأجلس مع الأمير تركي بن عبد العزيز وهو في منتهى اللطافة وحسن الخلق ، ويستقبلني بمنتهى الاحترام ، ويناقشني في الكشوفات ، ثم أسلم الشيك لابن دحام وزير الأميرة وأنصرف .

وصارت بيني وبين الأمير تركي علاقة طيبة ، ثم حاولت أن أستفيد من هـٰذه العلاقة في الحصول على الجنسية السعودية ؛ حيث إن الأميرة التي أخدمها بمنتهى الأمانة والإخلاص هي والدته ووالدة الأمير فهد وزير الداخلية ، وله الدور الأكبر في منح الجنسية ، فطلبت من ابن دحّام أن يبلغ الأميرة بأنني مقيم بالمملكة منذ سنوات طويلة ، وأرغب في الحصول على الجنسية ، وهي تعرف منذ فترة أمانتي وحسن تعاملي ، وكان الأمير فهد وزير الداخلية يزور والدته في كل ليلة ، وقال لي ابن دحام فيما بعد بأن الأميرة قالت للأمير فهد بأن هـٰذا مثل ابني ، ولا بد أن تعطوه الجنسية ، وهو مقيم منذ فترة طويلة وننتفع به كثيراً ، فاتصل بي ابن دحام وطلب مني أن أكتب عريضة تقدم للأمير فهد عندما يزور والدته في الليلة الثانية ، وفعلاً كتبت عريضة موجهة لوزير الداخلية بطلب الجنسية السعودية وأعطيتها لابن دحام ليسلمها للأمير فهد عند حضوره لرؤية والدته ، فكتب عليها الأمير فهد بخط يده : (يرفع عنه للمقام السامي لمنحه الجنسية) وتصورت عندئذ أن الموضوع في حكم المنتهي ، وأنه بمجرد اجتماع مجلس الوزراء سيصدر الأمر بمنحي الجنسية ، وصرنا نترقب الاجتماع القادم لمجلس الوزراء بفارغ الصبر ، ووكلت الأخ

محمد بن عبد القادر بن جعفر السقاف بالرياض بمتابعة المعاملة بعد صدورها من مجلس الوزراء ، فاتصل بي بعد فترة وأخبرني بأن المعاملة قد صدرت وأنها تحولت إلىٰ مصلحة الجوازات بجدة ، فانتظرت وصولها بفارغ الصبر وأنا متأكد أن الأمور قد تمت ؛ لقوة الأسباب التي اتخذتها ، إلا أنني اكتشفت فيما بعد بأن طلبي قد رفض ، وأنه لم تتم الموافقة علىٰ منحي الجنسية ، وقد اشتهر الملك فيصل بالشدة والحزم ، وكان يقرأ بنفسه جميع المعاملات ويكتب عليها بخط يده ، وقد أخبرني ابن دحام بعد ذلك بأن الملك فيصل قد كتب علىٰ معاملتي بخط يده : (يستمر في الإقامة) .

وهٰكذا فشلت محاولتي الأولىٰ للحصول على الجنسية رغم قوة الأسباب التي اتخذتها ، ولعل الله لم يقدر لي في ذلك الوقت الحصول على الجنسية السعودية ، ثم مرت سنوات طويلة بعد ذلك وكنت أتحدث في أحد المرات مع أحد التجار الحضارمة المتعاملين بالعقار ، واسمه بالبيد ، فأخبرني بأنه قد حصل على الجنسية السعودية ، وساعده على الحصول عليها الشيخ عبد الرحمـٰن النانيه ، وهو من أقرب أصحابي ، وتمتد علاقتي القوية به وبوالده لفترة طويلة ، فذهبت إلى الشيخ عبد الرحمـٰن النانيه ـ وهو رجل شهم وخدوم ـ وأخبرته بقصتي مع الجنسية ومحاولتي التي لم يكتب لها النجاح ، فقال لي : لماذا لم تخبرني من قبل وأنا بذلت جهدي لبالبيد وأنت الأولىٰ بالخدمة .

وكانت معاملات التجنس التي تقدم للأمير خالد بن عبد العزيز الذي ينوب عن الملك فيصل عند سفره للخارج هي المعاملات التي يكتب لها النجاح ، وحيث إن الشيخ صالح العباد رئيس الديوان الملكي من أصدقاء الشيخ عبد الرحمـٰن النانيه . . فقد ذهب إليه ورجاه تقديم معاملتي لنائب الملك الأمير خالد بن عبد العزيز .

وبعد فترة طويلة زارني بمكتبي الأخ عبد الرحمـٰن النانيه يبشرني بصدور الموافقة الملكية علىٰ منحي الجنسية السعودية ، وكنت أجلس مع السيد محمد

البيض الذي سبقني بالحصول على الجنسية السعودية بمساعدة الشيخ عبد الله بالخير .

وعندما راجعت وزارة الداخلية لاستكمال إجراءات المعاملة . . عرفت بأن تنفيذ منح الجنسية قد توقف ، ولا بد أولاً من موافقة وزير الداخلية عليها ، وهٰذا قد يحتاج إلىٰ معاملة طويلة ، فذهبت لمقابلة صديقي عبد العزيز السالم السكرتير الخاص للأمير فهد وزير الداخلية ، فاعتذر عن مساعدتي ، ولمَّا أخبرته بقصة الخطاب الذي قدمته لوالدة الأمير فهد ، والذي شرح عليه الأمير فهد بخط يده . . قال : أرني هٰذا الجواب ، ولما اطلع عليه ورأىٰ شرح الأمير فهد عليه بخط يده . . قال لي : إن في هٰذا الكفاية ، وشرح الأمير فهد تعني موافقته علىٰ منحك الجنسية .

فسررت بهٰذا الكلام ، خصوصاً وأنني قد يئست من الحصول على الجنسية السعودية بعد صدور الاشتراطات الجديدة .

كما لم تشمل الجنسية أولادي البالغين ، واضطررت للدخول في إجراءات طويلة حتىٰ تمكنت من ضم جميع أولادي إلى الجنسية السعودية ، وهٰكذا عرفت أن لكل شيء وقته ، وأن كل أمر مرتبط بقدرة الله ومشيئته ، وقد شاء الله وجاء الوقت المناسب لي لأخذ الجنسية :

لكل شيء في الزمان وقته وغاية المستعجلين فوته

وقد أفادتني الجنسية السعودية في كثير من الأمور ، كما تمكن أولادي من الالتحاق بالمدارس والجامعات التي يرغبونها ويريدونها ، وأصبحوا جميعهم يحملون شهادة الدكتوراة ويعملون في الوظائف العليا . ولله الحمد والمنة .

* * *

مع الأخ محمد البيض في أول رحلة سياحية

بعد أن مرّت علي بجدة سنوات طويلة من العمل المضني والمجهود الشاق تعرضت خلالها للكثير من الضغوط العملية والنفسية.. قررت القيام عام (١٣٩٠هـ) برحلة ترويحية مع صديقي السيد محمد البيض، ولم تكن لنا معرفة بالبلدان أو بمواسم السفر، وإنما وجدنا فسحة من الوقت فقررنا القيام برحلة إلىٰ إيران، ومنها للعراق، ثم السفر من هناك إلىٰ تركيا وأوربا، فسافرنا معاً بالطائرة السعودية إلى الرياض، وبتنا بالرياض ليلة واحدة بمنزل قريبي وابن خالتي الأخ محمد بن عبد القادر السقاف فأكرم وفادتنا وأحسن ضيافتنا، ثم سافرنا في اليوم الثاني بالطائرة إلى الدمام، ومنها إلىٰ شيراز إيران في أيام الشاه محمد رضا بهلوي، ولم تكن لنا معرفة بأحد في تلك البلاد.

ولما وصلنا المطار وأنهينا كافة الإجراءات.. ركبنا سيارة أجرة وطلبنا الذهاب لفندق من فنادق الدرجة المتوسطة، وقد وجدنا صعوبة في الحصول علىٰ غرفة شاغرة بفندق، ومر بنا التاكسي علىٰ عدد من الفنادق، فكانت كلها مشغولة ولا توجد بها حتىٰ غرفة واحدة شاغرة.

وبعد فترة من البحث المضني وجدنا غرفة شاغرة بفندق واقع بأطراف المدينة، فألقينا عصا الترحال بهـٰذا الفندق، واسترحنا من وعثاء السفر، ثم قمنا في اليوم الثاني لوصولنا بجولة سياحية علىٰ مدينة شيراز عرفنا منها ما استطعنا أن نعرفه، ثم قررنا التوجه إلىٰ مدينة أصفهان، فاستأجرنا تاكسي نقلنا إلىٰ أصفهان ـ وبينها وبين شيراز مسافة ليست كبيرة ـ ولما وصلنا أصفهان.. بحثنا عن فندق، فوجدنا جميع الفنادق مشغولة؛ حيث تصادف وصولنا مع عيد النيروز الذي يحتفل به الإيرانيون وتعطل فيه المدارس والأعمال.

ولما فشلنا في الحصول علىٰ غرفة شاغرة في أي فندق من فنادقها.. اتجهنا بالتاكسي إلىٰ فندق من الفنادق الكبيرة، فلما وصلناه.. وجدنا واجهته مغطاة بالبيارق والأعلام، وحوله الشرطة والجنود؛ حيث ينزل بهـٰذا الفندق الوزراء وكبار الشخصيات، فدلفنا لبهو الفندق وأبقينا التاكسي في الانتظار واتجهنا إلىٰ

موظف الاستقبال فأخبرنا بتوفر الغرف الشاغرة ، إلا أنه ذكر لنا أسعاراً لا نطيقها ، فرجعنا إلى التاكسي وذهبنا نبحث عن فندق آخر ، وبعد مشقة وتعب . . وجدنا غرفة بفندق أخبرونا بأنها ستكون شاغرة في صباح اليوم الثاني ، فاضطررنا إلىٰ قضاء ليلتنا ببهو الفندق بجوار شنطنا حتىٰ تم تجهيز الغرفة لنزولنا في اليوم الثاني ، فسكناها ووضعنا فيها متاعنا وارتحنا من عناء اليوم السابق ، وكانت غرفة جيدة ونظيفة رغم كون الفندق من فنادق الدرجة المتوسطة .

ولما أطللنا على المدينة من نافذة الفندق في صباح اليوم الثاني . . انبهرنا بجو المدينة الفضي الساحر ، ويكون كذلك في عيد النيروز ؛ حيث يعتدل الجو ويكون مبهجاً وجميلاً .

وبعد تناول الفطور بالفندق ذهبنا نتجول بالمدينة فوجدناها مدينة منظمة وجميلة ، وبها الكثير من الحدائق والمتنزهات ، كما أكلنا من طعامهم المكون من الرز الإيراني الأبيض واللحم المشوي ، فوجدنا له مذاقاً عجيباً .

وقد زرنا بعض الأماكن الأثرية ، ومنها قبة عجيبة لأحد الأولياء عندهم ، بها منارة طويلة من الطوب الأحمر ، يتسلقها الأطفال فتنحني معهم حتىٰ يلامس رأسها الأرض ، ثم يتركوها فتعود مستقيمة وسليمة كما كانت من قبل .

ولما حل وقت الصلاة . . دخلنا أحد المساجد فوجدنا بداخل المسجد ستارة تفصل الرجال عن النساء ، وكان بعض المصلين يدخنون داخل المسجد ، وإذا اتجه الرجال لمكان الوضوء . . خلعوا ملابسهم الخارجية وعلقوها ثم دخلوا الميضأة ، وإذا فرغوا من الوضوء . . اتجهوا إلىٰ حوض كبير به أحجار من كربلاء فيأخذ كل منهم حجراً من هـٰذه الحجارة ويدخل به المسجد ليسجد عليه أثناء الصلاة ، ولما قامت الصلاة . . وجدنا أنها صلاة مختلفة عن صلاتنا ، وفيها الكثير من اللخبطة ، وكان الإمام يجهر بقراءة التشهد ، ولما زادت علينا اللخبطة في الصلاة . . قطعنا صلاتنا وغادرنا المسجد .

وبعد أيام سافرنا بالطائرة من أصفهان إلىٰ طهران ، وقضينا بها يومين ، ثم غادرناها بعد ذلك بالطائرة إلىٰ بغداد عاصمة العراق ، ولم تكن لنا خبرة بالسفر ولا معرفة بالحجز المسبق في الفنادق ، ولهٰذا لما وصلنا مطار بغداد انطلقنا بتاكسي وطلبنا من سائقه أن يأخذنا إلىٰ فندق مناسب ، فأخذنا إلىٰ فندق الرشيد ، وتصورنا من اسمه أن يكون فندقاً فاخراً ، ولٰكننا وجدناه فندقاً قديماً ، وفي حارة من الحواري القذرة ، فتركناه وطلبنا من التاكسي أن يأخذنا إلىٰ فندق آخر ، فاتجه بنا إلىٰ فندق آخر ، ولٰكننا لما دخلنا بهو هٰذا الفندق . . وجدنا به مجموعة من العراقيين لهم ملامح غليظة ووجوه متجهمة ، ومظهر ينذر بشر مستطير ، فغادرنا الفندق على الفور وطلبنا من التاكسي أن يأخذنا إلىٰ فندق آخر ، فاتجه بنا إلىٰ منطقة السعدون ـ وبها عدد من الفنادق الحديثة ـ فوجدنا فندقاً كان في السابق قصراً من القصور الملكية ، ثم تحول بعد الثورة إلىٰ فندق ، فنزلنا به واسترحنا من عناء السفر .

ثم قمنا في الأيام التالية بكثير من الجولات السياحية ببغداد وما حولها ، وزرنا الأماكن والمآثر التاريخية ، وتنسمنا تاريخ الدول الإسلامية العظيمة التي قامت في هٰذه الأماكن ، وتواردت علينا أسماء الشعراء والأدباء الذين تغنوا بهٰذه الأماكن وخلدوا ذكراها علىٰ مر الزمان .

ثم بعد أن قضينا وطرنا من العراق توجهنا علىٰ قطار الشرق السريع باتجاه تركيا ، وكان الجزء العراقي من قطار الشرق متواضعاً وعرباته قديمة ومتهالكة ، فشمر بنا القطار وسار بنا حتىٰ وصلنا الحدود السورية ، وهناك تغيرت عربات القطار وتحسن مستواها .

وعندما دخلنا الحدود التركية . . أصبحت عربات القطار أفخم وأنظف ، وبها الموظفون والمباشرون الأتراك الذين كانوا في غاية النظافة وأناقة الهندام ، وقد حجزنا لأنفسنا بهٰذا القطار كبينة خاصة ، ولما شاهدنا أحد عمال القطار الأتراك نصلي . . اهتم بأمرنا وأخذ يخدمنا بعناية خاصة ، ولما سألناه عن وجود مطعم بالقطار ؟ أجاب بالإيجاب وأخذنا إلىٰ عربة المطعم ، فإذا بنا

ندخل مطعماً فاخراً جوانبه من الزجاج ، فكان رواد المطعم يأكلون ويتمتعون بالمناظر الطبيعية في الطريق ، وقطار الشرق السريع ينهب بهم الأرض نهباً .

ولما قدمت لنا قائمة الطعام بمطعم القطار.. وجدنا وجبة تسمىٰ (البرازولا) فأعجبنا اسمها وقررنا أن نجربها ، وإذا بها لحم الضلوع المشوية ، فالتهمناها ووجدنا طعمها لذيذاً جداً .

واستمرت رحلتنا بالقطار لمدة ثلاثة أيام حتىٰ وصلنا إلىٰ محطة أيمنون باسطنبول ، فأخذنا أغراضنا واتجهنا إلىٰ فندق وجدنا به غرفة شاغرة سكنا بها .

وقد أعجبتنا المناظر الطبيعية الخلابة باسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية السابقة ، وتجولنا بالمدينة طولاً وعرضاً مشياً وركوباً ، ثم قررنا أن نسجل جوازاتنا بالسفارة السعودية حتىٰ لا تضيع علينا ونبقىٰ دون هويات ، فركبنا سيارة أجرة وطلبنا من السائق توصيلنا للسفارة السعودية ، ولا يجيد الأتراك من اللغات الأجنبية إلا بعض الكلمات العربية التي تزخر بها اللغة التركية .

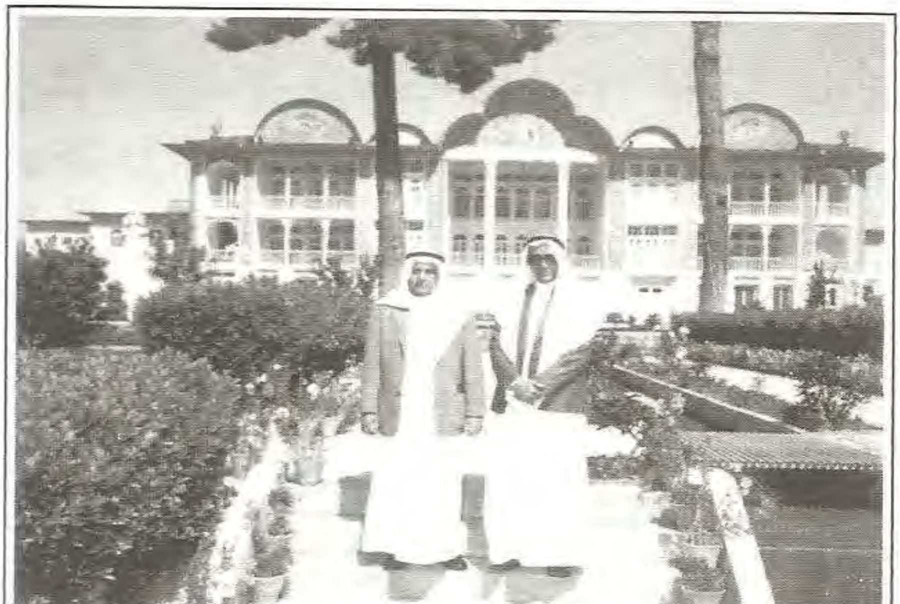

مع السيد محمد البيض في رحلتنا الأولىٰ لاسطنبول

ولما وصلنا إلىٰ مبنى السفارة وقدمنا جوازاتنا إلىٰ موظف الاستقبال.. أخبرنا بأننا في القنصلية المصرية وأن السعودية ليس لها تمثيل إلا في العاصمة

أنقرة ، وليس لها قنصلية باسطنبول ، إلا أنه قال لنا : (نحن كلنا عرب ومسلمون ، وسنسجل جوازاتكم عندنا) وطلب منا الانتظار لحين حضور القنصل ، ولما وصل القنصل . . وجدناه شخصاً لطيفاً ، فاستقبلنا استقبالاً حسناً ، ورحب بنا ، وبعد أن سجل جوازاتنا . . أخذنا بسيارته في جولة سياحية باسطنبول ، ثم دعانا في اليوم الثاني للغداء بمنزله ، وجاءنا بسيارته إلى الفندق وأخذنا إلىٰ بيته ، حيث أعدت لنا زوجته طعاماً لذيذاً ومتنوعاً .

ثم بعد أن مكثنا باسطنبول أسبوعاً كاملاً . . تجولنا في أنحائها وزرنا مساجدها ومتاحفها ، وقررنا مواصلة الرحلة بالسيارة إلىٰ أوروبا ، فاتجهنا إلى السفارة البلغارية التي تمثل أولىٰ مراحل الطريق ، وكنا لا نستطيع كسعوديين زيارة البلدان الشيوعية ، إلا أن السفارة البلغارية وافقت علىٰ إعطائنا فيزا خارج الجواز .

ثم جهزنا أنفسنا للسفر إلىٰ بلغاريا ، وودعنا صديقنا القنصل المصري ، وركبنا الأتوبيس السياحي المتجه إلىٰ بلغاريا ، وكان بالأتوبيس كثير من الركاب العرب الذين كانوا يرقصون ويغنون أثناء الرحلة ، أما أنا والسيد البيض . . فقد كنا صامتين نتفرج من نافذة الأتوبيس على المناظر الطبيعية الخلابة التي تمتد أمام أعيننا من جميع الاتجاهات .

ولما وصلنا إلىٰ بلغاريا . . اتجهنا إلىٰ مكتب السياحة الحكومي ؛ حيث لا توجد بهٰذا البلد الشيوعي فنادق مثل البلاد الأخرىٰ ، ووقفنا مع الآخرين بالطابور ، ولما جاء دورنا . . أعطونا عنواناً وقالوا لنا : اتجهوا بالتاكسي إلىٰ هٰذا العنوان ، وستجدون السكن الذي يناسبكم ، وكانت الحكومة الشيوعية في بلغاريا توزع الشقق السكنية على العمال وتقسط ثمنها عليهم ، وتلزمهم مقابل ذلك بإيواء السياح ، ولما وصلنا إلى العنوان . . قابلتنا عمارة سكنية كبيرة ، فطلبنا من السائق أن يساعدنا في الوصول إلى الشقة المعينة لنزولنا ، فأخذنا إلىٰ دور من أدوار العمارة وقرع الباب ، فظهر لنا صاحب الشقة وهو من العمال وتبدو علىٰ وجهه أمارات الإعياء والتعب ، فاستقبلنا وأخذنا إلى الغرفة

المخصصة لنزولنا في شقته ، وكان يعيش فيها مع زوجته ، ويذهبان معاً في الصباح إلى العمل ولا يعودان إلا في الليل وقد بلغ منهم الإجهاد مبلغه .

وقضينا في هٰذا السكن أياماً كنا نخرج فيها صباحاً لمشاهدة معالم العاصمة صوفيا ، ونجلس أحياناً في قهوة يرتادها العرب ثم نعود ليلاً للمبيت بمسكننا الفندقي ، وحدث في ليلة من الليالي أن كنا نؤدي الصلاة مع الأخ محمد البيض في الغرفة عندما دخل علينا البلغاري ، فاستغرب مما نفعله وأعجبه ما نحن عليه أثناء الصلاة من السكينة والسكون ، فخرج واستدعىٰ زوجته وجلس معها صامتين يراقبان صلاتنا وهما في غاية التأثر والحسرة علىٰ حالهم وعدم معرفتهم للصلاة ، وتمنينا ساعتها أن لو كنا نعرف لغتهم حتىٰ ندعوه وزوجته للإسلام ، غير أن هٰذا لم يكن ممكناً في زمن الدولة الشيوعية والتي تتحكم في أمور مواطنيها العامة والخاصة .

وبعد أن مكثنا ببلغاريا عدة أيام . . قررنا السفر براً إلىٰ إيطاليا عبر يوغسلافيا ، وكان بعض العرب الذين جلسنا معهم في المقهىٰ قد أكدوا لنا بعدم حاجتنا الحصول علىٰ فيزا ؛ حيث يسمح لكل العرب بدخول يوغسلافيا بمنتهى السهولة وبدون الفيزا ، واعتماداً علىٰ هٰذا الكلام ركبنا القطار المسائي المتجه إلىٰ يوغسلافيا ، ولما وصلنا الحدود اليوغسلافية . . طلع ضابط الحدود اليوغسلافية إلىٰ عربتنا المليئة بالعرب وأخذ يتحرك بين الصفوف ويختم الجوازات ، ولما وصل إلينا . . أخذ جوازاتنا وأخذ يتفقدها ، ثم طلب منا النزول إلىٰ خارج القطار مع أغراضنا ، ولم نستطع التفاهم معه أو إقناعه بمعاملتنا مثل بقية العرب ، ولم نملك إلا مغادرة القطار ، وذهبنا نتبعه إلىٰ نقطة الشرطة التي دخل فيها وبيده جوازاتنا ، ولما دخلنا خلفه لهٰذه الغرفة . . نهرنا وقال : انتظروا بالخارج عند تلك الشجرة ، وأفهمنا أنه سيعيدنا إلىٰ بلغاريا ؛ لأننا وصلنا دون فيزة دخول ليوغسلافيا .

ووقعنا في مشكلة كبيرة ؛ فلم نكن نستطيع العودة إلىٰ بلغاريا بدون فيزا دخول لبغاريا ، ولا نستطيع دخول يوغسلافيا ونحن في بلاد غريبة كافرة

لا نعرف لغة أهلها ، وقد أصيب الأخ محمد البيض بارتباك شديد ، أما أنا فقد كنت مطمئناً إلىٰ فرج الله الذي لا يتخلىٰ عني في الشدائد .

وهٰكذا أمضينا ليلة باردة في العراء تحت الشجرة بانتظار القطار الذي سيعيدنا إلىٰ بلغاريا ، ولم نكن نعلم ما ينتظرنا على الحدود البلغارية ، وبعد فترة طويلة من الانتظار . . تغير طاقم الحدود اليوغسلافية ، وحضر ضابطان جديدان بدت عليهم اللطافة وحسن الخلق ، فذهبنا إليهم في النقطة ، فدعونا إلى الجلوس ، وكان هٰذا دلالة علىٰ تغير الحال ، فجلسنا ووجدنا أنهم يتكلمون اللغة الإيطالية التي نجيدها ، فشرحنا لهم الظروف الصعبة التي أوقعتنا في هٰذه المشكلة ، فقالا : لا بأس عليكما ، وسنرتب لكما سيارة تأخذكم إلى السفارة اليوغسلافية ببلغاريا لتأخذوا منها الفيزا ثم تعود بكم إلىٰ هنا ، واتركوا حقائبكم عندنا وسنتفاهم مع ضباط الحدود البلغاريين لتسهيل دخولكم بلغاريا ، واعتذروا لنا عن منعنا الدخول إلىٰ يوغسلافيا ؛ لأننا لو دخلنا البلاد بدون فيزا فسنتعرض للمساءلة عند الخروج ، وربما أدىٰ بنا ذلك إلى السجن والغرامة .

ثم ركبت مع الأخ محمد البيض التاكسي إلىٰ بلغاريا ، ولما وصلنا الحدود البلغارية . . تعرقلنا بعض الشيء حتىٰ جاء الضابط الذي استلم التوجيه من موظفي الحدود اليوغسلافية فسهل مرورنا ، وذهبنا فوراً إلى السفارة اليوغسلافية ، وتركت الأخ محمد البيض بالسيارة وطلعت إلىٰ قسم الفيزا بالسفارة فوجدته مزدحماً بالمراجعين ، إلا أن موظف الاستقبال ناداني حال دخولي وأخذ مني الجوازات وختمها بالفيزا في دقائق معدودة .

فخرجت مسرعاً إلى التاكسي الذي ينتظرني ، وعدنا إلى الحدود اليوغسلافية فختمت جوازاتنا ودخلنا يوغسلافيا ، وسكنا فيها بسكن مشابه لسكننا في بلغاريا ، إلا أن يوغسلافيا تختلف عن بلغاريا في كونها بلاداً مرتبة وجميلة .

وكان اليوم الثاني لدخولنا يوم جمعة ، فسألنا بعض العرب عن مسجد

المدينة فدلونا علىٰ مكانه ، ولما وصلنا . . وجدنا به الكثير من المصلين ، وقام الإمام الذي يرتدي زياً أشبه بأزياء الأتراك وخطب خطبة بليغة بلغة عربية فصيحة ، ثم أعقبها بكلام باللغة اليوغسلافية ، وبعد الصلاة . . اجتمعنا بالإمام وسألناه عن سر معرفته باللغة العربية ، فأخبرنا بأنه درس بالأزهر بمصر ، وأنه متزوج من مصرية .

مع إمام مسجد العاصمة اليوغسلافية

وأخبرنا الإمام بأن هـٰذا المسجد كان مغلقاً منذ قيام الدولة الشيوعية ، ولا يصلي فيه أحد ، ولـٰكن لما زار الرئيس عبد الناصر يوغسلافيا . . طلب من صديقه تيتو رئيس يوغسلافيا إعادة فتح المسجد ، فوافقه علىٰ طلبه وأخذ المسلمون من حينها يصلون بالمسجد ويقيمون فيه الجمع والأعياد .

وقد أخذنا الإمام إلىٰ مكتبته الخاصة وأكرمنا وطلب أن يستضيفنا في بيته ، غير أننا اعتذرنا منه بضيق الوقت .

ثم غادرنا يوغسلافيا بالقطار متجهين إلىٰ إيطاليا ، وكنا حريصين علىٰ زيارة البندقية حيث كنا نتخيل ما ذكره عنها الشاعر علي محمود طه في قصيدته (الجندول) ، وذهبنا إلىٰ هـٰذه المدينة العجيبة والتي تعوم فوق الماء ،

ووسيلة التنقل في شوارعها القوارب ، وقد استمتعنا بجولاتنا في مدينة البندقية ، وقد توسم فينا أحد الطليان أثناء تجولنا سمة التجار ، فأخذنا إلىٰ مصنعه الخاص بصنع الزجاج وعرفنا جميع مراحل صنع الزجاج بطريقة متقنة .

ثم اتجهنا من البندقية إلىٰ روما ، ومنها بالطائرة إلىٰ ميلانو ونزلنا بأحد الفنادق ، واتصلنا بالأخ سعيد بن أحمد باحبيشي وهو مقيم بميلانو منذ فترة طويلة ، ومتزوج من إيطالية ، وله منها أولاد ، وهو ابن صديقنا الشيخ أحمد باحبيشي شقيق الشهم الكريم الشيخ سالم باحبيشي ، وقد استضافنا على الغداء في فلته الجديدة ، وأخذ يفرجنا علىٰ محتوياتها ، ثم أخذنا إلى البدروم وقد حوله إلىٰ مسجد ، ولـٰكن لما رأينا أن اتجاه المحراب معاكس لاتجاه القبلة قال إنه اضطر لذلك لمقتضيات الديكور .

ثم قررنا زيارة بحيرة كومو فانطلقنا بالأتوبيس في طرق جبلية مرتفعة وملتوية ، إلا أن عبقرية الهندسة الإيطالية تمكنت من تنفيذ هـٰذه الطرق المرتفعة دون أن يشعر المسافر بحدة الارتفاع أو صعوبة الطريق ، ولما وصلنا إلى البحيرة . . انبهرنا بجمال المكان وروعته بطريقة يصعب وصفها ، وعرفنا كيف أبدع الشاعر علي محمود طه في وصفها بما أوحىٰ له جمالها .

وبعد هـٰذه الرحلة الطويلة والتي استغرقت أكثر من شهر . . عدنا أدراجنا بالطائرة إلى الأردن ، ومنها إلىٰ جدة ، غير أن مغامرات هـٰذه الرحلة قد أيقظت فينا حب المغامرة والسفر ، وبعد سنوات أخرىٰ وجدت فسحة من الوقت للقيام برحلة أخرىٰ ، غير أن رفيق الرحلة الثانية قد تغير ، فسافرت في عام (١٩٧٨م) مع السيد علوي بن أحمد السقاف مباشرة بالطائرة إلى اسطنبول ، وكنت قد اكتسبت بعض الخبرة بالسفر والمعرفة بشوارع ومعالم اسطنبول ، كما تعلمت من رحلتي السابقة بعض الكلمات التركية والتي تساعدنا على التفاهم مع الأتراك الذين لا يتقنون أي لغة سوىٰ لغتهم التركية ، وقد تمكنت في هـٰذه الرحلة من زيارة المساجد التاريخية باسطنبول ، وكذلك المتحف الواسع البديع الذي يعرف بتوب كابي ، والذي يحوي الكثير من الآثار

الإسلامية مثل الشعرات التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيف الإمام علي كرم الله وجهه ، والمصحف الذي قتل عليه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، إضافة إلىٰ قصور السلاطين من آل عثمان وما تحويه من كنوز ونفائس ، وقد زرت مدينة (يلوا) ومنطقة (ترمال) المشهورة بمياهها الكبريتية الساخنة ، كما زرت مدينة بورصة وجبالها المرتفعة المسمىٰ أولضا ، والذي يصعد إليه الناس بالتلفريك ، وتجلل قممه الثلوج ، وقد أعجبتني مدينة يلوا ؛ لهدوئها وجمالها ، وموقعها علىٰ بحر (مرمرة) ، وهو بحر ساكن تمتد صفحته وكأنما هي ساحة مغطاة بالمرمر ، كما أن بها الكثير من المناطق الخضراء ، وبها أنواع كثيرة من الفواكه ، وجوها بديع ومنعش ، كما يقع بالقرب منها منتزه ترمال وقرية (شنارجك) السياحية ومدينة بورصة ، وقد شعرت بانجذاب غريب نحو هٰذه المدينة ، وتمنيت أن يكون لي سكن بهٰذه المدينة الجميلة ، حتىٰ أتمكن من قضاء إجازتي الصيفية بها مع عائلتي ، إلا أن الوصول إلىٰ يلوا فيه بعض المشقة ، ويتطلب ركوب العبّارات التي تنقل الركاب والسيارات بحراً بين اسطنبول ويلوا ، وتستغرق الرحلة ساعتين ، وقد تعرفت أثناء ركوبي الباخرة بشخص تركي من أصل عربي يتحدث العربية بطلاقة ـ اسمه أحمد شولق ـ وقد أخبرته برغبتي في الحصول علىٰ شقة علىٰ كورنيش يلوا ، فتطوع هٰذا الرجل وقام بالبحث لي عن شقة واختار لي بناية حديثة على الكورنيش بها شقة جميلة بالدور السادس ، ثم أخبرني المالك بأن الشقة المجاورة أيضاً معروضة للبيع ، فقمت بالتعاقد عليها أيضاً حتىٰ يصبح الدور السادس كله خاص بي وبعائلتي .

وهٰكذا دفعت العربون المطلوب علىٰ أن أرسل باقي الثمن إلىٰ صديقي أحمد شولق بعد عودتي إلى السعودية ، وبالفعل قمت بعد عودتي بإرسال المبلغ بالدولار إلىٰ صديقي أحمد شولق ، والذي اندهش من ثقتي فيه وإرسالي مبلغاً كبيراً باسمه ، رغم أننا لم نتعارف إلا في رحلة بحرية قصيرة ، إلا أن هٰذا الرجل كان رجلاً أميناً وخدوماً ، فقام بكل ما يلزم من إجراءات

قانونية ، حتىٰ أصبحت الشقتان ملكاً من أملاكي الخاصة .

أما رحلتنا الأوربية . . فقد استمرت بعد دفع العرابين ، فاتجهنا من تركيا بالطائرة إلىٰ فرنسا ، ثم إلىٰ بريطانيا ، وقضينا في كل منها عدة أيام ، ثم عدنا بعد ذلك إلىٰ جدة .

مع أحمد شولق إلى اليسار والأخ علوي بن أحمد على اليمين في رحلتي الثانية لتركيا

وبعد فترة أخرىٰ من الاستقرار في جدة . . طلب مني الأخ أحمد شولق الحضور إلىٰ تركيا لاستلام الشقق ، فذهبت مع الصديق علوي بن أحمد السقاف إلى اسطنبول بالطائرة السعودية ، ومنها بالبحر إلىٰ يلوا حيث استلمت الشقق وقمت بترتيبها وتوصيلها لبعضها البعض بحيث أصبحت الشقتان شقة واحدة كبيرة لها إطلالة رائعة على البحر ، كما قمت بتأثيثها بالأثاث المناسب .

الشقتان اللتان اشتريتهما بالدور السادس الأخير بهـٰذه العمارة

وقد دخلت بشراء الشقتين بيلوا مرحلة جديدة من مراحل رحلاتي السياحية ؛ حيث إنني بادرت عند حلول الصيف بالسفر مع العائلة إلىٰ يلوا ، كما وصل إلينا من بريطانيا الابن علي مع عائلته ، وكان يدرس دراسته العليا هناك ، وقضينا أياماً من الصيف في جو جميل ومكان هادىء ومريح ، ثم تكررت زيارتي مع العائلة إلىٰ يلوا في كل صيف ، وكنا نقضي بها شهرين أو أكثر ، بل وقد ذهبت إلىٰ تركيا بالسيارة مع عائلتي حوالي الثلاث مرات ، وكانت الرحلة تستغرق منا ثلاثة أيام ، ونمر خلالها بعد المدينة وتبوك بالأردن وسوريا ، ورغم المشقة النسبية للطريق ـ خصوصاً وقد تقدمت بي السن ـ إلا أن في هـٰذه الرحلات الكثير من الترويح والانشراح ، وكان أكثر ما يتعبنا في هـٰذه الرحلات ما نلاقيه في الحدود من تفتيش جمركي وتأخير ، بالإضافة إلىٰ شهية الضباط السوريين المفتوحة للإكراميات .

ومن الطرائف أنني لما تقدمت بجوازي وجواز العائلة إلىٰ ضابط الحدود السوري . . سألني عن الإكرامية ، فقدمتها له ، فأعرض عن كلّ الواقفين في

الطابور أمامه وقدمني وأنهىٰ معاملتي في دقائق ، وأشر لنا بالدخول ، ثم لما قدم سائقي الأندونيسي جوازه . . سأله الضابط هل معك تفويض من مالك السيارة بقيادتها ؟ ففهمت مقصده على الفور ، خصوصاً وأنني أرافق سائقي في هـٰذه الرحلة ، فوضعت مئة وخمسين ليرة بجواز السائق وناولته الضابط وقلت له : ليس مع السائق تفويض ، ولـٰكن معه مئة وخمسين ليرة داخل هـٰذا الجواز ، فأخذ الضابط الجواز وأشر عليه بسرعة .

وبعد عدة زيارات لتركيا الخضراء . . قررت البحث عن مزرعة أقيم فيها سكناً صغيراً وأقصدها للفسحة والترويح ، فاشتريت أرضاً زراعية قريبة من يلوا بمنطقة تسمىٰ (صمانلي) ، وهي علىٰ أرض مرتفعة ، وقمت بتمهيدها وبنيت بها فيلا صغيرة لي ومسكناً للفلاح الذي سيتولىٰ مسؤولية المزرعة ، وقمت بزراعتها بست مئة شجرة من أشجار الفواكه المتنوعة ، كما بنيت مسبحاً بجوار الفيلا وحفرت به بئراً لريّ المزرعة ، وعملت عليها سياجاً محكماً ، رغم أن مساحتها أكثر من أربعة آلاف متر مربع ، واستأجرت فلاحاً تركياً لزراعتها والعناية بها ، فكانت هـٰذه المزرعة بحمد الله غاية في التنسيق والجمال ، وكنا إذا حضرنا في الصيف . . نجدها مليئة بالثمار الناضجة من عنب وكمثرىٰ وتفاح ومشمش وخوخ وتين ، فنأكل منها ونبيع ما يزيد عن حاجتنا ، كما تتزين بالورود اليانعة والأزهار البديعة ، وبها شجرة لجوز (القعقع) كنا نخترفها قبل سفرنا ونجففها تحت أشعة الشمس ، ونقدمها لرواد الجلسة الربوعية بجدة مع ما نحضره معنا من البندق التركي ، فقال شاعرهم :

رميـت صحـابـك بـالبنـدق

وبالمزرعة كثير من الخضروات والبقوليات ، فلم نكن نحتاج أثناء إقامتنا بها لشراء أي فاكهة أو خضار من السوق ؛ لأن كل ما نحتاجه متوفر بالمزرعة .

وكانت أيامنا بتركيا موزعة بين الشقة المطلة على الكورنيش حيث المناظر الخلابة ، ومزرعة صمانلي الخضراء البهيجة وما تحويه من فواكه وثمار ؛ حيث نأخذ منها جميع ما نحتاجه من الفواكه والخضروات ونقضي بها أياماً مع

العائلة والأولاد وعوائلهم في سعادة تامة ، وقد زارني بهٰذه المزرعة وأقام معي فيها أغلب إخوتي في مرات متفرقة ، وكذلك العم علي بن عبد الله السقاف وعائلته ، ثم الأستاذ محمد الشاطري وعائلته ، وأمضىٰ معنا شهراً كاملاً في شقة استأجرتها له بيلوا ، وكنت أذهب معه إلىٰ مزرعة (صمنلي) في كل يوم ، ونجلس نتحدث بين الأشجار المثمرة في جو ساحر وجميل ، إلا أن ما كان يحز في نفسي هو أمنيتي التي لم تتحقق ، وهي أن والدتي ووالدي لم يدركوا هٰذه الأيام ليتمتعوا بجمال هٰذا المكان الرائع ، وأسأل الله أن يمتعهم بأفضل من هٰذا في جنات النعيم .

بيت ومزرعة صمنلي بتركيا

ولما زارني من إندونيسيا أخي حسين بن علوي مع مجموعة من أصحابه الموالدة . . اعترف بأن هٰذا المكان أجمل من جبل (تاومنقو) الشهير بإندونيسيا ، والذي يتحدث عنه الشيبان وكأنه الجنة ، إلا أن السعادة لا تدوم ، فحدث بعد ذلك ما عكر علينا صفو إجازتنا ؛ فقد انزلقت أم الأولاد علىٰ أرضية الحمام المبلولة بالماء وسقطت على الأرض وانكسرت رجلها قرب الحوض ، وتعطلت حركتها ، فاضطررنا إلىٰ قطع الإجازة والعودة إلىٰ جدة ،

حيث أجريت لها عملية جراحية بمستشفى السلامة ، تحسنت بعدها حالتها قليلاً ، ثم عاودتها الآلام وصعوبة الحركة ، مما اضطرنا إلىٰ أخذها إلىٰ ألمانيا لإعادة العملية ، فسافرت في شهر رمضان يرافقها الأولاد ، وأجريت لها عملية جراحية أخرىٰ ، ومكثت بألمانيا حوالي الشهرين ، ثم استردت عافيتها وعادت بحمد لله سليمة معافاة ، ثم حدث في الإجازة التي أعقبتها ما هو أعظم من ذلك ؛ فقد اهتزت يلوا عن بكرة أبيها بزلزال مدمر دمر عشرات المدن والقرىٰ ، وخلف وراءه آلاف القتلىٰ والجرحىٰ ، وقد خصصت لهٰذه الحادثة باباً منفصلاً في هٰذا الكتاب .

كما قد أصابتني أمراض الشيخوخة في السنوات الأخيرة ، وصعبت علي الحركة والمشي ، فلم أعد أحتمل مشاق السفر إلىٰ تركيا مرة أخرىٰ ، ولم أجد بداً من قضاء الصيف في حر جدة ورطوبتها .

* * *

الزلزال

العمارة التي نسكنها بمدينة يلوا بتركيا قبل الزلزال

مدينة يلوا بعد الزلزال

وفي شهر أغسطس من سنة (١٩٩٩م) كنت أقضي الصيف بتركيا مع عائلتي وأولادي ، وكنا نتنقل بين شقتنا المطلة علىٰ بحر (مرمرة) بمدينة يلوا وهي عبارة عن شقتين موصولتين ببعضهما البعض بما يمثل كامل الدور الأخير لهـٰذه العمارة ، وبين مزرعتنا بقرية صمانلي ، وكان الجو في تركيا ذلك الصيف بديعاً ، والمناظر خلابة ، ولشقتنا إطلالة رائعة على البحر بمناظره الجميلة ، كما تمثل المزرعة بأشجارها وأزهارها وورودها جنة من جنات الأرض .

ولما كانت ليلة الإثنين من هـٰذا الشهر ، وفي حوالي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وكنا مستغرقين في النوم . . إذا بهزة عظيمة تضرب البيت وتحدث به رجة فظيعة ، ثم أعقب ذلك هزة أخرىٰ ، وكانت العمارة التي نعيش فيها تتلوىٰ أثناء الهزات وكأنما قوة رهيبة تعصرها عصراً ، وكانت أصوات الحديد وهو يتلوىٰ يميناً ويساراً تصم الآذان ، كما سقطت الحاجيات علينا من فوق ووسط الدواليب ، ونهضت ونهض كل أفراد البيت صغارهم وكبارهم وأطللت من النافذة للخارج . . فوجدت الساحات المحيطة ملفوفة بالغبار ، وقد تجمع فيها الناس وكأنما هو يوم الحشر ، فعرفت أن المدينة قد ضربها زلزال ، وكانت الزلازل تضرب تركيا بين الوقت والآخر ، إلا أنها كانت تحدث بعيداً عن منطقتنا السياحية .

وبعد الهزات العنيفة الأولىٰ تواصلت الهزات الخفيفة والمتوسطة ، وقد فكرت في البقاء في البيت حيث إن شقتنا لم تحدث بها أضرار كبيرة ، ولـٰكن تكررت الهزات واستمرت ، وخفت أن تحصل هزة قوية مثل الهزة الأولىٰ فتسقط العمارة علىٰ رؤوسنا ، سيما وقد سقطت بعض العمائر المجاورة لنا .

فقررنا المسارعة بمغادرة البيت إلى المزرعة في صمانلي ، وكان سلم العمارة من السلالم الحلزونية الضيقة التي يصعب استخدامها في الأيام العادية ، ولـٰكن والحمد لله لم يحدث به ضرر يمنعنا من الخروج .

فخرجنا جميعاً كباراً وصغاراً علىٰ ضوء الكشاف خلال هـٰذا السلم الضيق بعد أن انقطعت الكهرباء عن المدينة كلها ، وأصبح الظلام الدامس يخيم علىٰ

كل مكان ، ووجدنا سيارتنا الواسعة واقفة في تلك الليلة باتجاه طريق الخروج ، فركبنا فيها جميعاً وانطلقنا بسرعة باتجاة المزرعة ، وأذهلنا ما رأيناه في طريقنا من فوضىٰ ودمار ؛ فقد تحطمت العمائر الكبيرة والصغيرة ، وتحولت إلىٰ أكوام من الإسمنت والحديد ، وتغطت المدينة بالدخان والغبار ، وهام سكانها في الشوارع مذعورين ، وتصاعدت أصوات الصياح والعويل من كل مكان ، وخيم الظلام الدامس على المدينة بعد انقطاع الكهرباء ، وشعرنا وكأنما نحن في يوم القيامة ، وذكرنا الآية الكريمة من سورة الحج ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ صدق الله العظيم .

وسرنا بسيارتنا خائفين لا نعرف ما سيصادفنا في الطريق ، خصوصاً وأن بأعلى المنطقة التي نتجه إليها سداً يحجز بحيرة ضخمة من المياه ، ولو تصدعت مع الزلزال . . لأغرقت المدينة بأسرها .

ولـٰكننا وصلنا المزرعة سالمين ، فنزلنا بها ووجدنا الفلاح وعائلته قابعين خارج المنزل ؛ تحسباً لتكرر الهزات ، غير أنه لم يحصل ولله الحمد أي ضرر بالمزرعة .

فأخرجنا من بيت المزرعة بعض ما وجدناه بها من أدوات النوم وافترشنا الأرض خارج المنزل بعيداً عن البيت ؛ تحسباً لما سيأتي من هزات لا يعلم إلا الله مقدار قوتها .

وتتابعت الهزات الصغيرة بشكل متواصل ، فكنا نشعر بالاهتزاز مرة كل خمس دقائق ، حتىٰ لم نعد نحس أن الأرض تحت أرجلنا ثابتة ، بينما استمر انقطاع الكهرباء والتلفون وتوقفت إمدادات الماء ، وقد استفدنا من ماء المسبح بالمزرعة في الوضوء وغسل أدوات الطبخ والاستخدام الضروري للحمام ، كما تبقت في المطبخ كمية من مياه الشرب أخذنا نترفق في استعمالها .

وقضينا ليلة صعبة مع أطفالنا في الهواء الطلق خارج البيت ، وكان الجو

بارداً والأرض تتحرك من تحتنا طول الوقت ، والأطفال والنساء خائفين ، ولم نكن نجرؤ علىٰ دخول بيت المزرعة ؛ خوفاً من هزة قوية يتحطم معها البيت .

ومن عناية الله بنا أن أحضر الابن علي هاتفه الجوال الذي دخل استخدامه الدولي تركيا لأول مرة في تلك السنة ، إلا أنه نسي أن يأخذه معه عند مغادرتنا الطارئة للبيت ، فلم نستطع أن نأخذ ساعة خروجنا من العمارة شيئاً مما نحتاج ، وتركنا كل حاجياتنا في البيت، بما في ذلك جوازاتنا ونقودنا وأمتعتنا الشخصية .

وفي اليوم التالي قررنا الذهاب إلىٰ شقتنا بيلوا لإحضار الأغراض الهامة التي نحتاجها ، إضافة إلى النقود والجوازات والتلفون الجوال ، فركبنا السيارة وعدنا إلىٰ مدينة يلوا ، ولٰكننا لما وصلنا . لم نعرف البلد التي كنا فيها بالأمس ؛ فقد تهدمت الكثير من العمائر وتصدعت الأخرىٰ .

ومال بعضها ميلاً شديداً ، وامتلأت الشوارع بحطام العمائر والبيوت ، والناس يهيمون في الشوارع لا يعرفون إلىٰ أين يتجهون ، ولم نر دكاكين أو مخابز أو بقالات ، ولم يكن يسير في الشوارع من السيارات إلا عربات الإسعاف التي تنقل الموتىٰ والمصابين ، والحكومة لا تسمح لأحد بالبقاء في البيوت ، ولا حتىٰ بدخولها .

وتمكن الابن علي من التسلل خفية إلى العمارة وصعد إلى الشقة وأحضر الحاجيات المهمة ، وأسرع راجعاً بينما كانت الهزات الأرضية الخفيفة متواصلة في كل ربع من أرباع الساعة .

وعدنا إلىٰ مزرعتنا بصمانلي مع أغراضنا وشكرنا الله كثيراً علىٰ عنايته ولطفه .

فقد خرجنا من الدور السادس من عمارة يصعب في الحالات العادية النزول من سلمها الحلزوني الضيق ، وكانت زوجتي لا زالت تعاني من الكسر الذي أصابها ، ومعنا الأطفال والرضع ، ثم وجدنا سيارتنا الكبيرة في مكانها فأخذتنا كلنا إلى المزرعة ، ولو كانت سيارة صغيرة لوقعنا في مشكلة ، وأين لنا بسيارة أخرىٰ في ذلك الوقت الصعب ، بل ربما تصدعت عمارتنا ومالت مثل العمائر المجاورة وسدت علينا طريق الخروج ، أو ربما غطت الأنقاض سيارتنا فانحبسنا عن الذهاب إلىٰ مزرعتنا .

كما لم يصب مزرعتنا وبيت المزرعة ضرر يذكر ، فآوتنا المزرعة وقضينا فيها أياماً لا ندري كيف كنا سنقضيها بدونها في بلد غريب لا نعرف أحداً من أهله ، ولا نجيد لغته ، فشكرنا الله علىٰ عنايته ولطفه بنا .

وقد استفدنا من التلفون السعودي الجوال الذي دخل الخدمة التركية أول مرة في تلك السنة ، فاستطعنا الاتصال بأهلنا في جدة وحضرموت ، كما اتصلنا بمكتب الخطوط السعودية لحجز أماكن العودة المبكرة إلىٰ جدة ، وتمكنا بتوفيق الله من الحصول بسهولة علىٰ مقاعد بالطائرة لكل أفراد عائلتنا الكبيرة ، وساعدنا علىٰ ذلك قدرتنا على الاتصال بالتلفون الجوال قبل الآخرين ؛ حيث تعطلت التلفونات الثابتة في المناطق التي ضربها الزلزال ، مما منع المسافرين الآخرين من القدرة على الاتصال بمكتب الخطوط السعودية .

وكنت أتوقع وأنا في هـٰذه المحنة أن أرىٰ رؤيا تطمئنني وتبشرني بقرب الفرج ، أو أرىٰ أحداً من الشيبان الأحياء أو الأموات ، فرأيت في منامي في إحدى الليالي وأنا بالمزرعة الحبيب عبد القادر بن أحمد وكأنه يعوم في ماء ضحل ، فاستبشرت بحلول الفرج .

وقد أخبرني الدكتور أبو بكر بن سالم السقاف مدير مستوصف عيديد الخيري بتريم فيما بعد أنه بعد أن سمع بالزلزال العظيم في تركيا ـ وهو بتريم ـ ذهب لمقابلة الحبيب عبد الباري الجنيد ليطلب منه الدعاء لنا بالسلامة وانفراج الشدة ، فوجده ببشار يزور الفقيه المقدم ، فلما أخبره بخبرنا . . قام الحبيب عبد الباري ودعا الله ثم قال : محسن لن يضيعه الله ، ولن تضيع صدقاته .

ولما زرت بعد ذلك تريم . . أخبرني الحبيب حسن البار بأنه رأىٰ ليلة الزلزال ـ وهو لا يعلم بشيء عنه ـ رأى الحبيب محمد بن طه السقاف متمنطقاً جبّته وهو يلهث ، فلما سأله عن السبب ؟ قال له بأنني قد وصلت الآن من تركيا .

وكان من عادتنا في كل ليلة بعد صلاة المغرب في تركيا أن نجتمع كلنا صغاراً وكباراً ونقرأ الراتب بصوت واحد ، كما أننا وأولادنا والحمد لله لا نترك في صباحنا تلاوة القرآن وقراءة الأوراد المشهورة عن سلفنا ، ولعل ذلك مما حفظنا في هـٰذا الزلزال الذي راح ضحيته الألوف ، وكانت شدته أكثر ما يكون في المدينة التي نعيش بها .

واستمرت عناية الله تحيط بنا ، فتأكد ميعاد السفر وركبنا السيارة إلىٰ مرسى البواخر بالمدينة المحطمة يلوا ، وركبنا معها الباخرة السريعة التي نقلتنا إلى اسطنبول ، ووجدنا في استقبالنا باسطنبول صديقنا التركي أوز وهو ابن صديقنا المرحوم أحمد شولق ، فاطمأنت برؤيته نفوسنا ، وانشرحت لقدومه خواطرنا ، ثم تحركنا معه من مرفأ العبارات إلىٰ مطار اسطنبول ، فأنهينا جميع الإجراءات في سهولة ويسر ، ووجدنا الطائرة السعودية بانتظارنا ، وكان ذلك بفضل الله ورعايته ، فركبنا الطائرة الجمبو السعودية الضخمة ، وهي أول طائرة سعودية تغادر تركيا بعد الزلزال ، وتم لنا ذلك بسهولة رغم تزاحم السواح السعوديين علىٰ مغادرة تركيا .

ثم طارت بنا الطائرة إلىٰ جدة في منتهى الراحة والهدوء ، وسمعنا من

ركاب الطائرة قصصاً كثيرة عن المآسي والنكبات التي حصلت أثناء الزلزال .

ووصلنا جدة بسلامة الله بعد ثلاث ساعات ، ولم نصدق هٰذه العودة السريعة السالمة ، واستقبلنا أهلنا بالترحاب ، كما هنأنا موظفو المطار بسلامة الوصول ؛ إذ كانت هٰذه الطائرة السعودية الأولى التي تصل جدة بعد الزلزال الذي غطت أخباره العالم .

وكما فرحنا بسلامة العودة . . فقد فرحنا أكثر بمسيرنا مرة أخرىٰ فوق أرض ثابتة لا تتحرك بعد أن كنا نتحرك في تركيا علىٰ أرض مهتزة وكأنما هي لوح من الخشب يطفو علىٰ سطح الماء ، وشكرنا الله علىٰ هٰذه النعمة التي لم نكن نشعر بها من قبل .

* * *

جامع ومستوصف عيديد

جامع عيديد بتريم

عُرف السيد عبد القادر بن محمد بن طه السقاف (أبو علوي) بحبه للأعمال الخيرية ودعوته الناس للمشاركة في أعمال البر والخير ليشملهم الأجر والثواب ، فطلب مني المشاركة في توسعة مسجد عيديد الأثري بتريم ، وهو المسجد الذي أسسه الحبيب محمد بن حسن عيديد قبل حوالي (٨٢٠) سنة ، وكان عبارة عن زاوية صغيرة وبها جابية تسمىٰ جابية الشفاء .

فوافقته علىٰ طلبه وشكرته علىٰ دعوته ، ولم تزد التكلفة المقترحة عن

سبعين ألف شلن بسعر ذلك الزمن ، ثم تطور المشروع حتىٰ تحول إلىٰ بناء مسجد كبير مع مرافقه وسكن للمؤذن والإمام ودكاكين ومباني سكنية للتأجير تابعة للمسجد ، تستخدم غلتها لصالح المسجد ، مما ضاعف التكاليف بشكل كبير .

كما وفقني الله لفرش المسجد وشراء مولد كهربائي كبير لتغذيته ومرافقه بالكهرباء ، وحفر بئر ارتوازي لإمداده بالماء ، حتىٰ أصبح المسجد معلماً مهماً من معالم عيديد بتريم ، وجامعاً تصلىٰ فيه الجمعة ، وقد صلىٰ فيه الجمعة الرئيس علي عبد الله صالح أثناء زيارته لتريم .

وقد حرصت على الإبقاء علىٰ محراب المسجد الأثري القديم وجابية الشفاء ، كما أبقىٰ والدي عند توسعته مسجد الجد طه بن عمر بسيؤن علىٰ محراب الجد طه بن عمر الموجود بمبناه القديم .

وبعد الانتهاء من بناء المسجد وملحقاته . . سلمت نظارته والإشراف عليه إلى السيد حسين عيديد ، ولا زال علىٰ نظارته إلى الآن ، وهو من أحفاد الحبيب محمد بن حسن عيديد ، وهو عالم فاضل ومخلص .

وفي إحدىٰ زياراتي لحضرموت جاءني الأخ عبيد يعمر وهو من العائلة التريمية المشهورة بأعمال البناء والتشييد ، وأخبرني بأن الدولة منحته أرضاً بعيديد في مكان استراتيجي ، وهو موقع مناسب لإنشاء مشروع خيري طبي يستفيد منه الناس .

فأخبرت عبيد برغبتي في تأسيس مستوصف خيري بعيديد ، وقمت بشراء هـٰذه الأرض تملكاً ودفعت قيمتها ، وكلفت مهندساً بعمل الخرائط والرسوم المعمارية المناسبة ، وقاولت آل يعمر بناء مستوصف من دور واحد ، وأمامه حديقة ، وعلىٰ جانبيه مباني سكنية من دورين لسكن الأطباء والإداريين .

مستوصف عيديد الخيري بتريم

وبعد الانتهاء من بناء المستوصف قمت بفرشه وتجهيزه بالأدوات الطبية المطلوبة ، ثم بعد الانتهاء من ذلك تبقت مشكلة اختيار الأطباء والممرضين ، وتبين لي أنها مشكلة عويصة ، فقمت بالاتصال بمن يرغب من الأطباء ، وعانيت في ذلك معاناة شديدة ، كما ظهرت الكثير من المشاكل الإدارية والإجراءات الرسمية المطلوبة لافتتاح المستوصف ، إلا أنني لاحظت أنه بسبب نيتي الخالصة في عمل هٰذا المستوصف لوجه الله فقد تسهلت لنا الكثير من الأمور الصعبة ، وما اتجهنا لمصلحة المستوصف في اتجاه . . إلا وتسهلت فيه الأمور ، وقد تصادفت نيتي افتتاح المستوصف مع اقتراب ابن أختي الدكتور أبو بكر بن سالم السقاف من التقاعد من العمل الحكومي بعدن ، وهو طبيب جراح متخرج من ألمانيا ، وعمل بمستشفىٰ عدن لسنوات طويلة ، فجاء تقاعده مناسباً مع افتتاح مستوصف عيديد الخيري بتريم ، وكان الدكتور أبو بكر إلىٰ جانب خبرته الطبية والجراحية الطويلة من أصحاب الميول للصوفية ، وله تعلق

بالأولياء والصالحين ، فتسهلت أمور تقاعده بصورة لم يتصورها هو ولا نحن ، ثم تسهل خروجه إلىٰ حضرموت ، فسلمته الإدارة الكاملة لمستوصف عيديد الخيري بتريم ، والذي افتتح في عام (١٩٩٩م) .

وتطور المستوصف تدريجياً وزاد موظفوه وأطباؤه ، وكان الدكتور أبو بكر كفئاً إدارةً وطباً ، وكنت أقوم بزيارات قصيرة متكررة لحضرموت للإشراف علىٰ أمور المستوصف والمساعدة في حل المشاكل التي تعترضه ، وقد أشار علي الدكتور أبو بكر بشراء جهاز تفتيت الحصوات بالموجات الصوتية ؛ حيث يتكبد فقراء حضرموت مشاق عظيمة وتكاليف كبيرة بالذهاب إلىٰ صنعاء لتفتيت الحصوات ، وهو مرض كثير الانتشار بحضرموت ، فاقتنعت بالفكرة رغم تكلفة الجهاز العالية ، والتي تبلغ المليون ريال سعودي ، إضافة لتكاليف التشغيل واستبدال الرأس بعد كل فترة ، وقمت بشراء الجهاز من شركة (سمنس) الألمانية ، وأرسل الجهاز من ألمانيا إلىٰ تريم ، وتم تركيبه بمستوصف عيديد الخيري ، واستفاد منه الكثير من الناس .

ونظراً لتكلفة تشغيله العالية ؛ فقد عمل رسم رمزي لاستخدامه حتىٰ تتواصل هـٰذه الخدمة الهامة .

وقد زارَ بعد ذلك رئيس شركة سمنز مستوصف عيديد بتريم واندهش من وجود جهازه الحديث في هـٰذا الموقع من العالم ، بل واستفادت شركة سمنس من ذلك في دعاياتها للجهاز ، ونشرت صورة المستوصف والجهاز في نشراتها العالمية ، وكان شراء الجهاز وتوريده إلىٰ تريم توفيقاً من الله ؛ حيث لم أكن أتصور مدى الاستفادة منه والتي استمرت إلى الآن ، حتىٰ وصل إلىٰ تريم مرضىٰ من عدن والصومال واليمن وشبوة والخشعة ، وجاء مريض فشل في تفتيت حصواته بالمستشفيات الخاصة بجدة فجاء وفتتها في تريم .

ويتولى الدكتور أبو بكر عمليات التفتيت وقد تمرس فيها وشهد له بالخبرة والكفاءة مدير شركة (سمنس) الألمانية .

وتطور المستوصف وتضاعفت أعداد المرضىٰ والمراجعين بشكل كبير ، وأضيف للمستوصف مختبر طبي متكامل ، وجهاز للأشعة ، وعيادة للمسالك البولية تحتوي علىٰ أحدث أجهزة المناظير ، وعيادة للأطفال ، وقابلة للتوليد ، وعيادة متكاملة للعيون ، وعيادة للأسنان مع معمل تركيب الأسنان ، كما بني واستكمل الدور الثاني بالمستوصف وجهزت به غرفة عمليات حديثة لطب العيون ، بها أحدث المكرسكوبات وأجهزة التعقيم ، أشرف علىٰ تجهيزها ابني الدكتور علي بن محسن .

وزار المستوصف وعمل به عدد من الأطباء الزائرين ، ومنهم طبيب مسالك ألماني زار المستوصف وعمل به عدة مرات ، وقد سألني هٰذا الطبيب الألماني كيف فكرت في بناء هٰذا المستوصف ، وفي هٰذا المكان بالذات ، وما الذي حملك علىٰ شراء جهاز التفتيت الألماني الحديث ؟ فطلبت من الدكتور أبو بكر الذي يتكلم الألمانية بأن يخبره بأن هٰذا بتوفيق من الله سبحانه وتعالىٰ .

طبيب المسالك الألماني الذي عمل بمستوصف عيديد بتريم لعدة فترات

في عزومة ببيتي بسيؤن

كما صاحبني في زياراتي للمستوصف عدة مرات ابني الدكتور علي بن محسن أخصائي العيون بجدة ، وعمل بالمستوصف خلال إقامته بحضرموت ، وأجرىٰ عدة عمليات تحمل المستوصف جميع تكاليفها .

ويتواجد بالمستوصف أخصائي عيون بصفة دائمة ، ويقوم بالكشف المجاني على المرضى وإجراء العمليات دون مقابل .

الابن الدكتور علي بن محسن يجري عملية عيون بمستوصف عيديد الخيري بتريم

كما زار المستوصف وعمل به ابني الدكتور حسين أخصائي الأطفال ، وقد وفقني الله تعالىٰ أولاً بوجود الدكتور أبو بكر ، والذي كان الرجل المناسب في المكان المناسب .

كما أنني أوقفت جزءاً من مالي وأملاكي علىٰ هـٰذا المستوصف ؛ لأضمن استمراره في أداء رسالته الإنسانية التي تأسس من أجلها .

وقد سألني بعض الناس عن تسمية المستوصف بمستوصف عيديد الخيري ؟ فقلت لهم : إن هـٰذا هو الاسم التاريخي لهـٰذه المنطقة ، وأنا أقصد

بعملي وجه الله الكريم ، حتىٰ إن أحد الأصدقاء القدامىٰ من اليمن اتصل من جدة وأنا في حضرموت وقال لي : إن أجر هـٰذا المستوصف سيذهب إلىٰ عيديد الصومال ، فقلت له بأن الله لا تخفىٰ عليه خافية .

ولا تسعني الفرحة والسرور كلما جلست في حديقة المستوصف وأمامي عشرات المرضىٰ والمراجعين وهم يفدون إلىٰ هـٰذا المستوصف فيجدون الرعاية المجانية المتنوعة المقدمة للجميع بلا استثناء وبلا محاباة ، خالصة لوجه الله الكريم .

وأخبرني الحبيب حامد بن محمد إمام مسجد (باعلوي) حالياً وهو ينتسب إلى الحبيب حامد بن عمر الإمام السابق المشهور رؤية رآها مبشرة بأنه رأىٰ في المنام وكأنه متجهٌ إلىٰ جامع تريم ، والجامع في حالته الأولىٰ قبل التجديد ، وإذا بأخدام السقاف خارجين من الجامع بزفهم وحفهم ، ولما سألهم باستغراب عن خروجهم رغم أن الناس كانوا يدخلون إلى المسجد . قالوا له : إننا نستقبل محسن بن علوي ، وكانت الرؤيا في رمضان عام (١٤٢٠هـ) ، وكنت قد وصلت حينها إلىٰ حضرموت ، فسررت بهـٰذه الرؤيا ، سيما وهي لهـٰذا الرجل الصالح ، وفسرتها بأنها إشارة إلىٰ (مستوصف عيديد الخيري) ، وأن السلف وعلىٰ رأسهم جدنا السقاف الأكبر مسرورون به .

ومنذ بدأت بإنشاء المستوصف وأنا ألمس تيسيراً وتوفيقاً يصاحبني في أعماله ، وأتمنىٰ من الله العلي القدير أن يكون عملي هـٰذا خالصاً لوجه الله الكريم لا تشوبه شائبة رياء ولا سمعة ، وأن يظل هـٰذا المستوصف قائماً ، وأن يستمر نفعه في حياتي وبعد مماتي .

* * *

مشروع مستشفىٰ تريم الخيري

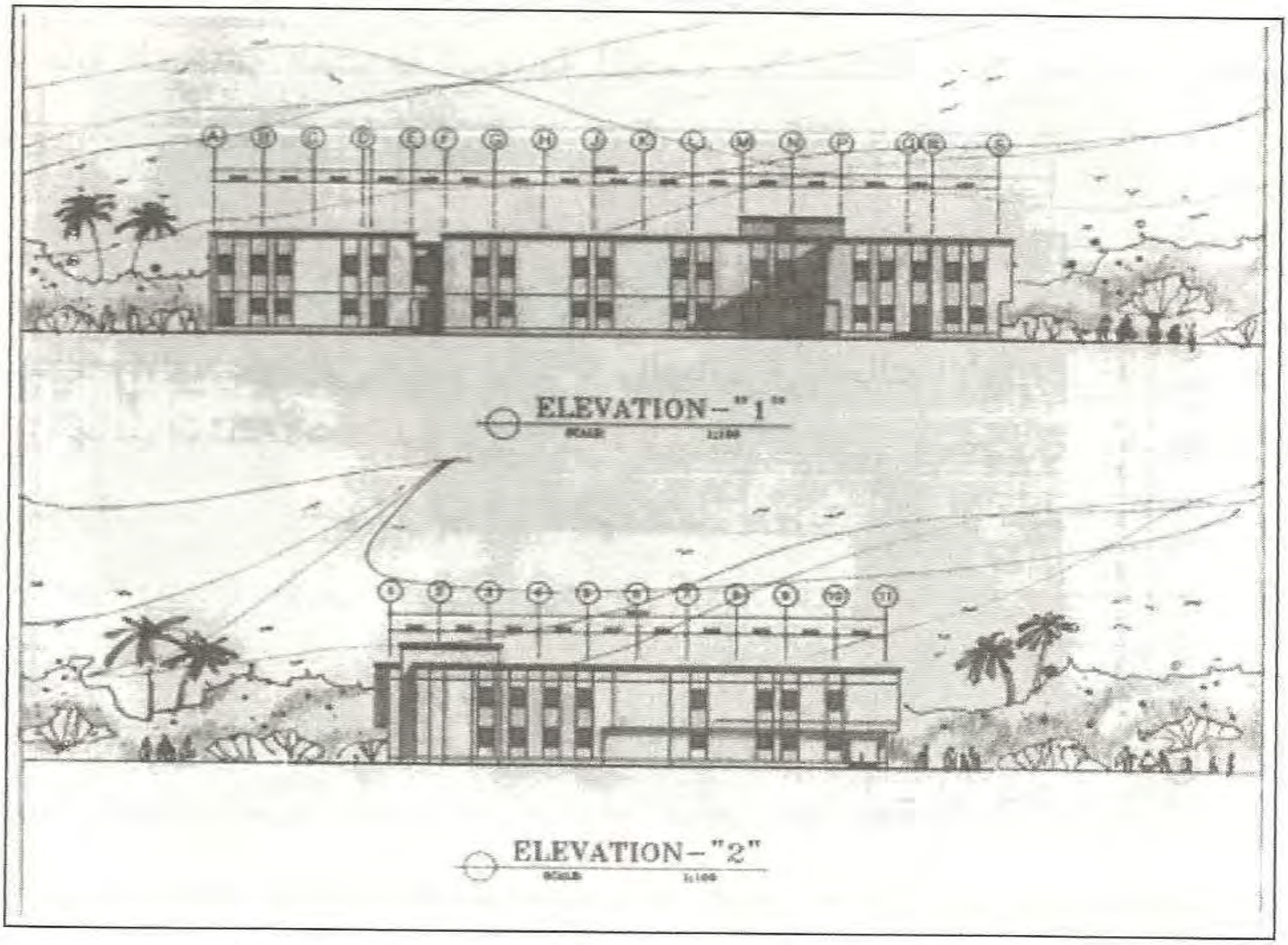

صورة أمامية وجانبية لمشروع مستشفىٰ تريم الخيري

وفي عام (١٤٢٤هـ) تحصلت بطريق الشراء علىٰ قطعة أرض مساحتها ألفين وثلاث مئة متر بمواجهة مستوصف عيديد الخيري الحالي من أجل توسيع خدمات المستوصف ومواجهة الزيادة الكبيرة في أعداد المراجعين ، وقد برقت في ذهني فكرة القيام بمستشفىٰ حديث يغطي النقص والعيوب التي ظهرت لنا أثناء تشغيل مستوصف عيديد الخيري ، ورغم أن هـٰذا المشروع الخيري الكبير سيقدم الخدمات الطبية المتقدمة لسكان وادي حضرموت وعموم اليمن ،

ورغم أنني سأصرف عليه من مالي وجهدي وفكري الكثير . إلا أنه اعترضت طريق المشروع الكثير من المعوقات ، وعرقل تنفيذ هـٰذا المشروع الخيري النبيل العديد من الأشخاص الذين يجهلون الهدف والفائدة من هـٰذا المشروع ، إلا أنني رغم هـٰذه المعوقات ـ التي يمكن أن تصرف نظر أي شخص يواجه ما واجهته ـ صمدت أمام هدفي وبذلت كل جهدي من أجل أن يخرج هـٰذا المشروع الخيري الكبير إلىٰ حيز التنفيذ ، وكنا لا ننتهي من معالجة مشكلة إلا وتظهر لنا مشكلة أصعب منها ، واستمرت هـٰذه المعاناة طوال سنة كاملة ، وللأسف فإن كثيراً من المعرقلين لهـٰذا المشروع هم من أكبر المستفيدين من خدمات مستوصف عيديد الخيري ، ومع ذلك لم يتوقف مستوصف عيديد الخيري عن تقديم كامل خدماته لهم ولأسرهم ، برغم موقفهم السلبي من مشروع مستشفىٰ تريم الخيري .

وقد ساعدني على الإصرار علىٰ تنفيذ هـٰذا المشروع ما لقيته من تعاون من المسؤولين ، وعلىٰ رأسهم وكيل المحافظة أحمد جنيد بن أحمد الجنيد ، الذي بذل كل ما في وسعه لتذليل الصعاب المتكررة التي واجهتنا ، وكان شديد الحرص علىٰ أن ينجح هـٰذا المشروع الذي سيخدم حضرموت واليمن وما جاورها من البلاد فجزاه الله خيراً .

وقد تمت الدراسة الهندسية الكاملة للمشروع في أكبر المكاتب الهندسية السعودية ، وسيأتي هـٰذا المشروع علىٰ مساحة (٢٣٠٠متر مربع) ، ويحتوي علىٰ قسم لخدمات الطوارىء ، واثني عشر عيادة تخصصية ، ومعامل ومختبرات وقسم للأشعة السينية ، وقسم للموجات الصوتية ، وصيدلية ، وغرفتين للعمليات الرئيسية ، مع قسم للعناية المركزة ، وقسم للنساء والولادة ، وقسم للتنويم ، وبه (٢٤) سرير قابلة للزيادة ، إضافة للخدمات المساندة للمستشفىٰ .

وقد قدرت التكلفة المبدئية للمشروع بعشرة ملايين وسبع مئة ريال سعودي ، كما أن تشغيل هـٰذا المستشفى الخيري سيكلف مبالغ طائلة .

ورغم كل هٰذا فأنا متحمس جداً للمشروع ، وواثق من معونة المولىٰ عز وجل لي إن شاء تعالىٰ علىٰ تحقيق هٰذه الأمنية الغالية ، وأتمنىٰ أن يقر الله عيني بحضور افتتاح هٰذا المستشفى الخيري وشهود ما يقدمه من خدمات للمرضى المحتاجين بحضرموت وعموم اليمن ، كما قرت عيني من قبل بمشروعي الأول مستوصف عيديد الخيري ؛ إنه سميع مجيب .

* * *

مقارنة إحصائية للمرضى المستفيدين من خدمات مستوصف عيديد الخيري للأربعة الأعوام المنصرمة
والمقدمة لمكتب خدمات الصحة والسكان بالوادي والصحراء وحسب اطلاع اللجنة المختصة

العام	المرضى المستفيدين
٢٠٠٠	٤٥٧٣٧
٢٠٠١	٦٧٦٣٢
٢٠٠٢	٥٣٢٧٧
٢٠٠٣	٦١١٤٦
٢٠٠٤	٧٩٢٤٥
٢٠٠٥	٨٦٦١٥

بعض من عاصرت من الشخصيات

الحبيب عبد القادر بن أحمد والأستاذ محمد الشاطري والعم علي بن عبد الله
والأخ محمد البيض والشيخ سالم باحبيشي في جلسة الأربعاء ببيتي بجدة

على الصفحات التالية نبذة من أخبار بعض الشخصيات من أقاربي ومعارفي وأصدقائي ، وقد بدأت علاقتي ببعضهم من أيام الطفولة ، وبعضهم في أيام الشباب ، كما عرفت البعض في أسمرة ، وتوطدت علاقتنا أكثر في جدة . وقد ذكرت بعض ما عرفته من طباعهم وما حضرته أو سمعته من نوادرهم وأحاديثهم وما صار بيننا من قصص وأحداث وفاء لهٰؤلاء الأعزة الذين عشت معهم أياماً جميلة . وأوقاتاً سعيدةً ، وطوقني كثير منهم بجمائل لم أنسها لهم طوال حياتي ، وقد مضىٰ أغلبهم إلىٰ رحمة الله ، غير أنني لم أذكر عنهم إلا ما جاء عفو الخاطر مما لا زلت أتذكره ، وقد ترددت في إيراد بعض القصص

والنوادر ، غير أنني وجدت أن هٰذه النوادر إذا لم تسجل الآن . . فستندثر ولن يعرف عنها شيء بعد ذلك ، خصوصاً وأنه ليس فيها ما يخدش الحياء أو يمس الخلق الكريم ، وقد شجعني أولادي علىٰ تسجيلها ليرووها لأولادهم .

* * *

الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف

أما الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف . . فهو أشهر من أن يعرف ؛ فهو كما يقول الشاعر :

هٰذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... هٰذا الزكي النقي الطاهر العلم

فكنا نجتمع معاً في جلسات الوالد ابن عبيد الله بسيؤن ، والجلسات الخاصة الأخرىٰ ، وتميز الحبيب عبد القادر من صغره بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة ، وكان يستقبل الضيوف ويكرمهم ، رغم تواضع حاله ،

ويقوم بالواجبات الدينية والاجتماعية ، مع الدعوة الصادقة إلى الله ، وكان الوالد علوي يحبه ويزكيه ، وقد حضرنا سوياً بحضرموت كثيراً من العزومات والفسح ، خصوصاً تلك التي كان يقيمها لنا الوالد ابن عبيد الله ، ولما انتقل الحبيب عبد القادر إلىٰ جدة . . استفاد الناس من علمه وأخلاقه ، وكانت تعقد في منزله المجالس العلمية ، وكان لا يتأخر عن حضور المناسبات العامة أو الخاصة ؛ حيث يتولىٰ فيها الوعظ والإرشاد ، كما كانت تقام بمنزله عصر كل يوم من أيام رمضان الجلسات الرمضانية العامة ، والتي تحضرها جموع غفيرة من الناس ، وتقرأ فيها الأحاديث النبوية والأدعية السلفية ، وتنتهي قبل أذان المغرب ، ثم تختم في أواخر رمضان بعشاء عام لجميع الحضور .

وقد كانت لنا الكثير من الجلسات الخاصة مع الحبيب عبد القادر والعم علي بن عبد الله والأخ علي بن سميط في منزل الأخ عبد الرحمـٰن بن محمد السقاف ، كما كان يحضر من وقت لآخر الجلسة الأدبية الربوعية التي أعقدها ببيتي مع العم حامد المحضار والأستاذ محمد الشاطري والعم علي بن عبد الله ، وبقية أعضاء الجلسة الربوعية .

وما زلنا إلى الآن نتمتع بين الحين والآخر بزيارة الحبيب عبد القادر والنظر إليه حفظه الله وأطال في عمره وأبقاه ذخراً للإسلام والمسلمين .

* * *

العم علي بن عبد الله السقاف

ومن أقرب الأقرباء لي العم علي بن عبد الله السقاف ، الذي كان زميل طفولتي وشبابي وشيخوختي ؛ فقد نشأنا معاً في سيؤن في بيت الجد عبد الله بن حسين السقاف بالبلاد ، وكانت لنا في طفولتنا المشتركة الكثير من القصص والنوادر والحكايات ، ذكرت بعضها بين ثنايا هـٰذا الكتاب .

وفي شبابنا كنا من خواص الوالد ابن عبيد الله وجلسائه الدائمين ، وكان يختارنا في الزيارات والفسح التي يقوم بها ، كما كان العم علي شريكاً من الشركاء في المشاريع الزراعية التي توليت إدارتها والإشراف عليها بحضرموت ، واشتهر العم علي بصبره ورجاحة عقله وصلته لرحمه ، وكان الوالد علوي يحبه كثيراً ، ويستعين به في كثير من أموره ، ولما هاجر العم علي من حضرموت إلى السعودية واستقر بجدة . . أصبحت لقاءاتنا شبه يومية ،

وكانت لنا الجلسات الخاصة والتي يحضرها الحبيب عبد القادر والأخ علي بن سميط والأخ طه بن محمد بن طه السقاف وأخوه عبد الرحمـٰن بن محمد ، وكان العم علي يستقبل في بيته الضيوف ويكرمهم ويقيم عزومة سنوية للحجاج القادمين من حضرموت ، كما كان كثير الصدقة على الأقارب والمحتاجين ، وكان محبوباً من العلويين المقيمين بإندونيسيا ، ويصلهم ويواسيهم .

كما اهتم العم علي بالروحة (الجلسة العلمية) التي أسسها والدي بجدة منذ أكثر من أربعين سنة ، وتقام ببيت الأخ طه بن محمد السقاف بعد مغرب كل جمعة ، ويقرأ فيها في الفقه والحديث وفي كتب السلف ، وكان العم علي يواظب علىٰ حضورها ، ولا يسمح لأولاده وأحفاده بالتخلف عنها ، كما يتولىٰ بنفسه تقرير المسائل التي ترد أثناء القراءة ، ويؤم الحاضرين للصلاة .

وللعم علي روح مرحة ، ويحفظ في ذاكرته الكثير من النوادر والأحداث .

وقد توفي العم علي بجدة ودفن بمكة في عام (١٤٢٤هـ) ، وخلف من الأولاد أربعة ، أكبرهم حسن ، وهو قرة عين لوالده ، ولديه اهتمام بطلب العلم رغم انشغاله بتجارته الكبيرة ، ثم محمد ومحسن وحسين .

* * *

الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري

مع الأستاذ الشاطري في بيتي بسيؤن أثناء زيارته الأخيرة لحضرموت

والأستاذ محمد بن أحمد الشاطري من العلماء الأفاضل الذين ربطتني بهم علاقة قوية منذ قدومه إلى جدة قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وكانت له المؤلفات العلمية المتنوعة ، والدروس الكثيرة ، وكان غزير العلم قوي الذاكرة ، ومتحدثاً لبقاً لطيفاً ، وكان يعقد في بيته بجدة كل إثنين جلسة يحضرها الكثير من الناس ، ويستفيدون فيها من علمه ومعرفته .

كما كان مواظباً على حضور الروحة التي أسسها والدي بمنزل آل ابن طه بعد

مغرب كل جمعة ؛ حيث يعقد درس في الفقه والحديث وأخبار السلف ، ويتولى الأستاذ الشاطري التقرير والشرح ، وكانت الجلسات تتزين بوجوده وتتنور بعلمه وأسلوبه اللطيف في الشرح والكلام .

كما أني سعدت بحرص الأستاذ الشاطري علىٰ حضور الجلسة الأدبية التي كنت أعقدها بمنزلي بعد مغرب كل أربعاء ، وكان يحضرها الكثير من الرجال من أمثال العم حامد المحضار والحبيب عبد القادر بن أحمد والعم علي بن عبد الله والسيد عيدروس المحضار والأخ محمد البيض ، وغيرهم من الرجال المتواجدين للزيارة بجدة من أمثال الشيخ سالم باحبيشي والسيد محمد الشامي والشيخ إبراهيم الحضراني والحبيب محمد المساوي والسيد علي بن سميط والسيد شيخان الحبشي والسيد أحمد عمر بلفقيه والسيد سالم الصافي ، وحضرها كذلك الشيخ عبد الله بلخير الذي كان وزيراً للإعلام في عهد الملك سعود ، والأستاذ عبد الله بن يحيىٰ عندما يتواجد بجدة ، وكذلك الحبيب عبد القادر الروش ، وغيرهم من العلماء والوجهاء .

وقد أَخَذَ لهم الابن علي صورة علقناها في مكان الاجتماع والذي لم أعد أدخله منذ عام (١٤٢٢هـ) ؛ إذ إن كل من في الصورة من شيوخي وأصدقائي قد مات ، وبقي لنا الحبيب البركة عبد القادر بن أحمد ، وهو يمثلهم جميعاً ، متّع الله به في صحة وعافية .

وكنا نتناول في هٰذه الجلسات المواضيع الأدبية والقضايا الاجتماعية والسياسية ، فيدلي كل من الحاضرين بدلوه فيها ، كما تروى الطرائف واللطائف والنكات ، وأحياناً مواضيع علميّة ، وقد استمرت هٰذه الجلسات حتىٰ غيب الموت أغلب أعضائها ، فكانت لا تعقد بعد ذلك إلا إذا اتصل بي الأستاذ الشاطري وأبدىٰ رغبته في الحضور .

وقد سافر الأستاذ الشاطري مع عائلته معنا إلىٰ تركيا ، وقضينا معاً وقتاً طيباً وجميلاً ، فكنت أجلس معه في حديقة مزرعتي بصمنلي كل يوم نتجاذب

أطراف الحديث في المواضيع المختلفة بين الأشجار المثمرة والورود اليانعة ، ونجلس أحياناً في شرفة شقتي بيلوا ذات الإطلالة البحرية العجيبة .

وفي شهر القعدة من عام (١٤١٥هـ) قررت مع ابني علي زيارة حضرموت فتشجع الأستاذ محمد الشاطري علىٰ مرافقتنا ، ووصل معنا حضرموت بعد غيبة ثلاثين سنة ، فاستقبلته البلاد استقبالاً حافلاً ، ومكث قرابة الشهر بحضرموت ثم عدنا سوياً إلىٰ جدة .

وألقى الشاعر المشهور حسن عبد الله باحارثة القصيدة التالية في هٰذه المناسبة :

يا سامع الدعوة ويا من للمنادي تستجيب
اغفر لنا والطف بنا يا رب في اليوم الصعيب
وألفي صلاة على النبي المصطفىٰ نعم الحبيب
يقول بوحارث بشارة خير من مصدر صليب
إلىٰ بلاده عاد لي سافر وطول في المغيب
واستقبلت أرض اليمن بالحب والصدر الرحيب
محمد أحمد بن عمر الشاطري نعم الأديب
نعم المؤلف والمفكر والمعلم والخطيب
آنستنا يالشاطري يا صاحب الرأي المصيب
يا كنزنا يا رمزنا يا نجم زاهر ما يغيب
أبدعت وتواصل نشاطك في شبابك والمشيب
وتحط ساسك عا الصليبه ما تسوس عاالكثيب
عليك نسأل دائماً وبذكرك الجلسة تطيب
نسأل صحابك والسري لي دايما منك قريب
ندعو بطول العمر لك والله للدعوة مجيب
ومعك بن علوي وصل وابنه علي أعلىٰ طبيب
تعتز بكم سيؤن والغناء وعيديد العجيب

يا فخرنا يا رمز من أثمار وادينا الخصيب
أعمالكم تشهد ويشهد كل صاحب أو جنيب
إن الحضارم نوبهم يلقىٰ عسل صافي صبيب
والحضرمي مثل الذهب داخل بلاده أو غريب
والختم صلوا عاالنبي المصطفىٰ نعم الحبيب

واستمر الأستاذ الشاطري في إثراء الحياة العلمية والاجتماعية بجدة حتىٰ وافاه الأجل المحتوم في رمضان من سنة (١٤٢٢هـ) ، ودفن بمكة وجعلني وصيّاً من بعده ، فأرجو الله أن يجعلني فيما كلفني به موفقاً للقيام بكل ما يجب القيام به .

* * *

العم حامد بن أبي بكر المحضار

مع العم حامد المحضار وابنه علي على اليسار ، والعم علوي الكاف على اليمين
في أسمرة عام (١٣٦٤هـ)

يعتبر العم حامد بن أبي بكر المحضار من كبار علماء وساسة حضرموت ، وقد تمتع بعقل راجح وحافظة قوية ، وعلم غزير وحجة واضحة ، وربما كان الوحيد من رجال العلويين في ذلك الوقت ممن درس بالأزهر وحصل علىٰ شهادة العالمية الأزهرية .

وقد سافر العم حامد في شبابه إلى الحرمين حيث حفظ القرآن الكريم ، ثم سافر إلىٰ مصر والتحق بالأزهر ، ودرس علىٰ يد الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وكان العم حامد معجباً بالشيخ شلتوت وبسعة علمه وغزارة

معارفه ، وحدثني العم حامد بقصة حدثت له مع الشيخ محمود شلتوت الذي أعجب بذكاء العم حامد ونبوغه ، فأخذ يساعده في دراسته ويتعهده في تحصيله ، فقرر العم حامد أن يكافىء الشيخ علىٰ مساعدته بهدية ، ولـٰكنه لما ذهب لبيته بالهدية . . زجره الشيخ شلتوت ورد الهدية وقال له : أنا لم أساعدك من أجل هـٰذا .

ويقول العم حامد عن ذلك : فزدت إعجاباً به وتقديراً لمقامه ، ومن الطرائف التي رواها لنا العم حامد خلال هـٰذه الفترة أنه كان له زميل من اليمن تعثر في الحصول علىٰ عالمية الأزهر ، فعمل لفترة إماماً لمسجد بمصر ، فلما أعاد أداء الامتحان . . سأله الشيخ شلتوت من أين تريد أن نبدأ الأسئلة ؟ فأجابه لنبدأ الامتحان بالحديث الذي يقول : « إذا أتاكم أهل اليمن . . فأكرموهم » ، فاستحسن الشيخ شلتوت هـٰذا الجواب وساعده .

العم حامد مع السلطان القعيطي أثناء تولية الوزارة

ثم سلك العم حامد سلم السياسة فتولىٰ مثل والده وجده العظيم الزعيم حسين بن حامد وزارة الدولة القعيطية ، إلا أن قدومه للوزارة تصادف زيادة

اهتمام بريطانيا بحضرموت وإلقاء الشباك حول سلاطين حضرموت علىٰ يد ضابط المخابرات البريطاني انجرامس الذي حاول التخلص من أي شخصية وطنية إسلامية يمكن أن تعرقل سيطرة الإنجليز علىٰ سلطنات وسلاطين حضرموت ، وكان العم حامد من أكبر هٰذه الشخصيات .

فاتهمه انجرامس بالفاشستية وعمل علىٰ إبعاده من وظيفته ، وبلغ الأمر أنه لما زار السلطان القعيطي لندن لحضور تتويج الملك جورج السادس ـ كما ذكر العم حامد في كتابه ـ طلب منه وزير المستعمرات البريطاني التخلص من العم حامد ؛ لأنه فاشستي علىٰ حد قول وزير المستعمرات ، فرد عليه السلطان بقوله : أثبتوا عليه التهمة وسنحاكمه ، فرد وزير المستعمرات على السلطان بقوله : إن عربون صداقتنا أن تقبل ما نقول دون مناقشة ، وهٰكذا غادر العم حامد الوزارة القعيطية كما غادرها أيضاً بتأثير انجرامس ـ وفي نفس الوقت ـ شخصية أخرىٰ هامة وهو المقدّم أحمد البطاطي ، المعروف بطوله وشجاعته ، ولم يشفع له اعتراف انجرامس بأن المقدم البطاطي أنقذ حياته عدة مرات .

وقد تعين بعد مغادرة العم حامد والمقدم البطاطي الحكومة سعيد الحدّادي حاكماً بالسوق بالمكلا ، فقال الشاعر الشعبي مؤرخاً ومعلقاً علىٰ أحداث هٰذه الفترة :

حامد تكعدر وما صاحبه جا علىٰ طوله	وسكنت الناس من حامـد ومن حمدان
سعيـد جـابـوك للبلهـان تغـفـولـه	يومك مغفل كبير الشان في البلهان
يطلـع يـدق القـاع عـارجـولـه	مـاشي مـريكـوب للحدّادي التعبـان
وبعدها قلت باتنصف لنا الدولة	وانثر ماشي نصف في دولة القعـطان

وسافر العم حامد قبل الحرب العالمية الثانية إلى اليمن ، وقد قلده الإمام أحمد بعد ذلك منصب السفير اليمني بالحبشة ، فعمل بهٰذا المنصب سنوات ، ولما ظهر الرئيس عبد الناصر باتجاهه الاشتراكي المتعارض مع اتجاه العم حامد الإسلامي . . لم يسكت العم حامد عن معارضة عبد الناصر ، مما أغضب السفير المصري بالحبشة ، فاشتكىٰ لحكومته التي احتجت لدى اليمن ،

فاستدعى الإمام العم حامد إلى اليمن وعين سفيراً غيره .

وكان بيت العم حامد بأسمرة مفتوحاً للضيوف ، وسفرته دائماً ممدودة ، ولا يطيب له الجلوس والطعام إلا مع الناس .

ولما ترك العم حامد السفارة . . عاد من اليمن واستقر بأسمرة ، وأخذ في ممارسة التجارة ، إلا أنه لم يصب فيها نجاحاً يذكر ، لٰكنه رغم ذلك كان يتمتع بأيامه ويعيش عيشة المترفين ، وله بأسمرة بيت واسع وعائلة ، وقد ورث عن أهله أملاكاً واسعة في حضرموت ، فكان كلما قل في يده المال . . باع عدداً من النخلات بحضرموت على التجار الدواعنة بأسمرة الذين كانوا يتكالبون علىٰ جمع المال ولا يتمتعون بما جمعوه .

وبصفتنا مجموعة مختارة من خواصه وأصدقائه . . فإنه يجمعنا في بيته في كل ليلة لنتعشىٰ علىٰ مائدته ، ثم يمتد بنا السمر وحديث العم حامد الممتع إلىٰ ساعة متأخرة من الليل .

وبين العم حامد والوالد ابن عبيد الله علاقة ود ومحبة واحترام ، ويزور العم حامد الوالد ابن عبيد الله بسيؤن وينزل بضيافته ، وفي إحدى المرات وصل العم حامد المحضار إلىٰ سيؤن من دوعن برفقة العم حامد البار ، فنزل العم حامد البار علىٰ آل حبشي وأحضر معه العسل والدخون ، ونزل العم حامد المحضار على الوالد ابن عبيد الله ، ولٰكنه وصل بدون هدية .

فقال الوالد ابن عبيد الله :

رضينـــا قسمـــة الجبـــار فينـــا لنـــا حـــامـــد وللـــرجـــال حـــامـــد

وكان الوالد ابن عبيد الله يتجادل مع العم حامد ، إلا أنه قال عن العم حامد بأنه يستطيع أن يحوّل الحق إلىٰ باطل ويحملك على التصديق به ، وكان الوالد ابن عبيد الله يروي شعره محاولاً إقناع العم حامد بأن هٰذا الشعر أفضل من شعر شوقي فيعارضه العم حامد ، ويختلفان ويتجادلان ، ويرتفع الصوت بينهما ، وفي إحدىٰ هٰذه المرات قرأ الوالد ابن عبيد الله على العم حامد قصيدة من أحسن قصائده ، وختمها كعادة أهل حضرموت بالدعاء والتوسل ، ولما انتهىٰ

منها . . سأل العم حامد رأيه فيها ؟ فقال له العم حامد : هٰذه فاتحة يا عم عبد الرحمٰن تنقصها كلمة آمين ، فثار عليه الوالد بن عبيد الله وشتمه .

وبقي العم حامد يجل الوالد ابن عبيد الله ويعتبره فريد عصره ويذكره إلىٰ آخر حياته .

ثم تولى العم حامد منصب مدير الخطوط السعودية في عدن أيام حرب اليمن وبداية القلاقل بعدن ، ورغم خطورة هٰذه الوظيفة في تلك الفترة بعدن وكثرة القتل والاغتيالات . . إلا أن العم حامد كان يقول بأنني أقرأ أورادي وحزوبي كل صباح ، وأتوكل على الله ولا أخاف .

ثم انتقل العم حامد إلىٰ مدينة جدة ، وكنا نزوره في بيته بين الحين والآخر ، وبعد صلاة العشاء تمتد مائدته لزواره وحاضري مجلسه علىٰ طريقته التي بدأها في أسمرة ، وربما قبلها ، ثم صار العم حامد يحضر في بيتي ونجتمع مع الإخوان البيض وباجنيد وعيدروس المحضار وغيرهم ، وتكررت هٰذه الجلسات حتىٰ أصبحت جلسة مقررة ومفتوحة بعد مغرب كل أربعاء ، وكان يحضرها عدد من أصدقائنا السابقين بأسمرة ، ويتولى العم حامد ناصية الحديث ويصول ويجول في مختلف العلوم والفنون .

ثم انتابت العم حامد في آخر حياته حالة من الصمت ، مرض بعدها مرض الموت ، وتوفي ودفن بمكة يرحمه الله ، وكان يقول لي قبل أن يتوفىٰ بسنوات بأنه يسمع دوياً متواصلاً في أذنيه لا ينقطع .

* * *

الحبيب أحمد مشهور الحداد

الحبيب أحمد مشهور الحداد

كما كانت لي علاقة قوية بالحبيب أحمد مشهور الحداد ، وهو من العلماء الصالحين الذين تبدو علىٰ محياهم أنوار العبادة والصلاح ، وقد مكث فترة بممباسا والسواحل الإفريقية ، وقام هناك بنشر الإسلام ، وأسلم علىٰ يديه الألوف ، وكان يزور جدة بين الحين والآخر قبل أن يستقر بها في السنين الأخيرة ويقيم عند ابنه البار علي .

ويحبني الحبيب أحمد كما يحب والدي كثيراً ، وكان والدي يرحمه الله يحب الحبيب أحمد المشهور الحداد ويحرص علىٰ زيارته في كل مرة يتواجدان فيها بجدة ، فأذهب مع الوالد لزيارته بمنزل أولاده بالكندرة ، فيستقبلنا بغاية الترحيب والإكرام ، ولا يتأخر رحمه الله عن حضور عزومة الحج التي أقيمها

بمنزلي للحجاج القادمين من حضرموت والحضارم المقيمين بجدة ، وواصل حضورها حتىٰ مع ضعفه وصعوبة حركته في السنوات الأخيرة من عمره ، وكان حضوره مع الحبيب عبد القادر يصبغ هـٰذه المجالس بالأنس والروحانية .

وكان حريصاً على الذهاب للحج إلىٰ آخر حياته ، مع ما في ذلك من صعوبة ومشقة عليه .

ولما زرته في إحدى المرات . . أهدىٰ إلي سبحة وقال لي : أمرت أن أعطيك هـٰذه السبحة ، ففرحت بهديته واستبشرت بكلامه خيراً .

ولما كان الحبيب أحمد مشهور الحداد وأولاده في بيتي في مناسبة خاصة . . وذكرت له أن خاتم الحبيب عبد الله الحداد في حوزتي ، وذكرت له طريقة وصوله لي ، فهلل وكبّر ، ولما أحضرت له الخاتم . . وقف يضعه علىٰ رأسه وبين عينيه وأخذ يقبله وهو في حالة خضوع وحضور شامل ، وكأنه بحضرة الحبيب عبد الله الحداد ، وطلب من أبنائه لبسه وتقبيله والتبرك به ، رحمه الله ؛ فقد فقدنا بفقده جبلاً شامخاً من العلم والفضل والصلاح والخلق العظيم .

وقد توفي الحبيب أحمد مشهور الحداد بجدة ودفن بمكة في(١٥) رجب (١٤١٦هـ) .

* * *

الحبيب عطاس الحبشي

الحبيب عطاس الحبشي

ومن علماء وصلحاء حضرموت الذين هاجروا منها بعد تسلط الحزب الشيوعي على الحكم بحضرموت وتنكيله بالعلماء ورجال الدين : الحبيب عطاس الحبشي والذي استقر بمكة ، وكنا نزوره بين الحين والآخر ، كما كنا نشاهده في المناسبات العامة ، وقد حضر إلىٰ بيتي في جلسة ضمت الحبيب عبد القادر بن أحمد والعم علي بن عبد الله السقاف والأستاذ محمد الشاطري ، ولما طلبنا منه أخذ صورة له معنا . . لم يستحسن ذلك ، فقال له الحبيب عبد القادر : لو أن أحداً أحضر لك الآن رسماً لواحد من السلف الذين لم ترهم من قبل . . ألا يكون ذلك طيباً ؟ فلم يمانع الحبيب عطاس بعد سماع هٰذا الكلام في أخذ الصورة .

وبعد استيلاء الحزب علىٰ حضرموت بعد جلاء الإنجليز بدأت مرحلة من التنكيل بالعلماء والصلحاء ورجال الدين ، ومنهم الحبيب عطاس الذي قرر السفر إلى السعودية فسافر من حضرموت إلىٰ عدن ، ولٰكنه ما إن ركب الطائرة بعدن متوجهاً إلىٰ جدة حتىٰ طلع أحد أفراد الحزب ونادىٰ عدة مرات على السيد أبو بكر الحبشي وهو الاسم المكتوب بالجواز للحبيب عطاس الذي لا يعرفه أحد إلا بلقبه عطاس ، فلم يجبه أحد ، وكل من في الطائرة لا يعرف إلا اسم الحبيب عطاس ، ولو عرفوا الاسم الآخر فلربما تطوع بعض الأشرار ودل عليه ، ولٰكن الله الذي أخفىٰ نبيه عن أعين مشركي قريش في غار حراء . . أخفىٰ أحد أوليائه عن أعين الشيوعيين في بطن الطائرة .

ثم أقلعت الطائرة بالحبيب عطاس وصحبه إلىٰ جدة وسلمه الله من زبانية الحزب الذين نكلوا بالعلماء والصلحاء ، وسجنوا بعضهم ، واختطفوا آخرين ، ولم يعرف أحد بمصيرهم إلى اليوم .

وللحبيب عطاس وجه صبيح يشع منه نور الصلاح والعبادة ، وكان طبيعياً لا يحب التكلف ، ولما دعي إلىٰ عقد قران بجدة . . استأذنوا منه في قراءة المولد قبل إجراء العقد ، إلا أن الحبيب عطاس قال لهم : يا مولد . . يا عقد ، وهٰكذا اقتصر الحفل علىٰ عقد الزواج .

وكان وجود الحبيب أحمد مشهور الحداد والحبيب عطاس الحبشي والحبيب عبد القادر بن أحمد والحبيب محمد الهدّار والحبيب عبد الرحمٰن الكاف وكثير من الحبايب الآخرين في السنوات الأخيرة فرصة لأولادنا وشبابنا الموجودين بجدة ليروا صورة عن سلفنا الصالح ، وليسمعوا كلامهم ويخبروا أعمالهم .

* * *

السيد عبد القادر بن محمد بن طه السقاف
(أبو علوي)

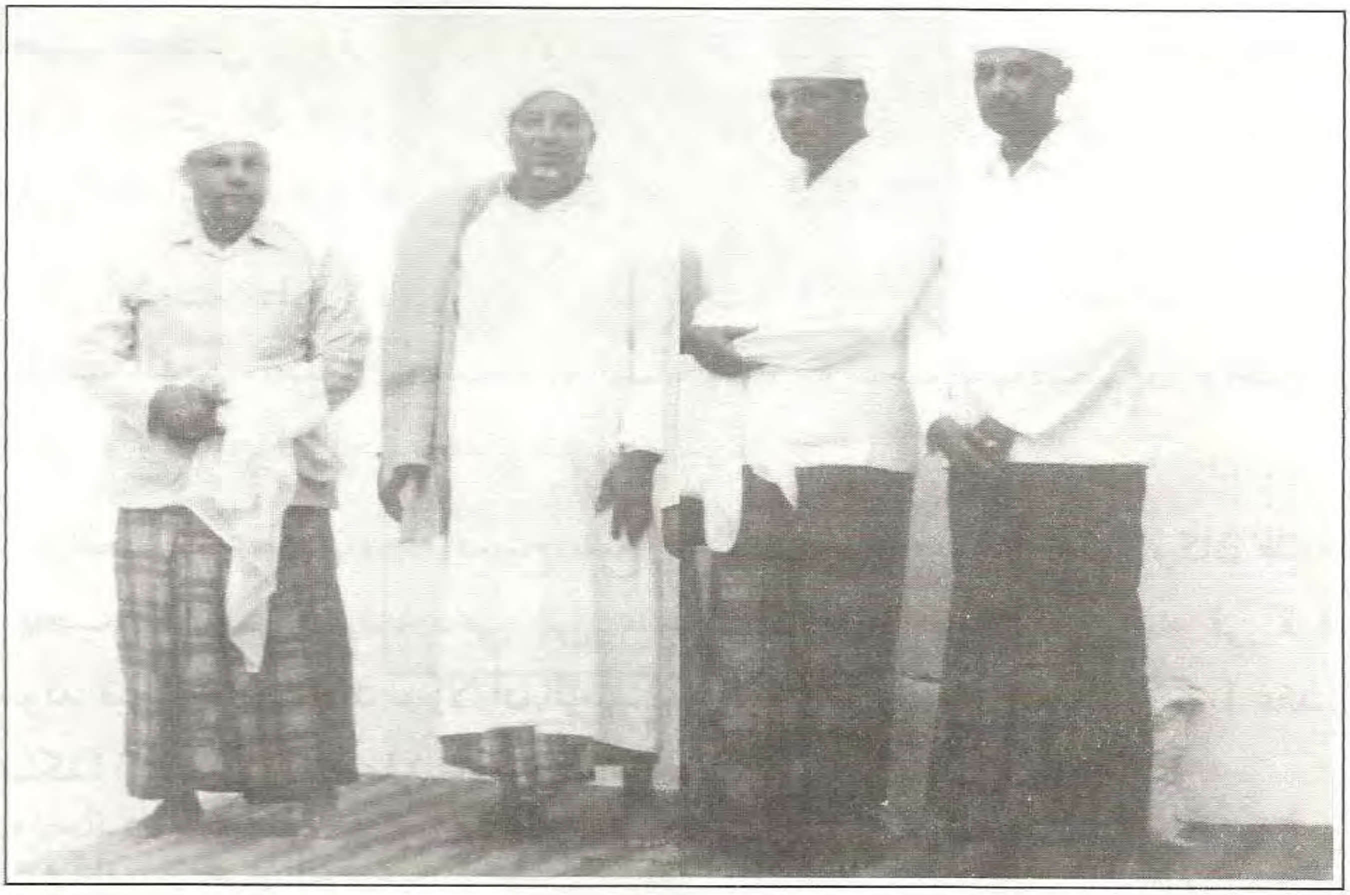

السيد عبد القادر بن محمد بن طه مع إخوانه سالم وطه وعبد الرحمـٰن

نشأ السيد عبد القادر بن محمد السقاف المعروف بلقبه الشهير أبو علوي في أسرة كبيرة وفقيرة ، وتحمل مع والده بصفته أكبر إخوته مسؤولية إعالة أسرته الفقيرة ، فكان يخرج في شبابه إلى السوق ويحاول أن يدبر ما يسد رمقهم ، فيحالفه الحظ أحياناً ويعانده في أحيان أخرىٰ ، فيبقىٰ مع أسرته بدون طعام .

ورغم قسوة نشأته وصعوبة الظروف التي مر بها إلا أنه عندما تيسرت حالته بعض الشيء فيما بعد . . ظهر نبله وكرمه ، فكان يستقبل الضيوف ويمد الموائد

لأصحابه وأقربائه ، ومنها مأدبته السنوية العامة التي يقيمها بسيؤن .

ولم يترك أبو علوي هـٰذه المائدة أبداً حتىٰ في شيخوخته ، فكان في إحدى المرات بجدة ، وعندما اقترب موعد المأدبة . . عاد بسرعة إلىٰ حضرموت حتىٰ لا يلام بالتهرب من عادته .

كما كان أبو علوي شهماً مقداماً وصاحب رأي ، شديدَ الوفاء لأصحابه وجماعته ، وقد خدم أصدقاءه الشيخَ سالم باحبيشي والشيخ محمد سعيد العمودي ، وبنىٰ لهم بيوتهم بسيؤن علىٰ أحسن ما يكون ، وبقيت علاقته ممتازة مع صديقه الشيخ سالم باحبيشي إلىٰ أن لقي كل منهم ربه ، أما الشيخ محمد . . فقد ابتعد عن أبو علوي ، ومع ذلك فإن أبو علوي الشهم الوفي لم يتخل عنه ، وعندما سجنت حكومة الحزب الشيخ محمد سعيد العمودي ظلماً وعدواناً أثناء زيارته لحضرموت . . قام أبو علوي يتعهده بالعناية والزيارة ، رغم خطورة ذلك أيام حكم الحزب ، بل ويحضر له الغداء من بيته كل يوم .

وقد تجلت شجاعة أبو علوي وإقدامه أثناء حرب الغرفة بين السلطان والإنجليز من جهة ، وبين ابن عبدات حاكم الغرفة من الجهة الأخرىٰ ، وقد جمع الإنجليز لحرب ابن عبدات جيشاً مدرعاً عرمرماً لم تشهد حضرموت مثله من قبل ، إلا أن ابن عبدات هزم هـٰذا الجيش مرتين ، ولم يستسلم للإنجليز رغم ضرب الغرفة بقنابل الطائرات ، حتىٰ قال الشاعر العامي :

خلـوش يـالغـرفـة كمـا بـرليـن   حتـى انجـرامـس وشبمـرليـن

وكان أبو علوي في أثناء التحام القتال يتولىٰ نقل رسائل الوساطة بين العم بوبكر بن شيخ الكاف في سيؤن وبين ابن عبدات في الغرفة ، وكان يذهب إلى الغرفة مشياً علىٰ قدميه تحت وابل الرصاص غير آبه بما يمكن أن يتعرض له من خطر .

وشارك أبو علوي بجهده الدؤوب في الكثير من الأعمال الخيرية ، كما استمر في حث أصحابه على المشاركة في أعمال الخير ، وقد تمت كثير من

أعمال ومبرات الشيخ سالم باحبيشي علىٰ يديه .

ويعتبر السيد عبد القادر اليد اليمنىٰ لباحبيشي في كثير من أعماله الخيرية وصدقاته ، وقد أخلص لباحبيشي وسعىٰ بأقصىٰ جهده لخدمته ، وقد قابله الشيخ سالم باحبيشي بنفس المحبة والتقدير والثقة .

وقد تولىٰ أبو علوي المسؤولية الكاملة لمشروع الشيخ سالم باحبيشي لتوصيل المياه لقرية حوفة ـ مسقط رأس أجداده ـ أما الشيخ سالم نفسه . فمن مواليد الحبشة ، وقد طلب أبو علوي مني ومن العم علي بن عبد الله مرافقته في رحلة حوفة فلم نتأخر ، ووصلنا حوفة لنجد أن سكانها يتكبدون مشقة كبيرة في الحصول على الماء ، ويذهبون إلى الجبال البعيدة كل صباح لجلب قربة من الماء من عيون يمتلكها بعض الناس ، فقام الشيخ سالم باحبيشي بشراء نبعين من هـٰذه العيون ، ودفع فيهما قيمة كبيرة ، ثم مد منهما الأنابيب حتىٰ قرية حوفة ، وعمل بحوفة خزاناً به صنابير ليستقي منها الناس بالمجان ، فوفر علىٰ أهل حوفة مشقة عظيمة ، ولـٰكن رغم خسارة الشيخ سالم باحبيشي في هـٰذا المشروع الذي يخدم كل سكان حوفة وما حولها إلا أن كثيراً من هـٰؤلاء المستفيدين اعترض بشدة علىٰ مرور الأنابيب بأرضه ، ولم يسمحوا للأنابيب بالمرور في أراضيهم إلا بمقابل كبير يدفعه باحبيشي ، فكنت والعم علي بن عبد الله ورئيسنا أبو علوي نجتمع بهـٰؤلاء المعترضين كل مساء للتفاوض علىٰ أجرة المرور .

وقد بذل السيد عبد القادر في هـٰذا المشروع مجهوداً عظيماً ، ودفع الشيخ سالم باحبيشي من ماله مبالغ طائلة ، حتىٰ تحقق المشروع علىٰ أكمل وجه وأحسن طريقة .

ولما انتهى المشروع ، وتمتع أهل حوفة بإمدادات الماء العذب في سهولة ويسر . اتصل بعض الأغنياء الحضارمة المقيمين بالسعودية ، والذين يملكون من المال أضعاف ما يملكه الشيخ سالم باحبيشي ، وطلبوا من الشيخ سالم باحبيشي توصيل المياه لقراهم وعلىٰ نفقته .

وحيث إن الشيء بالشيء يذكر . . فبعد أكثر من أربعين سنة من مشروع مياه حوفة كلفني الشيخ عمر بالبيد بحفر بئر ارتوازي وعمل خزان لتوزيع المياه بالمجان علىٰ سكان قريته ضري التي بقيت تعاني ما عانته حوفة من صعوبة في الحصول على المياه ، ورغم تقدمي في السن وصعوبة الوصول لهـٰذه القرية التي لا تصلها الطرق الممهدة . . إلا أنني باشرت الإشراف علىٰ هـٰذا المشروع بنفسي حتىٰ تم إنجازه علىٰ أكمل وجه ؛ رغبة مني في المشاركة في هـٰذا العمل الخيري الجليل .

كما تطوع السيد عبد القادر بن محمد السقاف بجهده في الكثير من المشاريع الخيرية ، وقد دعاني للمساهمة في تجديد مسجد عيديد بتريم ، ثم تطور الأمر إلىٰ أن تحول التجديد إلىٰ مشروع كبير تم فيه تجديد وتوسيع مسجد عيديد التاريخي بتريم مع بناء عدة مرافق سكنية وسكن للمؤذن والإمام ، مع دكاكين تؤجر للصرف على المسجد ، واحتاج المسجد أيضاً لمولد ضخم للكهرباء وبئر ارتوازي لإمداده بالماء ، فوفقني الله لعمل ذلك .

وأشعر الآن بعد سنوات عديدة من إتمام هـٰذا المشروع علىٰ نفقتي الخاصة وبعد انتقال أخي الكبير أبو علوي إلىٰ رحمة الله أشعر بالفرح والسرور أن وفقني الله لهـٰذا العمل ، وأدعو بالرحمة والمغفرة للرجل الذي قادني لهـٰذا الخير .

كما أدى ارتباطي بمسجد عيديد بتريم إلىٰ تأسيس (مستوصف عيديد الخيري) بتريم فيما بعد ، والذي قادني إلىٰ العمل الآن على إنشاء مستشفىٰ تريم الخيري .

وقد ساند أبو علوي والدي مساندة فعالة في مشروعه العظيم بتجديد عمارة مسجد طه ، وشاركه السفر لهـٰذا الغرض إلىٰ جدة وأسمرة ، وقابل معه المعلم ابن لادن .

ويحب أبو علوي والدي ويقدره ، كما يحبه والدي ويثق به ويستشيره في

كثير من الأمور ، وقد شملتني والعم علي بن عبد الله محبة أبو علوي وإخلاصه ووفاؤه .

ويقيم لنا أبو علوي في بيته المآدب الخاصة ، وفي غرفته خزانة يسميها الوالد علوي بخزانة الجيلاني ، يفتتحها أبو علوي عند حضورنا ، ويخرج لنا منها المأكولات الشهية والحلوىٰ .

واشتهر أبو علوي بعمل الشاي اللذيذ ، فسأله الوالد علوي في إحدى المرات : ما السر في أن الشاهي الذي تعمله يختلف عن شاهينا في البيت ؟ فرد أبو علوي على الوالد بقوله : أنتم يا عم علوي تعملون شعرتين شاي تتقلب في البراد ، وأنا أملأ البراد كله بالشاي .

وفي إحدى الولائم التي أقامها الوالد تطوع أبو علوي لعمل الشاي ، إلا أن الوالد أصر علىٰ أن يتولىٰ أخي محمد عمل الشاي ؛ لأنه أكثر تدبيراً وشفقة على الحال .

وفي مرة دعانا السيد أبو علوي إلىٰ داره ومر على الوالد وكان يلقي درسه بمسجد طه ، فظهر له السيد أبو علوي من خلف نافذة المسجد وأعطىٰ له الإشارة فأنهى الوالد درسه بسرعة ولحقنا إلىٰ دار أبو علوي ، ولما جاء الوالد وجلس . . قدم لنا أبو علوي الشاي ، ولم تظهر بوادر لأكل ، فغضب الوالد وقال : تدعونا لمثل هٰذا ، فقال أبو علوي : لا تغضب يالحميدي (يشير إلىٰ أخوال الوالد من آل باحميد) وقام أبو علوي بسرعة وأمر أهله بتحضير عشاء سريع ، وما هي إلا لحظات حتىٰ دخل علينا العشاء .

كما كان أبو علوي لطيفاً مرحاً ومحباً لجلسات الأنس والانبساط ، وفي إحدى زيارات الشاعر الغنائي التريمي حداد بن حسن الكاف لأبو علوي . . قال قصيدته المشهورة :

(ذا خرج فصل طاب الأنس في دار أبو علوي)

ويحب الشاعر حداد بن حسن زيارة أبو علوي بسيؤن ، ويصحب معه

منشده الخاص عاشور ، الذي لم يكن يعجبني والعم علي صوته ، فكان عاشور يغني ، وكنت أردد مع العم علي في المقاطع :

(كل شيء بايزين لانام عاشور)

فتضيع أصواتنا مع نغمات الغناء .

واشتهر أبو علوي بكثرة الزواج وله زوجة في بلدة الحوطة ، وفي مرة من المرات ذهبت والعم علي بن عبد الله مع أبو علوي إلى الحوطة لحضور حضرة الحبيب أحمد بن زين الحبيشي ، وقد دعانا أبو علوي لطعام الغداء ببيته بالحوطة بعد انتهاء الحضرة .

ولما وصلنا إلىٰ الحضرة . . وجدناها مزدحمة بالناس ، فاستقبل أهل الحوطة أبو علوي بالترحاب والاحترام وأدخلوه إلىٰ الداخل ، وأفسحوا له مكاناً ، بينما جلست مع العم علي بالخارج ، واغتظنا من أبو علوي الذي لم ينتبه منا وتركنا لوحدنا بالخارج ودخل بمفرده ، وبعد انتهاء الحضرة . . سبقنا أبو علوي إلىٰ بيته لإعداد الغداء ، فوجدنا الحبيب أحمد بن حسن الحداد ، وكان زوجاً سابقاً لزوجة أبو علوي المقيمة بالحوطة ، وكان أبو علوي لا يحبه ، ويكره أن يراه ، فقررنا انتهاز هـٰذه الفرصة للانتقام من أبو علوي فأوهمنا السيد الحداد بأنه معزوم معنا على الغداء بدار أبو علوي ، وأخذناه معنا بعد انتهاء الحضرة ، فاغتاظ أبو علوي ، ولـٰكنه لم يستطع أن يرده .

ثم دعانا أبو علوي بعد فترة طويلة للعشاء بمنزله بالحوطة فذهبنا إليه بسيارة سكرتير الدولة مع مجموعة من الأصدقاء ، وكانت العلاقة قد فترت بينه وبين زوجته ، فكان يتهرب منها ، ويخطط لمرافقتنا إلىٰ سيؤن بعد انتهاء العشاء ، ولما انتهينا من العشاء والسمر . . طلب منا أبو علوي انتظاره حتىٰ يودع زوجته ، ولـٰكننا سبقناه بالخروج وقفلنا باب بيته من الخارج وحبسناه في بيت الزوجيّة ، فلحقنا وهو يصيح وحاول فتح الباب فلم يقدر عليه ، وانطلقنا وحدنا بالسيارة إلى سيؤن وتركنا أبو علوي في بيته بالحوطة .

وفي مرة دعاني والعم علي بن عبد الله أحد أثرياء الحوطة لوليمة غداء ،

وقد اشتهر هٰذا الشخص بالشدة والبخل رغم ثرائه ، وقد حذرنا أبو علوي من هٰذه العزومة وقال : تعالوا إلىٰ منزلي بالحوطة ، وسأعمل لكم وليمة عامرة . إلا أننا طمعنا في وليمة دسمة ببيت الثري ، ولما وصلنا وانتهينا من الحديث . . جاءت المائدة التي لم تزد علىٰ صحن صغير به قليل من الرز البارد ، والذي يبدو أنه بقية من طعام سابق ، وفوق الصحن قطعة صغيرة من اللحم ، فاضطررنا إلىٰ مباشرة الطعام علىٰ كراهة ؛ استحياءً من مضيفنا الثري ، ولما طلبنا الماء البارد . . وجدنا أن الثلاجة مقفلة بمفتاح ، واستغرق البحث عن حامله وقتا طويلاً ، ولما انتهينا من هٰذه العزومة . . عدنا إلىٰ منزل الأخ أبو علوي بالحوطة عطشىٰ جياعاً ، فقال لنا : لقد نصحتكم فلم تسمعوا النصيحة ، فأخذتم جزاءكم .

وقد دعىٰ هٰذا الثري بعض أعيان سيؤن وفيهم الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف لوليمة غداء ، وقدم لهم مائدة شبيهة بمائدتنا ، فامتنعوا عن مباشرة الطعام ، أما الحبيب عبد القادر بن أحمد المطبوع على الرضا والقناعة . . فقد أشبع جوعه بما توفر من طعام .

وقد اشترىٰ أبو علوي حماراً مسنّاً ضخم الجسم أبيض اللون ، وكان أبو علوي يتحدث عن حماره وكأنه من أنفس الخيول العربية رغم ما ظهرت فيه من العيوب ، ثم حاول أبو علوي أن يبيعه فلم يستطع ، فكلف خادمه عبد أن يطلع بالحمار إلىٰ سوق الجمعة ، فلم يرغب في شرائه أحد ، وكنا نجلس مع أبو علوي بعد صلاة الجمعة لتسليته والتأكيد له بأن حماره لا بد وأن يكون الآن مع مشتريه ، وما هي إلا لحظات حتىٰ نسمع وقع الحوافر ، ثم يظهر عبد عائداً بالحمار ، وتكرر ذلك عدة مرات .

ثم أحدث هٰذا الحمار حادثة لا أنساها ؛ فقد رافقت أبو علوي إلى الحوطة في إحدى المرات فركب حماره الأبيض وركبت دابة والدي المشهورة بقوتها وثباتها ، والتي آلت لوالدي بالشراء من الخال عبد الرحمٰن بن محمد بن طه السقاف ، وبينما كنا في الطريق . . أخذ أبو علوي يعدد مزايا حماره ويتحدث

عن بطولاته ، وبينما هو مستمر في حديثه . . إذ انقلب به الحمار قلبة لم أر مثلها من قبل ؛ فقد وقع رأس الحمار على الأرض وطار ذيله في الهواء وارتمىٰ أبو علوي بعمامته وجبته بعيداً على الطريق ، ثم قام ينفض ثيابه ويبحث عن عمامته وجبته ، وكان الموقف مضحكاً إلىٰ أبعد الحدود ، إلا أنني كتمت ضحكي احتراماً لأبو علوي وخجلاً مما حدث له .

ثم استطاع أبو علوي أن يقنع محيي الدين الحداد بشراء هٰذا الحمار ، ولما سألهم محي الدين عن آثار ضربة في رأسه ؟ اخترع خادم أبو علوي قصة بطولية للحمار أقنعت محي الدين بشرائه .

وتذكرني هٰذه القصة بقصة حمار للوالد ابن عبيد الله وقد حاول أن يبيعه عدة مرات فلم يرغب فيه أحد ، ولما شارف بعد ذلك علىٰ بيعه . . صرح ابنه عيدروس أمام المشتري بأن الحمار يرمح (يرفس) ، ففشلت البيعة وغضب الوالد ابن عبيد الله من ابنه عيدروس وعاتبه .

وفي مرة من المرات طلب المقدم سليمان بن عون وهو من أعيان القبائل طلب من أبو علوي أن يساعده في اختيار زوجة له بسيؤن ، فاستعان أبو علوي بالشيخ عمر فقيه ، فقال عمر فقيه لأبو علوي : اترك لي هٰذا الموضوع وأنا معي له وعل مع حطّاب ، يقصد امرأة في غاية الجمال ، وأبوها رجل فقير ، وهٰكذا خطبت هٰذه المرأة لابن عون وتم ترتيب الأمور ، وفي ليلة الدخلة أوصل أبو علوي العريس إلىٰ منزل العروس ، وعاد إلىٰ منزله ، ولٰكن العريس سبق أبو علوي إلىٰ بيته فارّاً من عروسه .

وتذكرني هٰذه القصة بقصة لطيفة للحبيب أبو بكر بن شهاب ، وهو عالم جليل ، وكان ذكياً ، وكان الوالد ابن عبيد الله يحبه ويعتبره شيخاً من شيوخه ، كما كان يحب الوالد ابن عبيد الله ويزوره ، وقد تزوج الحبيب أبو بكر بن شهاب بسيؤن ، إلا أنه فر من عروسه في الليلة الأولىٰ ، فقال له الشيخ فضل بافضل ـ وكانت بينه وبين الحبيب أبو بكر ممازحات كثيرة وقصص شهيرة ـ :

وراك يا بو بكر تبغي تسير والعذب لابس ثوب نشره

فرد عليه الحبيب أبو بكر بن شهاب على الفور :

مـن يعشـق الـوبـران لـه وسـط بيـر ولاً وســـط تنـــار دهـــره

ومن قصص هروب العرسان بحضرموت مع الاختلاف ما حصل في تريم في زمن الحبيب أحمد بن عمر بن يحيى الذي استقدم في حدود عام (١٣٤٠هـ) من مصر المدرس المصري عبد السلام ؛ لتدريس أبنائه محمد وعبد الله بتريم ، ومكث المدرس عبد السلام في تريم سنوات ، ثم أبصر في أحد الأيام امرأة محجبة بسوق تريم ، فافتتن بقدميها ، وتبعها حتىٰ عرف منزلها ، ثم طلب من أرباب عمله أن يخطبوها له ففعلوا ، وفي ليلة الدخلة عاد إليهم بعد وقت قصير من دخوله ، فانزعجوا وظنوا أن أمراً جللاً قد حصل ، ولما سألوه . . قال لهم بأن العروس هربت ، ولما استوضحوه السبب . . قال لهم بأنها هربت بعد السابع .

وكان أحد جزاري تريم ينتقد المدرس عبد السلام كلما ذهب إلى السوق ؛ لأنه بلا لحية ،ويقول له : أنت أزهري وعالم وبلا لحية ؟! وكان من عادة الجزارين بحضرموت أن ينفخوا في دبر الذبيحة لتنظيف الأمعاء قبل قطعها ، فاغتاظ منه المدرس عبد السلام وقال له : وأنت ماذا تفعل بلحيتك هذه التي تمسح بها دبر التيوس ؟!

ولأبو علوي الكثير من القصص اللطيفة في شبابه ؛ فقد كانت له في مطلع شبابه مجموعة من الرفاق ؛ منهم عمر بن عيدروس ، والخال طه بن محمد بن طه وآخرين ، وكانوا يحيكون النكت والمقالب ، وكان أبرزهم في ذلك عمر عيدروس ، يقول أبو علوي : وكان عبد القادر مولىٰ خيلة شديد الخوف ، فكمنا له في الليل ـ وكان عائداً مع زوجته من دار أهلها ـ وطلعنا له وعلينا لباس العفاريت ، فصاح هلعاً وانطلق هارباً وترك زوجته تصيح ، فاستحينا من ذلك وأوصلناها لبيت أهلها .

كما كان عبد القادر مولىٰ خيلة شديد الخوف من الفيران ، فإذا رأىٰ فأراً . .

صاح وارتعدت فرائصه ، قال أبو علوي فوجدت يوماً فأراً صغيراً في البيت ، فأخذته في كيسي وذهبت لعزومة ببيت مولىٰ خيلة وجلست بجواره ، وغافلته وأخرجت من جيبي الفأر ووضعته في جيبه وهو يتكلم ، ثم تحسس بعد قليل جيبه لحركة أحسها فيه ، فلمس الفأر ، فصاح وقام وهو يرتعد ، وانقلب المجلس رأساً علىٰ عقب حتىٰ أمسكنا الفأر وألقينا به من النافذة .

وفي إحدى المرات قال الخال طه لبقية رفاقه : لقد اشتهيت أكل البغزيز ، فقال لهم عمر عيدروس لتتشاركوا أنتم في قيمة البغزيز وأطبخه لكم أنا ، وتأتوني غداً قبل ذهابكم لصلاة الجمعة فنتغدىٰ في بيتي ، ثم نذهب معاً لصلاة الجمعة ، وكان من عادة أهل حضرموت في السابق أن يتناولوا غداءهم قبل ذهابهم لصلاة الجمعة ، فطبخ عمر عيدروس البغزيز وأبقىٰ ماءه المليء بالملح والرائحة الكريهة والأوساخ في وعائه ، وقبل الصلاة حضر الضيوف ، وكان أولهم وصولاً الخال طه ، فلما قرع الباب وشاهده عمر بن عيدروس من الدور الثاني . . لم يفتح له وسكب علىٰ رأسه من ماء البغزيز الكريه الرائحة ، فتراجع الخال طه إلىٰ مسجد طه القريب وخلع ثياب الجمعة ونشرها لتجف وانتظر ما يحصل لبقية الرفاق الذين تتابعوا واحداً خلف الآخر ، وكلما قرع الباب أحدهم وهو يتشوق لطعم البغزيز . . سكب عمر عيدروس علىٰ رأسه وثيابه ماء البغزيز ، ثم عاد الضيوف الجائعين إلىٰ بيوتهم مبللين بماء البغزيز غير قادرين على الذهاب لصلاة الجمعة بعد أن تلطخت ملابسهم برائحة البغزيز الكريهة .

وفي إحدى المرات عرف أفراد هٰذه الشلة أن إحدى العجائز من آل مولىٰ خيلة تخرج من آخر الليل إلى الجابية فتتوضأ ثم تصلي صلاة التهجد ، فقاموا بتنسيم مربد الجابية ، فتناقص الماء تدريجياً خلال الليل ، فلما قامت العجوز ومدت إناءها للجابية في الظلام . . لم تصل للماء ، فتطاولت فلم تصل ، فظنت أن الماء لا زال بعيداً وهٰكذا حتىٰ تدحرجت إلى الجابية وصاحت وأيقظت كل أهل البيت .

وهٰكذا عاش أبو علوي حياة هانئة سعيدة ولم يكن يتأخر عن مساعدة

الناس ، ولا يبخل علىٰ أحد بمشورته ورأيه . . . حتىٰ توفي بسيؤن ودفن بها ، ورغم أنه نشأ في أسرةٍ فقيرة فقد كان كريماً بما معه لأهله وأصحابه وللفقراء والمساكين ، ومات وهو لا يملك شيئاً من حطام الدنيا .

لم يكن موسراً من المال ولٰكن موسراً من مكارم ومعالي
فرحمه الله رحمة الأبرار ، وأسكنه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار .

* * *

الشيخ سالم عبيد باحبيشي

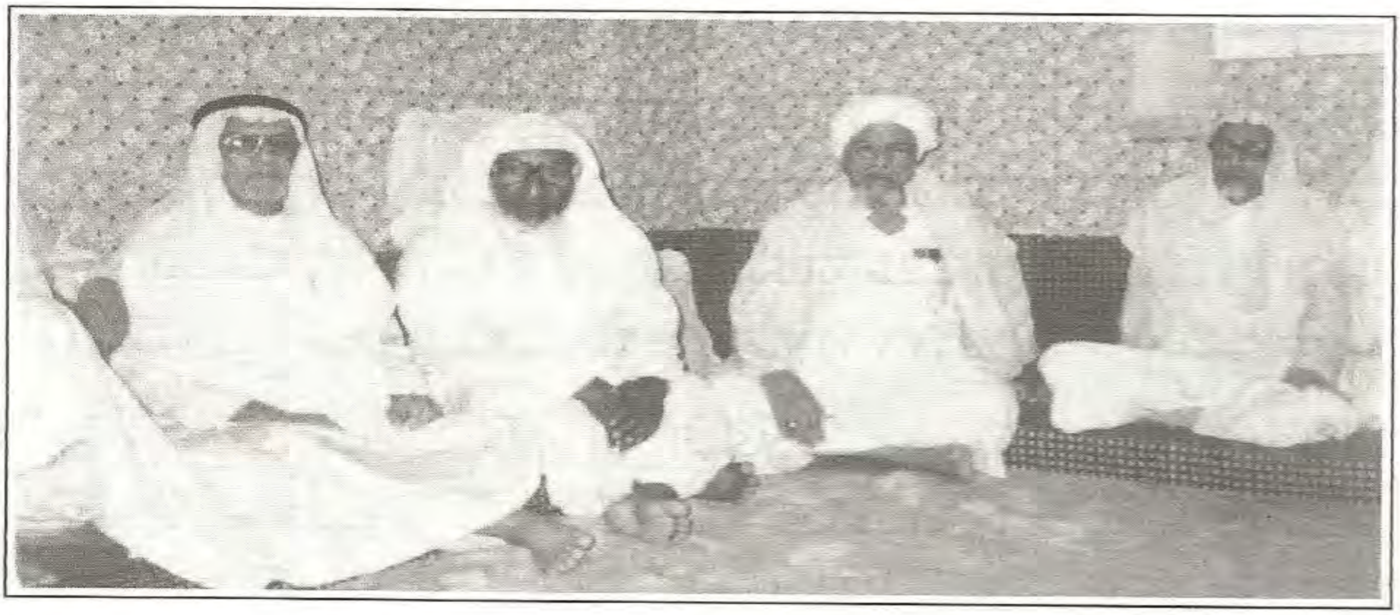

الشيخ سالم باحبيشي في الوسط بين الحبيب عبد القادر
والأخ محمد البيض في الجلسة الربوعية بمنزلي

يعتبر الشيخ سالم سعيد باحبيشي مع إخوته الأربعاء من كبار الأثرياء الحضارم بأسمرة فترة إقامتي بها ، ويعد أخوهم الأكبر الشيخ أحمد باحبيشي من رجال أسمرة المرموقين ، وهو المنافس الأول للشيخ محمد باخشب علىٰ رآسة الجالية العربية بأسمرة .

وتميز الشيخ سالم عن إخوته بحبه للمكارم والصدقات ، رغم أن إخوته يسفهون فعله وينصحونه بالمحافظة علىٰ ماله ، لـٰكنه لا يستجيب لنصائحهم ولا يتوقف عن البذل في وجوه الخير المختلفة .

ولما تغيرت الأحوال السياسية بالحبشة نقل الشيخ سالم باحبيشي جزءً من

ثروته إلىٰ مصر ، واستقر بها ، واشترىٰ لنفسه فيلا فخمة في أحسن مناطق القاهرة ، وأسّس أعمالاً متعددة ، وبنىٰ عمائر لأولاده .

ولما استولت الحكومة الشيوعية في الحبشة علىٰ أموال الناس . . فقد آل باحبيشي كل ثروتهم بالحبشة ، ولم يعد لأخويه عمر وسعيد شيئاً من المال أو العقار ، فاحتضنهم أخوهم الشهم الكريم سالم باحبيشي وطلبهم للإقامة معه في مصر مع عوائلهم وآواهم وأعانهم .

وللشيخ سالم باحبيشي أعمال خيرية كثيرة ؛ فقد أنشأ بسيؤن أول محطة عامة للكهرباء بوادي حضرموت ، وجاء بالمهندسين الإيطاليين ، وأحضر المكائن الضخمة من أوروبا ، وقد قمت بكتابة طلب الامتياز لمشروع الكهرباء الذي قدمه الشيخ سالم للحكومة الكثيرية عام (١٣٧٦هـ) .

ولما وصلت هٰذه المكائن إلى المكلا لم توجد بالبلاد سيارة تنقلها إلىٰ سيؤن ، إلا أنه حدث في تلك الفترة أن قامت شركة أرامكو السعودية بالتنقيب عن البترول في مناطق الربع الخالي التابعة لحضرموت ، وأحضرت سيارات النقل الضخمة والمعدات الكثيرة ، فاستولى الإنجليز علىٰ هٰذه المعدات والسيارات وأحضروها إلىٰ سيؤن ، فأفادت سيارات النقل الضخمة هٰذه في نقل مكائن الكهرباء من المكلا إلىٰ سيؤن .

وقد عمل أخي محمد مديراً لشركة الكهرباء بسيؤن ، وأخبرني بأن باحبيشي لم يقبض شيئاً من دخل الكهرباء ، وكان يصرف جميع إيرادات الكهرباء في الصدقة وأعمال الخير .

وقد ذكرت سابقاً كيف قام الشيخ سالم باحبيشي بإحضار الماء من أعالي الجبال إلىٰ قريته (حوفة) بعد أن كان الناس يتعذبون كل يوم في سبيل إحضار قربة واحدة من الماء .

كما قام الشيخ سالم باحبيشي بتأسيس مستشفىٰ كبير بالجحي ، إلا أنه اعترضت هٰذا المستشفىٰ بعض الإشكالات التي أخرت افتتاحه ، كما كان

الشيخ سالم باحبيشي أول من تبرع بمئة ألف شلن لإعادة تجديد مسجد طه بسيؤن ، وكان هـٰذا المبلغ في ذلك الوقت مبلغاً خرافياً ، ولم يكتف بذلك بل أضاف مئة ألف أخرىٰ إلىٰ تبرعه الأول ، وكتب علىٰ نفسه وثيقة بأن تباع بيوته في سيؤن في حالة عدم السداد لأي سبب من الأسباب .

وقام الشيخ سالم باحبيشي بالكثير من الأعمال الخيرية الأخرىٰ بحضرموت ، فقد أسس أول مدرسة للبنات بسيؤن على نفقته الخاصة ، وكان شخصاً لطيفاً ورجلاً حكيماً واقتصادياً محنكاً وصديقاً وفياً ، ولما مرضت بحضرموت وسافرت إلىٰ أسمرة للعلاج . . تولىٰ جميع تكاليف علاجي ، كما قام باستضافتي بالفندق علىٰ حسابه الخاص ، وواصل العناية المتواصلة بي حتىٰ كتب الله لي الشفاء ، وغادرت أسمرة إلىٰ جدة .

ومما يدل علىٰ حلمه وحسن خلقه قصته مع الشيخ باخشب ؛ فقد دخل الشيخ سالم باحبيشي على الشيخ الثري محمد باخشب في إحدى المرات ليطلب منه المشاركة في عمل من أعمال الخير ، إلا أن باخشب صده وأمره بالانتظار في الخارج حتىٰ ينهي ما بين يديه من أعمال ، فلم يكترث باحبيشي أو يغضب ، بل خرج من المكتب وانتظر بالخارج حتىٰ أذن له باخشب بالدخول ، رغم أن باحبيشي لا يقل عن باخشب في الثروة والجاه إن لم يكن أكثر منه .

وكان محبوباً من جميع الحبايب والشيابة بحضرموت ، ويحتفي بهم ويعتني بأمورهم تمام الاعتناء ، ولما زار والدي مصر احتفىٰ به الشيخ سالم باحبيشي غاية الحفاوة واحترمه غاية الاحترام ، وكان يزوره تقريباً في كل يوم ويدعوه لبيته للطعام ويزور معه المناطق الإسلامية والأثرية بالقاهرة .

ورغم أشغال باحبيشي الكثيرة ومشاغله الجمة . . فإنه لم ينس وعائلته الاهتمام والعناية اليومية بأختي نور عندما زارت مصر للعلاج ودخلت المستشفىٰ ، كما عرض عليها بعد انتهاء العلاج أن يأخذها مع إخوانها في جولة على القاهرة ، إلا أن أختي نور اعتذرت وقالت لباحبيشي ببساطة أهل حضرموت : (حد يتمشىٰ في بلاد ما يعرفها) .

ولما جاء السيد عمر بن شيخ الكاف إلىٰ مصر للعلاج ثم توفي ، وقرر أولاده نقله إلىٰ حضرموت ولم يكن معهم ما يكفي من النقود . . تبرع الشيخ سالم باحبيشي ونقله إلىٰ حضرموت علىٰ نفقته الخاصة .

وفي شيخوخته أقام الشيخ سالم باحبيشي أغلب وقته في مصر واعتنىٰ هناك بالمبرات ومراكز العلاج الخيري ، بل وامتدت عنايته بهٰذه الأمور إلى السودان ومناطق أخرىٰ من إفريقيا .

وتعود الشيخ سالم باحبيشي المقيم بالقاهرة في السنين الأخيرة من عمره علىٰ قضاء شهر رمضان في كل عام في مكة المكرمة ، في شقة استأجرها بجوار الحرم المكي الشريف ، وكنت أقابله أحياناً بعد صلاة التراويح بسطوح الحرم فنجلس نتحدث قليلاً ونستعيد الذكريات .

وقد عمل الشيخ سالم باحبيشي علىٰ شراء وتخصيص مدفن لليمنيين بالقاهرة ، ودفن فيه كثير من اليمنيين الذين وافاهم الأجل وهم بالقاهرة ، كما دفن في هٰذا المدفن والدي السيد علوي بن عبد الله السقاف ثم لحقه الشيخ سالم باحبيشي الذي دفن أيضاً بهٰذا المدفن يرحمهم الله جميعاً .

والواقع أنني لم أذكر إلا قليلاً من الأعمال الكثيرة للشيخ سالم باحبيشي يرحمه الله التي أعرف بعضها وأجهل أكثرها .

* * *

العم أبو بكر بن شيخ الكاف

أطلال قصر العم أبو بكر بن شيخ الكاف في سيؤن

يعتبر العم أبو بكر بن شيخ الكاف من كبار أثرياء حضرموت في وقته ، وتميز بشهامته وكرمه ، ولا يخلو بيته على الدوام من الضيوف والزوار ، وإلىٰ جانب ذلك فهو من رجال السياسة والدهاء ، وله الدور المتميز الهام في الإصلاح بين القبائل الحضرمية ، ونفوذ بارز لدى السلطان والإنجليز .

وقد أسس العم أبو بكر بن شيخ قصره الفخم المسمىٰ ابن داعر بسيؤن وأخذ يستقبل به الضيوف والوفود ، كما تعود على الإنفاق من ماله على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات وإذا جاءه صاحب حاجة . . نادىٰ علىٰ وكيله السيد محمد بن عبد الرحمـٰن بن شيخ وأمره بإعطائه عشرين شلن ، ثم يستقل

هٰذا المبلغ وينادي على السيد محمد بن عبد الرحمٰن بن شيخ مرة ثانية ويزيد المبلغ ، وهٰكذا حتىٰ تصل الهبة إلى المئة شلن أو أكثر .

وذكر لي من أثق فيه أنه مات لأحد السادة من آل الشيخ بو بكر جمل يتعيش به ويعيل أسرته منه ، ووقع السيد في كرب عظيم ، فنصحوه بالذهاب إلى السيد بو بكر بن شيخ الكاف لطلب المساعدة ، فوصل إلىٰ سيؤن وقابل العم بو بكر وشرح له الحال ، فأكرم العم بو بكر وفادته ، ثم طلب من أحد خواصه أن يذهب للسوق ويشتري أحسن جمل ويحمله بالبر والرز والذرة والسكر والزيت ، وأن يوصل السيد إلىٰ جهته ، فإذا وصل . . سلمه الجمل بما حمل هدية من السيد بو بكر ، فكاد الرجل أن يفقد عقله من الفرح .

وللعم أبو بكر تاريخ سياسي حافل ، وهو شخصية كبيرة ، وقد تعودنا علىٰ زيارته ببيته بين الحين والآخر ، وقد اهتم بي أثناء مرضي بسيؤن ، وتعهدني بالسؤال والزيارة .

وقد حدثت بينه وبين الوالد ابن عبيد الله بعض المناكدات النابعة من اختلاف المفهوم السياسي لكل منهما ؛ فالوالد ابن عبيد الله من أنصار دولة الخلافة الإسلامية العثمانية ، ويكره الإنجليز وله اتصالات بالعثمانيين تهدف إلىٰ ضم حضرموت للتبعية العثمانية ، بينما يعتقد العم أبو بكر بقدرة الإنجليز علىٰ إعادة الأمن والاستقرار لحضرموت وتطويرها لتصبح مثل سنغافورة التي يعرفها العم بو بكر بحكم إقامته فيها مع والده صاحب التجارة العظيمة وأحد مؤسسي سنغافورة الحديثة .

ولم يؤثر الاختلاف بين الشخصيتين العظيمتين علىٰ ما يكنه كل منهما للآخر من احترام ومودة ، وكان الوالد ابن عبيد الله يمتدح العم بو بكر لكرمه وأريحيته واستقباله الوفود والضيوف .

ولما بنىٰ السيد عمر بن شيخ الكاف قصره الفخم في تريم . . دعا العم عبد الرحمٰن بن عبيد الله لزيارته ، ولما طاف العم عبد الرحمٰن بالقصر . .

قال لمضيفه : إن مطبخ أبو بكر بن شيخ أحسن من هٰذا القصر .

وقد سعى العم بو بكر بوجاهته لدى الحكومة والسلطان إلىٰ تعيين العم سالم المشهور سكرتيراً للدولة الكثيرية ، ثم أرهقه بعد ذلك بكثرة الشفاعات والوساطات ، فزاد الأمر علىٰ سكرتير الدولة ، ثم جاء باسلامة المكنىٰ بالخرخور إلى العم بو بكر وطلب توصية للسيد سالم مشهور ، فأعطاه العم بو بكر التوصية المطلوبة ، ولما سلمها لسكرتير الدولة السيد سالم المشهور . . غضب ومزق الورقة ، فرجع باسلامة إلى العم بو بكر وأخبره بتمزيق الورقة ، فغضب العم بو بكر ، ولٰكنه علىٰ طريقته لم يظهر الغضب ، ثم بدأت الدعايات تنتشر حول السيد سالم مشهور حتىٰ أقيل من منصبه .

ويستملح العم بو بكر النوادر والإشكالات ، فحدث في إحدى المرات أن فلاحاً بتريم يسمىٰ عمرةْ توفي أبوه ، فجاءه بعد أيام من وفاة أبيه أحد رجال القبائل ويدعى الشيبة سالمين وادعىٰ علىٰ والد عمرة ديناً مقداره خمسة ريال ، فوافق عمرة علىٰ سداد الدين ، ولٰكنه اعتذر بالإعسار ، وطلب الإمهال في الدفع ، وعند انصراف الشيبة سالمين وقروا حماره بهدية من الخضروات والثمار ، إلا أن الشيبة سالمين عاد مرة أخرىٰ يطلب دينه ، فطلبوا الإمهال وحملوا حماره مرة أخرىٰ بالخضروات والثمار ، فأعجب ذلك الشيبة سالمين فأخذ يتردد عليهم ويعود في كل مرة بهدية بما توفر من خيرات المزرعة حتىٰ طفح الكيل بعمرة .

ولما وصل الشيبة سالمين في المرة التالية . . أخبره الفلاح عمرة بأن دينه جاهز للدفع وعليه الانتظار في داره بالمزرعة ريثما يذهب للسوق ويحضر النقود التي استأمنها عند أحد التجار .

وأسرع عمرة وفك رباط حمار الشيبة سالمين وكان حماراً فارهاً وذهب به إلى العم أبو بكر بن شيخ الكاف وباعه عليه بعشرة ريال ، وهو أقل من ثمنه بكثير ، وعاد عمرة إلىٰ مزرعته ونقد الشيبة سالمين دينه كاملاً ، إلا أن الشيبة سالمين لم يجد عند انصرافه الحمار ، وبحث عنه في كل مكان فلم يعثر له علىٰ

أثر ، ثم وصل لعلمه بعد أيام أن الحمار مربوط بحوش العم أبو بكر الكاف ، فذهب إليه وطلب حماره ، فقال له العم أبو بكر بأنني اشتريته من عمرة بعشرة ريال ، فقال سالمين : هٰذا حماري سرقه عمرة وباعه عليك ، فطلب العم أبو بكر حضور عمرة ، ولما حضر اعترف بسرقة الحمار ولٰكنه روىٰ لهم ما حصل من الشيبة سالمين وما أخذه منهم طوال فترة المطالبة بالدين ، فطلب العم أبو بكر كاتبه ليحسب قيمة كل ما أخذه الشيبة سالمين من المزرعة ، فوصل المبلغ إلىٰ عشرين ريالاً ، فقال العم بو بكر للشيبة سالمين : انتهى الأمر ؛ فقد أخذت أكثر من قيمة الحمار ، ولٰكن عمرة قفز من مجلسه وأمسك بالشيبة سالمين يطالبه بباقي المبلغ ، بينما انفجر العم بو بكر ضاحكاً من هٰذا الموقف الطريف .

وفي إحدى المرات جاء العم أبو بكر الشيخ منصر بن عبود بن سالم يركب حماراً فارهاً مستأجراً ، فأعجب العم أبو بكر بالحمار واستفسر عنه ، فأخبره منصر بأن الحمار برسم البيع ، وأن صاحبه زاهد فيه ، وذكر منصر ثمناً بخساً ، ففرح العم بو بكر واعتبر الحمار من أملاكه ، وأمر الخادم بالعناية به وإطعامه ، ولما عزم منصر على العودة . . سلمه العم بو بكر ثمن الحمار ، فضحك منصر وقال له : يا عم بو بكر معقول هٰذا الحمار بهٰذا الثمن ، ثم إن صاحبه لا يفكر أن يبيعه مطلقاً ، وإنما هو حمار مستأجر أحببت أن تكرموا وفادته .

وجلس منصر في عزومة ببيت العم أبو بكر فوجد أن كل شخص يتكلم مع صاحبه ، ولم يجد منصر من يتكلم معه ، ثم لمح في طرف الجلسة أبو محسن الحامدي ، فذهب إليه منصر ليتحدث معه ، فسأله أبو محسن أول ما سأله عن والده عبود بن سالم كيف قُتِل ؟ فصاح منصر بأعلىٰ صوته وبكىٰ علىٰ والده الذي قتل قبل عشرات السنين ليلفت الانتباه ويغير طبيعة الجلسة المملة .

وقد قتل والده السلطان عبود بن سالم وهو من مؤسسي الدولة الكثيرية الحديثة غدراً علىٰ يد اثنين من بدو آل خليفة ، بتكليف من السلطان القعيطي ؛

انتقاماً لقتل آل كثير لأحد وجوه القعطة وقيامهم بحز رأسه ووضعه علىٰ رمح ودخولهم به إلى الشحر وهم يزملون .

وتعود السيد حسين العود الذي اشتهر بسيؤن بشهيته القوية للطعام ، تعود علىٰ حضور مآدب العم بو بكر بن شيخ بسيؤن ، وفي إحدى الولائم التي أقامها العم بو بكر علىٰ شرف الضابط الإنجليزي انجرامس جلس السيد حسين العود في طرف السفرة ، بينما جلس إنجرامس علىٰ رأس السفرة وقد تكدست أمامه الأصناف الدسمة والديوك المشوية ، وتحدث المستر إنجرامس عن الطائرات البريطانية وسرعتها وقطعها المسافات الشاسعة في أوقات بسيطة ، فتكلم السيد حسين العود من طرف السفرة وهو يتشهىٰ لحم الديك فقال : يا مستر إنجرامس هٰذا الديك الذي أمامك كم يستغرق من الوقت لو طار من عندك إلىٰ عندي ؟ فضحك الحضور وأرسلوا له الديك المشوي .

وقد تأخر العم بو بكر عن أداء فريضة الحج ؛ إذ كان يتوقع الموت بعد تأدية الفريضة ويردّد ذلك علينا ، وعندما قدم العم بو بكر للحج . . مرض أثناء وجوده بجدة ، فعرضوا عليه إحضار كبار الأطباء لعلاجه ، فرفض وطلب منهم إحضار السيد علوي بن سالم ، وهو من الممرضين السابقين بمستشفىٰ سيؤن ؛ حيث إن العم بو بكر لا يثق إلا به ، فجاء السيد علوي بن سالم وكتب له بعض الأدوية فتناولها العم بو بكر وتعافىٰ .

وقد توفي العم أبو بكر بعد عودته من الحج كما تنبأ لنفسه ، ودفن بمقبرة علوي بسيؤن .

* * *

مع السيد محمد البيض

مع الأخ محمد البيض في بلغاريا (عام ١٣٩٨هـ)

كنت والسيد محمد البيض صديقين متلازمين منذ تعارفنا بأسمرة لأول مرة منذ خمسين سنة ، وخلال تواجدنا بجدة ، وبقينا كذلك حتىٰ توفي يرحمه الله في العام (١٤٢٤هـ) .

وكانت بيني وبينه الكثير من القصص والحكايات والمساجلات والأشعار ، وكان لطيفاً وذكياً وشاعراً وأديباً ، إلا أنه لا يستفيد من ذكائه ونبوغه إلا في تدبير المقالب والنكات لأصحابه ومعارفه ، وقد ذكرت بعض المقالب

الطريقة التي دبرها البيض لبعض أصحابه عند حديثي عن أيامي بأسمرة ، وقد عاش الأخ محمد البيض في بداية حياته مع والده بسيؤن بمنزل الحبيب محمد بن علي الحبشي ، وسكن في البنقلة الواقعة فوق بوابة منزل آل حبشي من جهة مسجد الرياض ؛ حيث تولى الإشراف على الفوانيس والكهربانات .

وكان للبيض معرفة بإصلاح الساعات ، ورثها عن والده الذي كان خبيراً في هٰذا الشأن ، وحدث في مرة من المرات أن تعطلت ساعة السلطان جعفر بن منصور فأرسلها إلىٰ عدن لإصلاحها ، ولٰكنها عادت كما هي ولم يستطع أحد إصلاحها ، فذكروا له السيد محمد البيض ، فأرسل له السلطان الساعة فتمكن من إصلاحها بسرعة وأعادها إلى السلطان ، ففرح منه السلطان جعفر واستدعاه إلى الحصن وأرسل له عبده وحصانه ، فركب البيض حصان السلطان مفتخراً علىٰ أقرانه ، ولما وصل الحصن.. شكره السلطان وأهداه صاروناً ونقده ريالاً .

مع الأخ محمد البيض في إحدى احتفالات نادي الجالية العربية بأسمرة عام (١٣٦٤ هـ)

وقد عرفت السيد محمد البيض لأول مرة بأسمرة عام (١٣٦٤هـ) بعد هجرته إليها من موطنه بالشحر وعمل في بداية حياته دلالاً يبيع الرز والمواد الغذائية الأخرىٰ ، وقد خدمني وقتها عندما أقنع أرباب عملي من آل حسان بتغيير عادات الطعام واستبدال الحلبة بالرز واللحم ، فتمكنت بفضله من الاستمتاع بالأكل اللذيذ بأسمرة .

وعمل السيد محمد البيض أيضاً بنادي الجالية العربية بأسمرة ، وكنت أتولى السكرتاريا لهٰذا النادي الذي هو أشبه ما يكون بحزب من الأحزاب السياسية الكبيرة ، فله رئيس وانتخابات ودعايات انتخابية ، وله أهمية لدىٰ حكومة أسمرة ، وله مدرسة تُدرس بالعربية علىٰ ثلاث مراحل دراسية .

ولم تكن علاقة فرّاش النادي بامعس ودية مع البيض ، فكان البيض يدبر له الكثير من المقالب والمكائد ، واستطاع البيض في أحد المرات أن يستثير حفيظة السيد عيدروس الحامد علىٰ بامعس دون أن يكون بينهما سابق خلاف ، وعيدروس رجل طويل وقوي ، وقد تربىٰ في عدن وتدرب فيها على المشاكل والضرب ، فاستثار البيض عيدروس حتى استشاط غضباً علىٰ بامعس ، ولما حضر بامعس ورآه عيدروس في أسفل الدرج انتظره بأعلاه حتىٰ وصل ، فبادره بلكمة قوية طيرت من رأسه الطربوش ودفعته لأسفل الدرج ، وهو لا يعرف سبب هٰذه اللكمة ، والبيض يتفرج وهو سعيد بما حصل لبامعس ، وأنشأ في ذلك أبياتاً أذكر منها :

ألم تر للطربوش كيف تزحلقا ينبّئك أن الرأس بالرجل دحقا

ومن أصدقائنا بأسمرة السيد محمد باجنيد ، واشتهر بحبه للمظاهر البراقة ، فأخبره البيض مرةً بأن الصحفي المصري علي أمين قد وصل لأسمرة ونزل في أكبر فنادقها ، وأنه يسأل علىٰ باجنيد ، فلبس باجنيد أحسن ما عنده من ثياب وذهب مع البيض إلى الفندق ، وجلسا ببهو الفندق في انتظار علي أمين ، وبدأ البيض في طلب المشروبات والمأكولات ، ثم تظاهر البيض بالذهاب إلى الحمام وخرج من باب الفندق الخلفي وترك باجنيد لمحاسبة الفندق وانتظار علي أمين الذي لم يغادر القاهرة .

وقد عمل السيد محمد البيض موظفاً في شركة ابن لادن في الرياض في الخمسينات الميلادية ، وكان المطاوعة في تلك الأيام متشددين في تحريم الدخان ومعاقبة المدخنين ، وكان البيض يدخن مع زميله في العمل ويلبس بنطلوناً وهي معصية أخرىٰ في ذلك الوقت ، وصادف أن مر المطاوعة وهما علىٰ مكتبهما ، فأمسك المطاوعة بزميله وضربوه أمامه ضرباً مبرحاً ، وهرب البيض وقفل علىٰ نفسه باب داره ، وكان الدار بجوار عمله ، ولما انتهى المطاوعة من زميله . . صاحوا أين صاحبه المبنطل ؟ واتجهوا إلىٰ سكنه ودقوا عليه الباب ، وكادوا أن يكسروه ، إلا أن البيض أظهر لهم من خلف الباب جوازه الإنجليزي الذي كانت تمنحه الحكومة البريطانية لرعاياها الحضارم ، وقال للمطاوعة : أنا من رعايا الإنجليز ، فلما رأى المطاوعة الجواز . . تركوا البيض وانصرفوا عنه .

وقد تعود المطاوعة بالرياض في تلك الفترة علىٰ مراقبة الحضور لصلاة الفجر ، ومن لم يحضر . . ذهبوا لإحضاره من بيته ، ولـٰكن العزاب الحضارم احتالوا عليهم بحيلة ؛ فعندما يسمعون طرق الباب في صلاة الفجر . . يرفع كل منهم رأسه من تحت الغطاء ويقولون جميعاً بصوت واحد : (آمين) فينصرف المطاوعة ظناً منهم بأنهم في صلاة .

وفي مرة من المرات عُرِض على البيض أمر من أمور العمل استدعىٰ أن يطلع عليه المعلم محمد بن لادن ، فاتجه بعد صلاة الفجر إلىٰ سكن المعلم ودخل عليه وعرض عليه الأمر ، ثم دخل الخدم بعد قليل بفطور المعلم وحملوا الصواني المليئة بالعسل والكعك وكل ما لذ وطاب ، ودعا المعلم البيض لمشاركته في هـٰذا الفطور الذي لم يحلم به البيض ، ثم افتعل البيض بعد أيام مهمة أخرىٰ تمكنه من مقابله المعلم ، واختار نفس التوقيت ، ولما وصل منزل المعلم . . وجد سالمين عبد المعلم يسد المدخل ويمنع الدخول ، وقد تغطىٰ سالمين ببطانية لا تكشف إلا عينيه ؛ نظراً لبرودة الجو ، فغافل البيض سالمين ونط من فوقه ودخل على المعلم ، فوجد عنده سكرتيراه الخاصين

بامحرز وباعقيل ، ثم تكلم باعقيل وقال للمعلم : لقد وصلت لك البارحة برقية من عبد الله السليمان ، وقد أحضرتها معي ، فبادر المعلم بن لادن إلى القول ـ وكان حاد الطباع سريع الانفعال ـ : تصلك برقية من عبد الله بن سليمان وتنام عند حرمتك ، ثم تناول حذاءه وأخذ يضرب باعقيل ضرباً مبرحاً ، وارتبك البيض الذي كان ينتظر الفطور وخاف أن يفرغ المعلم من باعقيل ويتجه إليه ، وبعد أن خرج باعقيل قال المعلم لعبده ـ وأشار إلى البيض ـ : من سمح لهـٰذا بالدخول ؟ فقال العبد : هـٰذا يا معلم غافلني ونط من فوقي ، فتبسم المعلم ، إلا أن البيض لملم ما معه من أوراق وتسلل خارج المنزل ، ولم يكرر زيارة المعلم بعد ذلك أبداً .

وبلغ من حدة طباع المعلم أن رجلاً من عبيد الحب حسين المحضار يسمىٰ بو عبيد ، وهو رجل ساذج وظريف ، عمل بعد ذلك مع المعلم محمد بن لادن وتعود أن يدخل عليه بدون استئذان ، وفي مرة دخل على المعلم دون استئذان كعادته والمعلم في اجتماع هام مع المهندسين الأمريكان ، فطلب المعلم منه الانتظار بالخارج ، فلم يعجب ذلك بو عبيد ، فانفعل المعلم وقام وناوله كفاً ، فغضب بو عبيد وصاح على المعلم تضرب بو عبيد يا خو بقرتك ، واشتبك معه لولا أن فرقهم الحاضرون ، ثم ندم المعلم بعد ذلك علىٰ تصرفه واستدعىٰ بو عبيد واعتذر له ، وقال له (تمن ما تريد) فقال بو عبيد : أريدك أن تفصل من العمل صدقة وحبي حامد بلفقيه ، وكان صدقة وحامد يتوليان إدارة شركة بن لادن ، ولهم عند المعلم أهمية كبيرة ، ولو طلب بو عبيد من المعلم شيئاً آخر لأعطاه إياه مهما غلا الثمن .

ويعتبر بو عبيد نفسه ممثلاً لقبائل الماوالماو الإفريقية ، وهو مغرم بكل ما هو أسود اللون ، وبكل ما يتصل بقبائل الماوالماو ، فأخبره أحد المازحين بوصول طائرات سود للماوالماو إلىٰ مطار جدة ، فصدق بو عبيد الرواية وتوجه للمطار لاستلام الطائرات ، وسأل عن الطاسان مدير المطار حتىٰ وصله ، فطلب منه استلام طائرات الماوالماو السوداء لأنه ممثل الماوالماو ، ولما رأى

الطاسان منه الجد . . عرف أنه غير مكتمل العقل ، ولكنه سايره وقال له : نعم الطائرات وصلت وبإمكانك استلامها الآن ، ولكن بو عبيد احتار فليس لديه مكان لوضع الطائرات ، فتردد وقال للطاسان : أبقوها عندكم حتىٰ أبحث عن حوش أضعها فيه ، فقال له الطاسان : لا بد من استلامها الآن ، فأخذ بو عبيد يتوسل والطاسان يضحك ويرفض التوسل .

كما عمل السيد محمد البيض في إحدىٰ مراحل حياته بشركة أرامكو بالظهران ، ومن الطرائف التي حصلت له وذكرها لي : أن شركة أرامكو أقامت للعمال العرب حمامات خاصة لم تتجاوز قاعدتين لقضاء الحاجة ، ويجري من تحتها الماء في مجرىٰ واسع بصفةٍ مستديمة من الحمام الأول إلى الحمام الأخير ، فينتهي الماء إلى الصرف الصحي ، وحدث أن دخل أحد العمال إلى الحمام الأول وغسل ثوبه بالبنزين ، وفي حمام آخر جلس عامل آخر يقضي حاجته ويدخن ، فلما ألقىٰ بعقب السيجارة في الماء الجاري المختلط بالبنزين . . اشتعل المجرىٰ كله بالنار ، وفر العمال من الحمامات وعوراتهم مكشوفة .

كما أن للسيد محمد البيض الكثير من القصص والنوادر الأخرىٰ في جدة ، وقد هجا بشعره كثيراً من أصحابنا القدامىٰ بأسمرة ، ومنهم الشيخ الكريم علي بن عبد الرحمـٰن العمودي الذي كان يتجر في بيع العسل والسمن في بداية حياته العملية بجدة ، كما عمل زميلنا علوي العطاس كمندوب للمشتريات في إحدى الشركات ، فهجا البيض الشيخ علي وقال أبيات موجهة للسيد علوي العطاس :

غشك قصير القوم له جنبيه
يحلف عليها ذي حبابي صافيه
وهي قَسَمُ بالله هولنديه
وله نصائح منَّها خطف الغنم
من كل جفره كالفه مصريه
ويقول ياعلوي بيدينك طعن
مِكِّن صْحابك حِضِّر الجنبيه

وقـام علـوي بـالنصـايـح كلهـا
والقـا بهـا سـوقـات عطـاسيـه

وقد حصل السيد محمد البيض على الجنسية السعودية قبلي ، وعمل في قسم المطبوعات بوزارة الإعلام أغلب حياته حتىٰ تقاعد من العمل الحكومي في السنوات الأخيرة ، واستمر علىٰ ظرفه وأشعاره ومقالبه طول حياته ، وكان من فرسان الجلسة الربوعية التي تعقد في بيتي بعد مغرب كل ربوع ، وفي أيامه الأخيرة سكن مع أولاده في منطقة من مناطق جدة البعيدة ، وقل اتصاله بالناس ، وندرت مغادرته البيت ، فكنت أزوره في بيته بين الحين والآخر حتىٰ توفاه الله في جدة عام (١٤٢٤هـ) ودفن بمكة يرحمه الله .

* * *

السيد عيدروس المحضار

الأخ عيدروس المحضار مع الحبيب عبد القادر

ومن ألطف الأصدقاء الذين كنا نلتقي بهم في الجلسات الربوعية الأخ عيدروس المحضار ، وقد توطدت بيني وبينه العلاقة في أديس أبابا بالحبشة ، ولما قدمت الحبشة في رحلتي الأولىٰ أثناء الحرب العالمية الثانية . . لم يحسن عيدروس وبقية المحاضير استقبالنا عندما قصدناهم عند وصولنا أديس أبابا من حضرموت ، إلا أنه أصبح فيما بعد من خاصة أصدقائي ، وقد عيرته عدة مرات علىٰ تصرفه القديم هٰذا ، وكان الأخ عيدروس متحدثاً بارعاً ، ولديه الكثير من القصص والنوادر والحكايات ، وقد انتقل قبلي من الحبشة إلى السعودية .

وكان في السيد عيدروس بعض الشدة والحرص ، ولما أنهى السيد الحييد

ـ وهو من أقرباء زوجته ـ دراسته في مصر وعاد إلىٰ جدة ، نزل في ضيافة عيدروس الذي استقبله علىٰ مضض ، وكان العم حامد المحضار يتندر علىٰ ذلك ويقول بأن كل إنسان يشق طريقه في الحياة ، والحبيد شق طريقه إلىٰ بيت عيدروس .

وفي مرة ذهب السيد عيدروس المحضار مع السيد محمد البيض إلى الطائف للنزهة في وقت الصيف ونزلوا ضيوفاً على السيد حسين بن محمد المحضار ، وكان متعلقاً بالمظاهر مولعاً بأصحاب المناصب ، فأخبرهم بأنه معزوم للعشاء علىٰ مائدة رئيس قراشات الملك سعود بالطائف وأنه سيأخذهم معه لهٰذه العزومة الهامة ، وبينما هم يتأهبون للذهاب وصلهم السيد عبد القادر بن محمد السقاف ـ الرجل المعمر اللطيف ، والذي يحبه الشيبان بحضرموت ـ ومعه خادمه يحمل القهوة ومعدات طبخها ، فاستثقل المحضار وصوله وتغطىٰ ببطانية وقال لهم : قولوا له أنني مريض ، ولٰكن السقاف دخل وجلس في الغرفة يتحدث والمحضار تحت البطانية ، وأمر خادمه بعمل القهوة وقعد يروي أحاديثه اللطيفة حتىٰ ساعة متأخرة من الليل ، والمحضار يرفع رأسه بين لحظة وأخرىٰ ، ويشير لهم بأن دعوه يذهب ، إلا أن السقاف الذكي لم تفته الكذبة واستمر في حديثه حتىٰ ساعة متأخرة من الليل حتىٰ فات على المحضار وقت العزومة ، وبعد ذهاب السقاف . . قام المحضار من تحت البطانية وهو محموم ؛ حيث إنه تغطىٰ بالبطانية في حر الصيف ولفترة طويلة .

وقد حضر الأخ عيدروس مع الوالد ابن عبيد الله كثيراً من الوقائع التي حدثت للوالد ابن عبيد الله أثناء حجه في عام (١٣٥٠هـ) ، وقد ورد بعضها في أماكن أخرىٰ من هٰذه المذكرات ، وكان عيدروس من أعمدة جلستنا الربوعية ، ومن متحدثيها البارعين ، واستمر يحضرها حتىٰ توفي بجدة ودفن (بمكة) .

* * *

السيد علي بن سميط

ومن أصدقائي القدامىٰ علي بن سميط ، وهو من المقربين من السلطان حسين بن علي الكثيري ؛ لوجاهته وحكمته وخبرته الإدارية ، وقد تعين عضواً بمجلس الدولة ، كما تولىٰ سكرتارية الدولة الكثيرية ، ثم هاجر إلى السعودية بعد استيلاء الحزب الشيوعي على الحكم في حضرموت ، ومكث في ضيافتي عدة شهور ، ثم افتتح محلاً تجارياً بسوق الخاسكية بجدة ، واشتغل فيه بنفسه لفترة ، ثم استعان فيه بآخرين ، وأحضر بعد ذلك عائلته من حضرموت .

وقد تميز السيد علي بن سميط بلطافته وأدبه وحفظه للكثير من النوادر المضحكة والحكايات المسلية ، والتي يرويها بطريقته الخاصة اللطيفة رغم ما يبدو علىٰ وجهه من سمات الجد وعلامات الاهتمام .

وهو من الرجال الصالحين ولم ينقطع عن مشاركتنا الجلسات التي نعقدها في بيت الأخ عبد الرحمـٰن بن محمد بن طه السقاف مساء كل ثلاثاء مع العم علي بن عبد الله السقاف والسيد طه بن محمد السقاف ، ويحضرها الحبيب عبد القادر بن أحمد في أغلب الأحيان .

ورغم شيخوخته وضعف بصره الشديد في السنوات الأخيرة . . فقد استمر محافظاً علىٰ حيويته المتجددة ومعنويته العالية ، وقد سألناه في إحدى الجلسات عن السبب في المقولة التي تقول : (وقعت لبن سميط عمسه) فذكر أن هـٰذا السؤال قد سأله الحبيب علوي بن شهاب لحسن بن سميط عندما جاءه للسلام عليه قبل سفره ، فقال السيد حسن بن سميط :

أنا يا عم علوي وقعت لي عمسة أكبر من عمسة بن سميط ؛ فقد سافرت مع أحمد بلفقيه أيام الحرب العظمىٰ إلىٰ أرض المهرة ، وكنا ننوي السفر إلىٰ إفريقيا هروباً من المجاعة التي ضربت حضرموت أيام الحرب العظمى ولم تكن معنا وثائق سفر أو جوازات ، وقد تكرم سلطان المهرة على الحضارم بخطابات مختومة بختمه ومعتمدة للسفر إلى الحبشة والسواحل الإفريقية ، ولما وصلنا المهرة وأخذنا ورقة السلطان . . قعدنا عدة أيامٍ في انتظار طائرة تنقلنا إلىٰ عدن ، وكانت بعض الطائرات العسكرية تقوم أيام الحرب برحلات بين المهرة وعدن ، وتنقل في رحلاتها الركاب المدنيين ، وبينما نحن في أرض المهرة . . جاء إلينا أربعة من البدو المسلحين يحملون ولداً مقعداً ويسألون عن ابن سميط ، فلما عرفوني . . قالوا : نريدك تتفل تفلة الشفاء علىٰ هـٰذا الولد ؛ فهو مشلول ونريده أن يقعد ويمشي ، فقلت لهم : ليس عندي معرفة ولا سبيل لذلك ، فحاولوا معي عدة محاولات ولـٰكني لم أستجب لهم ، فتحولت لهجتهم إلى التهديد وكانوا مسلّحين وخطرين ، ولما تأزم الأمر وأدركت الخطر . خرجت مني صيحة استغاثه على طريقة أهل تريم فقعد الولد ، إلا أنهم قالوا : إن هـٰذا لا يكفي ، ونريده أن يقوم ، فقلت لهم : ماذا أفعل ؟ ليس عندي لذلك طريقة ، فهددوني ، فصحت صيحة استغاثة أخرىٰ ، فقام

الولد ، ولـٰكنهم قالوا : هـٰذا لا يكفي ؛ نريده أن يمشي معنا ، وإلا لن نتركك ، فصحت صيحة ثالثة ، فمشى الغلام ومشوا معه ، وخلصني الله منهم ومن شرهم .

ثم لما وصلت الطائرة العسكرية التي انتظرناها لعدة أيام وحطت بمطار المهرة . . تهيأت للسفر مع زملائي ، فلبست معطفاً أسود ونظارة شمسية ، فلما رآني الطيار الإنجليزي علىٰ هـٰذه الهيئة ـ وكنت أبيض البشرة طويل القامة ـ حسبني جاسوساً ألمانياً ، ورفض أن يأخذني بالطائرة إلا إذا كنت مقيداً ، وكانت الحرب بين بريطانيا وألمانيا علىٰ أشدها ، وأصر الطيار علىٰ رأيه وعلىٰ أخذي لعدن للاستجواب ، وبعد فترة عصيبة اقتنع الطيار بأنني حضرمي لا أعرف ألمانيا ولم أغادر حضرموت طول حياتي ، ولا أتكلم إلا العربية ، فسمح لنا بركوب الطائرة بلا قيد ولا شرط .

كما أخبرنا الأخ علي بن سميط بأنه لما اكتُشف البترول في منطقة العوامر بحضرموت وكان عضواً في تلك الفترة بمجلس الدولة الكثيرية . . طلب السلطان من مجلس الدولة عقد اجتماع للأعيان ورؤساء القبائل لبحث إمكانية إشراك الحكومة القعيطية في عائدات البترول ، فاجتمع المجلس ، ولما عرض عليهم الموضوع . . قام أحدهم خطيباً فقال : البترول حقنا ، والقعيطي له (قُحل) وأشار بيده لمقصده ، ثم قام أحد العوامر وقال : البترول حقنا وظهر في أرضنا ، والسلطان الكثيري حقنا ما بانخليه بانعطيه قسمه ، وهـٰكذا استمرت مناقشات الأعيان علىٰ هـٰذه الوتيرة .

ورغم أن ابن سميط قد شاخ في السنين الأخيرة وضعف بصره بدرجة كبيرة إلا أنه استمر محافظاً علىٰ حيويته ومعنويته العالية ، وكان يحضر بين الوقت والآخر جلساتنا التي نعقدها في بيت الأخ عبد الرحمـٰن بن طه رغم أنها أصبحت نادرة بعد وفاة العم علي ولزوم الحبيب عبد القادر لبيته .

ثم انتقل إلىٰ رحمة الله في العام (١٤٢٦هـ) ودفن بمكة .

* * *

السيد جعفر بن محمد المحضار

السيد جعفر المحضار علىٰ يمين الحبيب عبد القادر بعزومة الحجاج ببيتي في جدة

ومن أصدقائي السيد جعفر بن محمد المحضار ، وقد التقيت به لأول مرة عند وصولي الأول لأديس أبابا من حضرموت ؛ حيث قصدت إلىٰ منزل المحاضير الذين لم يستقبلونا الاستقبال اللائق ، حتىٰ جاء جعفر المحضار ـ وهو لا يعرفنا ونحن لا نعرفه ـ فرحب بنا واستقبلنا استقبالاً حسناً ، ولما عرف أسماءنا وسبب مجيئنا من حضرموت . . احتفىٰ بنا واهتم بأمرنا ، مما ترك في نفسي أثراً لن أنساه .

وكان جعفر يزور والدي بحضرموت ، وهو شخص طبيعي غير متكلف ، وقد دعاه والدي في إحدى المرات للعشاء ، وتكلف والدي أصنافاً من

الطعام ، وأثناء العشاء قال جعفر للعم علي بن عبد الله أمام الوالد : اعزمني حتىٰ عزومة متواضعة مثل هـٰذه التفاتف .

وإذا وصل جعفر إلىٰ بيت الوالد . . يخلع ثوبه ويعطيه أحد إخوتي ليغسله ، ريثما يستحم في الجابية .

ولما وصلت جدة عام (١٣٧٦ هـ) وجدت جعفراً قد سبقني بالهجرة وعمل مدرساً بقرية الشرائع القريبة من مكة ، وقد زرته بالشرائع وأمضيت معه أياماً تمتعت فيها بكرم ضيافته ، ولا يتأخر السيد جعفر متىٰ كان في جدة عن حضور عزومة الحج العامة التي اعتدت إقامتها بمنزلي كل عام منذ ثلاثين عاماً ، ثم توقفت في السنوات الأخيرة بعد أن ضعفت وتجمعت علي أمراض الشيخوخة ، وبعد موت أغلب العلماء والدعاة الذين كنت أحرص علىٰ حضورهم ، وكان السيد جعفر يقف في هـٰذا المحفل ويذكر الحضور ويعظهم بكلام بليغ .

وقد نزل السيد جعفر في ضيافتي في إحدىٰ زياراته لجدة ، وأصر على المبيت في الهواء الطلق بحوش البيت ، ثم أزعجته في آخر الليل هرّة فقام يطاردها إلىٰ خارج الحوش ، فانقفل الباب وراءه ، وخجل أن يقرع الباب في هـٰذا الوقت المتأخر ، فقضىٰ باقي ليلته بالشارع بثياب النوم ، وحتىٰ أذان الفجر وهو عار إلا من الفوطة (الصاروم) .

ومن الطرائف التي تروىٰ عن السيد جعفر الضخم الجثة ، والقوي البنية : أنه دخل علىٰ طبيب أسنان ليخلع له ضرسه ، فأحس بقوة الطبيب لما أمسك به ، ثم نظر فرآه مفتول العضلات ، فتحسس يد الطبيب وقال له : ما رأيك أن نتعارك بعد أن تنتهي من العلاج .

وفي الأيام الأخيرة عاش السيد جعفر المحضار متنقلاً بين جدة وإندونيسيا وحضرموت ، ثم استقر أخيراً بحضرموت ، إلا أنه أطبق عليه في أيامه الأخيرة الصمت في أغلب الوقت ، فكان يجلس في المجالس صامتاً لا يتكلم إلا

بالقليل من الكلمات ، وقد اجتمعت به في سيؤن عدة مرات وزرته في بيته قبل وفاته بسيؤن عام (١٤٢٣هـ) .

وقد قام برحلة إلى النجف وكربلاء سجلها في كتاب ، وسر مني كثيراً عندما امتدحت هـٰذه الرحلة ، وذكر فيها بعض الفوائد والطرائف .

* * *

الحبيب عبد الله بن محمد البار

وهو من الرجال الكرام الذين عرفتهم عن كثب خلال السنوات الأخيرة من إقامتي بالسعودية ، وكان شهماً كريماً خلوقاً متواضعاً ، وكان يقيم في بيته الحضرة السلفية بعد عصر كل ثلاثاء ، وتستمر إلىٰ صلاة المغرب وتنشد فيها الأناشيد وتقرأ فيها الأدعية ، ثم يقدم التمر والخمير والقهوة والحلوىٰ ، واستمر يقيمها وهو سعيد بها إلىٰ آخر عمره ، كما كان لا يتأخر عن الجلسات العلمية والمحافل الدينية العامة والخاصة ، وقد توفي بجدة ودفن بمكة ، وهو نشيط ، وأنشأ له أعمالاً تجارية فور وصوله جدة رغم شيخوخته .

وبعد وفاته تولى ابنه عيدروس إقامة الحضرة ، إلا أنه اعترضت طريقه بعض المشاكل التي تسببت في إلغاء جلسة الحضرة ، ولم يلبث أن توفي بعد سنة واحدة من وفاة والده رحمهما الله .

وأذكر أنني لما كنت في حضرموت في السبعينات الهجرية طلب الشيخ سالم باحبيشي من صديقه السيد عبد القادر بن محمد السقاف (أبو علوي) تنفيذ توصيل المياه إلىٰ قريته حوفة ؛ لأنها محرومة من الماء مما يضطر أهلها إلى الذهاب في كل صباح إلىٰ منطقة بعيدة لإحضار الماء من عيون مملوكة لبعض الأشخاص ، فاشترى الشيخ سالم با حبيشي عدداً من هـٰذه العيون ، وقرر توصيل الماء بالأنابيب إلىٰ حوفة ، وكلف صديقه أبو علوي بإتمام هـٰذا العمل ، ولمعرفة أبو علوي بطبائع الناس في تلك المناطق من حضرموت وتوقعه حدوث المشاكل والعراقيل . . فقد صحبني وعمي علي لمساعدته في هـٰذه المهمة ، وقبل سفرنا من سيؤن بالسيارة إلىٰ دوعن اتصل بنا الحبيب حامد البار وكلف علينا أن نزور بيته في الخريبة بدوعن ، فحاولنا الاعتذار منه لبعد

المشروع عن مكان بيته ولانشغالنا التام بمشاكل المشروع . . إلا أنه لم يترك لنا عذراً ، فوافقنا علىٰ زيارة منزله ، ولما وصلنا دوعن . . اضطررنا أن نغير اتجاه سيرنا ونتجه لبيت الحبيب حامد البار استجابة لطلبه .

ولما وصلنا بيته نادينا ابنه ، فخرج بعدما تعبنا من المناداة ، فخرج إلينا ولم يستقبلنا كما يجب ، كما لا تظهر عليه الرغبة في استضافتنا ، وكنا قد تكلفنا مشقة المجيء إلىٰ هـٰذا المكان إكراماً لرغبة أبيه ، كما أخبرنا هـٰذا السيد بأنه مستعجل ويريد الذهاب إلىٰ منطقة أخرىٰ ، وطلب منا أن نوصله معنا بالسيارة ، وبالفعل أركبناه معنا وسرنا في طريقنا فلمحنا العم عبد الله البار الذي يسكن في بيت علىٰ قمة مرتفعة ، فخرج إلينا واعترض طريق سيارتنا ـ وهو لا يعرفنا ـ وأوقف السيارة وأقسم ألا يتركنا نذهب حتىٰ يضيفنا عنده ، ولم يترك لنا فرصة للاعتذار ، فتوقفنا عنده ودخلنا بيته وذبح لنا وأولم ، ولم نغادر منزله إلا بعد أن تغدينا وصلينا صلاة العصر ، وكانت هـٰذه بداية المعرفة مع العم عبد الله البار .

ثم توطدت بيننا العلاقة عندما استقر كل منا بجدة ، وخصوصاً في السنوات الأخيرة ، وكان يحرص علىٰ حضور الجلسة الرمضانية ببيت الحبيب عبد القادر بن أحمد ويجلس إلىٰ جانبه ، وقد توفي يرحمه الله بجدة ودفن بمكة .

* * *

الشيخ محمد باشيخ

الشيخ محمد باشيخ على الكرسي إلىٰ يمين الصورة في عزومة الحجاج بمنزلي بجدة

يعتبر الشيخ محمد باشيخ من أوائل الحضارمة الذين استقروا بجدة ، وله بها تجارة ناجحة ، وهو من محبي السادة العلويين وله بهم علاقة قوية ، وينزل في ضيافته كثير من كبار العلويين أثناء قدومهم للحج والزيارة فيجدون منه التقدير والاحترام ، كما تعقد في بيته الكثير من الجلسات العلمية المرتبة ، والتي استمرت حتىٰ بعد وفاته ، وقبل سنوات طويلة آلى الشيخ محمد باشيخ علىٰ نفسه أن يؤدي صلاة الجمعة مرة في مكة والأخرىٰ في المدينة إلا أن السيارة انقلبت به في رحلة العودة من المدينة فانكسرت رجله كسراً سبب له عرجاً استمر معه لآخر حياته ، واضطره للاعتماد علىٰ عكازة بصفة دائمة ، مما صبغ عليه صفة الشيبة في مرحلة مبكرة من عمره .

وكان الشيخ محمد باشيخ سنداً قوياً للحضارم المقيمين بجدة ويعمل الكثير منهم علىٰ كفالته دون أن يكلفهم ذلك أي شيء ، كما يساعدهم علىٰ تملك بيوتهم وحل مشاكلهم الصغيرة والكبيرة .

ولما انحرف أحد أولاد السادة عن جادة الطريق وأدىٰ ذلك إلىٰ سجنه . . قمت بمساعدة الشيخ محمد باشيخ بحل مشكلته ، وعند خروجه من السجن . . رفع الشيخ محمد باشيخ عليه عكازه وأدبه لخروجه عن طريق أهله ، فصلح حاله واستقام علىٰ طريقة أهله .

وأصيب الشيخ محمد باشيخ في أيامه الأخيرة بشلل أقعده بمنزله . . وكنت أزوره في بيته فيفرح بزيارتي له ، وقام قبل سنة من وفاته بزيارة حضرموت وشعب نبي الله هود ، وقد اجتمعت به في شعب هود ثم في المأدبة الكبيرة التي أقامها علىٰ شرفه الحبيب أحمد بن علوي الحبشي بداره بأنيسة بسيؤن .

ثم وافاه الأجل المحتوم ودفن بمكة .

* * *

السيد محمد بن عبد القادر السقاف

ومن أقربائي الذين أرتبط بهم بصلة قوية في السنين الأخيرة الأخ محمد بن عبد القادر بن جعفر السقاف ، والمقيم منذ سنوات طويلة بالرياض ، وهو الابن الوحيد لعمتي خديجة ، وقد نشأ فقيراً وكانت أمه تحبه كثيراً .

وقد ولد في (٢٤) صفر (١٣٤٤هـ) وأقام مع والده بمكة لطلب الرزق ، وعمل وسنّه لم يتجاوز الخمسة عشر سنة بكثير من الأعمال المجهدة ، وتعرض للشدة والقسوة وذاق مرارة الجوع والحرمان .

وعمل في إحدى المرات صبياً لدىٰ إحدى الدكاكين ، وكان صاحب الدكان يجهز الغداء في الدكان وإذا جهز الغداء أرسل محمداً في طلب من

الطلبات والتهم الطعام في غياب محمد ، وإذا عاد محمد لم يجد شيئاً يأكله .

وعمل محمد في جملة ما جربه من أعمال بالطوافة ممثلاً للحبيب محمد بن صالح المحضار ، فكان يلبس جبته السوداء الخاصة بالمطوفين ويتبعه سرب من الحجاج يطوف بهم ، ولما حج الوالد علوي وجاء إلىٰ مكة . . سمع من يناديه خال علوي خال علوي ، فلما التفت وجد محمد بجبة المطوفين فلم يعرفه إلا بعد قليل ، ثم عرض عليه أن يطوفه فطاف به ، وكنا نتندر علىٰ محمد ونسأله هل طلبت من الوالد مقابل لهٰذه الخدمة أم اكتفيت بالدعاء .

ثم ساعده الحظ فعمل بمدرسة تحضير البعثات بمكة ، وكان عمله تحضير الشاي للمدرسين ، وقد أعجب المدرسون بذكائه ونباهته ، ورقوا لحالته حيث كان صغيراً ، ومن الأولىٰ أن يكون طالباً في المدرسة لا عاملاً بها ، وكان أحد المدرسين المصريين يتبرع له بخمسين ريالاً من مرتبه في كل شهر شفقة عليه ، ثم سعىٰ له أهل الخير للالتحاق بالمدرسة ، غير أنه لم يكن يحمل شهادة تؤهله لدخول المدرسة ، فقرر أن يدرس جميع المواد السابقة بالبيت بمساعدة المدرسين الخصوصيين ، ثم يتقدم للامتحان للحصول علىٰ شهادة ، فكان يستلم راتبه من المدرسة وينفقه على المدرسين الخصوصيين ، وفي أثناء الامتحان أرتج عليه ولم يعرف كيف يبدأ الإجابة ، فناوله المدرس لطمة قوية علىٰ وجهه أيقظته من ذهوله ، فبدأ يكتب الإجابات ، ويقول الأخ محمد بأن المدرس الذي لطمه لم يكن يعرف بأنه لم يدخل في جوفه طعام منذ ثلاثة أيام .

ويكلفه أعيان مكة بتدريس أبنائهم المكملين في أثناء الإجازات الصيفية ، فيستفيدوا من تدريسه وينجحون في الدور الثاني للامتحان .

وفيْ إحدى المرات أتعبه أحد أبناء الذوات المرفهين في التحصيل ، فضاق محمد به ذرعاً وناوله لطمة لم يسبق لأحد أن أعطاه مثلها ، وكانت هٰذه اللطمة طريق هٰذا الولد المرفه للنجاح في الامتحان وفي حياته العملية فيما بعد .

ثم نجح محمد في الامتحان ودخل مدرسة تحضير البعثات وأصبح يدرس ويأكل فيها بالمجان ، ويستلم مكافأة في آخر الشهر يعين بها والده وأهله بحضرموت ، ثم ابتعث إلىٰ مصر عام (١٩٥٢ م) علىٰ حساب الحكومة السعودية ودرس في كلية التجارة ، ولما تخرج . . تزوج بمصرية ، ثم عاد إلى السعودية والتحق بوزارة التجارة بالرياض كمدير لإدارة التجارة الداخلية ، وكان ذلك المنصب منصباً حساساً ومهماً خصوصاً في تلك الفترة التي حدثت فيها الأزمات التموينية ، فقامت الحكومة بدعم أسعار الرز والسكر ، ووزعت هٰذه المواد المدعومة بحصص معينة على التجار ، وتولىٰ محمد مسؤولية ذلك ، وكان يمكن لغيره في منصب كهٰذا المنصب أن يصبح من كبار الأثرياء ، إلا أن ذلك لم يغير في حياته شيئاً .

وقد حدثت بين شركة الموصلي ـ التي أتولى إدارتها ـ وبين أحد الأشخاص مشكلة إدارية ، فاستدعيت إلىٰ فرع وزارة التجارة بجدة لبحث القضية ، فوجدت أن الحكم بيننا هو الأخ محمد بن عبد القادر الذي كان منتدباً بجدة ، فعرض المشكلة وفصل فيها بحيادية تامة ، رغم أن خصمي اشتكىٰ بغير حق من تحيزه نحوي .

وقد حاول الأخ محمد بن عبد القادر مع صديق عمره العم حسين بن عبد الله السقاف في مجالات التجارة المختلفة ، فلم يحالفهم التوفيق ، وأنشأ مدرسة ليلية بالرياض تعتبر من أوليات المدارس الليلية ، وكانت دراسة طلبتها الفقراء بالمجان ، ثم بدأ بعد ذلك بتجارة الأدوية والصيدليات ، وحقق فيها نجاحاً كبيراً ، وكسب أموالاً وفيرة ، إلا أنه كان ينفق منها الكثير في الصدقات والمبرات ، وأنشأ عمارة في سيؤن خصص دخلها لشراء السكر والرز والزيت وتوزيعه على المحتاجين ، كما كان يرسل لقرابته بالسعودية وحضرموت كل سنة في رمضان أكياس التمر من مزرعته بالخرج ، والتي صرف عليها الملايين ، ويوزع إنتاجها كله بالمجان .

كما تعود أن يرسل إلىٰ حضرموت في شهر رمضان كميات كبيرة من التمر

قد تصل إلىٰ عشرة أطنان في كل سنة .

وقد اكتسب محمدٌ حبَّ الصدقة ورعاية المحتاجين من أمه خديجة ، والتي اشتهرت بالكرم وحب الخير ، وقد تربىٰ علىٰ نفقتها عدد من الأيتام .

وقد تزوج ابني علي من ابنة السيد محمد بن عبد القادر ، وتمت الخطبة في الرياض حيث يقيم الأخ محمد ، وذهبنا مع العائلة وأفراد من عائلة آل قاضي - منهم العم علي بن عبد الله السقاف ، والأخ محمد بن علوي - إلى الرياض ، ثم تمت مراسم الزواج بجدة ، وسافر الابن علي مع زوجته بعد أسبوعين من زواجه إلىٰ بريطانيا لإتمام تخصصه الطبي .

وقد استعنت بالأخ محمد بن عبد القادر في الفترات الأخيرة في عدد من المشاريع الخيرية ، فسارع بالمشاركة والتبرع بتجهيز قسم العيون بمستوصف عيديد الخيري بتريم ، وقام بتكييف مسجد طه بسيؤن ، كما فرش عدداً من المساجد علىٰ نفقته الخاصة ، وكانت له رواتب شهرية يجريها على الضعفاء والمحتاجين .

ولم يزر محمد حضرموت حتىٰ وفاته ، ومع ذلك فإنه استمر يذكر تفاصيل بيوتها وشوارعها إلىٰ آخر حياته ، وقد حاول أن يرافقني في رحلة من رحلاتي القصيرة والمتأخرة إلىٰ حضرموت ، إلا أن ظروفاً منعته من السفر في اللحظة الأخيرة .

واستمر الأخ محمد في كفاحه في الحياة متمتعاً بلحظات قليلة من السكون والراحة ، حتىٰ وافته المنية بجدة في شعبان (١٤٢٤هـ) ، ودفن في مكة بجوار مقبرة السيدة خديجة رضي الله عنها .

* * *

المختارات

الوالد محسن في مكتبته في الصباح بعد تناول الفطور

مُقدّمـة

على الصفحات التالية بعض المختارات والتي جمعتها من قراءتي الصباحية في السنوات الأخيرة في كتب التفسير وكتب التراجم والسير وأخبار السلف، ومما سمعته من العلماء والأدباء الذين عاصرتهم .

ورغم رغبتي في أن يطلع أبنائي وأحفادي علىٰ هـٰذه الفوائد القيمة ، إلا أنه لم يخطر ببالي أن يتضمنها كتاب المذكرات ، ولـٰكن أبنائي أصروا علىٰ إدماجها في كتاب المذكرات ؛ لحفظها من الضياع ، ولتعم الفائدة بقراءتها .

وقد جاءت هـٰذه المختارات كما سجلتها دون ترتيب أو تبويب ؛ فقد تجيء الآية وتفسيرها ، ثم أخبار السلف أو ما استحسنته من الأقوال والأشعار دون أن يفصل بين الموضوعات فاصل .

كما لم يسعفني الوقت ولا النظر بالمراجعة الدقيقة لهـٰذه المختارات حتىٰ أتأكد من خلوها من السهو والخطأ ، كما أن الاستعجال بإخراج كتاب المذكرات قد يكون سبباً آخر من أسباب السهو عن التصحيح والتنقيح الذي سيتم إن شاء الله فيما بعد بمساعدة القارئين لهـٰذه المذكرات .

وأتمنىٰ أن تكون في هـٰذه المختارات الفائدة المرجوة .

* * *

سأل القاضي أبو بكر بن العربي أحد الأئمة المالكية عن رجل قال : إن آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النار! فأجاب بأن من قال ذلك فهو ملعون لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ .

قال : ولا أذىً أعظم من أن يقال إن أبويه في النار .

« الحاوي للفتاوي » للإمام السيوطي [٢/ ٢٣١]

* * *

قال أبو زيد رحمة الله عليه : ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي ، حتىٰ سقتها وهي تضحك .

وهو معنىً جميل في تعويد النفس على الخير وترويضها .

« صيد الخاطر » لابن الجوزي ص (١٤٢)

* * *

ويقبح من سواك الفضل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

* * *

يروي الإمام أحمد [في « مسنده » ٢٠/ ٣٦١] عن أنس رضي الله عنه قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ ، حتىٰ خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « لا . . ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٣٣٨] سورة الحشر الآية (١٠)

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال : ٢ـ٤] .

* * *

يروي الإمام أحمد [في « مسنده » ٣٧/٣٤٧] عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قام من الليل فقال : (لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم قال : (رب اغفر لي) ـ أو قال : ثم دعا ـ استجيب له ؛ فإن عزم فتوضأ ثم صلىٰ . . قبلت صلاته » .

ذكره ابن كثير [في « تفسيره » ٤/٢٤٦] عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الطور ، وهي : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ .

* * *

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] .

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

* * *

في الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز ؛ فإن أصابك أمر . . فقل : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أني فعلت لكان كذا ؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان »[١] .

« تفسير ابن كثير » [٤/٢٦٩] سورة القمر ، الآية (٤٨)

* * *

---

(١) مسلم (٢٦٦٤) .

قال النابغة [في « ديوانه » ٧٧] :

المـــــرء يهـــــوىٰ أن يعيــــش   وطـــول عيـــش قـــد يضـــره
تفنـــىٰ بشـــاشتـــه ويبقـــى   بعـــد حلـــو العيـــش مـــره
وتخـــونـــه الأيـــام حتـــى   لا يـــرىٰ شيئـــاً يســـره

* * *

من حديث رواه الترمذي :

« من أراد أن يخاطب الله . . فليصلي ، ومن أراد أن يخاطبه الله . . فليقرأ القرآن » .

* * *

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها ؛ فإذا غربت . . جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتىٰ تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر » .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٤٥٣] ، الآية (٣٠) من سورة لقمان

وهو بهـٰذا يكون قد أشار إلىٰ كروية الأرض قبل أربعة عشر قرناً .

* * *

في الحديث : « أفلح من هُدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٥٥] ، آية (٣٦) سورة الزمر

* * *

روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب رضي الله عنه عن ابن عم له قال : دخلت مع أبي علىٰ عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه ؟ فقالت رضي الله عنها : تسألني عن رجلٍ كان من أحب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحته ابنته ، وأحب الناس إليه ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فألقىٰ

عليهم ثوباً وقال : اللهم هٰؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالت فدنوت منهم فقلت : يا رسول الله وأنا من أهل بيتك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « تنحّي ؛ فإنك علىٰ خير » أخرجه الحافظ والترمذي .

« تفسير ابن كثير » [٣/٤٨٦] في تفسير سورة الأحزاب آية (٣٣) .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١١] .

عند هٰذه الآية ذكر ابن كثير في « تفسيره » [٤/٣٢٥ ـ ٣٢٦] مشروعيةَ القيام وتفصيلَه ، وذكر كيف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : لِيَلِني أولو الأحلام منكم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . . وأنه عندما جاءه أهل بدر من المهاجرين والأنصار ولم يجدوا مكاناً يجلسون فيه ووقفوا قياماً . . قال لمن حوله : « قم يا فلان قم يا فلان » ليجلسوا مكانهم .

* * *

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

* * *

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال الأصمعي : قرأت مرة هٰذه الآية : ﴿والسارق والسارقة﴾ وإلىٰ جنبي أعرابي فقلت : (والله غفور رحيم) سهواً ، فقال الأعرابي : كلام مَن هٰذا ؟ قلت : كلام الله ، قال : ليس هٰذا بكلام الله !! أعد ، فأعدت وتنبهت ، فقلت : ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : نعم ، هٰذا كلام الله ، فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . قلت : فمن أين علمت أني أخطأت ؟ فقال : يا هٰذا . . عز ، فحكم ، فقطع ، ولو غفر ورحم . . لما قطع .

حديث أبي الدرداء

أخرج البزار في « مسنده » وابن المنذر وابن أبي حاتم في « تفسيرهما » والطبراني في « الكبير » والحاكم في « المستدرك » [٢/٤٠٦] وصححه وأقره الذهبي في « مختصره » وابن مردويه في « تفسيره » عن أبي الدرداء رفع الحديث قال : « ما أحل الله . . فهو حلال ، وما حرم . . فهو حرام ، وما سكت عنه . . فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ؛ فإن الله لم يكن لينسىٰ شيئاً ، ثم قال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ » .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكعب بن مالك : « يا كعب ؛ ما أحل ربك . . فهو حلال ، وما حرم . . فهو حرام ، وما سكت عنه . . فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ » .

« الحاوي للفتاوي » للإمام السيوطي [١/١٩]

* * *

أكثر المفسرين علىٰ أن (آزر) لم يكن أبا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإنما كان عمه ؛ لأن آباء الأنبياء كلهم مسلمون من لدن آدم ، وإنما تطلق العرب على العم (أب) مجازاً ، وهو شائع بينهم .

وفي الكتاب العزيز يقول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فأطلق علىٰ إسماعيل لفظ الأب وهو عم يعقوب .

منقول بتصرف من « الحاوي للفتاوي » للسيوطي [٢/ ٢١٤] (مسالك الحنفا في والدي المصطفىٰ)

* * *

من « فتاوي الإمام النووي » (المسائل المنثورة) صفحة (٦٨) .

(القيام لأهل الفضل وذوي الحقوق فضيلة علىٰ سبيل الإكرام ، وقد جاءت

به أحاديث صحيحة ، وقد جمعتها من آثار السلف وأقاويل العلماء في ذلك ، والجواب عما يوهم معارضتها ـ وليس معارضاً ـ وقد أوضحت كل ذلك في جزء معروف ، فالذي نختاره ونعمل به واشتهر عن السلف : جواز القيام واستحبابه في الوجه الذي ذكرناه ، والله أعلم) .

وفي التعليق[1] : قال في « فتح المعين » (٤/ ١٩٢) : ويسن القيام لمن فيه فضيلة ظاهرة من نحو علم وصلاح أو ولادة ؛ كأب وأم ، أو ولاية صفة مصحوبة بصيانة ؛ كعفة وعدالة ، وقال ابن عبد السلام : أو لمن يرجىٰ خيره أو يخشىٰ شره ، ولو كافراً خشي منه ضرر عظيم .

ويحرم على الرجل أن يحب قيامهم له ؛ للحديث الحسن : « من أحب أن يتمثل الناس له قياماً . . فليتبوأ مقعده من النار » .

* * *

يستحب تقبيل يد الصالحين وفضلاء العلماء ، ويكره تقبيل يد غيرهم ، ولا يقبل يد أمرد حسن بحال .

« فتاوى الإمام النووي » (المسائل المنثورة) صفحة (٧١)

وفي التعليق : وأفتى الإمام النووي في غير هٰذا بكراهية تقبيل نحو رأس . . إلخ .

ثم قال : ويندب ذلك لنحو صلاح أو علم أو شرف . . إلخ ؛ لأن أبا عبيدة قبل يد عمر رضي الله عنهما .

وورد في « سنن أبي داود » [٥٢٢٥] عن زارع رضي الله عنه ـ وكان في وفد عبد قيس ـ قال : فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورجله . اهـ التعليق .

ليس كلمة (عبد) تعني العبادة أو التملك ، ولقد قال الشاعر العربي :

---

(١) للشيخ محمد الحجار حفظه الله .

وإنـي لعبـد الضّيـف مـا زال ثـاويـاً ... ومـا فـيَّ إلا تلـك مـن شيمـة العبـد

* * *

مسألة : إذا حبس السلطان شخصاً وكان حبسه ظلماً ، فبذل مالاً لمن يتكلم في خلاصه بجاهه أو بغيره . . هل يجوز أخذ المال ؟

قال القاضي حسين في أول (باب الربا) من تعليقه ونقله عن القفال المروزي قال : هٰذه جعالة مباحة ، وليست من باب الرشوة ، بل هٰذا عوض حلال كسائر الجعالات .

« فتاوى الإمام النووي » (المسائل المنثورة) صفحة (١٥٣)

* * *

قال ابن الصباغ في « الشامل » : إذا صلىٰ على الجنازة مرة . . جاز أن يصلي عليها مرة أخرىٰ ، وبه قال علي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وابن عمر وعائشة رضي الله عنهم ، وإليه ذهب الأوزاعي وأحمد .

« الحاوي للفتاوي » للإمام السيوطي (١/ ٨٥)

* * *

في سحر البيان في العسل :

تقـول هـٰذا مُجـاج النحـل تمـدحـه ... وإن تَعِبْ قلت ذا قيء الزنابير(١)

مدحاً وذماً وما جاوزتَ وصفَهما ... سحر البيان يُري الظلماء في النور

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٥٢] .

* * *

---

(١) المُجاج : الريق .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « رغبت لكم عن غسالة الأيدي ؛ لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم » ؛ يعني أهل البيت .

« تفسير ابن كثير » [٢/ ٣١٤] سورة الأنفال آية (٤١)

كأن رسول الله عملها بوجود الخمس ؛ فإذا فقدت العلة . . هل يجوز إعطاؤهم من الزكاة ؟

* * *

قال امرؤ القيس [في « ديوانه » ٧٣] :

لقد نقبت في الآفاق حتى ... قنعت من الغنيمة بالإياب

* * *

عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ حدثني بأمر أعتصم به ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قل ربي الله ثم استقم » .

قلت : يا رسول الله ؛ ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرف لسان نفسه ثم قال : « هٰذا » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٩٩-١٠٠] سورة فصلت عند تفسير الآية (٣٠)
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هٰذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ « قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ؛ فمن قالها حتىٰ يموت . . فقد استقام عليها » .

* * *

سند الوالد عبد الرحمٰن بن عبيد الله كما يرويه [في « ديوانه » خ٢٠٨] :

نروي الحديث عن إمامنا الأبر ... بحر العلوم عيدروس بن عمر

عن شيخه القطب الإمام البدل — نجل سليمان الوجيه الأهدل
عن شيخه ابن سنَّة الضَّلانِي — عن أحمد بن العَجِل اليماني
والنَّهرَوانيِّ عن الطاووسي — فالهرويِّ بهجة النفوس
عن الجمال الفاضل الفرغاني — عن شيخه ابن مقبل الختلاني
عن الفربريِّ عن البخاري — بحر العلوم السلسبيل الجاري
هٰذا أعز سند في الدنيا — رتبته بالاتفاق العليا
لدونه يُرحل شاماً ويمن — وقد أتاكم هيناً بلا ثمن
مددتكم سلسلةً من الذهب — غنيمة باردةً بلا نصب

فيكون بينه وبين البخاري عشرة ، وبين البخاري ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة ، فيكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعة عشر .

* * *

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . فقال : « قل : (اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم . . أنم عيني وأهدىء ليلي) » ، فقلتها ، فذهب عني . أخرجه الطبري .

ورد في « تفسير ابن كثير » [٣/ ٤٣١] سورة الروم آية (٢١)

* * *

عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالىٰ خيراً من أمر الدنيا والآخرة . . إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » .

رواه مسلم [في « صحيحه » ٧٥٧]

* * *

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالىٰ : يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني ورجوتني . . فإني أغفر لك

ما كان منك ولا أبالي ، ولو أتيتني بقُراب الأرض خطيئة . . أتيتك بقرابها مغفرة ، ما لم تشرك بي شيئاً ، وإن أخطأت حتىٰ تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك » .

« تفسير ابن كثير » [٢/ ١٨٨] سورة الأنعام الآية (١٥١)

* * *

روى الإمام أحمد [في « مسنده » ٩/ ٢٨٢] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا لو دخلنا المدينة ثم بتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فإذا كانت لنا توبة وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا : نحن الفارون ، فقال : « بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين » ، قال : فأتيناه حتىٰ قبلنا يده .

ابن كثير [٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥] سورة الأنفال آية (١٦)

* * *

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا انتهىٰ أحدكم إلى المجلس . . فليسلم ؛ فإذا أراد أن يقوم . . فليسلم ؛ فليست الأولىٰ بأحق من الآخرة » . أخرجه أبو داود [في « سننه » ٥٢٠٨] والترمذي [في « سننه » ٢٧٠٦] والنسائي [في « الكبرىٰ » ٦/ ٩٢] .

« تفسير ابن كثير » سورة النور عند الآية رقم (٦٢)

* * *

روى الأموي في « مغازيه » : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل يمشي بين القتلىٰ يوم بدر وهو يقول : « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت :

مــــن رجــــال أعِــــزَّةٍ   علينــا وهــم كــانــوا أعــق وأظلمــا

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة : ويأتيك بالأخبار من لم تزود » ، وهو من شعر طرفة بن العبد في معلقته المشهورة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وثبت في الصحيح [« البخاري » ٢٨٣٧] أنه صلى الله عليه وآله وسلم تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ولكن تبعاً لقول أصحابه ؛ فإنهم كانوا يرتجزون فيقولون :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولىٰ قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

ويرفع صلى الله عليه وآله وسلم صوته بقوله : (أبينا) ويمدها .

وكذا ثبت [في « صحيح البخاري » ٢٨٦٤] أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا إن هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر ، بل جرىٰ على اللسان من غير قصد .

وثبت في « الصحيح » [« البخاري » ٢٨٠٢] عن جندب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غار ، فنكبت إصبعه فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩] سورة يس الآية (٦٩)

* * *

روى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن العبد ليمنع الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » . « تفسير ابن كثير » [٤/ ٣٨١] في تفسير سورة الطلاق آية (٣)

* * *

النفس تجزع أن تكون فقيرة   والفقر خير من غنىً يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت   فجميع ما في الكون لا يكفيها(١)

* * *

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : [في « مصنف ابن أبي شيبة » ٧/ ٩٣] كنا ولسنا شيئاً حتىٰ أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العزة في غيره . . ذللنا .

* * *

مفاتيح الغيب خمسة وقد جمعتها الآية التالية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٤٥٤] سورة لقمان الآية (٣٤)

* * *

عن معاوية بن قرة قال : قال معاذ بن جبل لابنه : يا بني إذا صليت . . فصل صلاة مودع لا تظن أنك تعود إليها أبداً ، واعلم يا بني أن المؤمن من يموت بين حسنتين ؛ حسنة قدمها ، وحسنة أخرها .

« الزهد » لابن أبي عاصم (١٨٠)

* * *

---

(١) البيتان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

المديح الذي يمكن تحويله هجاء :

قال بعضهم وقد خاط له أعور قميصاً :

خــاط لــي عمــرو قَبَــاءْ ليــت عينيــه ســواءْ

* * *

ومدح رجل رجلاً يقال له : يسير ، فقال في مدحه :

وفضل يسير في البلاد يسير[1] .

ولما قيل له : قد لا يعطيك شيئاً . . قال : إذاً أقول بإصبعي هٰكذا وقارب بينهما[2] .

وقال آخر :

تقمــص أسمــاء الشهــور فكفــه جمادىٰ ، وما ضمت عليه المحرم

« الأذكياء » ١٤٣

* * *

قال بعضهم : لم أندم علىٰ ما لم أقل ، وندمت مراراً علىٰ ما قلت .

وقال الآخر : أنا علىٰ رد ما لم أقل . . أقدر مني علىٰ رد ما قلت .

وقال الآخر : إذا تكلمت بالكلمة . . ملكتني ، وإذا لم أتكلم بها . . ملكتها .

وقال الآخر : عجيب ممن يتكلم بالكلمة إن رفعت . . ضرته ، وإذا لم ترفع . . لم تنفعه .

* * *

(١) يسير : أي يمشي ويعم .
(٢) يعني أنه قليل .

اجتمع ثلاثة شعراء واتفقوا علىٰ أن يقولوا شعراً بقافية صعبة : فقال أولهم :

نلنا لذيذ العيش في بطياثا

وقال الآخر :

وقد حثثنا القَدَح استحثاثا

وأرتج على الثالث فقال :

وأم عمـرو طـالـق ثـلاثـا

ولما سئل عن ذنب زوجه ؟ قال : إنها جلست في طريق القافية .

« محاضرات الأدباء » ٢/ ٧٦٦

* * *

عن عيسىٰ بن يونس قال : كنا عند محمد بن كعب القرظي فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما تقول في التوبة ؟ قال : ما أحسنها . قال أفرأيت إن أعطيت الله عهداً ألا أعصيه أبداً ؟ فقال له محمد : فمَن حينئذ أعظم جرماً منك ؟ تتألىٰ على الله ألا ينفذ فيك أمره .

« صفة الصفوة » لابن الجوزي [٢/ ٧٨] .

* * *

عن حفص بن ميسرة قال : عجباً لقوم يعملون لدار يرحلون عنها كل يوم مرحلة ، ويدعون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كل يوم مرحلة .

« صفة الصفوة » لابن الجوزي [٢/ ٩٧] .

* * *

لما دخل الإمام جعفر الصادق على المنصور وقد طلب من الربيع إحضاره وقال : (قتلني الله إن لم أقتله) وكان ينوي قتله ، فقرأ الإمام الصادق الدعاء التالي :

« اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بعفوك الذي لا يرام ، واغفر

لي بقدرتك عليّ ، لا أهلك وأنت رجائي ، اللهم إنك أكبر وأجل مما أخاف وأحذر ، اللهم بك أدفع في نحره ، وأستعيذ بك من شره » ، فتحول المنصور إلىٰ إعزاز له ، وأجلسه جنبه ، وصرفه مبجلاً مكرماً ، وأهدىٰ له .

« سير أعلام النبلاء » ٦/٢٦٦

* * *

قال الإمام الشافعي عند وفاته [في « ديوانه » ١١٩] :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي — جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته — بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل — تجود وتعفو منَّةً وتكرُّما

* * *

من كلام الإمام علي كرم الله وجهه يخاطب ربه :

كفاني عزاً أن تكون لي رباً ، وكفاني فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لي كما أحبّ ، فوفقني لما تحب .

* * *

يَحدث للناس من الأحكام بقدر ما يحدثون في العبادات .

* * *

قال حكيم : راحة الجسم في قلة الطعام ، وراحة النفس في قلة الآثام ، وراحة القلب في قلة الاهتمام ، وراحة اللسان في قلة الكلام .

* * *

الغيبة

القدح ليس بغيبة في ستة : متظلم ، ومعرف ، ومحذر ، ولمظهر فسقاً ، ومستفت ، وفي طلب الإعانة في إزالة منكر[1] .

---

(١) وقد جمعها بيت من الشعر : =

قال الشافعي يوصي أبا عبد الصمد مؤدب أولاد الرشيد :

ليكن ما تبدأ به من إصلاح أبناء أمير المؤمنين : إصلاح نفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحَسَنُ عندهم ما تستحسنُه ، والقبيح عندهم ما تكرهه .

علِّمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روِّهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلىٰ غيره حتىٰ يحكموه ؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم .

« صفة الصفوة » لابن الجوزي [٢/ ١٥٢] ، في ترجمة الإمام الشافعي

* * *

وما ثَم سلطان ولا ثم دولة ... ولٰكنه الود الإلٰهي والنفس

* * *

بحث مستوفىٰ عن مشروعية تقبيل اليد والرجل والرأس في « بضائع التابوت » ، للوالد ابن عبيد الله الجزء الأول صفحة رقم (٢٤٦) .

* * *

روىٰ أبو نعيم [في « الحلية » ٧/ ٢٥٥] عن عطية قال : كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمٰن ؛ وددت أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له ابن عمر : فكنت تصنع ماذا ؟ فقال : كنت والله أؤمن به وأقبل بين عينيه ، فقال له ابن عمر : ألا أبشرك ؟ قال : بلىٰ يا أبا عبد الرحمٰن ، قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما اختلط حبي بقلب أحد فأحبني . . إلا حرم الله جسده على النار » .

* * *

= لقِّب ومستفت وفسق ظاهر ... والظلم تحذير إزالة منكر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) . . إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذاك » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٢٤٦] في تفسير سورة الطور آية رقم (٤٩) .

❊ ❊ ❊

ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : (ما أقبل عبد بقلبه إلى الله . . إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتىٰ يرزقه مودتهم ورحمتهم) .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ١٤١] في تفسير سورة مريم الآية (٩٨) .

❊ ❊ ❊

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الجراح الحكمي : « إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك يكون حاجزاً بينك وبين ما حرم الله عليك . . فافعل ؛ فإنه من استوعب الحلال كله . . تاقت نفسه إلى الحرام » .

❊ ❊ ❊

عن الفتيات السافرات :

صُوَرٌ تريك من المظاهر معرضا   جم الزخارف يخدع الأبصارا
حتىٰ إذا أبصرتها وتكشفت   أبصرت خزياً يستطير وعارا

❊ ❊ ❊

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ❊ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ❊ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ❊ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾

[الفرقان : ٧١] .

❊ ❊ ❊

قال الشاعر الجاهلي [في « الأغاني » ٢٠/ ٥١] :

فمـا زالـت الكـأس تغتـالنـا وتـذهـب بـالأول الأول

* * *

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من كانت الدنيا همه . . فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته . . جمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ١٧٢] عند الآية (١٣٢) من سورة طه

* * *

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » .

« صحيح مسلم » [رقم ١٠٥٤] .

* * *

سأل عمر أُبيَّ بن كعب عن التقوى ؟ فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوىٰ .

وأخذ هٰذا المعنى ابن المعتز فقال :

خَـلِّ الـذنـوب صغيـرهـا وكبيـرهـا ذاك التقـى
واصنـع كمـاشٍ فـوق أر ض الشـوك يحـذر مـا يـرى
لا تحقـرن صغيـرة إن الجبـال مـن الحصـى

« تفسير ابن كثير » [١/ ٤١]

سئل علي كرم الله وجهه عن التقوى ؟ فقال : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

* * *

وفي الحديث : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً » .

« تفسير ابن كثير » [١/ ٥٥٥] عند تفسير الآية (١١٤) من سورة النساء

* * *

قال شاعر :

خـــذ مـــا أتـــاك مـــن اللئـــا م إذا نـــأىٰ أهـــل الكـــرم
فـــالأُسْـــدُ تفتـــرس الكـــلا ب إذا تعـــذرت الغنـــم

* * *

وقال آخر :

تسـامـى الـرجـال علـىٰ خيلهـم ورجلـي مـن بينهـم حـافيـة
فـإن كنـت حـاملنـا ربنـا وإلا فـأرجـل بنـي الـزانيـة

* * *

وقال آخر :

أتـرانـي أُرىٰ مـن الـدهـر يـومـاً لـي فيـه مطيـة غيـر رجلـي
وإذا كنـت فـي أنـاس فقـالـوا قـربـوا للـرحيـل قـربـت نعلـي
حينمـا كنـت لا أُخَلَّـف رحـلاً مـن رآنـي فقـد رآنـي ورحلـي

* * *

قال أكثم بن صيفي : من أصاب حظاً في دنياه فأوصله إلىٰ كبر وترفع . . فقد علم أنه نال فوق ما يستحق ، ومن أقام علىٰ حاله . . فقد علم أنه نال ما يستحق ، ومن تواضع . . فقد علم أنه نال دون ما يستحق .

* * *

أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكنانة بن الربيع (وهو زوج صفية) ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه ؟ فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل من اليهود وقال له : إني رأيت كنانة يطيف بهٰذه الخربة كل غداة ، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « أرأيت إن وجدناه عندك . . أأقتلك ؟ » قال : نعم ، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي فأبىٰ أن يؤديه ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزبير بن العوام فقال : « عذبه حتىٰ تستأصل ما عنده » ، فكان الزبير يقدح بزنده في صدره حتىٰ أشرف علىٰ نفسه ، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ عمر بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن سلمة. « السيرة النبوية لابن هشام » [٣/ ٣٣٦].

* * *

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

سورة البقرة آية (٢٧٢) و(٢٧٤) .

* * *

قال شاعر :

يا واصلين إلى المختار من مضر   زرتم جسوماً وزرنا نحن أرواحا
إنـا أقمنـا علـىٰ عـذر وعـن قـدر   ومن أقام علىٰ عذر فقد راحا[1]

---

(١) الأبيات لأبي العباس أحمد بن محمد بن موسى المعروف بابن العريف ، وقد ذكر هٰذه الأبيات في ترجمته ابنُ خلكان في « وفيات الأعيان » (١/ ١٦٩) ، وقبلها :

شدوا المطي وقد نالوا المُنىٰ بمِنى   وكلهـم بـأليـم الشـوق قـد بـاحـا =

قال أحمد شوقي يصف الثقيل [في « ديوانه » ٢/ ١٦٧] :

سقط الثقيل منَ السفينة في الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتىٰ إذا طلع الصباح أتت به نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلعه لأنه لا يهضم

* * *

كلم منصور بن زياد يحيىٰ بن خالد في حاجة لرجل ، فقال له : عِدْهُ ، فقال منصور : أصلحك الله ؛ فما الحاجة إلى الوعد مع القدرة ؟ قال : هٰذا قول من لا يعرف مواقع الصنائع في القلوب ؛ فإن الوعد تطعُّم والإنجاز إطعام ، وليس من فاجأه الطعام كمن وجد رائحته وتمطق به وتطعمه ثم قرب إليه ، فدع الحاجة تختم بالوعد ؛ ليكون بها عند المصطنع إليه حسن موقع ولطف محل ؛ فإنها إذا لم يتقدمها موعد ينتظر . . لم يتجاذب النفسَ سرورُها .

« ديوان المعاني » ٢/ ٢٠٥

* * *

كان لرجل جاهلي ثلاث بنات ، وكان غيوراً جداً ، يغضب علىٰ من يتخطب أحداً منهن ، بل يهم بقتله ، ولما طال على البنات الأمر وكان اسمه همام . . قالت إحداهن له :

أهمام بن مرَّةَ حن قلبي إلىٰ شيء يكون مع الرجال

فأمر بإعطائها سيفاً ، فقالت الثانية :

أهمام بن مرَّةَ حن قلبي إلىٰ ما بين أفخاذ الرجال

فأمر بإعطائها خيلاً ، فقالت الثالثة :

أهمام بن مرَّةَ حن قلبي إلىٰ شيء أسد به مبالي

فزوجها .

« محاضرات الأدباء » ٢/ ٢٢٦

= سارت ركائبهم تندىٰ روائحها طيباً بما طاب ذلك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفىٰ لهمُ رَوح إذا شربوا من ذكره راحا

إن ثواب السرور بالصدقة ليس الرياء يحبطه ، فحقِّقه .

* * *

يروىٰ عن الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي أنه ينشد الأبيات التالية عند كل سفر :

أستودع الله حالي وكل أهلي ومالي
وحسبي الله ربي في نقلتي وادغالي

* * *

ينبغي أن يقال لمن يزمع السفر :

وحيث اتجهتم رافقتكم عناية ويرعاكم الرحمـٰن من كل جانب

وكذلك :

الله جارك حيث سرت ميمِّما وأبو البتول وزوجها وابناها
وإذا وصلت أو ارتحلت فكافل ياسينُ حولك في الأمور وطه

* * *

عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي ؛ إني لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلىٰ عمار بيوتي ، وإلى المتحابين فيَّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار . صرفت ذلك عنهم »[1] .

* * *

وقال ابن ميمون الأودي : أدركت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم يقولون : إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها .

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٣/ ٨٢) .

قال الشريف الرضي [في « ديوانه » ٢/ ٣٨٨] :

جــدي النبــي وأمــي بنتــه وأبــي   وَصيُّــه وجــدودي خيــرة الأمــم

* * *

قال حاتم الطائي لزوجه [في « ديوانه » ١٤٣] :

إذا مـا صنعتِ الـزاد فـالتمسي لـه   أكيـلاً فـإنـي لسـت آكلـهُ وحـدي

* * *

وصف خالد بن منصور أهل اليمن فقال :

ليس فيهم إلا ناسج برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد ، وقد ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد[١] .

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

* * *

عن عائشة رضي الله عنها أنها زفت امرأة إلىٰ رجل من الأنصار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ؛ ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » .

« صحيح البخاري » كتاب (النكاح) ، الحديث رقم (٥١٦٣)

* * *

قال أحدهم ـ وقد أفلتت ضرطة علىٰ مضيفهم، واستحى الآخرون ولم يتكلموا ـ:

الله يبارك لكم في الهادقة يا حمود   حنت ورنت في الحدبة ولقت وعود

يا خير ـ والله ـ ضريطة جات وقت البرود !!

* * *

(١) انظر كتاب « الحيوان » للجاحظ (٦/ ١٥٢) .

قال شاعر تونسي في مقتل عمر المختار :

يا ويلهم رفعوا رفاتاً من دم — يوحي إلىٰ جيل الغد البغضاء
ما ضرهم لو جعلوا العلاقة في غد — بين الشعوب مودة وإخاء

شاعر يمني يتحدث إلىٰ بريطانيا في عز جبروتها وإمبراطوريتها

يا بريطانيا رويداً رويدا — إن بطش الإله كان شديدا
إن بطش الإله أهلك فرعو — ن وعاداً من قبلكم وثمودا

قال شاعر :

يا أبا حفص وما ساواك في فهمٍ إياس
من سنا رأيك لي في غسق الليل اقتباس
ووداي لك نصٌّ لم يخالفه قياس
ما ترىٰ في معشر خانوا عن الدهر وخاسوا
ورأوني سامرياً يُتقىٰ منه المساس
كلهم يسأل عن حالي وللذئب اعتساس

* * *

لأمية بن أبي الصلت :

إن آيات ربنا بينات — لا يماري فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل — مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم — بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى — صار يحبو كأنه معقور
خلفوه ثم ابذعرُّوا جميعاً — كلهم عظم ساقه مكسور(١)
كل دين يوم القيامة عند — الله إلا دين الحنيفة بور

* * *

(١) ابذعرُّوا : تفرقوا .

فى الفقه :

وجـــاز تقليـــد لغيـــر الأربعـــة   فـــي حـــق نفســـه وفـــي ذاك سعـــة

* * *

جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة ، فسجدْتُ فسجدَتِ الشجرة لسجودي ، وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك زخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داوود .

قال ابن عباس : فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجدة ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثلما أخبره الرجل[1] .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٢١٢] سورة الحج آية رقم (١٨)

* * *

دعاء

الحمد لله علىٰ ما أراد ، لا دافع له في حكمه ، ولا راد لقضائه ، الذي تنزه عن الفناء ، واتصف بالبقاء ، وجعل لكل نفس أجلاً ، وخلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً .

* * *

دعاء سعد بن عبادة

اللهم هب لي حمداً ، وهب لي مجداً ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بالمال ، اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه .

« صفة الصفوة » [١/ ٢١٨] لابن الجوزي

* * *

عن جعفر الخلدي قال : ودعت المزين الصوفي فقلت : ذكرني شيئاً ، فقال : إن ضاع منك شيء أو أردت أن يجمع الله بينك وبين إنسان . . فقل :

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٧٩) ، وابن ماجه (١٠٥٣) .

(يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد . . اجمع بيني وبين كذا) فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء ، أو ذلك الإنسان ، فما دعوت بها شيئاً إلا استجبت .

« صفة الصفوة » ٢/ ٢٦٦

* * *

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله :

من اتقى الله . . وقاه ، ومن اتكل عليه . . كفاه ، ومن شكره . . زاده ، ومن أقرضه . . جازاه .

« جامع العلوم والحكم » ١٦١

* * *

روى الإمام أحمد [في « مسنده » ٢٥/ ٤٥٦] عن ربيعة الأنصاري قال : سمعت أبا أسيد يقول عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا سمعتم عني الحديث تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب . . فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد . . فأنا أبعدكم عنه » .

« تفسير ابن كثير » [٢/ ٢٥٥] سورة هود الآية (٨٨)

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] .

* * *

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٤] .

* * *

قال شاعر يذم بخل قوم :

قوم إذا الضيف هرته كلابهمُ ... قالوا لأمهمُ : بولي على النار

فضيقت فرجها بخلاً ببولتها ... فلا تبول لهم إلا بمقدار

« المستطرف في كل فنٍّ مستظرف » ٣٧٧

يقول الله عز وجل في وصف الكافرين والفسقة عند الآية (١١٢) من سورة آل عمران : ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ فجعل المسكنة سوءً ومذلة .

* * *

من كلام الحسن رضي الله عنه :

اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم ، فلا تملوا من تلك النعم فتعود عليكم نقماً .

« شعب الإيمان » ٦/ ١٢٦

* * *

يقال إن الحبيب أحمد بن حسن العطاس يقول : إن السلف يتساهلون في أمرين ويتشددون في أمرين : أما ما يتساهلون فيه . . فهو النجاسة والعورة ، وأما ما يتشددون فيه . . فالأبضاع والمال .

بالسماع من الأستاذ محمد الشاطري

* * *

ومن عجائب الجزاء في الدنيا : أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف وشروه بثمن بخس . . امتدت أيديهم بالطلب إليه يقولون : (تصدق علينا) .

« صيد الخاطر » لابن الجوزي [ص١٢٠]

* * *

هناك دقيقة وهي : أن النفس لو دامت لها اليقظة . . لوقعت في شر ما تجنيه من المخالفات ، وهو العجب بما لها والاحتقار لجنسها ، لٰكن إذا وقفت على الشاطىء . . قامت بحق ذل العبودية ـ وهو أولىٰ ـ فمن بذر وصلح . . لا بد له من هفوة يستشعر منها الخوف ، فتصح له العبودية وتسلم عبادته ، وإلىٰ هٰذا المعنىٰ أشار الحديث الشريف : « لو لم تذنبوا . . لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

« صيد الخاطر » لابن الجوزي

* * *

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال العبد في خير ما لم يستعجل فيقول : دعوت فلم يستجب لي » . « صيد الخاطر » ٦٧

* * *

اعلم أن المراد بالمال : إنفاقه في العمر ، فإذا أنفقت العمر في تحصيله . . فات المقصودان جميعاً . ابن الجوزي « صيد الخاطر »

* * *

في صفة المنافقين :

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا   شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

* * *

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مئة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ » [البقرة : ٢٥١] .

* * *

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الأبدال في أمتي ثلاثون ؛ بهم ترزقون ، وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون » . « تفسير ابن كثير » [١/ ٣٠٤] سورة البقرة عند الآية (٢٥٢)

* * *

قال الشاعر :

أرىٰ نفسي تتوق إلىٰ أمور   ويقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تطاوعني ببخل   ولا مالي يبلغني فعالي

* * *

عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قطع رجاء من ارتجاه . . قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة » .

قال شاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

« آداب الصحبة » (٦٠)

قال شاعر :

ما شيَّد الله من مجد لسالفهم ... إلا ونحن نراه فيهم الآنا

« الحماسة المغربية » (١/ ٤٧٠)

* * *

روى الشيخ محمد بافضل عن الحبيب أحمد بن حسن العطاس في رحلته إلىٰ مصر والحجاز مفهوماً جيداً لقول الله عز وجل : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين : ٤ـ٨] قال : إن الإنسان يتقلب دائماً بين إقبال وإدبار ، وخير وشر ، بين روح تجذبه إلى الأوج الأعلىٰ وجسم يرده إلى الحضيض الأسفل ، وقرأ قوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهم على الحالة الأولىٰ في أحسن تقويم في حياتهم وموتهم ونشورهم ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لا يحدُّ ولا يعد ، قال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص : ٣٩] .

* * *

من شعر القانص :

قال بو زيد قر لي كان طعم حالي ... حس قلبي بشر من بعد ما قل مالي
كل عارف نكرة حتىٰ أنكروني عيالي ... وأنكرتني الستر في الدار لي هو حلالي

* * *

من شعر الحبيب علي بن حسن العطاس :

من لا معه شيء طال همه ... حتى المره بين النساء تذمة
وتقول ما حبه ولا اعرف اسمه ... تمحش وجنها من بزاق شمه

* * *

قال الشاعر :

سهرت أعين ونامت عيون ... لأمور تكون أو لا تكون
فاطرح الهم ما استطعت عن الـ ... نفس فحملانك الهموم جنون
إن رباً كفاك بالأمس ما كان ... سيكفيك في غد ما يكون

* * *

من شعر البطاطي :

قال حبليل مانا بسبرى ... حس يمناي فيها ليانة
لا تشوفون طولي وعرضي ... لو دخلت السوق ما جبت عانة

* * *

من كلام سيدنا عمر بن الخطاب لسيدنا الإمام علي بن أبي طالب بعد بيعة سيدنا أبي بكر وتمنع سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين : ولعمري ؛ إنك أقرب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرابة ، ولٰكني أقرب منك قربة ، والقرابة لحم ودم ، والقربة نفس وروح .

* * *

من شعر ابن حجّام :

أنا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

من شعر ابن فوال :

أنا ابن من لا تنزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلىٰ ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

وقال ابن حائك :

أنا ابن من خاض الصفوف بعزمة ... وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفك رجلاه منهما ... إذا الخيل في يوم الكريهة ولّت

* * *

قال ابن شهاب يصف (تريم) :

حرم الديار الحضرمية ... مطلع الساري بها والآفل
دبغت بأقدام الأكابر أرضها ... فترابها طب السقيم الناحل
وسماؤها امتازت بكثرة صاعد الـ ... أنوار من عمل التقى المتراسل

وقال يصف مذهبه وقد سئل عنه :

مذهبي مذهب الوصي أبي السـ ... ـبطين بالحق دائر حيث دارا

* * *

قال شاعر عولقي يستفز قبيلة :

يا نوب عشرق لق عسل ولا ضعن ... ولا تمسكن يرحم الله من سكن

* * *

قال شوقي :

لا بد للقلب الكبير من وسط ... وللشعاع من مدىً ومنبسط

* * *

من القرآن الكريم :

قال الله تعالىٰ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

وهو دليل علىٰ مشروعية التبرك ، وقد قالوا : إنهم يقرؤونه في كل معركة تبركاً .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٥-١٦] .

* * *

قال شاعر :

إن الأميـــر هـــو الـــذي يبقــىٰ أميــراً بعــد عــزلــه
إن زال سلطـــان الـــولا يــة كــان فــي سلطــان عــدلــه

* * *

وقال آخر :

بقــدر الطلــوع يكــون النــزول فــإيــاك والمــراتــب العــاليـةْ
فكــن فــي مكــان إذا مــا سقطــت تقــوم ورجليــك فــي عــافيـةْ

* * *

من أشعار بو ريّا :

يقــول بــوريــا هــي إلا حيــاة مــن ضــم شــيء ولــىٰ وخــلاه
اتســل فيهــا واعــط رأســك مــلاة وخــل كلفهـــا والمصـــالاة
وخلهـــا تجـــري بعيـــن الإلٰـــه اللـــي شـــرح خــاطــرك وامــلاه

* * *

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلىٰ عليه وآله وسلم كان إذا ركب راحلته . . كبر ثلاثاً ثم قال : « ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف ١٣-١٤] » .

ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفري هـٰذا البر والتقوىٰ ، ومن العمل ما ترضىٰ ، اللهم هوِّن علينا سفرنا هـٰذا واطوِ عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا »

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلىٰ أهله . قال : « آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون » .

* * *

يروىٰ عن الأحنف بن قيس : أنه رأىٰ درهماً في يد رجل ، فقال : لمن هٰذا الدرهم ؟ قال الرجل : إنه لي ، فقال الأحنف : إنه لك إذا أنفقته ، وأنشد :

أنـــت للمـــال إذا أمسكتـــه   فـــإذا أنفقتـــه فـــالمـــال لـــك

* * *

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ؛ فمن أعطاه الله الدين . . فقد أحبه ، والذي نفسي بيده ؛ لا يسلم عبد حتىٰ يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتىٰ يأمن جاره بوائقه » ، قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره . . إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولٰكنه يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

« تفسير ابن كثير » [١/ ٣٢١] عند الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ آية رقم (٢٦٧) سورة البقرة

* * *

روي أن الحجاج أرسل إلىٰ يحيىٰ بن يعمر فقال : (بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أتجده في كتاب الله ـ وقد قرأته من أوله إلىٰ آخره فلم أجده ـ ؟ قال يحيىٰ : أليس تقرأ في سورة الأنعام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ ﴾ حتىٰ بلغ ﴿ وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ ؟ قال :

بلىٰ ، قال : أليس عيسىٰ من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : حتىٰ قرأ الآية : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

آية ٨٤و٨٥ الأنعام ، وعلق عليه ابن كثير [في « تفسيره » ٢/١٥٦]

* * *

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : (اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أَمَتِك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمُك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي . . إلا وأذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرحاً » فقيل : يا رسول الله ؛ أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بل ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها » .

* * *

ابن عبيد الله يصف (القرن) وهي منطقة زراعية بمدينة سيؤن بحضرموت في « المعجم » [٧٤٠ـ٧٤٣] :

(هو مصيف السادة آل طه بن عمر ، يقع شرقي سيؤن ، وكانت لهم فيه الديار العامرة ، والأفراح الغامرة ، وكانت أيامهم فيه أعياداً زاهرة ، فلو شهدتها والبُرُدُ[١] ماطرةٌ بالأوراق ، وجاوة دارَّة بالأرزاق ، وسمعت طبول الغواني بشجيات المغاني ، ورأيت الشبان متوزعين علىٰ بطحائه ليالي القمر الأضحيان على الشاي اللذيذ ، والشواء الغريض[٢] بالأحاديث الجنية ،

---

(١) البُرُد : جمع بريد ، وهو ما يأتي من رسائل .
(٢) الغريض : الطري من اللحم .

والأشعار الشهية ، كل فرقة علىٰ قدر ما عندها . . لما خرج عن لسانك قول الصمة بن عبيد الله القشيري :

شهـور ينقضيـن ومـا شعـرنـا ... بـأنصـاف لهـن ولاسـرار
فـأمـا ليلهـن فخيـر ليـل ... وأقصـر مـا يكـون مـن النهـار

ولقد شهد بعض ذالك السائح الباسقي فقال : (إني لأرثي لمن يفارق هـٰذه الديار ، وأتصور أن حنينه يطول ، وبكاءه يدوم) .

لـٰكن الزمان جفول ، فبينما هم في ظل عيش غفول . . إذ تهيأت الشمس للأفول ، ولم يبق إلا القليل الذي لا يروي الغليل .

ولقد وصفتُه في يوم غام ضحاه ، وأرجف رعده برحاه ، فقلت من مطولة :

في ريـاض مـن النخيـل تـلاقـي الـ ... ـمـاء فيهـا مـن السمـا والسـوانـي
طبـن مـرأىً ومسمعـاً ومـذاقـا ... وخيـالاً بـذكـريـات حسـان
ملعـب اللهـو مسقـط الـرأ ... س مأوى الغيد من هاشم سباط البنان
سـادة يمـلأ الـزمـان سنـاهـم ... بهجـة مـن فـلانـة وفـلان

ولـٰكن أين ذلك العيش ؟ لقد كر عليه من الإدبار جيش .

ولّـى الـزمـان وولـت الأيـام ... فعلـى المنـازل والنـزيـل سـلام

ولطالما صعدت إلىٰ سطح داري فيه بعد المغرب عام (١٣٥٥ هـ) فأرى السرج المنتشرة أشباه الكواكب المنتثرة ، محيطة بداري إحاطة تملأ الدائرة ، وأبناء السادة على البطاح أوزاع ، والفرح مخيم علىٰ سائر البقاع ، ثم استحال جميع ذلك ، وأبدل النور الظلام ، وسكنت الضجة ، فلا أغاني ولا كلام ، فكأنما كل ذلك من الأحلام ، وحاق بالقوم ما كسبوه والسلام) .

* * *

حكى الرازي عن الإمام مالك : أن الرشيد سأله عن دليل وجود الله ؟ فاستدل باختلاف اللغات والأصوات .

وعن أبي حنيفة : أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري ؟ فقال لهم : دعوني ؛ فإني مفكر في أمر قد أُخبرتُ به ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة بأنواع من المتاجر ، وليس فيها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتىٰ تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد!! فقالوا : هٰذا شيء لا يقوله عاقل ، فقال : ويحكم ؛ هٰذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء والحكم . . أليس لها صانع ؟!

فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا علىٰ يديه .

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل عن ذلك فقال : هٰهنا حصن حصين أملس ، ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره ، فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن وصوت مليح .

« تفسير ابن كثير » [١/ ٥٩ ـ ٦٠] سورة البقرة آية (٢٢)

* * *

عن مجاهد قال : كتب إلىٰ عمر رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ؛ رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٣] .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٢٠٨]

* * *

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوذ الحسن والحسين : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .

« تفسير ابن كثير » ٤/ ٤١٠

* * *

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل : « قل : (اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضىٰ بقضائك ، وتقنع بعطائك) » .

« تفسير ابن كثير » ٤/ ٥١٢

* * *

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من النوم . . قال : « لا إلـه إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

« تفسير ابن كثير » ١/ ٣٤٩

* * *

أنشد أبو النجم لهشام بن عبد الملك يصف ابنته :

ظلامة في الحي بنت شيبان ... يتيمة ووالداها حيان

الرأس قمل كله وصيبان ... تلك التي يفرق منها الشيطان

* * *

من الشعر الحضرمي يصف امرأة زوجوها رجلاً مسناً :

قالت حمودة غشوني عطوني سلابة ... لحيته هبص وعيونه عليها سحابه

يوم زفوه الشيبه سقط عايعابه

* * *

قال ابن أبي حاتم : عن أبي جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه علىٰ عينيه فقال : يا رسول الله ؛ رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم . . فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أأسلمت ؟ » قال : أما أنا فأشهد ألا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « فإن الله غافر

لك ما كنت كذلك ، ومبدل سيئاتك حسنات » فقال : يا رسول الله ؛ وغدراتي وفجراتي ؟! فقال : « وغدراتك وفجراتك » فولى الرجل يكبر ويهلل .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٣٢٩] سورة الفرقان آية (٧١) .

❊ ❊ ❊

قال ابن المعتز :

قالت وقد راعها شيبتي — كنت ابن عم فصرت عمّا
واستهزأت بي فقلتُ أنتِ — قد كنت بنتاً فصرت أمّا
كُفّي ولا تكثري ملامي — ولا تزيدي العليل سقما
من شاب أبصرنه الغواني — بعين من قد عَمِي وصما
لو قيل لي اختر عَمَاً وشيباً — أيهما شئت قلت أعمى

❊ ❊ ❊

قال شاعر يهجو :

أفتىٰ خزعبلة وقال ضلالة — وأتىٰ بإفك في الكتاب بواح

❊ ❊ ❊

قال الله تعالىٰ :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ❊ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم : ٣١ـ٣٢] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ؛ فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنىٰ وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

وقال عبد الرحمـٰن بن نافع : سألت أبا هريرة رضي الله عنه عن قول الله :

﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختانُ الختانَ . . فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . « تفسير ابن كثير » [٤/ ٢٥٧]

* * *

قال شاعر يصف الفراق :

لست أنسى الأحباب ما دمت حيا ... مذ نأوا بالنوىٰ مكاناً قصيا
وتلوا آية الوداع وخروا ... خيفة البين سجداً وبكيا
لم يك البعد باختياري ولٰكن ... كان أمراً مقدراً مقضيا
ولذكراهم تسح عيوني ... كلما اشتقت بكرة وعشيا
وهن العظم بالبعاد فهب لي ... رب باللطف من لدنك وليا
واستجب في الهوىٰ دعائي فإني ... لم أكن بالدعاء رب شقيا
أنا شيخ الغرام من يتَّبِعْني ... أهدِهِ في الهوىٰ صراطاً سويا

* * *

قال بعضهم يصف بخيلاً :

مات في عرس سليمان من الناس جماعة ... مات أقوام وقوم لزموا فيه القناعة
لا يرى المدعو فيه الخبز إلا بالشفاعة ... لم يكن هٰذا بعرسٍ إنما كان مجاعة

* * *

الدعاء المأثور للمريض ونفوثه :

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيَك بالعافية (سبع مرات) ، (قل هو الله أحد)(سبع مرات) المعوذتين(سبع مرات) .

اللهم ربَّ الناس ؛ أذهب البأس ، لا شفاء إلا شفاؤك(ثلاث مرات) ـ ينفث على المريض منها .

اللهم صلِّ علىٰ سيدنا محمد طب القلوب ودوائها ، وعافية الأبدان وشفائها ، ونور الأبصار وضيائها وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم .

* * *

وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل : (أنا الرحمـٰن ، خلقت الرحم وشققت له اسماً من أسمائي ؛ فمن يصلها . . أصله ، ومن يقطعها . . أقطعه فأبتُّه) . « تفسير ابن كثير » [٤/ ١٨٠] سورة محمد آية (٢٣)

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

قال ابن كثير في « تفسيره » [٤/ ٢٣٦] : هـٰذه الآية تبين آداب الضيافة ؛ فإن إبراهيم (راغ إلىٰ أهله) أي انسل خلسة وجاء بأحسن عجل عنده سمين ، ثم قدمه إليهم ولم يقربهم إليه ، ثم قال لهم : (ألا تأكلون) وهي عبارة في غاية اللطف ؛ أي : ألا تتكرمون بالأكل .

* * *

خرج الإمام علي كرم الله وجهه إلى الجبانة ووقف على المقابر ثم قال : يا أهل التربة ، يا أهل الكربة ، يا أهل الغربة ؛ أما الأزواج . . فقد نكحت ، وأما الأموال . . فقد قسمت ، وأما الدور . . فقد سكنت ، هـٰذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : أما لو أُذِن لهم في المقال . . لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

* * *

قال شاعر :

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها — متىٰ يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها — وإن أبىٰ عاد في أكنافها التلف

* * *

ومن الشعر :

يحب المديح أبو مالك ... ويَفْرَقُ من صِلَةِ المادح
كبكرٍ تود لذيذ النكاح ... وتفرَقُ من صولة الناكح

* * *

من شعر صلاح الأحمدي يرثي ابنه الذي مات بحضرموت وهو في الهند :

جتنا كتب من حضرموت امكدره ... يا حبذا ليته غلط كتابه
لٰكنها إلا من رجال محققه ... لاهم كذب ولا أهلهم كذابه
قالوا لي إن زرع الفؤاد والغرة ... السوداء تواریٰ في غمور اترابه
حامي حمى المقرىٰ ورأس السبحه ... بوجعفر إني لا عثرت أهرابه
عمر صلاح ابني ومهجة قلبي ... والبكر لَوَّل لي دعاني يابه
ما هو سوىٰ يابوعلي تستعجل ... على الذي والدك كان أولىٰ به
انت رحلت وأنا حجزت احمولي ... شف رجل أبوك اليوم في مركابه
خليت خوك وحيد ما حد عنده ... بين الشبك والطوع والكلابه

* * *

قال شاعر :

أو كالتي يحسبها أهلها ... عذراء بكراً وهي في التاسع
كنا نداريها وقد مزقت ... واتسع الخرق على الراقع

* * *

وقال شاعر آخر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

* * *

في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا ظهر القول ، وخزن العمل ، وائتلفت الألسنة ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه . . فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمىٰ أبصارهم » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ١٨٠] سورة محمد ٢٣

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥ـ١٣٦] .

* * *

قال شاعر ينصح :

خــذ العفــو وأمــر بِعُــرْفٍ كمــا	أُمِـرت وأعــرض عــن الجــاهليــن
ولِــن فــي الكــلام لكــل الأنــام	فمستحسَــن مــن ذوي الجــاه ليــن

* * *

ذكر ابن كثير [في « تفسيره » ٢/ ٢٨٠] القصة التالية عند تفسيره الآية (٢٠١) من سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

روي أن شاباً كان يتعبد في المسجد ، فهويته امرأة ودعته إلىٰ نفسها ، فما زالت به حتىٰ كاد أن يدخل المنزل معها ، فتذكر هٰذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ فخر مغشياً عليه ، ثم أفاق فأعادها فمات ، فجاء عمر فعزىٰ فيه أباه ، وكان قد دفن ليلاً ، فذهب فصلىٰ علىٰ قبره بمن معه ، ثم ناداه عمر فقال : يا فتىٰ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمٰن : ٤٦] ، فأجابه الفتىٰ من داخل القبر : يا عمر ؛ قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة مرتين .

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

* * *

وقال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

* * *

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هـٰذه الآية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] قالوا : يا رسول الله ؛ من هـٰؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده علىٰ كتف سلمان الفارسي ثم قال : « هـٰذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا . . لتناوله رجال من الفرس » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ١٨٣]

* * *

قال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياءً في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الناس .

وقال عثمان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة . . إلا أبداها الله تعالىٰ علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وقال عمر : من أصلح سريرته . . أصلح الله تعالىٰ علانيته .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما أسر أحد سريرة . . إلا ألبسه الله تعالىٰ رداءها ؛ إن خيراً . . فخير ، وإن شراً . . فشر » .

وفي الحديث : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد . . جزء من خمس وعشرين جزءاً من النبوة » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٢٠٥] سورة الفتح آية (٢٩) ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

* * *

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : « يا غلام ؛ إني معلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء . . لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء . . لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

رواه أحمد [في « مسنده » ٤/ ٤١٠] والترمذي [في « سننه » رقم ٢٥١٦]

وورد في « تفسير ابن كثير » [٤/ ٣٨١] عند الآية (٣) من سورة الطلاق

* * *

قال شاعر :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

* * *

قال ابن جرير عن الحسن : إن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرىٰ أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقىٰ أمير المؤمنين في ذلك ، فقدم وقدموا معه ، فلقي عمر رضي الله عنه ، فقال له : متىٰ قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا ، قال : أبإذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ناساً لقوني بمصر فقالوا : إنا نرىٰ أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك ، قال : فاجمعهم لي ، قال : فجمعهم له ـ قال ابن عون : أظنه قال : في بهو ـ فأخذ أدناهم رجلاً ، فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك ؛ أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا ، قال : ولو قال : نعم . . لخصمه ، قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ ثم تتبعهم حتىٰ أتىٰ علىٰ آخرهم فقال : ثكلت عمر أمه ؛ أتكلفونه أن يقيم الناس علىٰ كتاب الله ، قد علم ربنا

أن ستكون لنا سيئات ، قال : وتلا ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء : ٣١] الآية ، ثم قال : هل علم أهل المدينة ـ أو قال هل علم أحد ـ بما قدمتم ؟ قالوا : لا ، قال : لو علموا . . لوعظت بكم .

« تفسير ابن كثير » [١/ ٤٨٦] عند الآية (٣١) سورة النساء

* * *

روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر ، فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ورسوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] نظرت إلىٰ هـٰذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٣٧٧] سورة التغابن الآية (١٨)

* * *

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر : « يا أبا بكر ؛ ثلاثٌ كلهن حق ؛ ما من عبد ظُلم بمظلمة فيقضي منها الله . . إلا أعزه الله تعالىٰ بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة . . إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة . . إلا زاده الله عز وجل بها قلة » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ١٢١] سورة الشورى الآية (٤٣)

* * *

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قال لي جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٤٨٩] سورة التغابن آية (١٥)

* * *

قال شاعر :

أيشربها صِرفاً بطيب دِنانها ... أبو خالد والحدَّ يضرب مِسورُ

* * *

كلف الربيع حماد عجرد بتثقيف ابنه ، فكتب إليه بشار بن برد رقعة يقول فيها :

يا أبا الفضل لا تنم ... وقع الذئب في الغنم

إن حماد عجرد ... إن رأىٰ غفلة هجم

بين فخذيه حربة ... في غلاف من الأدم

إن خلا البيت ساعة ... مجمج الميم بالقلم

* * *

روى الشيخان[١] عن أبي سعيد رضي الله عنه أن ذا الخويصرة اعترض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يقتسم غنائم حنين ، فقال له : اعدل ؛ فإنك لم تعدل ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد رآه مقفياً : « يخرج من ضِئْضِىءِ[٢] هـٰذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون[٣] من الدين كما يمرق السهم من الرمية[٤] ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإنهم شر قتلىٰ تحت أديم السماء » .

« تفسير ابن كثير » [١/ ٣٤٧] في تفسير سورة التوبة الآية (٥٨)

* * *

---

(١) البخاري في صحيحه برقم (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٣) .

(٢) **الضئضىء** : السلاسلة والنسل .

(٣) **يمرقون** : يخرجون .

(٤) **الرَّميّة** : الهدف .

قال حسان يوم الفتح :

ونشـــربهـــا فتتـــركنـــا ملـــوكـــاً أســـــوداً لا ينهنهنـــــا اللقـــــاء
عـــدمنـــا خيلنـــا إن لـــم تـــروهـــا تثيـــر النقـــع مـــوعـــدهـــا كَـــداء

* * *

روى الإمام أحمد [في « مسنده » ١٣/ ٤١٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ؛ إنا إذا رأيناك . . رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك . . أعجبتنا الدنيا وشمِمنا النساء والأولاد ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو أنكم تكونون علىٰ كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي . . لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا . . لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون لكي يغفر لهم » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٥٠] سورة الزمر الآية (٢٠)

* * *

قال أنس رضي الله عنه : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هـٰذا الموطن . . إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو ، وأمنه الذي يخافه » .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٤٨] سورة الزمر الآية (٥٩)

* * *

فائدة :

في « تفسير ابن كثير » [٤/ ٨٢ ـ ٨٣] سورة غافر عند الآية (٤٦) ما يفسر ويدل علىٰ أن العذاب في البرزخ قبل يوم القيامة ؛ حيث تعذب الروح بعد انفصالها عن الجسد وبلاء الجسد ، فإذا جاء يوم القيامة واجتمع الروح والجسد . . ذهب كل إلىٰ جهنم ، وقد قال الله تعالىٰ عن آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ

﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] والأمر كذلك بالنسبة للذين ينعمون .

كما ثبت في الحديث : « إن الأرواح بعد الموت تظل داخل طيور ، حتىٰ إذا قامت القيامة . . رجعت كل روح إلىٰ جسدها » .

* * *

روى الإمام أحمد [في « مسنده » ٤٥ / ٣٨٢] عن أم هانىء رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنتزاور إذا متنا ، ويرىٰ بعضنا البعض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يكون النسم طيراً يعلق بالشجر ، حتىٰ إذا كان يوم القيامة . . دخلت كل نفس في جسدها » .

وفي الصحيح(١) : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلىٰ قناديل معلقة بالعرش » .

وروى الإمام أحمد [في « مسنده » ٢٥ / ٥٧] عن الإمام مالك عن كعب بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتىٰ يرجعه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه » .

ومعنىٰ (يعلق) : يأكل .

« تفسير ابن كثير » [٤/ ٣٠٢] سورة الواقعة الآية (٩٦)

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

* * *

قال شاعر :

لكل شيء في الحياة وقته ... وغاية المستعجلين فوته

* * *

(١) صحيح مسلم رقم (١٨٨٧) .

وقال آخر :

إنـي امـرؤ مـولـع بـالحسـن أنظـره لا حـظَّ لـي فيـه إلا لـذة النظـر

* * *

فائدة :

في « تفسير ابن كثير » [٤/ ١١٢ ـ ١١٣] سورة الشورىٰ عند الآية (٢٣) التي تشمل علىٰ ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ أورد ابن كثير الأدلة القاطعة علىٰ أفضلية أهل البيت وتحديدهم ، وحث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمته على احترامهم والإحسان إليهم وإكرامهم ، وأورد في ذلك الأحاديث الكثيرة ، ومنها حديث غدير خم .

* * *

قال شاعر :

مـن يـدَّعي حـبَّ النبـي ولـم يفـد مـن هـديـه فسفـاهـة وهـراء

الحـب أول شـرطـه وفـروضـه إن كـان صـدقـاً طـاعـة ووفـاء

* * *

في كتاب « بضائع التابوت » للوالد ابن عبيد الله (ص٦٣) ذكر نقلاً عن الحبيب عبد الله بن محسن : أن والده الجد محسن بن علوي بن السقاف كان في مذاكراته خلال مجالس التفسير في ليالي رمضان بمسجد طه يقول : عجباً لأهل الغرب والكرب! واحسرة عليهم ، لَمَجْلِسٌ في مساجد السلف أو ركعتان فيها . . خير مما يجمعون .

* * *

جاء في الحديث عي أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلىٰ وأيقظ امرأته ، فإن أبت . . نضح في

وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبىٰ . . نضحت في وجهه الماء »[1] .

* * *

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين . . كُتِبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

« تفسير ابن كثير » [٣/ ٤٨٩] سورة مريم آية (٥٥)

* * *

فائدة مهمة :

في القسم الأول من الجزء الثالث من « بضائع التابوت » (ص٧٥) للوالد ابن عبيد الله بحث مستوفىً عن المساجد وتكاثرها وبنائها بجوار المساجد القديمة ، وبنائها للسمعة والرياء ، وقرر وجوب هدمها ، وأثبت ذلك بالأدلة الشرعية وبأعمال بعض الصحابة ، وقد جاء هـٰذا الموضوع بمناسبة الحديث في « تاريخه » عن المسجد الذي بناه آل بو فطيم من سكان تاربة في تاربة جنب بيوتهم ، واعترض السادة آل عيدروس وآل إسماعيل على المسجد ومنعوهم من بنائه ، وتوسط الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي في الإصلاح بينهما .

* * *

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

* * *

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) أخرجه أبو داوود في « سننه » (١٣٠٨) .

« هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟ » قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة . . فعجّله لي في الدنيا ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « سبحان الله! لا تطيقه ـ أو لا تستطيعه ـ فهلا قلت : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] » قال : فدعا الله ، فشفاه . « تفسير ابن كثير » [١/ ٢٤٥] سورة البقرة آية (٢٥٢)

* * *

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

* * *

خاتمة

إنني أعتقد أن ما لقيته من توفيق وتيسير في الأمور هو ثمرة محافظتي علىٰ مبادئي التالية التي لا أحيد عنها ، وهي :

١ـ الصدق في القول والعمل .

٢ـ الاستقامة .

٣ـ حب الخير وعمله للغير .

٤ ـ خدمة الآخرين عند طلبها .

٥ـ بر الوالدين .

٦ـ نفع الناس حسب ما تيسر .

واختم اللهم لنا بخير ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم

* * *

مُحتوى الكتاب

تعريف ٦

المقدمة ٧

التعريف بنفسي وعائلتي ١٤

مرحلة الطفولة وحكايتها ٢٨

الدراسة في حضرموت ٣٥

رحلتي الأولى لجاوة ٤٣

العناية الطبية بحضرموت في الثلاثينيات الميلادية ٥١

مع الوالد عبد الرحمن بن عبيد الله ٥٦

علاقة ابن عبيد الله بمعاصريه ٩١

وفاة الوالد ابن عبيد الله ١١٣

علاقة عائلتي مع السلاطين آل كثير ١١٥

قصة المجاعة بحضرموت ورحلة الهجرة الأولى ١٢٥

الوصول لليمن ومقابلة الإمام ١٣٣

السفر من اليمن إلى الحبشة ١٤٢

الحياة في أديس أبابا ١٤٨

الحياة والاستقرار بأسمرة ١٥٤

صفقة السلاح مع الإمام أحمد ١٧١

قصة التهريب الفاشلة ١٧٧

العودة لحضرموت وقصة الطائرة ١٨٠

الاستقرار بحضرموت والمشروع الزراعي والصناعي ١٨٣

بداية قصة المرض ٢٠٢

رحلة العلاج لأسمرة ٢٠٥
الهجرة للسعودية ٢٠٩
أخبار عزبة آل بن طه بجدة ٢١٨
وصول عائلتي من حضرموت وقصة بناء البيت ٢٢٧
الجو الاجتماعي بجدة ٢٣٠
بين الحرمين ٢٤٠
عمارة مسجد طه بسيؤون ٢٤٨
وفاة الوالد علوي بن عبد الله السقاف ٢٥٥
قصة الحصول على الجنسية السعودية ٢٥٨
الرحلات الدولية الحديثة ٢٦٢
الزلزال ٢٧٨
جامع ومستوصف عيديد ٢٨٥
مشروع مستشفى تريم الخيري ٢٩٢
بعض من عاصرت من الشخصيات ٢٩٥
الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف ٢٩٧
العم علي بن عبد الله السقاف ٢٩٩
الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري ٣٠١
العم حامد بن أبي بكر المحضار ٣٠٥
الحبيب أحمد مشهور الحداد ٣١٠
الحبيب عطاس الحبشي ٣١٢
السيد عبد القادر بن محمد بن طه السقاف ٣١٤
الشيخ سالم عبيد باحبيشي ٣٢٥
العم أبو بكر بن شيخ الكاف ٣٢٩
مع السيد محمد البيض ٣٣٤
السيد عيدروس المحضار ٣٤١

السيد علي بن سميط ٣٤٣
السيد جعفر بن محمد المحضار ٣٤٦
الحبيب عبد الله بن محمد البار ٣٤٩
الشيخ محمد باشيخ ٣٥١
السيد محمد بن عبد القادر السقاف ٣٥٣
المختارات ٣٥٧
مقدمة ٣٥٨
حديث أبي الدرداء ٣٦٣
في فتح خيبر ٣٧٨
دعاء سعد بن عبادة ٣٨٣
الدعاء المأثور للمريض ونفوثه ٣٩٧
فائدة ٤٠٥
فائدة ٤٠٧
فائدة مهمة ٤٠٨
خاتمة ٤١٠
محتوى الكتاب ٤١١

بسم الله الرحمن الرحيم

بين دفتي هذا الكتاب ما استطعت تذكره من تجاربي
مع الحياة بعد أن طلب أولادي أن أسجلها لهم
لتكون فيها الفائدة لهم ولمن قرأها معهم وقد
ضمنتها بعض ما سجلت من مختارات.

محسن علوي السقاف

[illegible]

مذكراتي ومختاراتي

محسن بن علوي السقاف

السيرة الذاتية

جمعها ابنه

علي بن محسن السقاف

زاوية العيدروس العلمية

بحوطة آل أبي علوي بتريم